دولة الإسلام في الأندلس

تأليف
محمد عبد الله عنان

العصر الثانى

دول الطوائف

منذ قيامها حتى الفتح المرابطى

الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسى ، أكثرها تشعباً وأوفرها تبايناً واضطراباً ، لاتكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة ، ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة ، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر ، وتنسيقها وربط حلقاتها ، واستخراج خواصها ، من أشق المهام التاريخية .

وهــذا المجلد من «دولة الإسلام فى الأندلس» يتضمن تاريخ هــذا العصر المضطرب – عصر الطوائف – ، وهو يكون «العصر الثانى» من تاريخ الأندلس . وإنه ليسعدنى أن أضعه اليوم بين أيدى القراء ، بعد هذه الأعوام العديدة ، التى انقضت منذ ظهور العصر الأول . على أن هذه الأعوام لم تذهب بحمد الله سدى ، فقد أخرج خلالها العصر الرابع والأخير من «دولة الإسلام فى الأندلس» باسم «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» ، ولم يبق علينا لاستكمال هذه الموسوعة من التاريخ الأندلسى إلا أن ننجز العصر الثالث منها ، وهو المتضمن «تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين» .

ويشغل عصر الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً ، منذ انهيار الخلافة الأندلسية ، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة ٣٩٩ هـ – ١٠٠٩ م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى ، وانقسامها إلى وحدات متعددة ، تقوم فى كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك «الطوائف» ، تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة ، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها ، أية رابطة ، إلا أن تكون المنافسة ، أو الحرب الأهلية فى سبيل الغنم والتوسع . وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الإنتحارية ، هو قوام عصر الطوائف .

وقد مضينا فى تتبع أحداث هذه الحقبة المؤلمة من تاريخ الأندلس ، حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، استجابة لصريخ الطوائف ، ونصرة للأندلس ، وإنقاذاً لها من خطر الفناء الداهم ، الذى لاح لها قوياً منذراً ، ولاسيما بعد سقوط

طليطلة فى أيدى النصارى ، ثم تحول حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى حملات غازية ، واستيلاء المرابطين على الأندلس تباعاً ، وضمها إلى الإمبراطورية المغربية الكبرى ، وذلك فيما بين سنتى ٤٨٣ — ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ — ١١٠٨ م) .

وقد راعينا فى كتابة تاريخ هذا العصر ، أن نتناول ممالك الطوائف ، كل على حدتها ، وأن نستكمل سيرتها منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، ثم سقوطها فى أيديهم ، ورأينا أن هذه الطريقة تحقق من الدقة والوضوح والاستيعاب ، ما لا يحققه الأسلوب المشترك ، الذى سار على نهجه بعض الكتاب الغربيين . وقد اقتضت هذه الطريقة ، فى بعض الأحيان ، شيئاً من التكرار ، فى هذا الفصل أو ذاك ، ولكنه تكرار بسيط وغير ممل ، فضلا عن ضرورته لاستكمال السياق .

وأود أن أذكر هنا أنى قد زرت سائر قواعد الطوائف ومدنها ، خلال رحلاتى المتوالية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ودرست مواقعها وخواصها ومواصلاتها . وقد كان لهذه الدراسة الإقليمية ، أكبر الأثر فى تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التى كانت تقوم بين ممالك الطوائف ، ودوافعها الجغرافية ، وتحديد مواقعها ، وكذلك فى تيسير مهمة الكتابة عنها ، واستيعاب بواعثها وتفاصيلها .

وقد رجعت فى كتابة هذا القسم من تاريخ الأندلس إلى مادة غزيرة منوعة . ومن حسن الحظ أن قد انتهت إلينا من كتابات المعاصرين عدة آثار هامة ، فى مقدمتها تاريخ ابن حيان معاصر فتنة الطوائف ومؤرخها قبل كل شىء ؛ وإذا لم يكن هذا التاريخ قد وصل إلينا كله بالذات ، فان ما نقل إلينا منه عن طريق الكتاب اللاحقين ، ولاسيما ابن بسام وابن عذارى يحمل إلينا منه مادة قيمة . وكذلك الفيلسوف ابن حزم ، وهو مثل ابن حيان معاصر للفتنة ، ومتتبع لأدوارها ، ودارس لظواهرها وتطوراتها ، وقد انتهت إلينا منه نبذ تاريخية ، وملاحظات نقدية عديدة عن خواص عصر الطوائف ، تمتاز بدقتها وعميق نظراتها . ويلحق بهذين الكاتبين المعاصرين اثنان آخران عاشا فى أواخر عصر الطوائف ، وشهدا خواتيمه ، هما ابن بسام الشنترينى ، والفتح بن خاقان . ويقدم لنا ابن بسام فى مؤلفه الجامع «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، فضلا عما ينقله إلينا من الشذور التاريخية العديدة عن ابن حيان وغيره ، وما يقدمه إلينا من نبذ تاريخية بقلمه ، أروع صور لتاريخ عصر الطوائف الأدبى والاجتماعى ، ومجموعة حافلة

من تراجم أمرائه وأعيانه ووزرائه وكتابه وشعرائه ، ومختارات عديدة من رسائلهم ، ومنثورهم ومنظومهم . وقد كان كتاب «الذخيرة» سواء بما نشر منه ، أو بأجزائه المخطوطة ، من أقيم مصادرنا وأغزرها ، ولاسيما قسمه الثالث ، وهو المتعلق «بالجانب الشرقى من جزيرة الأندلس» . وقد رجعنا فى هذا القسم — وهو ما يزال مخطوطاً — إلى نسخته المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) . أما الفتح بن خاقان ، فيقدم لنا فى كتابه «قلائد العقيان» تراجم طائفة كبيرة من أمراء عصر الطوائف ووزرائه وفقهائه ، وهو يقدمها إلينا فى أسلوب مسجع متكلف ، بيد أنه ينطوى من آن لآخر ، على بعض المعلومات والحقائق التاريخية ؛ كما يقدم إلينا فى كتابه «المطمح» بضعة تراجم أخرى من تراجم رجالات الطوائف .

ونكتفى فيما يتعلق بالمصادر ، بهذه الإشارة إلى المصادر المعاصرة . وأما المصادر العديدة الأخرى ، التى رجعنا إليها ، من عربية وأجنبية ، ومن مخطوطة ومطبوعة ، فقد سجلناها فى أماكنها ، ثم أثبتناها مجتمعة فى نهاية الكتاب . ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه قد أتيح لنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال ، أن نراجع بعض المصادر المخطوطة ، وفى مقدمتها كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ، وقد راجعنا فيه سائر التراجم المخطوطة التى حذفها دوزى من النسخة المطبوعة ، وضمنها مصنفه عن بنى عبـاد Historia Abbadidarum ، كما أتيح لنا أن نقف على بعض النصوص والوثائق الهامة ، وذلك بالأخص فى مجموعتين مخطوطتين ، تحمل أولاهما رقم ٤٨٨ الغزيرى ، وهى مجموعة ناقصة من أولها وليس لها عنوان معين ، والثانية رقم ٥٣٨ الغزيرى وعنوانها «مجموعة رسائل تاريخية وأدبية» . وقد انتفعنا بالأخص فى المجموعة الأولى بعدة رسائل مرابطية هامة وردت بها ، وفى مقدمتها رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة . وكذلك بعض رسائل أخرى تتعلق بالطوائف ، وبها تصحيحات لبعض الوقائع والحوادث التاريخية . وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل فى نهاية الكتاب فى باب الوثائق .

وقد عنيت وفقاً لما سرت عليه فى العصر الأول «من دولة الإسلام فى الأندلس» بكتابة تاريخ اسبانيا النصرانية ، خصوصاً وقد اجتازت فى عصر الطوائف ، عدة تطورات هامة ، وشغلت مركز الصدارة والغلبة ، وبدأت تنفذ

سياسة « الإسترداد » La Reconquista بقوة ، ولا سيما بعد استيلائها على مدينة طليطلة ، أولى القواعد الأندلسية العظيمة الذاهبة .

كما عنيت بأن أثبت بعض الخرائط التاريخية الموضحة للتطورات الجغرافية ، التى جازتها شبه الجزيرة الإسبانية فى عصر الطوائف ، وخريطة للإمبراطورية المرابطية الكبرى بعد افتتاح الأندلس .

وإنى لأرجو وأنا أقدم إلى قراء العربية هذا العصر الجديد من « دولة الإسلام فى الأندلس » ، أن يتاح لى أن أنجز بعون الله فى المستقبل القريب ، عصره الثالث ، وهو عصر المرابطين والموحدين ، وبذلك تكمل هذه الموسوعة التاريخية الأندلسية بسائر عصورها [(١)] .

القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٨٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٠

محمد عبد الله عنان

(١) وقد ظهر كتاب «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس» بالفعل فى مجلدين كبيرين (سنة ١٩٦٥) ، وبذلك تمت الموسوعة الأندلسية بسائر عصورها .

تصـــدير

مضت عدة أعوام منذ صدرت الطبعة الأولى من كتاب «دول الطوائف» فى سنة ١٩٦٠ متضمناً للعصر الثانى من «دولة الإسلام فى الأندلس»، وشغلت خلال هذه الأعوام بإخراج العصر الثالث من هذه السلسلة ، وهو «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وتمت بظهوره بحمـــد الله وعونه ، موسوعة الأندلس بعصورها الأربعة .

واليوم نقدم الطبعة الثانية من «دول الطوائف» . وبالرغم من أننا كنا قد استوفينا فى الطبعة الأولى ، سائر ما قصدنا إليه من استيعاب تاريخ هذه الدويلات الأندلسية ، استيعاباً مفصلا ودقيقاً ، فإنه عرضت لنا ، خلال الأعوام الأخيرة طائفة من التعديلات والإضافات رأيناها جديرة بالتدوين ، ومعظمها مستقى من المصادر المخطوطة . وقد تمت هذه الإضافات بالأخص بالنسبة للفصل الثالث من الكتاب الثالث المتعلق بتاريخ مملكة دانية والجزائر ، وبالنسبة للفصل المتعلق بخواص الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية (الخاتمة) . وقد ألحقنا بباب الوثائق وثيقة جديدة هامة ، هى رسالة أبى عامر بن غرسية الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وذلك بعد أن ناقشنا محتوياتها ، وأوردنا طائفة من الآراء والتعليقات الخاصة بها ، وذلك فى موضعها عند الكلام على تاريخ مملكة دانية .

وفى اعتقادنا أن الكتاب بصورته الجديدة ، وبما أدخل عليه من الزيادات ، يلقى أضواء جديدة على تاريخ دول الطوائف ، وتاريخ رجالات هذا العصر وأحواله ، وكل ضوء يلقى على تاريخ هذا العصر ، يمهد لنا السبيل لدراسة العصر اللاحق ، وهو عصر الفتح المرابطى والرياسة المرابطية للأندلس .

وقد علمت خلال قيامى بإعداد هذه الطبعة ، من صديقى العلامة المستشرق الإسبانى الكبير الأستاذ أمبروسيو هويثى ميرانده ، أنه يعتزم أن يترجم هذا الكتاب

إلى اللغة الإسبانية ؛ ليتيح للباحثين الإسبان فرصة الاطلاع بلغتهم على النصوص والمصادر العربية ، وعلى وجهات النظر الأخرى . لكى تتسم بحوثهم فى هذا الميدان بالانصاف وسعة الأفق .

وانى لأرجو لصديقى العلامة الكبير التوفيق فى مهمته الجليلة . كما أرجو أن يجد القراء فى هذه الطبعة الجديدة . مزيداً من الضوء على تاريخ الطوائف وأحوال دولهم وعصرهم .

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٩
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٩

صفحتان من القسم الثالث من كتاب الذخيرة لابن بسام من النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جايانجوس)

ولسانه لدى الرؤساء ، وقد اشتهر برائق نثره وروعة أسلوبه . وقد رأينا نموذجاً من نثره فيما اخترناه من مقتطفات رسالته ، عن مصرع إسماعيل ابن المعتضد . بيد أنه لم يكن أيضاً سعيداً ولا مطمئناً ، لخوفه المستمر من أن يبطش به المعتضد ، ومن ثم فقد عول فى النهاية على الفرار ، وغادر إشبيلية ناجياً بنفسه (١) .

ومنهم أيضاً الكاتب البارع أبو عبد الله البزليانى الذى يصفه ابن بسام بأنه «أحد شيوخ الكتاب ، وجهابذة أهل الأدب» . وقد رأينا كيف ساق سوء الطالع هذا الوزير الكاتب إلى الاشتراك مع إسماعيل ولد المعتضد فى مؤامرته وفراره ، وكيف قبض عليه المعتضد وأعدمه لفوره .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين وزراء المعتضد أو معاونيه ، رجل من النصارى المستعربين ، هو سسنندو داڤيدس (أوششنند) الذى اشتهر فيما بعد فى قصور الطوائف . وأصله من مقاطعة بيرة فى شمالى البرتغال ، وأسر حدثاً فى غارة قام بها القاضى ابن عباد فى منطقة قُلُمرية ، ثم أخذ إلى إشبيلية وربى مع «فتيان» القصر ، واشتغل فى شئون الخاص . ولما تولى المعتضد ، قدر مواهبه ، ومعرفته بشئون الجزيرة ، فنظمه بين وزرائه أو معاونيه ، فنال ثقته ، وتمكن نفوذه ، وعلت مكانته فى البلاط العبادى بسرعة . ولكنه لم يلبث أن تعرض لخصومة بعض رجال البلاط وسعايتهم ، فخشى العاقبة ، وفر من إشبيلية إلى الشمال ، ولجأ إلى بلاط فرناندو ملك قشتالة ، فرحب به ، ونظمه بين مستشاريه ، وكان له فيما بعد أكبر أثر فى تكييف سياسته نحو ملوك الطوائف (٢) .

وتوفى المعتضد بن عباد فى الثانى من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة (مارس ١٠٦٩ م) . ويقول لنا ابن حيان إن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة الأمد ، ترتبت على الإجهاد ، وكانت شبه البغت . وكانت ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاماً .

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٨١ و ١٨٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ وكذلك : Isidro de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid 1947) p. 456—457.

الفصل الثالث

بنو عباد ومملكة إشبيلية

القسم الثانى

المعتمد بن عباد . شخصيته وخلاله . ذكرياته بشلب . استيلاؤه على قرطبة . النضال بين بنى عباد والبربر . عوامل الخصومة بينهما . محاربة المعتمد لغرناطة واستيلاؤه على جيان . اتفاقه مع ألفونسو السادس على فتح غرناطة . الوزير ابن عمار . نشأته وشاعريته . مقدرته ودهاؤه . سعيه إلى فتح مرسية . اتفاقه مع أمير برشلونة على غزوها . فشل هذه المحاولة . استعانته بابن رشيق فى فتحها . محاولته الاستقلال بحكمها . تغلب ابن رشيق عليها . فرار ابن عمار والتجاؤه إلى بنى هود . محاولته فتح حصن شقورة . سقوطه فى يد صاحب الحصن . تسليمه لابن عباد . اعتماد الرميكية وابن عباد . تغدو ملكة إشبيلية . الوحشة بينها وبين ابن عمار . هجاء ابن عمار للمعتمد والرميكية . استعطاف ابن عمار للمعتمد وشعره فى ذلك . قسوة المعتمد وقتله لوزيره . تعليقات على الحادث . ابن عمار وعبقريته . مقدرته الأدبية والشعرية . غزو المعتمد لأراضى طليطلة . يؤدى الجزية لملك قشتالة . يعقد حلفاً معه . موضوع هذا الحلف . مطالبة ألفونسو للمعتمد بالجزية . والخلاف على قيمها . تنكيل ابن عباد برسل ألفونسو . غزو ألفونسو لأراضى إشبيلية . خطته فى إضعاف الطوائف والقضاء عليهم . إدراك المعتمد لخطته وتفكيره فى الاستعانة بالمرابطين . وعيد ألفونسو له ورد المعتمد عليه . ذيوع فكرة استدعاء المرابطين بين أمراء الأندلس وشعوبها . سفارة أمراء الأندلس لعاهل المرابطين . الاتجاهات المختلفة والآراء المعارضة . ما ينسب لابن عباد من رسائل وجهها إلى أمير المسلمين . استجابة أمير المسلمين لنداء الأندلس . عبوره إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

— ١ —

لما توفى المعتضد بن عباد ، خلفه يوم وفاته ولده ، محمد بن عباد ، الملقب بالظافر ، والمؤيد بالله ، والمعتمد على الله ، وهو اللقب الذى غلب عليه واشتهر به طول حياته .

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية ، فتى فى الثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة باجة فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) وقيل بل فى ربيع الأول سنة ٤٣٢ هـ [١] . وكان مثل أبيه ، فى حسن القوام ، وروعة المظهر ، وعنفوان

---

(١) يقول بالرواية الأولى النويرى ، وبالرواية الثانية ابن زيدون وابن اللبانة شاعرا المعتمد . راجع دوزى : Historia Abbadidarum V. II, p, 61 & 131 ، وكذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٣ .

الصبا ، ولكن لم يكن مثله فى الصرامة والقسوة والاستهتار بالدماء ، بل كان بالعكس وديعاً ، يعف عن الدماء ، بعيداً عن قبول السعايات .

ويقول لنا ابن الأبار فى وصف المعتمد ما يأتى : « وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، عفيف السيف والذيل مخالفاً لأبيه فى القهر والسفك ، والأخذ بأدنى سعاية ، رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسكن وما نفر ، وأحسن السيرة ، وملك فأسجح ، إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً فى اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مخلداً إلى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه ، واصل هلاكه »[1] .

وقد خاض المعتمد مثل أبيه ، سلسلة طويلة من الحروب والأحداث ، وتقلب فى غمار الخطوب والجدود ، وكان عهده عهد الحسم فى تاريخ دول الطوائف ، وفى تاريخ الأندلس قاطبة ؛ ولكنه لم يشتهر فى ميدان الحرب والسياسة ، قدر ما اشتهر فى ميدان الأدب والشعر ، والفروسية ، والجود . ومهما كانت وجوه الضعف الشخصية التى كان ينطوى عليها ، من عكوف على الشراب ، وانغماس فى مجالى اللهو والترف ، ومهما كانت أخطاؤه السياسية الفادحة ، التى ترتبت عليها محنة الأندلس ، ثم محنته الخاصة : مهما كان من هذه الصفات القاتمة فإن شخصية المعتمد بن عباد ، تبرز لنا من خلال هذه الغمار ، ومن الناحية الأخرى ، مشرقة وضاءة ، تتوجها عبقريته الأدبية والشعرية ، وتزينها صفاته الإنسانية الرقيقة وتطبعها محنته المؤلمة ، بالرغم من كل أوزاره وأخطائه ، بطابع الاستشهاد المؤثر .

وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد ، والياً لمدينة شلب ، وليها عقب استيلاء بنى عباد عليها فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه خلال تلك الفترة فى إدارة ولاية شلب وزيره أو أمينه أبو بكر بن عمار ، الذى تولى وزارته بإشبيلية فيما بعد ، واشتهر ذكره ، واضطلع له بأخطر المهام السياسية والعسكرية .

وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، تلك المدينة البرتغالية الجميلة النائية ، وهو يومئذ فى عنفوان فتوته ، يتقلب خلالها فى مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات لا تمحى ، صورها لنا فيما بعد ، فى بعض قصائده . ومن ذلك قوله مخاطباً وزيره ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر   وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

---

(١) فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٤ .

وسلم على قصر الشراجيب من فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بت أنعم جنحها ... بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسُل السمر
وليل بسدّ النهر لهواً قطعته ... بذات سور مثل منعطف البدر
نضت بردَها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشقت الكمام عن الزهر
وباتت تسقينى المدام بلحظها ... فمن كأسها حينا وحيناً من الثغر

وكان أول عمل قام به المعتمد عقب ولايته ، هو تدخله فى حوادث قرطبة ، حينما هددها المأمون بن ذى النون بقواته ، فبعث إليه عبد الملك بن جَهْور يستنجد به ، فوجه إليه الأمداد مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، وانتهى الإمر باستيلاء قوات إشبيلية على قرطبة ، وفقاً لخطة سرية وضعت من قبل ، وبالقضاء عل دولة بنى جهور ، وضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) . وندب المعتمد ولده عباداً الملقب بسراج الدولة لحكم المدينة . وقد فصلنا عند الكلام عن دولة بنى ذى النون ، كيف دبر المأمون بن ذى النون استرداد قرطبة على يد ابن عكاشة ، وكيف قتل سراج الدولة ولد المعتمد مدافعاً عنها ، ثم دخلها المأمون فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ثم توفى بها بعد ذلك بأشهر قلائل ، وأخيراً كيف عاد المعتمد ، فسار على أثر ذلك إلى قرطبة فى قواته ، واستولى عليها ، وقتل ابن عكاشة انتقاماً لولده ، وبذلك عادت قرطبة إلى مملكة إشبيلية .

على أن أهم ما شغل به المعتمد ، فى تلك الفترة الأولى من ولايته ، هو النضال ضد مملكة غرناطة البربرية . ونحن نعرف أن الخصومة بين بنى عباد وبين الإمارات البربرية قد بدأت فى عصر مبكر ، وقد فصلنا من قبل كيف اشتبك القاضى ابن عباد مع يحيى بن حمود المعتلى حول قرمونة ، فى معركة دموية قتل فيها المعتلى ، واستولى ابن عباد على قرمونة ، وأعطاها لصاحبها البرزالى حليفه يومئذ ، وكيف نشبت الخصومة فيما بعد بين ابن عباد والبرزالى ، فلما أراد ابن عباد استرداد قرمونة باعتبارها حصن إشبيلية من الشرق ، وسير إليها قواته ، استغاث البرزالى بإدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية معارك طاحنة هزم فيها الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل سنة ٤٣١ هـ .

ولما تولى المعتضد بن عباد ، عقب وفاة والده القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد فى سنة ٤٣٣ هـ ، كان من أبرز أعماله القضاء على مختلف الولايات البربرية الشرقية ، والجنوبية الشرقية ، وهى مورون وأركش ورندة . واستولى على الجزيرة الخضراء من يد أميرها القاسم بن حمود (٤٤٦ هـ) ، ثم استولى على قرمونة وأعمالها فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) .

وبذلك تم القضاء على سائر الإمارات البربرية المتاخمة لإشبيلية من الشرق والجنوب الشرقى ، وتم تأمين جناحها الدفاعى من هذه الناحية ، ولم يبق فى جنوبى الأندلس من الإمارات البربرية ، سوى مملكة باديس فى غرناطة ومالقة .

وحاول المعتضد فى نفس الوقت أن ينتزع مالقة من باديس ، وسير إليها قواته بالفعل تحت إمرة ولديه جابر والمعتمد ، وكادت مالقة تسقط بالفعل فى أيدى الهاجمين ، ولكن باديس قدم فى قواته مسرعاً ، فانقلبت الآية وهزم جند إشبيلية هزيمة شديدة ، وفشلت المحاولة (٤٥٨ هـ) [١] .

وكان المعتمد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده فى التوجس من البربر والقضاء على سلطانهم . وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية ، مهبطاً للقبائل والقوات البربرية ، التى تفد من وراء البحر باحثة عن طالعها وأرزاقها . هذا من ناحية العوامل المادية ، وأما من ناحية العوامل الأدبية ، فنستطيع أن نشير بهذه المناسبة ، إلى ما كان بين العرب والبربر من خصومة قديمة مؤثلة ترجع إلى عصر الفتح ذاته ، وقد شرحنا عوامل هذه الخصومة فى «العصر الأول» من كتابنا . ونزيد هنا أن بنى عباد ، كانوا حسبما أشرنا من قبل ، ينتمون إلى لخم ، من أكرم وأشرف القبائل العربية ، وكانوا من أهل العلم والأدب المؤثل ، حماة للعلوم والآداب والفنون ، يغص بلاطهم بأقطاب العصر وشعرائه ، وتتمتع فى ظلهم مملكة إشبيلية بحضارة زاهرة ، وثقافة رفيعة . أما القبائل البربرية فلم تكن راسخة فى تعاليم الإسلام ، وكانت بعيدة عن العربية وثقافتها وتراثها ، يؤثرون التمسك بعجمتهم وبداوتهم ، وكانت قصورهم عاطلة عن ذلك الجو الفكرى والأدبى ، الذى تزدان به قصور الأصول العربية ، وكان هذا التباين يبدو بالأخص بين بلاط غرناطة البربرى ، وبين بلاط إشبيلية العربى .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ .

اجتمعت هذه العوامل المادية والأدبية ، لتذكى ضرام النضال بين مملكة غرناطة ، حصن البربر فى الجنوب ، وبين مملكة إشبيلية . وكانت مملكة غرناطة قد بلغت ذروة قوتها فى عهد ملكها باديس بن حبوس الصنهاجى ، وكان باديس قد رشح ولده بُلُقّين للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة، ولكنه توفى بالسم فى حادث غامض . وفى خلال ذلك كان النضال مستمراً بين المعتضد بن عباد وبين البربر ، وقوة باديس تضعف شيئاً فشيئاً . فلما توفى باديس فى سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣ م) ، خلفه فى حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بُلُقّين ، وفى حكم مالقة حفيده تميم ، ولم يمض على وفاته سوى عام، حتى سار المعتمد بن عباد فى قواته إلى جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة ورباضها . وعندئذ فكر أمير غرناطة فى الإستعانة بالنصارى ، وتوصل بواسطة المأمون بن ذى النون ، إلى أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، معاهدة صداقة وتحالف ، يتعهد فيها بدفع الجزية . وحدث فى نفس الوقت أن ظفر المأمون بن ذى النون ، بانتزاع قرطبة من ابن عباد (٤٦٧ هـ) ، فكانت هزيمة المعتمد ، سبباً فى انقشاع الخطر نوعاً عن غرناطة .

وخرج عبدالله بن بُلُقّين بعد ذلك فى قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى ، وأغار على أراضى ابن عباد ، وعاث فيها ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة القريب من جيان [١] .

بيد أن المعتمد لم يقف مكتوفاً إزاء هذه الحركة ، فاتجه بدوره إلى النصارى ، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، فعقد معه حلفاً دفع مقابل عقده خمسين ألف دينار . ويقضى هذا الحلف بأن يتعاون المعتمد وألفونسو السادس ، على افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد ، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو . وظهر أثر هذه المعاهدة على الفور ، إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة ، ولاسيما أراضى مرجها الشهير La Vega [٢] .

---

(١) R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p, 257 & 260

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p, 257

ولا بد لنا قبل أن نمضى فى تتبع أخبار المعتمد ، أن نتحدث عن الوزير ابن عمار ، وهو الذى اضطلع بأخطر دور فى تنفيذ مشاريع المعتمد . فهو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ، وأصله من قرية من أرباض شلب تسمى «شنبوس» [١] ، ولد بها سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، فى أسرة متواضعة لم يكن لها فى الظهور شأن ، ووفد على مدينة شلب فنشأ بها وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع فى الأدب ، ونظم الشعر فتى ، واتخذه وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد إشبيلية ومدح المعتضد ، فنظمه فى سلك شعرائه وأمنائه ، ولما ندب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها ، اتصل به ابن عمار وألفى المعتمد فى صفاته وأدبه ورقيق نظمه ما حببه إليه ، فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثير المعتمد ، ينظمه فى مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار فى النظم هى أحب صفاته لأميره الشاعر . ولما توفى المعتضد ، وخلفه ولده المعتمد فى الملك ، عين ابن عمار أولا والياً لبلده شلب ، ولكن مقامه بها لم يطل ، إذ لم يصبر المعتمد على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية وولاه وزارته . فظهر ابن عمار يومئذ بمقدرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الجو بينهما ، بتدخل اعتماد الرميكية زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبته على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التى اضطلع بها ابن عمار يومئذ ، استيلاؤه على مدينة مرسية باسم ابن عباد . وهنالك ما يدل على أن مملكة إشبيلية كانت تمتد فى ذلك الوقت حتى لورقة وشقورة [٢] على مقربة من مرسية . وكانت مرسية بعد أن غادرها خيران العامرى ، قد تغلب عليها أبو بكر بن طاهر ، ثم ولده أبو عبد الرحمن بن طاهر من أعيانها ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد العناصر الناقمة ، فكتب بعض هؤلاء إلى المعتمد بن عباد يستدعونه لفتحها ، وشرحوا له ضعف ابن طاهر وقلة أهباته الدفاعية ، فعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لتحقيق

---

(١) وهى اليوم بلدة Estombar البرتغالية الواقعة جنوبى شلب .

(٢) قلائد العقيان ص ٩ ، ودوزى فى : Hist. Abbadidarum, V, II, p, 86

هذه الغاية ، فسار ابن عمار ، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونة صفقة ، يتعهد فيها بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية ، مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تدفع إليه ، واتفق الطرفان ، أن يقدم كل منهما رهينة إلى الآخر ضماناً بالوفاء ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقواته ، وعلى رأسها ابن عمار ؛ ولحقت بها قوات الكونت ، وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر فى أداء المال ، واعتقد الكونت أنه قد غرر به ، فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد ، وارتد بقواته عن المدينة . وعلم ابن عباد بالأمر ، وهو على رأس قواته على ضفاف نهر الوادى الكبير على مقربة من شَقُورة ، وبادر بأداء المال ، وبعث معه رهينة الكونت ، وأفرج عن الرشيد وابن عمار ، وأخفقت هذه الحملة الأولى فى فتح مرسية ، وجهز المعتمد بإشارة وزيره حملة أخرى على رأسها ابن عمار ، واتصل ابن عمار فى طريقه بقائد حصن بَلَج أو بُليج ، Vélez Rubio وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وندبه للقيادة ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، واستمر فى إرهاقها ، وفى تحريض أهلها على القيام ضد ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقبض على ابن طاهر ، واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) (١) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن ابن عمار سولت له نفسه ، أن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مليكه ، وعمد بالفعل إلى حكمها حكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخذ يدس الدسائس بين أمراء هذه الناحية ، ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها ؛ ذلك أن ابن رشيق ، وهو فاتح المدينة الحقيقى ، كان يتربص بابن عمار ، ويتحين فرصته ، وفى ذات يوم غادر ابن عمار مرسيه لتفقد بعض الحصون الخارجية ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها فى وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانته .

---

(١) راجع فى فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٥ ، ودوزى عن الشلبى فى : Hjst. Abbadidarum, V. II. p, 86 — 87 وكذلك : R.Menedez Pidal Piles Ibars : Murcia Arabe, V. I. p. 189 - 191, La Espana del Cid p. 259 & 281

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار صوب الشرق وقضى وقتاً قصيراً فى بلاط ألفونسو السادس ، فلم يلق منه عوناً ، ثم قصد إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه فى شئونه ، ولكنه توفى بعد قليل فى سنة ٤٧٥ هـ (أواخر ١٠٨١ م) وقسمت مملكته بين أولاده ، فاختص المؤتمن بسرقسطة ، وبقى ابن عمار معه على ما كان عليه . ولم يطل مكث ابن عمار حتى أغراه على سجيته ، بفتح حصن شَقُورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية ، وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن ، فى جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجل وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر فى الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت فى يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه ١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار وبعث إليه مالا وخيلا ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله ، وعلى رأسهم ولده يزيد الراضى ، فأخذ أولا إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا فى هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرؤيته ، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فأودعه المعتمد مكاناً خاملا فى قصره ، وكان يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ فى عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن فى استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر فى النهاية بمحنته ، ووعده بصفحه ، ولكن عاد فنقم عليه لأنه نقل إلى بعضهم ذلك الوعد ، أو على قول راجح ، لأن خصوم ابن عمار الساعين فى هلاكه ، وفى مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعايتهم ، وأبرزوا للمعتمد ، أبياتاً بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان بمرسيه ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبنى عباد ، ولاعتماد الرُّميكية زوجة المعتمد[1] .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين اعتماد الرميكية ، وبين ابن عمار من

---

(١) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II, p. 90, 91, 100-104 ، وابن الابار فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ و وكذلك R. Menendez Pidal : La Espana del Cid. p.289

وحشة كانت تزداد على مر الأيام . وكانت الرميكية ، وهى ملكة إشبيلية الأثيرة ، تحتل مكانة بارزة فى حياة المعتمد ، وفى بلاط إشبيلية . ولزواج المعتمد بهذه المرأة الموهوبة اللامعة ، التى شاطرته أيام عزه ومجده وأيام محنته ، وأنجبت له أولاده الملوك ، قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة . فأما التاريخ فتقول لنا الرواية ، إن المعتمد حينما كان ولياً للعهد ، أيام والده المعتضد ، رأى اعتماداً ذات يوم صحبة مولاها رُميك وهو من وجهاء إشبيلية ، فراقت لديه ، فاشتراها منه وهام بها حباً ، وتزوجها . بيد أن هناك رواية أخرى أكثر طرافة ، وأقرب إلى لون الأسطورة ، وهى أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار فى نهر إشبيلية ، وهو نهر الوادى الكبير ، وهما يتبادلان طرائف الشعر ، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد ، فنظم المعتمد هذه الشطرة :

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار أن يكملها ، فعجز الوزير الشاعر ، وكانت ترقبهما فتاة حسناء ممن يغسلن ثيابهن فى النهر ، فردت على الفور :

«أى درع لقتال لو جمد»

فدهش المعتمد ، وأعجب ببراعة الفتاة وسرعة خاطرها ، كما أعجب بحسنها وخفة روحها ، وسألها إن كان لها زوج ، فأجابت بالنفى ، فعندئذ استدعاها إلى قصره وتزوجها[١] .

وهكذا شاء القدر أن تغدو اعتماد الرُّميكية زوجة للمعتمد بن عباد ، وأن تغدو سيدة قصر إشبيلية . ولما تولى المعتمد الملك ، كانت الرميكية تحتل مكانة بارزة فى البلاط ، وفى الشئون ، وكانت لسمو مكانتها ، وتمكن نفوذها يطلق عليها لقب «السيدة الكبرى»[٢] ، وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك فى كثير من الأحيان فى مجالس الشعر والأدب ، التى كان يشغف بعقدها المعتمد ، وتردان فى أحيان كثيرة بحضور زوجه الحسناء الساحرة ؛ وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى المعتمد تشترك فى توجيه الشئون . وكان الوزير ابن عمار ، وهو يومئذ فى إبان مجده

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ .

(٢) المعجب ص ٧٧ . وكان هذا اللقب يطلق على والدة المعتمد ابنة مجاهد العامرى .

ونفوذه ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يستأثر لدى المعتمد بثقته ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرُّميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ويخشى بأسها وسعايتها ؛ واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد وابن عمار ، لتسفر عن نتيجتها الطبيعية، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه. ويقال إن الأبيات الطاعنة التى نسبت إلى ابن عمار ، قد نظمها فى ذلك الوقت سراً فى هجو الرميكية ، ونمى خبرها إلى المعتمد ، ويقال من جهة أخرى إن ابن عمار نظمها أيام وجوده فى مرسية ، ونجح خصمه أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية فى الحصول على أصولها مكتوبة بخطه وبعثها إلى المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار فى ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التى قيل إنها كانت سبباً فى نكبة ابن عمار ومصرعه ومطلعها :

ألا حَىِّ بالغرب حياً حلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جَمالا
وعرِّج بيومين أم القــرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرمــاد ... ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويومين قرية من قرى إشبيلية ومنها كانت أوّلية بنى عباد .

ومنها فى هجو الرميكية :

تخيرتها من بنات الهجين ... رميكيــة ما تســاوى عقالا
فجاءت بكل قصــير العذار ... لئيم النجــادين عمًّا وخالا
قصــار القــدود ولكنهم ... أقاموا عليهــا قروناً طوالا

ثم يشير إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً ... وأهتك ســترك حالا فحالا[1]

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية ، لتؤكد محنة ابن عمار . وقد وجه ابن عمار من سجنه إلى المعتمد قصائد فى الاستعطاف تذيب الجماد ، أو على قول ابن الخطيب «تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتُعَفِّى على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب» ، ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التى تهز أوتار القلوب ، والتى مطلعها :

---

(١) الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٧٤ و ١٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 117 وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٥٢ .

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع ... عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

ومنهـــا :

أقلنى بما بينى وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعفّ على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... كل إناء بالذى فيــه يرشح

ومنهـــا :

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتمى ... ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعى من هواة تميمة ... ستشفع لو أن الحمام مجلح
سلام عليه كيف داربه الهوى ... إلى فيــدنو أو على فيترح
ليهنئه إن مت السلوّ فإننى ... أموت ولى شوق إليه مبرّح [١]

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر فى مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ؛ ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على وزيره ، هو أن ابن عمار ، حينما وعده المعتمد بصفحه ، حدّث بذلك ولده الرشيد ، وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره ، وفى يده طبرزين[٢] كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف فى أغلاله ، ففزع ابن عمار لرؤيته ، وارتمى على رجليه يقبلهما ويبللهما بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن فى ركن من « القصر المبارك » . وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل ١٠٨٥ م)[٣] .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٩٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦١ ، وفى المعجب ص ٦٧ و ٦٨ .

(٢) هو آلة أشبه بالبلطة .

(٣) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 118-119 ، والمعجب ص ٦٨ و ٦٩ . ويقول لنا المراكشى إن مصرع ابن عمار وقع فى سنة ٤٧٩ هـ . وراجع ترجمة ابن عمار وأحداث حياته كلها مفصلة فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٣١ – ١٦٥ . ونقلها دوزى بنصها فى : Hist. Abbad. (ص ٨٨ – ١٢٣) .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر المبرز ، رفيق صباه ، ويده اليمنى فى كثير من المشاريع الخطيرة ، فى بادرة من الحقد المضطرم ، والقسوة التى لا تخبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ؛ ويقال إن المعتمد ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته . ويحاول الأمير عبد الله بن بُلُقِّين أمير غرناطة وهو معاصر للحادث وعليم بظروفه ، أن يوضح لنا سبب حقد المعتمد على وزيره فى الفقرة الآتية : « وكانت العداوة الواقعة بينه (أى ابن عمار) وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه ، فإنه بفسوقه كان يتكبر على أولاده ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ، والمعتمد فى هذا كله يصبر له ، ولأنه قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلته ، فمتى ما دهم أمر من قبلهم ، وجهه إليهم ، فيتجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ إلا بسببه ، ويرد الحس كله إلى نفسه ؛ وكانت هذه المعانى مما أحنق عليه المعتمد ، حتى عقب عليه بما كان جديراً به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم يكون له منه بد ، ولا رآه لغيره أهلا» [1] .

ويعلق ابن الخطيب ، على ذلك وقد كان أيضاً من الوزراء الذين عرفوا نزعات الملوك ونقمتهم بقوله : «وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد فى أزمة حب التشفى ، وطلب الإنصاف ، فلا تتوقف فى مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات ، إلا القليل النادر ، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة فى أصل جبلتها ، فهى ساكنة الفورة» [2] .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس فى عهد الطوائف ، فكان وزيراً نابهاً ، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً ، ومفاوضاً لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المنال ، ويذلل المشكلات الصعبة ، وقد ذاع صيته فى سائر بلاد الأندلس ، وكذلك فى ممالك اسبانيا النصرانية ، حتى كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، إذا ذكر عنده ابن عمار ، قال «هو رجل الجزيرة» [3] . بيد أنه كان فى نفس الوقت ، سياسياً مغامراً ، قليل الولاء

---

(١) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ص ٨١ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٢ .

(٣) المعجب ص ٦٣ .

والوفاء ، مكيافيلّيا ، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل ، دون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ، ألمع ما فى خلاله ، وقد كان ابن عمار بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس فى عصره ، وكان هذا العصر الذى سطعت فيه قصور الطوائف عصراً ، اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء ، جمهرة لم تجتمع فى أى عصر آخر ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء بنو عباد، وفى مقدمتهم المعتمد، وابن زيدون، وولادة بنت المستكفى، وأبو بكر بن اللبانة، والمعتصم ابن صمادح وولده رفيع الدولة، وبنو القبطرنة، وابن عبدون . وكان ابن عمار فى طليعة هذه الجمهرة الشاعرة، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته. وقد جمع شعر ابن عمار، ورتبه فى ديوان خاص، أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى(١)، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة كبيرة من أخبار ابن عمار، كما وضع تأليفاً خاصاً فى تاريخه(٢) وكذلك وضع ابو بكر ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى تاريخ ابن عمار(٣) . وهذه العناية بسيرة ابن عمار وتراثه الشعرى من معاصريه، ومن إليهم ، تنبى عن أهمية هذه الشخصية البارزة فى تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

— ٢ —

إلى ذلك الحين استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد فى قلب النصف الجنوبى من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمير شرقاً، حتى المحيط الأطلنطى، ومن ضفاف وادى يانة جنوباً حتى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع فى الواقع فى أواخر أيام الملك العاجز الضعيف القادر ابن ذى النون، أن يستولى على معظم أراضى مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من المعدن شرقاً حتى مدينة قونقة. ولعل المعتمد كان يفكر فى غزوات وفتوح أخرى، ينتزع فيها ما استطاع من أراضى جيرانه، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة من غمار أحلامه وأطماعه. أجل، لم يكن خافياً على المعتمد ، وعلى أمراء

---

(١) دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 89

(٢) دوزى Hist. Abbadidarum, V. II. p. 105

(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٧٣ .

الطوائف جميعاً، أن مملكة طليطلة ، كانت بظروفها وارتماء ملكها الضعيف فى أحضان النصارى، صائرة حتما إلى الفناء، وأن عاصمتها التالدة — طليطلة — سوف تسقط حتما فى يد ملك قشتاله، وكان ابن عباد يشهد تطور هذه المأساة جامداً، بما ينسب إليه من عهود قطعها فى ذلك للملك قشتاله. وربما كان هذا التصرف من المعتمد نحو قضية طليطلة من بين أخطائه السياسية العديدة ،أخطرها جريرة ، وأبلغها دلالة على استهتاره وتهاونه نحو أمته ودينه.ولكن طليطلة ما كادت تسقط فى أيدى القشتاليين، حتى أدرك المعتمد فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى سياسته ، وشعر أن هذه النكبة، ليست إلا نذيراً قوياً له، ولسائر ملوك الطوائف .

وقد سبق أن ذكرنا فيماتقدم أن المعتضد بن عباد تعهد بأداء الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥ﻫ (١٠٦٣ م)، وأنه كان يؤدى إليه هذه الجزية بانتظام حتى وفاته فى سنة ١٠٦٥ م، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشوملك جلّيقية . ولما استطاع ألفونسو التغلب على أخويه، وأضحى ملكاً لقشتالة ، كان المعتمد ابن عباد يؤدى إليه الجزية التى كان يدفعها أبوه. وكان ألفونسو يرسل فى كل عام رسله لقبضها من المعتمد . ومما هو جدير بالذكر أن رسول ألفونسو إلى المعتمد بقبض الجزية فى سنة ٤٧٢ﻫ (١٠٧٩ م) لم يكن سوى الفارس القشتالى الشهير ردريجو بيبار الملقب بالسيد الكمبيادور، أو السيد الكنبيطور كما تسميه الرواية العربية. ولما وفد السيد عندئذ إلى إشبيلية ، كانت قوات ملك غرناطة البربرية تغير على أراضى إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى ، فطلب السيد من مواطنيه الكف عن هذا العدوان تحقيقاً لمقتضيات الصداقة والرعاية ، التى يكنها الملك ألفونسو لصديقه ملك إشبيلية، ولما لم يصغ المغيرون إليه خرج إلى قتالهم فى بعض القوات القليلة التى كانت معه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة ، فسر المعتمد من تصرفه ، وأدى إليه عدا الجزية ، طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .

وهكذافإن المعتمد، على الرغم من ضخامة ملكه، واتساع موارده، لم يستطع أن ينجو من ذلك النير المرهق، الذى استطاع ألفونسو السادس أن يفرضه على سائر ملوك الطوائف، ونعنى تأدية الجزية، بل يبدو أن المعتمد رأى فوق ذلك، أنه لن

(١) R. Menendez, Pidal : La Espana del Cid. p. 250,259-261

يستطيع أن يمضى فى حكم مملكته آمناً إلا بتوثيق أواصر المودة مع ألفونسو ومحالفته. وتقدم إلينا الرواية القشتالية موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تقدم إلينا تاريخه ، وتقول لنا إن الوزير ابن عمار ذهب إلى ليون وتولى المفاوضة فى عقده. وخلاصة ماتم الاتفاق عليه، هو أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين، وأن يؤدى إليه المعتمد جزية سنوية كبيرة ، وأن يقوم بغزو أراضى مملكة طليطلة الجنوبية،وأن يسلم منها إلى ملك قشتالة الأراضى الواقعة شمال جبال سيرا مورينا (جبل الشارات) . وتزيدالروايات القشتاليه على ذلك بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة (أو فى مناسبة لاحقة) إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة، وهى التى تعرفها الروايات القشتالية باسم «زائده» ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها المناسب[1] .

بيد أن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو المعتمد ، ففى سنة٤٧٥ﻫ (١٠٨٢م) وجه ألفونسو السادس سفارته المعتادة إلى المعتمد بطلب الجزية، وعلى رأسها يهودى يدعى ابن شاليب ، وعسكر رسل ملك قشتالة فى ظاهر المدينة ، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون . فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك ، رفض تسلمها بغلظة ،بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية ، حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب . فلما وقف المعتمد على ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ، ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى ، فصلب ، وألقى الفرسان النصارى إلى السجن . ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه ، اضطر أن يرد حصن المدوّر القريب من قرطبة إلى المعتمد ، ثمناً لإطلاق سراحهم ، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد ، أروع انتقام ، وأن يخرب أراضى مملكة إشبيلية كلها حتى المجاز ، ثم بادر تنفيذاً لوعيده ، فحشد جيشاً ضخماً من الجلالقة ، والقشتاليين ، والبشكنش ، وبعث سرياته فعاثت فى أحواز باجة ولبلة، وسار هو إلى أراضى إشبيلية ، وهو يحرق القرى ، وينتسف الزروع ، ويسبى كل من وقع فى يده من المسلمين ، ثم حاصر إشبيلية نفسها مدى ثلاثة أيام، ثم عاث فى أراضى شذونة، وانحدر جنوباً ، وهو يخرب كل

---

(١) Modesto Lafuente: Historia general de Espana (Madrid 1881) V. II p. 404

ما يقع فى طريقة، حتى وصل إلى مدينة طريف ،**فوقف على** شاطئ بحر الزقاق، والموج يضرب قوائم فرسه ، والمعتمد طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم الدفاع [١]

وكانت خطة ألفونسو السادس فى إضعاف ملوك الطوائف، تقوم أولا على استصفاء أموالهم باقتضاء الجزية،وقد انتهى إلى أن فرض الجزية عليهم جميعاً، ثم على تخريب أراضيهم، وانتساف زروعم وأقواتهم ومحاصيلهم ، بالغارات المخربة الناهبة، وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأرضيهم كلما سنحت الفرص ، وقد نجحت خطته فى ذلك كل النجاح،وبدا ضعف ملوك الطوائف إزاء قوته وعدوانه المنظم، واضحاً ملموساً. وكان لاعتداده بقوته وسلطانه ، ويقينه من تفرق الطوائف وتخاذلهم، يخاطبهم بلغة السيد، ويتسمى فى خطاباته إليهم بالإمبراطور ملك الملتين ،ويجاهر باحتقارهم، والاستهانة بهم. ومما يروى فى ذلك، أنه قال لسفير المعتمد إليه، وهو يهودى يدعى بابن مشعل «كيف أترك قوماً مجانين . تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، المعتضد ، والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سُداً» [٢] .

وهنا أدرك المعتمد ، فداحة الأخطاء التى تردى فيها بمصانعة ألفونسوا ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف ، ولاحت له طوالع المصير المروع الذى سوف ينحدر إليه ،إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة ، والظاهر أنه فكر عندئذ ولأول مرة ،أن يستنصر بإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، فى عدوة المغرب ، فكتب إلى عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئه بما آلت إليه أحوال الأندلس من الخطورة ، وما رزئت به من فقد قواعدها وثغورها ، ويلتمس إليه الإنجاد والعون[٣] . وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد إلى خطة عملية التف حولها سائر ملوك الطوائف وشعب الأندلس كله حسبما نوضح فى موضعه.

---

(١) الحلل الموشية ص٢٥ و ٢٦ . ودوزى Hist. Abbadidarum V. ll. p. 174, 187, 188-231 ، وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢) دوزى عن كتاب « الاكتفاء» فى Hist. Abbadidarum : V ll. p. 20 . وراجع R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 259, 318 & 319

(٣) روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ٩٢ .

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة معقد نجاحه، وذروة ظفره، فما كاد يدخل عاصمة القوط القديمة، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد دنت، وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، ويلتهم مدينة بعد أخرى، ومن ثم فقد بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف، وأقواها يومئذ. فوجه إلى المعتمد بن عباد، رسالة ملؤها الوعيد والنذير، يطالبه بتسليم أعماله، ويحذره من مثل طليطلة ومحنتها، وهى فيما يبدو من إنشاء بعض النصارى المعاهدين أو اليهود الذين يخدمون فى بلاط قشتالة، وقد نقل إلينا صاحب الحلل الموشية، نص هذه الرسالة، كما نقل إلينا رد المعتمد عليها، وإليك نص هاتين الرسالتين، اللتين تنمان عن روح العصر، وأساليبه :

قال ألفونسو فى رسالته: « من الإنبيطور ذى الملتين، الملك المفضل، أذفنش بن شانجه، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت فى ربعه المنى، باغترار الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها. فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع فى الحبالة، ولولا عهد سلف، بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط ألبرهانس؛ وعنده من التسديد الذى تلقى بأمثالك، والعقل الذى تدبر بلادك به ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عند ما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك » .

وأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية : « من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبى عمر وابن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه، الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فان أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم

الاستعداد،ومجبى المملكة ، لا تبلغه قدرتكم،ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد،أيقظ منها مناديك،وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس،وعاطيناك كؤوس دعة،قلت فى أثنائها ليس ، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك،وإنا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه،ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا فى العدد والعديد،والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان،وحيل الإنسان،وحماة الشجعان،يوم تلتقى الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام فى القفار،يريدون رحى النون بحركات العزائم ، ويشفون من خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق،وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق،وقد يأتى المحبوب من المكروه،والندم من عجلة الشروه،نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها . ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين ،يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره ،وتتحقق مثاره،والذى جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر ، لا يقاتلونكم جميعاً،إلا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لا تنتقل،وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم،ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا؛وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم،والحمد الله الذى جعل عقوبتنا ، توبيخك وتقريعك ،بما الموت دونه،وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطئ فى مسيرنا إليك،والله ينصر دينه،والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه »[1] .

— ٣ —

وعلى أثر هذا النذير ،جد المعتمد فى حشد رجاله،وتقوية جيشه،وإصلاح حصونه،واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبات الدفاعية .على أنه كان يوقن، كما

---

(١) أورد نص هاتين الرسالتين صاحب «الحلل الموشية» . وقد اعتمدنا فى نقلهما على النص الذى نقله دوزى عن مخطوطات باريس ، وليدن،وجاينجوس (مدريد) ، وهو فيما يبدو أصح وأدق من النص الذى ورد فى طبعة تونس . راجع : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 185, 186 & 187 وفى طبعة تونس (ص ٢٣ — ٢٥) .

يوقن زملاؤه ملوك الطوائف، أن ملك قشتالة يعتزم العمل على إبادتهم جميعاً ، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعاً .

فى هذه الآونة العصيبة، قرر المعتمد أن ينفذ فكرته فى الاستنصار بإخوانه فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب ، وهم يومئذ المرابطون ، وعاهلهم يوسف ابن تاشفين. وكانت هذه الفكرة قد خطرت لأكثر من أمير من أمراء الطوائف ، وخطرت لكثيرين من زعماء الأندلس وعلمائها . ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلقين إن أخاه تميماً أمير مالقة ، كان أول من فكر فى الاستنصار بالمرابطين لينتقم منه[1]، ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر ، وكانت قد شاعت فى الأندلس على أثر سقوط طليطلة، وما أشاعته تلك النكبة فى الناس من ذعر ويأس، وذاعت بعد الأمراء ، بين سائر الزعماء والفقهاء وطبقات الكافة. وعقد عندئذ فى قرطبة اجتماع كبير من الزعماء والفقهاء، واجتمع رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين ، وقدم ابن عباد على أثر ذلك إلى المدينة، وأقر ما ارتأته «الجماعة» . وانضم إلى المعتمد فى ذلك عدة من زملائه رؤساء الطوائف ، ولاسيما أميرى بطليوس وغرناطة . واتفق الرأى على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ، ومعهم أبو بكر بن القصيرة الكاتب (وفى رواية أخرى الوزير أبو بكر بن زيدون) . وهنا تختلف الرواية فى التفاصيل فتقول إحداها إن سفارة الأندلس عبرت البحر ، ولقيت أمير المسلمين بسبتة، وكان قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها ، من يد واليها يحيى بن سكوت البرغواطى، وشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يد النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم، وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، فى دفع هذا الخطر عن الأندلس المسلمة. وفى رواية أخرى أن المعتمد بن عباد نفسه، قد عبر البحر فى جماعة من الزعماء، وسار إلى سبتة أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين ، وأنه هو الذى استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس[2] .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

(٢) راجع فى ذلك ما نقله دوزى عن النويرى : Hist. Abbadidarum: V. II. p. 143 وما ورد فى الإستقصاء للسلاوى ج ١ ص١١١ ، ومذكرات الأمير عبد الله ص١٠٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك أيضاً (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٦) .

ومن جهة أخرى، فإنه يقال لنا إن المعتمد كان يعارضه فى هذا الاتجاه ولده الرشيد وجماعة من زعماء إشبيلية، وأنه حين خاطب الزعماء فى أمر استدعاء المرابطين أشاروا عليه بأن الأفضل، أن يسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه الصلح والمهادنة، بأى وسيلة، وكيفما كان الأمر. ولما خلا بولده الرشيد، أفضى إليه بمخاوفه من سطوة ملك قشتالة، وأنه بعد أن استولى على طليطلة وعادت دار كفر، قد رفع رأسه، وأخذ يتجه إلى أخذ إشبيلية، وأنهم فى هذه الجزيرة لا ناصر لهم، وليس فى ملوك الطوائف نفع ولا عون يرتجى، وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة، فاعترض الرشيد على رأيه وقال له: «ياأبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا»، فقال المعتمد لولده: «أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة على فى الإسلام؛ مثل ما قامت على غيرى. حرز الجمال عندى والله خير من حرز الخنازير». وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأى فيما يجب عمله[1].

وأما عن أمراء الأندلس، فقد كان يتفق فى الرأى مع المعتمد، على استدعاء المرابطين حسبما رأينا، عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقد أوفد رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين، وكذلك عمر المتوكل أمير بطليوس، فقد كان فى مقدمة المؤيدين، لوقوع بلاده فى منطقة الخطر، ولاشتداد ملك قشتالة فى إرهاقه. وأما ابن صمادح أمير ألمرية، فلم يكن من المتحمسين لهذا الاستدعاء[2]، وكانت ثمة آراء معارضة أخرى، شعارها التوجس من مقدم المرابطين وأطماعهم.

وقد أورد لنا صاحب الحلل الموشية نصوص رسائل، قيل أن المعتمد بن عباد بعثها إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعضها من إنشائه، وبعضها من إنشاء وزرائه، ومنها رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ، أعنى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل، وفيها يصف له حال الأندلس، وما أصاب أهلها من الخلاف والتمزق، وما دهاها من عدوان النصارى وإرهاقهم. بيد أنه قد

---

(١) الحلل الموشية ص٢٧ و٢٨ ونقلت فى دوزى: Hist. Abbadidarum: V. II. p. 188-189

(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ و ١٠٤ .

وردت من بينها رسالة،نشك كل الشك فى أنها صادرة من المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين،لأنها قد صدرت بنصها ، بعد ذلك بنحو قرنين من محمد الفقيه (ابن الأحمر) ملك غرناطة،إلى السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب ، يستنصره ويستنجد به على النصارى(١) .

وقد تتبعنا هنا فكرة استنصار الأندلس بالمريطين بالأخص،من ناحية ارتباطها بالمعتمد بن عباد وسياسته.وسوف نعود إلى تتبع مراحلها من الناحية الأخرى ، ناحية ارتباطها بتاريخ المرابطين .

وعلى أى حال فقد استجاب زعيم المرابطين،بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء،لدعوة أمراء الأندلس ،واعتبر الصريخ ، دعوة إلى المشاركة فى الجهاد،والذود عن الدين المشترك،بيد أنه عملا بنصح وزيره عبد الرحمن بن أسبط ، وهو أندلسى من أهل ألمريه ، خبيربشئون الجزيرة ، اشترط لإجابة الدعوة ، وعبوره إلى الأندلس ، أن يسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء ، ليكون قاعدة لعبوره فى الذهاب والإياب . فنزل المعتمد عند هذه الرغبة بالرغم من معارضة ولده الرشيد ، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضى، فأمره باخلائها والانتقال عنها ، لكى تحتلها جنود أمير المسلمين(٢) .

وفى تلك الأثناء كان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين يحشد جنده وعدده ، ويرسلها تباعاً إلى الشمال.فلما تكاملت الحشود ، بعث يوسف بقوة من الفرسان تحت إمرة قائده داود بن عائشة،فعبرت البحر ، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد. وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ﻫ (أغسطس١٠٨٦م) بدأت الجيوش المرابطية وعلى رأسها زعيمها البطل الشيخ،تعبر البحر من سبتة تباعاً إلى ثغر الجزيرة،وما كادت السفن تتوسط ماء المضيق (مضيق جبل طارق) تتقدمها سفينة يوسف ، حتى نهض الزعيم المرابطى ، وبسط يديه نحو السماء

---

(١) راجع الحلل الموشية ص٣٠ و ٣١،ودوزى Hist. Abbad. V. II. p. 190-191 . وقد وردت الرسالة بنفسها منسوبة إلى محمد بن الأحمر فى «الذخيرة السنية» ص ١٥٩ — ١٦١ .وراجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٩٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ . وكذلك فى دوزى Hist. Abb. V. II. p. 192-193،وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٥٩ .

قائلا :«اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين ، فسهل على جواز هذا البحر ،وأن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه» . ويروى أن البحر قد هدأ على أثر هذا الدعاء ، وسارت السفن فى ريح طيبة ، حتى رست على الشاطئ،وما كاد يوسف يعبر إلى أرض الأندلس ، حتى صلى لله شكراً [١] ، ثم نزل بالجزيرة الخضراء،وشرع فى تحصينها وإصلاح خططها.

هذا وسوف نتتبع ما تلا ذلك من الحوادث فيما سيأتى بعد،فى حديثنا عن موقعة الزلاّقة .

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما رواه يوسف نفسه فى رسالته التى بعث بها عقب انتصاره فى موقعة الزلاقة ، الى المعز بن باديس أمير تونس والتى ، نشرناها فى آخر الكتاب .

الفصل الرابع

بنو الأفطس ومملكة بطليوس

مملكة بطليوس. الفتى سابور الفارسى وتغلبه على تلك المنطقة. وزيره عبد الله بن مسلمة يخلفه فى الحكم. بنو الأفطس وأصلهم. ابن الأفطس وابن عباد. الحرب بينهما حول باجة وبعدها. انشغال ابن عباد بقتال البربر. الثورة فى أشبونة وإخمادها. المظفر بن الأفطس. حروبه مع المعتضد بن عباد. موقعة يابرة وهزيمة المظفر. توسط ابن جهور وعقد الصلح بين الفريقين. غزو ملك قشتالة لشمالى مملكة بطليوس. استيلاؤه على بازو ومليقة. غزوه لمدينة شنترين. إذعان المظفر لدفع الجزية. مسير فرناندو لفتح قلمرية. اقتحامها وأسر حاميتها. وفاة فرناندو ملك قشتالة. وفاة المظفر. مقدرته الشعرية والأدبية. المنصور بن الأفطس. وفاته وقيام أخيه عمر المتوكل مكانه. المتوكل وشهرته فى عالم الشعر والأدب. وزراؤه الشعراء. سيادة الأمن والرخاء فى عهده. وزيره ابن الحضرمى. طغيانه وعزله. حوادث مملكة طليطلة. اضطلاع المتوكل بحكمها. محاولة المتوكل إنجاد طليطلة. سقوط طليطلة. تجبر ألفونسو ووعيده. رد المتوكل عليه. اتفاق ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين

كان يجاور مملكة إشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال الشارّات الكبرى (سيرّا مورينا). وكانت مملكة بَطَلْيوس، تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادى يانة، غرباً حتى المحيط الأطلنطى، وتشمل أراضى البرتغال[1] كلها تقريباً حتى مدينة باجة فى الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التى تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترة، وقُلُمرية، وبازو، وغيرها.

كان بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة الشاسعة، حكموها نيفاً وسبعين عاماً، وسطع بلاطهم أيام الطوائف. وكان استيلاؤهم على حكمها من المصادفات المحضة. ذلك أن هذه المنطقة، وهى النصف الشمالى، من ولاية الغرب الأندلسية، كان يحكمها عند اضطرام الفتنة، واليها الفتى سابور الفارسى، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وقد استبد بحكمها

(1) ويسميها ابن الخطيب أرض «برتقال» (أعمال الأعلام ص ١٨٣).

منذ انهيار الخلافة، واستمر قائماً بأمرها ثلاث عشرة عاماً. وكان فارساً شجاعاً، ولكن عاطلا عن المعرفة والخبرة بشئون الحكم، فكان يعاونه فى تدبير الشئون وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان من قبل والياً لماردة، وكان هو الحاكم الحقيقى. وتوفى سابور فى سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢ م) ، وترك ولدين حدثين هما عبد الملك وعبد العزيز، وأوصى أن يستمر وزيره فى الحكم، حتى يبلغا أشدهما. فاستولى عبد الله على الأمور وضبط المملكة، واحتوى على تراث سابور لنفسه، وتلقب بالمنصور ، وأضحى سيد المملكة الحقيقى .

وينتمى أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، وأصله من بلدة فحص البلوط من ولاية قرطبة ، من أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب فى النباهة والمعرفة . بيد أن بنى الأفطس كانوا بالرغم من ذلك يرجعون نسبتهم إلى تجيب، وقد مدحتهم الشعراء بهذا الصفة ، وهذا ما يثير تعجب ابن حيان ، وما يصفه « بالغريب النادر » (١) .

وكان عبد الله بن الأفطس مع ذلك رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة، فلما استولى على حكم هذه المنطقة الشاسعة بعد وفاة سابور، أبدى فى ضبطها وإدارتها مقدرة وبراعة. بيد أنه كان يرقب حركات جاره من الجنوب القاضى أبى القاسم بن عباد ونمو قوته، فى حذر وتوجس. ذلك أنه كان بالرغم من مناعة حاضرته بطليوس، ومناعة أسوارها وقصبتها الضخمة ، فإن اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدها الأخرى فى الجنوب والشرق ، كان يجعل من الصعب عليه الدفاع عنها إزاء أطماع جاره القوى . وسرعان ما بدأت تتحقق مخاوفه. ذلك أن القاضى ابن عباد انتهز قيام ثورة محلية فى مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة ، وسير إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل ، ومعه قوة من جند حليفه البرزالى صاحب قرمونة. وكان ابن الأفطس قد استطاع خلال تلك الفترة أن يحتل باجة بجنده ، إذ هى أقرب إليه، وأكثر اتصالا بمنطقته من بمنطقة بنى عباد ، فهاجمت قوات إشبيلية المشتركة مدينة باجة ، وحاصرت قوات ابن الأفطس ، ووقع بينهما قتال عنيف انتهى بتمزيق قوات ابن الأفطس وأسر معظمها ، وكان محمد بن الأفطس ولد المنصور بين الأسرى، فاعتقل حيناً لدى

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (المخطوط) لوحة ٨٥ أ . وفى المطبوع ج ٢ ص ٩٧ .

البرزالى فى قرمونة حتى أطلق سراحه (سنة ٤٢١ هـ) ، وعاد إلى بطليوس وقد صقلته المحنة ، وشحذت عزمه ، لمقاومة بنى عباد ومحاربتهم .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بعد ذلك ببضعة أعوام بين ابن عباد وابن الأفطس ، ذلك أن حملة جديدة بقيادة إسماعيل بن عباد ، توغلت شمالا فى أراضى ابن الأفطس وعاثت فيها ، وعندما سار فى طريق العودة ، خرج عليه ابن الأفطس فى قوة كثيفة ، وطارده بشدة ، ففر إسماعيل فى قلة من فلوله ، وأسر معظم عسكره ، وفتك ابن الأفطس بهم كما فتك النصارى بكثير منهم ، وكانت محنة شنيعة لبنى عباد (٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) .

وشغل أبو القاسم بن عباد فى الأعوام التالية ، عن محاربة الأفطس بمحاربة البربر ، فاشتبك أولا مع يحيى المعتلى ، وانتزع منه قرمونة (٤٢٧ هـ) ، ليردها إلى صاحبها حليفه محمد بن عبد الله البرزالى . بيد أنه عاد فسير قواته إلى قرمونة واستولى عليها . وعندئذ هرع البربر لنصرة البرزالى ، وفى مقدمتهم إدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية موقعة دموية ، هزم فيها الإشبيليون وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد (٤٣١هـ) وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار الدولة العبادية .

وأما ابن الأفطس ، فقد شغل بقيام الثورة فى أشبونة . أقصى ثغور مملكته . ذلك أن عبد الملك وعبد العزيز ابنى سابور ، حينما توفى والدهما ، واستولى ابن الأفطس على تراثه ، غادرا بطليوس ولجآ إلى ثغر أشبونة ، ثم ثار عبد العزيز واستولى على حكم المدينة ، واستمر فى حكمها بضعة أعوام . ولما توفى حل أخوه عبد الملك مكانه ، ولكنه كان سيئ الحكم والإدارة ، فاختل النظام ، وغلبت الفوضى ، وكتب أهل أشبونة سراً الى ابن الأفطس ، أن يرسل إليهم والياً من عنده ، فسير إليهم ولده محمداً فى قوة كثيفة ، ودخل محمد أشبونة دون صعوبة ، ورأى عبد الملك بن سابور أن يذعن إلى التسليم ، على أن يؤمن فى نفسه وأهله وماله ؛ فمنح ما طلب ، وسمح له بأن يسير إلى حيث شاء ، فقصد إلى مدينة قرطبة ، واستأذن الوزير ابن جهور فى الالتجاء إليها ، فأذن له ودخلها بأهله وأمواله ، ونزل دار أبيه سابور ، وعاش هناك حتى توفى (١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٧ .

وكان عبد الله بن الأفطس المنصور، خلال ذلكِ يمضى فى تنظيم مملكته الشاسعة وفى تحصينها، وفى تقوية جيوشة وأهباته ، وذلك كله توقعا لعدوان بنى عباد، ولا سيما بعد أن خالف المعتضد بن عباد أباه القاضى أبا القاسم فى الحكم، وظهرت إمارات توثبه ونياته العدوانية . ثم توفى المنصور فى جمادى الأولى سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م) .

فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر . وكان عالماً وفارساً شجاعاً، وقد عركته خطوب الحرب والأسر الذى عاناه. فسار فى الحكم سيرة أبيه من العمل على ضبط النظام ، والدفاع عن الثغور. وكان مثل أبيه يرى فى بنى عبادخصومه الأوائل، ويعمل على تقوية أهباتهالدفاعية لاتقاء عدوانهم. وقد رأينا فيما تقدم ، كيف دبر المعتضد بن عباد خطته للاستيلاء على إمارات الغرب الصغرى ، وبدأ فى ذلك بمهاجمة مدينة لبلة، وكيف أن المظفر بن الأفطس هرع إلى نجدة صاحبها ابن يحيي ، وبعث بعض قواته من البربر لمهاجمة إشبيلية، وكيف حاول الوزير ابن جهور عبثاً أن يحول بتدخله، ونصحه للفريقين، دون نشوب الحرب بينهما. وهكذا اضطرم القتال بين المعتضد وابن الأفطس، وعاث كل منهما فى أراضى الآخر، وهزم ابن الأفطس أولا، ولكنه استأنف الكرة ، واستطاع أن يوقع بالمعتضد هزيمة شديدة قتِل فيها كثير من جنده (٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م) .

ثم تطورت الحوادث وساء التفاهم بين ابن يحيي وابن الأفطس، حيث أبى أن يرد إلى حليفه القديم ، ما ائتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب ، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل أرسل قواته من الفرسان لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيي بالمعتضد ، فلبى دعوته وأرسل قواته، فاشتبكت مع خيل ابن الأفطس فمزقتهم وأفنتهم ، واحتزت من رؤوسهم ، نحو مائه وخمسين . وجهز المعتضد بعد ذلك قوة كبيرة على رأسها ولده إسماعيل ووزيره ابن سلام ، وعبرت القوات العبادية نهر وادى يانة ، وتوغلت فى أراضى ابن الأفطس شمالا ، حتى مدينة يابُرة، وحشد ابن الأفطس فى الوقت نفسه سائر قواته، واستعان بقوة بعثها إليه حليفه إسحق بن عبد الله البرزالى تحت قيادة ولده المعز ، والتقى الفريقان دون أهبة ولا نظام على مقربة من يابرة ، فهزم ابن الأفطس وفشا القتل فى جنده ، وقتل المعز بن إسحق، وحز رأسه وأرسل إلى إشبيلية ، وقتل عم لابن الأفطس

وأرسل رأسه كذلك ، ولجأ ابن الأفطس فى بقية فرسانه إلى يابرة ، تحت كنف صاحبها عبيدالله الخراز . وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر من ثلاثة آلاف ، وكان وقوعها فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) .

واستمرت الحرب بين الفريقين بعد ذلك عدة شهور أخرى، استطاع المعتضد خلالها أن يوقع بقوات ابن الأفطس غير مرة وأن يعيث فى أراضيه، وأن يفتح منها عدة حصون . وتفاقمت الحال ، بما أصاب مملكة بطليوس من تخريب الزروع ،وهلاك الأقوات ونضوب الموارد ، ووقوع القحط ، واضطر المظفر بن الأفطس فى النهاية ، أن يعتصم بقاعدته بطليوس،بعد ما نكل سائر أصدقائه عن معونته .ولم ينقذه من عدوان المعتضد سوى تدخل الوزير أبى الوليد ابن جهور ، حيث لبث موالياً لسعيه فى درء الفتنة،وحقن الدماء ، حتى كلل سعيه فى النهاية بالنجاح ، وعقد الصلح بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) [١] .

وكان المظفر فى نفس الوقت عرضة لمضايقة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وعدوانه.وقد أغار المأمون مراراً على أراضى ابن الأفطس،ووقعت بينهما معارك محلية كثيرة.ولم نعثر على تاريخ هذه المعارك بطريقة قاطعة . ولكن الظاهر أنها وقعت بعد الصلح بين ابن عباد وابن الأفطس ، أعنى بعد سنة ٤٤٣ هـ[٢] .

على أن المظفر ما كاد يفيق من تلك الحروب المدمرة،حتى بدأت الحوادث والأزمات الخطيرة فى أطراف مملكته الغربية والشمالية . وكان خصومه فى تلك المرة هم النصارى،جيرانه من الشمال . وكان فرناندو الأول (فرديناند أوفرذلند) ولد سانشو الكبير ،بعد أن استتب له ملك قشتالة وليون ، يرقب تطور الحوادث لدى جيرانه المسلمين باهتمام ، ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة فيما بين نهر التاجُه ونهر دويرة ، تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية،وتكاد تكون قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة فى الدفاع على نفسها . فاتجهت أنظار فرناندو ،إلى تلك المنطقة ، ولم يلبث أن اخترقها بقواته وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) واستولى أولا على مدينتى لاميجو (مليقة)

---

(١) راجع مانقل فى الذخيرة عن ابن حيان،المجلد الأول للقسم الأول ص ٣٦١ – ٣٦٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١١ – ٢١٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

وبازو الواقعتين فى شمال البرتغال ، واللتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور ؛ ولم يلق الغزاة دفاعاً يذكر ، ولم يتحرك ابن الأفطس ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرناندو ، سكان المدينتين الإسلاميتين ، وأسكن بهما النصارى .

ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى بعث فرناندو بحملة قوية إلى تلك المنطقة تقدر بعشرة آلاف فارس ، وكان ابن الأفطس قد رفض أداء الجزية لملك قشتالة ، فسارت قوة من الفرسان النصارى جنوباً ، صوب مدينة شنترين الواقعة على نهر التاجُه ، وهى من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية ، وكان ابن الأفطس على علم بتحرك النصارى ، فهرعت قواته إلى شنترين قبل أن يصلوا إليها . ولما أشرف عليها النصارى بعث قائدهم « القومس » إلى ابن الأفطس للمفاوضة ، فاجتمع الاثنان فى نهر التاجُه ، وانتهت المفاوضة بينهما على عقد الهدنة ؛ وعلى أن يدفع ابن الأفطس لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ ، هو فقد مدينة قُلُمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبى عامر منذ ثمانين عاماً فى سنة ٣٧٥هـ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس يدعى راندة ، ولديه للدفاع عن المدينة نحو خمسة آلاف جندى . ويقال إن الذى أشار على فرناندو بغزو قلمرية هو مستشاره المستعرب سسنندو الذى سبق ذكره ، وكان فى الأصل من أهل هذه الناحية . وسار فرناندو بنفسه إلى قلمرية فى قوات كثيفة وضرب حولها الحصار ، واستمر الحصار زهاء ستة أشهر ، والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم . وفى النهاية تفاهم راندة مع فرناندو سراً على أن يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله ، وأصبح أهل المدينة فلم يجدوا قائدهم ، فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان ، فرفض فرناندو واستمر فى الحصار ، حتى فتك الضيق ونفاد الأقوات بالحامية وأهل المدينة ، وأخيراً اقتحم النصارى المدينة عنوة ، فسلمت الحامية ، واعتبر جنودها أسرى ، وسبى الكثير من أهلها نساء ورجالا . وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالهم ، ووقعت هذه الحادثة بالمسلمين فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م) . وعين فرناندو مستشاره سسنندو حاكما لقلمرية وأعمالها ، ومنحه عندئذ لقب « الكونت » أو « الوزير » . ثم عمد فرناندو بعد ذلك إلى إخراج السكان المسلمين من سائر الأراضى الواقعة

بين نهرى دويرة ومنيو (منديجو) وذلك تنفيذاً لخطته فى إجلاء المسلمين عن الأراضى المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً .

ولما سقطت قلمرية فى يد العدو ، قصد واليها السابق راندة إلى بطليوس ، وكان قد لجأ إلى المعسكر النصرانى ، ثم غادره طمعاً فى عفوسيده ، فاستقبله ابن الأفطس بجفاء وأنبه على شنيع مسلكه ، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته[1] .

هذا وسوف نعود إلى تفصيل حوادث سقوط قلمرية فى أخبار فرناندو ملك قشتالة .

وهدأ ضغط النصارى على أراضى ابن الأفطس بوفاة فرناندو ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين فى سنة ١٠٦٥م .ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت بضعة أعوام ،شغل خلالها النصارى عن عدوانهم على أراضى المسلمين. ولما خلص عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو ، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتى طليطلة ، وإشبيلية ، حسبما نفصل بعد .

وتوفى المظفر بن الأفطس فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨ م) ، فخلفه ولده يحيي الملقب بالمنصور .

ولابد لنا قبل أن نترك الكلام على المظفر بن الأفطس ،أن نذكر ذلك الجانب اللامع الوضاء فى حياته،ونعنى الناحية الفكرية . فقد كان المظفر من أعلم أهل عصره ، وكان شغوفاً بالشعر والأدب ، وكان ينكر الشعر على قائله فى زمانه، ويقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت »، ولا يرضى بدون ذلك . وقد اشتهر فى عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم « بالمظفرى » نسبة إلى اسمه ، وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة ،والطرائف المستملحة ،والغرائب الملوكية ،والنوادر اللغوية .وأنفق المظفر فى تصنيفه أعواماً ،وانتفع فى تصنيفه بسائر ما تحتويه خزائنه الزاخرة بنفائس الكتب ،ولم يستعن فى وضعه إلا بكاتبه أبى عثمان سعيد بن خيره .وقيل إن « المظفرى » كان يحتوى على خمسين مجلداً ،وقيل بل على عشرة أجزاء ضخمة وقد لبث هذا المصنف الكبير عصوراً ، معروفاً متداولا ، تذكره التواريخ

---

(١) راجع فى سقوط قلمريه وما تقدمه من حوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ ، ودوزى فى Hist. des Musulmans d' Espagne, V. III. p. 67-77

الأندلسية، بيد أنه قد غاض ودثر في النهاية، ولم تصل إلينا منه سوى شذور قليلة(١) .

وما كاد المنصور بن الأفطس يبدأ حكمه حتى ثار به أخوه عمر، وكان يرى نفسه أحق منه بالملك والحكم. وكان عند وفاة والده المظفر حاكماً لمدينة يابرة وما إليها، فنهض لمناوأة أخيه . واستمر النزاع بينهما بضعة أعوام حتى تفاقم . ولجأ عمر إلى معاونة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واتجه المنصور إلى معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واضطرمت الفتنة، وكادت تدمر كل شئ ، لولا أن توفى يحيي المنصور فجأة سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، فخمدت الفتنة ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع ، وتلقب بالمتوكل على الله ، وندب ابنه العباس حاكماً ليابرة .

وكان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف وأبقاهم ذكراً، وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية ، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره ، وبلاطه الزاهر، الذى كان جامعة أدبية أكثر منه قصراً ملوكياً . وقد وصفه لنا معاصره الفتح بن خاقان فى تلك العبارات الشعرية : « ملك جند الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت إلى لسن وفصاحة ، ورحب جناب للوافد وساحة ، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جمع، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع ، راقت إشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه أنهاراً وخلجاً »(٢)

وقال ابن الخطيب : « وكان المتوكل ملكاً عالى القدر، مشهور الفضل ، مثلا فى الجلالة والسرو ، من أهل الرأى والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس فى مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم » .

ونقل إلينا ابن الخطيب تلك التحفة الأدبية من نظم المتوكل، رواها وزيره أبوطالب ابن غانم قال: كتب إلى المتوكل بهذين البيتين فى ورقة كرنب من بعض البساتين :

انهض أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا(٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٣ ، ١٨٤ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) قلائد العقيان ص ٣٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٨٥ .

وحسبك أن تعلم أنه كان من بين وزراء المتوكل، الكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون «عظيم ملكهم، ونظيم سلكهم» حسبما يصفه صاحب القلائد، وصاحب مرثيتهم الرائعة التى نشير إليها فيما بعد، وهو من أبناء مدينة يابرة، وبنو القبطرنة وهم الشاعر المبدع أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى، وأخواه أبو محمد وأبو الحسن، وكلاهما أيضاً شاعر رائق النظم.

وفى عهد المتوكل على الله تمتعت مملكة بطليوس بفترة من السلام والأمن والرخاء، وسطع بلاطها فى ظل أميرها الحكيم العالم. والواقع أن مملكة بطليوس كانت بالرغم مما نزل بها من الأحداث والخطوب، فى عهد المظفر بن الأفطس، تتفوق من حيث انتظام الأحوال وسيادة الأمن والرخاء، على كثير من دول الطوائف الأخرى. وفى ذلك يقول المؤرخ «وكانت أيام بنى المظفر (يقصد بنى الأفطس) بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب، خلدت فيهم، ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم» (١).

وكان معاونه فى الحكم الوزير ابن الحضرمى، قد أساء السيرة، وتجبر وطغى وتعسف فى معاملة الناس فأقاله، وأبعده عن خدمته. فكتب إليه الوزير يستعطفه فراجعه المتوكل بخطاب جاء فيه: «ياسيدى وأكرم عددى، الشاكى ما جنته يده لا يدى، ومن أسأل الله التوفيق فى ذاته إذ حرمه فى ذاتى ... نعم فإنى رأيت الأمر قد ضاع، والإهمال قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقب إن شاء الله الخلف، وأقبلت استدفع من مواقع أنسى، وأشاهد ما ضيعته بنفسى، فلم أر إلا لججاً قد توسطتها، وغمرات قد تورطتها، فشمرت عن الساق للججها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذى أدخلنى فيه رأيك، ووطئت الساحل الذى كان يبعدنى عنه سعيك .... وقد أطمعت فى العدو ولبست لأهل دهرى الاستكبار والعتو، واستهنت بجيرانك، وتوهمت أن المروءة فى التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس على وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع ذلك فليس لك عندى إلا حفظ الحاشية وإكرام الغاشية» (٢).

ووقعت أيام المتوكل فى جارته مملكة طليطلة أحداث كان لها صدى فى مملكته.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ٤٢.
(٢) قلائد العقيان ص ٤١.

ذلك أن يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة الملقب بالقادر بالله ، كان أميراً ضعيفاً سيئ الخلال، وكانت تناهضه عصبة قوية من الأعيان . وفى سنة ٤٧٢هـ قامت ثورة فى طليطلة أضرمها أولئك الخصوم الناقمون، وحاولوا الاعتداء عليه، ففر من المدينة ناجياً بنفسه، ولجأ إلى بعض حصونه الخارجية، وخشى أعيان المدينة انهيار النظام ، وذيوع الفوضى ، فاتجهوا إلى المتوكل، واستدعوه لضبط المدينة، فأجابهم كارهاً، وغادر بطليوس إلى طليطلة ، وأقام بها زهاء عشرة أشهر يدبر شئونها ، حتى تهيأت لأميرها المنفى سبل العودة ، فغادرها المتوكل ، وقد حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر[١] .

وكان ألفونسو السادس خلال ذلك يشدد الضغط على مملكة طليطلة، ويرهقها بغاراته المتوالية ، وينتسف زروعها وأقواتها، تمهيداً لمشروعه الضخم فى الاستيلاء عليها . وكان القادر بن ذى النون يدافع العدو ما استطاع ، ويتطلع حوله للاستنجاد بجيرانه المسلمين ، فلا يجد سميعاً أو منجدا. ولم يتقدم لإغاثته سوى المتوكل بن الأفطس، فقد سار بجنده لمدافعة جند قشتاله. بيد أن ألفونسو السادس لم يشأ الدخول فى معارك عقيمة ، وآثر الانسحاب مؤقتاً، حتى تحين الفرصة المنشودة .

بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أعوام، حتى حلت النكبة بمملكة بنى ذى النون، واستولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وذلك فى المحرم من سنة ٤٨٧هـ (١٠٨٥ م) حسبما نفصل فى موضعه. وشعر ملك قشتالة على أثر إنزال هذه الضربة الفادحة بالمسلمين، أنه أضحى قادراً على تحدى دول الطوائف جميعاً، والقضاء عليها ، واحدة بعد أخرى. وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدى له الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ، ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجُه، وعبر النصارى نهر التاجُه لأول مرة، ومع ذلك أبى المتوكل أن يستجيب إلى الوعيد ، ورد على ملك قشتالة برسالة قوية حازمة ، تفيض شجاعة وإباء ونبلا يقول فيها :

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد

(١) أعمال الأعلام ص ١٨٠ .

ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة ، وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام ، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون ...

أما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، علمت أى مصاب أذقناك ، كما كانت آباؤك تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه، وإذا المال تتورعه. وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك ، أهدى ابنته إليه مع الذخائر التى كانت تفد كل عام عليه ، وأما نحن إن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك ، وجلاد تبصره فى ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، فنقوى عليك ونستعين ... وما تتربصون بنا إحدى الحسنيين، نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة، أو شهادة فى سبيل الله ، فيالها من جنة ، وفى الله العوض مما به هددت ، وفرج يفتر بما مددت ، ويقطع بك فيما أعددت »[1] .

وندب المتوكل قاضيه العلامة والفقيه الأجل، أبا الوليد الباجى، ليطوف بحواضر الأندلس ، ويتصل بالرؤساء ، ويدعوهم إلى لم الشعث، وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو ، فقام بالمهمة، واتصل بسائر الرؤساء، ولم يدخر وسعاً فى نصحهم ووعظهم[2] .

ومع ذلك فان المتوكل لم يجد من زملائه المسلمين من يستنصر به، وقد روعهم جميعاً ماحل بطليطلة، وكان ملك قشتالة قد استولى منذ سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) على مدينة قورية وقلاعها ، وهى من أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها على نهر التاجه ، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهداً لكى يجتاح أراضيها بسهولة. وكان المعتمد بن عباد قد تلقى منه مثل المطالب والنذر التى تلقاها المتوكل ، ورد عليه بمثل رد المتوكل أو أشد . وكان أن تطورت الحوادث بسرعة ، واعتبر ملوك الطوائف بالخطب الداهم، وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير ، الذى شاء القدر أن يكون نقطة تحول فى حياة الأندلس وفى تاريخها ، ونعنى استدعاء المرابطين .

---

(١) تراجع هذه الرسالة فى الحلل الموشية (تونس ١٣٢٩ هـ) ص ٢٠ — ٢٢ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٩٨ .

وقد كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد ، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة ، فى مقدمة المؤيدين لهذه الخطوة، وقد كتب إلى أمير المسلمين ، كما كتب المعتمد ، يلتمس عونه وغوثه. والظاهر أن المتوكل وجه صريخه لأمير المسلمين قبل سقوط طليطلة ، حسبما يبدو ذلك من رواية صاحب الحلل الموشية[1]، وقد انتهت الينا من قلم هذا الأمير العالم تلك الرسالة البليغة المؤثرة يصف فيها لأمير المسلمين محنة الأندلس ، وما دهاها من التفرق والانحلال ، ويستنصره إلى الجهاد ، والإنجاد العاجل :

« لما كان نور الهدى، أيدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت فى الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى ، لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها «أهلكهم الله»[2]، عند إفراط تسلطها واعتدائها[3]، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة[4] ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد[5] الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله وياللمسلمين ، أيسطوا هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم ، ألا حامى لما استبيح من الحرم ، وأنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التى ليس فيها عزاء، والبلية التى ليس مثلها بلاء . ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله، بالنازلة فى مدينة قورية ، أعادها الله ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلا ، ومن فيها من المسلمين بالجلا ، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند ، حتى تخلصت

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ . (٢) الزيادة من البيان المغرب (الأوراق المخطوطة)

(٣) البيان المغرب «واعتزازها» (٤) البيان المغرب «نفيسة» . (٥) البيان المغرب «استصفى» .

القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت فى يد العدو مدينة سُرية ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع ، فى الحصانة والامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة « وواسطة القلادة » تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى فى الأرض بها قاصيها ودانيها ، وماهو إلا نفس خافت ، وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافق ، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا ، وتتداركوها ركباناً ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله ؛ فإنكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى ، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصلها ويشرحها ، ويشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها ، فإنه لما توجه نحوك احتساباً ، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً ، عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة لسانه والسلام »[1] .

والظاهر أن المتوكل ، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين ، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد .

ونحن نقف فى سرد أخبار المتوكل ومملكة بطليوس عند ذلك الحد ، إذ هى تندمج عندئذ فى تيار الحوادث العامة ، الذى جرف الأندلس وملوك الطوائف جميعاً ، وهو ما سنعنى بتفصيله فى موضعه .

---

(١) البيان المغرب — فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها فى مكتبة القرويين .

الفصل الخامس

مملكة بنى ذى النون فى طليطلة

مملكة طليطلة وأهمية موقعها. بنو ذى النون. أصلهم وظهورهم. عبد الرحمن بن ذى النون وولده إسماعيل. أحوال طليطلة عقب الفتنة. استدعاء أهلها لإسماعيل. ولايته لطليطلة، وتلقبه بالظافر. كبير الجماعة أبو بكر الحديدى. وفاة إسماعيل وقيام ولده المأمون. الحرب بين المأمون وابن هود. هزيمة المأمون وارتداده. استعانته بفرناندو ملك قشتالة. عيث النصارى فى أراضى ابن هود. التحالف بين المأمون وابن عباد. استعانة ابن هود بملك قشتالة وعيثه فى أراضى طليطلة. تحالف المأمون مع غرسية ملك نافار. عيث النصارى فى أراضى طليطلة وسرقسطة. سعى أهل طليطلة للصلح. مهاجمة ابن هود لمدينة سالم. غزو القشتاليين لأراضى طليطلة. غزو النافاريين لأراضى سرقسطة. وفاة ابن هود وانتهاء الفتنة. النزاع بين المأمون وبين ابن الأفطس. إغارة ملك قشتالة على أراضى طليطلة. تعهد المأمون له بالجزية. استيلاء المأمون على بلنسية. تختلف الروايات فى ذلك. وفاة فرناندو ملك قشتالة والنزاع بين أولاده. فرار ألفونسو. التجاؤه إلى المأمون. محاولة المأمون غزو قرطبة وفشله. مؤامرة ابن عكاشة. استيلاؤه على قرطبة واستدعاؤه للمأمون. مقتل سراج الدولة ابن المعتمد. دخول المأمون قرطبة ثم وفاته. زحف ابن عباد على قرطبة واقتحامه إياها. مصرع ابن عكاشة. المأمون وخلاله. ثراؤه وقصوره الباذخة. ما ينسب إليه من البخل. ابن حيان يهدى إليه كتابه. يحيى القادر حفيد المأمون وخلفه. الوزيران ابن الفرج وابن الحديدى. بطش القادر بابن الحديدى. القلاقل والمؤامرات ضد القادر. ضغط ابن هود عليه. يلتمس حماية ملك قشتالة ويعترف بطاعته. الثورة فى طليطلة وفرار القادر. المتوكل بن الأفطس يتولى حكم طليطلة. استعانة القادر بألفونسو واسترداده لعرشه. مشروع ألفونسو لغزو طليطلة. المعتمد بن عباد يعقد حلفاً مع ألفونسو خضوع ملوك الطوائف لملك قشتالة. اختلاف أهل طليطلة. الحزب الموالى للنصارى. تخريب ألفونسو لأراضى طليطلة. انصراف ملوك الطوائف عن غوثها. أبو الوليد الباجى ودعايته. عمر المتوكل يحاول إنجادها. حصار ألفونسو لطليطلة. القادر وموقفه المريب. تفاقم الخطب. محاولة أهل المدينة التفاهم مع ألفونسو. إصرار ألفونسو على التسليم. عروض التسليم وشروطه. ألفونسو السادس يدخل طليطلة. مغادرة القادر إياها. سقوط طليطلة وآثاره المادية والأدبية. طليطلة حاضرة قشتالة. أثر النكبة فى موقف الطوائف. فجيعة الشعر الأندلسى.

لم تكن أهمية مملكة بنى ذى النون، فى طليطلة وأعمالها، فى ضخامة رقعتها، وإن كانت أيضاً من أكبر دول الطوائف رقعة، ولكن فى موقعها الحربى (الاستراتيجى) على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى. ونحن نعرف أن طليطلة وأعمالها، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تعرف بالثغر الأوسط

لمتاخمة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية ، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالى الأوسط ، ضد عدوان النصارى .

ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بنى ذى النون، على أثر انهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس ، فى تلك المنطقة ، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة. وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس ، تمتد شرقى مملكة بطليوس، من قورية وتَرجالُه نحو الشمال الشرقى ، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق، جنوب غربى مملكة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجُه متاخمة لقشتالة القديمة ، وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة ، عند مدينتى المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة . ومن أعمالها مدينة سالم ووادى الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالُه وغيرها .

كانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غنما لبنى ذى النون ، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ، ولكن سيئة الطالع ، قصيرة الأمد . وقد كان بنو ذى النون من أصول البربر ، من قبائل هوارة، ويقال إن أصل لقبهم هو زنون ، فتطور بمضى الزمن إلى رسمه المعروف ، أعنى ذى النون ، وقد ظهروا وفقاً لأقوال الرواية ، منذ أيام الدولة الأموية ، حيث كان جدهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكما لحصن إقليش، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن. وظهر جدهم ذو النون هذا ، ونال عطف الأمير محمد عن طريق حادث عارض ، خلاصته أن الأمير محمدا، عند اجتيازه فى بعض غزواته لأرض شنت برية [1] ، موطن ذى النون اعتل له خصى من أكابر خصيانه، وهو فى طريق العودة من غزاته ، فتركه عند ذى النون حتى يبرأ من علته أو يموت ، فاعتنى به ذو النون عناية فائقة حتى برئ ، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة ، فسر الأمير محمد بمروءته ، وكافأه على صنيعه بأن أهدى له سجلا بولايته على ناحيته ، واعتباره زعيم قومه ، وارتهن بعض أولاده كفالة بحسن طاعته، ومن ذلك الحين يظهر اسم بنى ذى النون على مسرح الحوادث . ومنها أن موسى بن ذى النون ، اشترك أيام الفتنة فى الخلاف

---

(١) شنت برية وبالإسبانية Santaver ، هى بلدة حصية كانت تقع شمالى غربى قونقة ، وجنوبى شرقى وادى الحجارة على مقربة من منابع نهر التاجه، وقد كانت قاعدة للكورة الأندلسية التى تسمى بهذا الاسم ، والتى تشغل منطقة قونقة وإقليش حتى شرقى طليطلة .

وخرج عن الطاعة ، وذلك فى سنة ٢٦٠ هـ ، وأخضعه الأمير محمد [١] . ومن ذلك أيضاً أن ابنه الفتح بن موسى ، خرج فى مستهل عهد الناصر بقلعة رباح وأحوازها ، فبعث إليه الناصر بحملة طاردته وانتهت بإخضاعه .

ويقول لنا ابن الخطيب إن بنى ذى النون لم يكن لهم رياسة ولانباهة إلا فى دولة المنصور بن أبى عامر ، ولكن ابن حيان يذكر لنا من جهة أخرى «أنه فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ فى عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل ابن عامر ذى النون على وبذة »[٢] وحصنه ، وأضيفت اليه أكثر حصون شنت برية وقراها[٣] . ويقع حصن وبذة هذا على مقربة من شمال حصن إقليش معقل بنى ذى النون فيما بعد . وعلى أى حال ففى أيام المنصور، ظهر عبد الرحمن ابن ذى النون وولده إسماعيل، وخدم فى ظل المنصور ، والظاهر أن عبد الرحمن هذا هو ولد مطرف بن إسماعيل بن ذى النون السابق ذكره . فلما انقرضت الدولة العامرية، لحق بالثغر، واجتمع إليه بنو عمه ، ومنحه سليمان الظافر حكم إقليش. ولما مات الفتى واضح العامرى حاكم قلعة قونقة ، استولى عليها إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون، وضبطها حتى يجىء بزعمه من يولى عليها . وأخذ إسماعيل يستولى على الأنحاء المجاورة شيئاً فشيئاً، حتى بسط حكمه على كورة شنتبرية كلها . وأولاه سليمان الظافر عطفه ، فمنحه رتبة الوزارة، ولقبه بناصر الدولة . ونحن نعرف أن البربر كانت لهم فى أيام سليمان الغلبة والكلمة العليا ، فلما اضطرمت الفتنة وانهارت السلطة المركزية ، أعلن إسماعيل استقلاله بما فى يده من الأراضى ، وجبى الأموال ، واتسعت أعماله . وينوه ابن حيان ، ببخله وإمساكه فى النفقة، ثم يصفه فيما يلى : « ولم يرغب فى صنيعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، ولا عرّج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم فى حق ولا باطل، ولا حظى أحد منه بطائل ، وكان

---

(١) نقل إلينا ابن حيان هذه المعلومات عن عيسى بن أحمد الرازى ، ووردت فى القطعة المخطوطة من تاريخ ابن حيان المحفوظة بمكتبة جامع القرويين (لوحة ٢٧٢ ب) .

(٢) وهى بالأسبانية Huete

(٣) ورد ذلك فى المقتبس لابن حيان — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد المنشورة بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ١٥٠ .

مع ذلك سعيد الجد ، تنقاد إليه دنياه ، وتصحبه سعادته ، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه ، وهو كان فرط الملوك فى إيثار الفرقة ، فاقتدى به من بعده ، وأموا فى الخلافة نهجه ، فصار جرثومة النفاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن » وهكذا كان مؤسس مملكة بنى ذى النون [١] .

وكانت طليطلة حينما اضطرمت الفتنة ، وانهار سلطان الحكومة المركزية ، قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى. بيد أنه يبدو أنه لم يكن منفرداً بالرياسة ، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على نحو ما كانت الجماعة فى بدايتها بقرطبة ، وكان من هؤلاء ابن مسرّة ، وعبد الرحمن ابن متيوه . ثم وقع الخلاف بين الجماعة ، وعزل القاضى ابن يعيش ، وسار إلى قلعة أيوب وتوفى بها فى سنة ٤١٨ هـ [٢] . ولما توفى عبد الرحمن بن متيوه ، خلفه فى الحكم ولده عبد الملك ، وأساء السيرة ، واضطربت الأمور ، فرأى أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة ، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن ابن ذى النون فى شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة ، فوجه إليهم ولده إسماعيل ، وكان ذلك فى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها ، وتلقب بالظافر وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجالة ، واعتمد فى تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبى بكر بن الحديدى ، وكان عالماً وافر العقل والدهاء ، يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة ، فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته . ولم يطل أمد اسماعيل فى الملك أكثر من بضعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . وفى عهده ذاعت قصة ظهور هشام المؤيد ، وكان هشام المزعوم هذا بقلعة رباح من أعمال مملكته ، فأخرج منها وأخذ إلى إشبيلية ، حيث أظهره القاضى ابن عباد ، وأخذ له البيعة وأعلن خلافته ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه .

فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل ، وتلقب بالمأمون ، وسار على سنة أبيه فى

---

(١) راجع فى أصل بنى ذى النون ونشأتهم : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٠ و ١١١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ .

(٢) ابن بشكوال فى الصلة رقم ١٥٢٠ .

تقديم وزيره ابن الحديدى ، والاعتماد على رأيه فى مهام الشئون . وكان ثمة إلى جانب ابن الحديدى ثلاثة وزراء آخرين ، أوصى أبوه إسماعيل بأن يشركهم فى رأيه ، ويعتمد على عونهم ، وهم الحاج بن محقور ، وابن لبون ، وابن سعيد ابن الفرج[1]. وفى عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقاً حتى بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد ، وساد بها الأمن والرخاء .

بيد أن عهد المأمون الذى استطال ثلاثة وثلاثين عاماً، كان فى الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات ، التى اضطرمت بين المأمون ، وبين منافسيه القويين ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وابن عباد صاحب إشبيلية . ووقع النزاع بادئ بدء بين المأمون، وبين ابن هود جاره من الناحيه الشمالية الشرقية . وكانت سلسلة المدن والقلاع الحصينة التى تمتد بين الثغر الأعلى ، وبين مملكة طليطلة، منذ قلعة أيوب حتى وادى الحجارة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين ، وكانت مدينة وادى الحجارة بالأخص مثار نزاع بينهما، وبالرغم من أنها كانت من أعمال مملكة طليطلة، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا ينزعون إلى الانضواء تحت سلطان سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، وكان سليمان يعمل على بث الاضطراب فيها، على يد رسله وأعوانه ، فلما نضجت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة ولده وولى عهده أحمد فنازلتها ، ثم دخلتها بمعاونة بعض أهلها الضالعين معه (٤٣٦هـ — ١٠٤٤ م) . وما كاد المأمون بن ذى النون يقف على هذا الاعتداء، حتى هرع فى قواته إلى وادى الحجارة ، ونشبت بينه وبين أحمد بن هود معارك كانت الغلبة فيها لابن هود ، فارتد بقواته ، وابن هود يطارده حتى حصره فى مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجه غربى طليطلة ، وشدد ابن هود فى الضغط على المأمون ومضايقته، ثم كتب إلى أبيه يخبره بما تهيأ له ، فكتب إليه أبوه أن يرفع الحصار عن طلبيرة ، وأن يترك المأمون وشأنه ، فصدع بالأمر ، وارتد بقواته عائداً إلى سرقسطة ، ونجا المأمون من مأزق شديد الحرج .

ولم يشأ المأمون أن يقف عند هذا الحد، بل صمم على متابعة الحرب والانتقام من ابن هود ، ففاوض فرناندو الأول ملك قشتالة ، وطلب عونه ، وتعهد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٣ .

بأن يقر بسيادته ، وأن يؤدى له الجزيه[1] ، فاستجاب فرناندو لدعوته؛ وبعث سريات من جنده ، فعاثت فى أراضى ابن هود المتاخمة لقشتالة، وأمعنت فيها تخريباً ، وكان ذلك فى أوان الصيف والزروع على وشك الحصاد، فقام الجند النصارى بحصدها ، ونقلها إلى بلادهم ، وجردت المنطقة من سائر الزروع والأقوات ، وقتل النصارى ، وسبوا ما استطاعوا ، ثم عادوا إلى بلادهم ؛ كل ذلك وابن هود ممتنع فى حصونه مجتنب للاشتباك مع المعتدين . وانتهز المأمون هذه الفرصة ، فأغار بدوره على أراضى ابن هود المتاخمة له وعاث فيها .

ورأى المأمون فى نفس الوقت أن يقوى أواصر الصداقة مع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، طمعاً فى عونه ونصرته على ابن هود ، فوعده ابن عباد بما طلب ، وأسفرت المفاوضات بينهما ، عن اعتراف المأمون بالدعوة الهشامية ، التى احتضنها ابن عباد ، ورفضها فى البداية إسماعيل بن ذى النون ، وأخذت البيعة لهشام المؤيد فى طليطلة، ودعى له على منابرها[2] . بيد أن ابن عباد ما لبث أن شغل بحروبه مع ابن الأفطس ، ولم ينل المأمون من عونه شيئاً .

وأما ابن هود فإنه مالبث أن انحدر إلى نفس الطريق الذى انحدر إليه المأمون وسعى بدوره إلى محالفة النصارى، واستعدائهم على خصمه ابن ذى النون؛ وبعث إلى فرناندو أموالا وتحفاً طائلة ، على أن يغير على أراضى ابن ذى النون ، فاستجاب فرناندو إلى دعوته ، وبعث سرياته فاخترقت أراضى طليطلة شمالا ، حتى وادى الحجارة ، وقلعة النهر (قلعة هنارس) ، وأمعنت فيها عيثاً وتخريباً ، فاستشاط المأمون غيظاً ، والتمس محالفة غرسية ملك ناڤار أخى فرناندو ملك قشتالة ، وبعث إليه بالأموال والتحف ، فأغار بقواته على أراضى ابن هود المتاخمة له، فيما بين تطيلة ووشقة وعاث فيها، وافتتح منها قلعة قلهرة (٤٣٧هـ — ١٠٤٥ م) ، وكانت مما افتتحه المنصور بن أبى عامر من أعمال ناڤار الجنوبية ، وقام فرناندو ملك قشتالة مرة أخرى بالإغارة على أحواز طليطلة وتخريبها . وهكذا استباح النصارى أراضى المملكتين الإسلاميتين ، بمساعى ابن هود وابن ذى النون الذميمة ، وانهارت فيها خطوط الدفاع ، وساءت أحوال المسلمين إلى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨ ، وكذلك: P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p.53

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠ .

أبعد حد. واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود بعض كبرائهم، سعياً إلى طلب الصلح والمهادنة، فقصدوا إليه فى سرقسطة فناشدوه السلم، وحذروه من العواقب، ومما تهيأ للنصارى من الظفر، فتظاهر بالقبول، وكذلك أبدى ابن ذى النون ميله إلى المهادنة والصلح، وصرف حلفاءه النصارى إلى بلادهم.

على أن ابن هود لم يكف عن خطته، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه النصارى، وهاجم مدينة سالم، وهى نهاية أعمال طليطلة المتاخمة له، وقتل معظم المدافعين عنها، ثم استولى على سائر الحصون التى كان قد انتزعها منه المأمون، وكان معه فى تلك الغزوة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذى النون، أخو المأمون الثائر عليه يدله على عوراته وثغراته. وهرع المأمون بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها، وانتهز النصارى من حلفاء ابن هود هذه الفرصة، فعاثوا فى أراضى طليطلة كرة أخرى، واشتد الخراب والكرب بأهل طليطلة، فبعثوا إلى فرناندو يسألونه الصلح والمهادنة، فطالب منهم أموالا كثيرة، واشترط شروطاً فادحة، عجزوا عن قبولها، وبعثوا يقولون له، لو كانت لدينا هذه الأموال، لأنفقناها على البربر، واستدعيناهم للدفاع عنا، فرد عليهم فرناندو بما يأتى، وهى أقوال تمثل سياسة اسبانيا النصرانية نحو الأندلس أصدق تمثيل:

«أما استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهددونا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالى من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديماً فى أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم» (١).

وفى الوقت نفسه كانت قوات غرسية ملك نافار، حليف ابن ذى النون، تغير على أراضى ابن هود، وتعيث فيها. وهكذا استمرت الفتنة والنضال بين «هذين الأميرين المشئومين على المسلمين» ثلاثة أعوام من سنة ٤٣٥ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ، ولم تنقطع إلا بموت سليمان بن هود فى العام ذاته، وكانت فتنة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢.

وضيعة كبيرة ، ونموذجاً صارخاً لتلك الحروب والمنافسات الإنتحارية المدمرة التى انحدر إليها ملوك الطوائف (١) .

وتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء لوفاة خصمه الألد ، وهدأت الأمور فى الثغر الأعلى ، إذ قسمت مملكة ابن هود بين أولاده الخمسة كما سيجئ ، بيد أن المأمون لم يلتزم السلم والهدوء طويلا ، بل اتجه إلى مخاصمة بنى الأفطس جيرانه من الغرب ، ونشبت بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس سلسلة من المعارك المحلية ، لم تسفر عن أية نتائج ذات شأن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن هذه المعارك ، قد نشبت بين الفريقين على الأرجح بعد سنة ٤٤٣ﻫ (١٠٥١ م).

وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد عاد فى تلك الآونة إلى الإغارة على أراضى مملكة طليطلة ، ولكن فى تلك المرة لحسابه الخاص ، وكان هذا الملك القوى ، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة ، أو على الأقل إلى أن يرهقها بمطالبه فى أداء الجزية ، ثم يتوصل باستصفاء أموالها إلى إضعافها. ففى سنة ١٠٦٢م (٤٥٤ ﻫ) خرج فى جيش قوى من الفرسان والرماة ، وانقض على أراضى مملكة طليطلة الشمالية ، فخربها وعاث فيها عيثاً شديداً ، ولم يجد المأمون فى النهاية بداً من أن يذعن إلى طلب الصلح ، وأن يتعهد بأداء الجزية .

وكان من أهم أعمال المأمون بعد ذلك ، استيلاؤه على بلنسية وأعمالها. وكانت بلنسية يومئذ تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، وهو حفيد للمنصور وكان قد ولى حكمها على أثر وفاة أبيه عبد العزيز فى آخر سنة ٤٥٢ ﻫ ، وكان صهراً للمأمون بن ذى النون ، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول ، فأهانها وأساء عشرتها ، لما كان عليه من ذميم الصفات ، والخلاعة ، والانهماك فى الشراب ، والانحطاط فى مهاوى اللذات الوضيعة . فحقد عليه المأمون وأضمر له الشر ، وكانت ثمة أسباب سياسية أخرى لغضب المأمون على صهره ، خلاصتها أنه طلب إليه أن يعاونه بالجند فاعتذر عبد الملك بأنه لا يستطيع بذل مثل هذه المعاونة ، نظراً لتحالف الفتيان العامريين أمراء قسطلونة وشاطبة ومربيطر ضده ، وتربصهم به . فاعتزم المأمون أمره ضد صهره ، وهنالك فى استيلاء

---

(٢) راجع فى حروب المأمون وابن هود ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨–٢٧٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وراجع دوزى : Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 74—75

المأمون على بلنسية روايتان الأولى ، أنه قدم إلى بلنسية زائراً لصهره ، فاستقبله عبد الملك هو وغلمانه وعبيده بقصره ، فأقام لديه أياماً ، ثم دبر له فى ذات ليلة كميناً ، فقبض عليه وعلى ابنه ، وأخرجهما ليلا إلى بلدة شنت برية ، واستولى بذلك على بلنسية بأيسر أمر .

وأما الرواية الثانية فتقول لنا إن المأمون استعد سراً لغزو بلنسية، واستعان بفرقة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرناندو الأول وصاحب السيادة الاسمية عليه ، وأن القوات المتحالفة دهمت بلنسية ، والبلنسيون مثل أميرهم غافلون غارقون فى اللهو واللعب، فلم يستطع البلنسيون دفاعاً، ومزقت قواتهم، وقتل منهم عدد جم، وأسر عبد الملك بن أبى عامر وآله ، ولم ينقذ حياته سوى تدخل زوجه ابنة المأمون . وتسمى الرواية هذه الموقعة بموقعة بطرنة ، وهى بلدة من ضواحى بلنسية، وتنسب وقوعها إلى سنة ٤٥٥ هـ أو ٤٥٧ هـ أو ٤٥٨ هـ ، بيد أن المرجح أنها وقعت فى ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥ م) . وتختلف الرواية فى مصير عبد الملك بن أبى عامر ، فيقال إن صهره المأمون اعتقله فى شنت برية أو قلعة إقليش ، أو قلعة قونقة[١] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر ١٠٦٥)، وثارت بين أولاده الثلاثه سانشو ملك قشتالة ، وألفونسو ملك ليون ، وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواماً ، وانتهت مرحلتها الأولى فى سنة ١٠٧١ م ، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه ، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية ، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون ، وعاش فى بلاط طليطلة زهاء تسعة أشهر معززاً مكرماً ، حتى توفى أخوه سانشو قتيلا تحت أسوار سمورة ، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا ، فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه . ويقال إنه حينما وصل إليه نبأ وفاة أخيه وهو بطليطلة أخفاه ، وأراد أن يغادرها سراً ، ففطن المأمون إلى ذلك ، وحاول اعتقاله ، ولكنه استطاع الفرار . وعلى أى حال ، فإن ألفونسو ، استطاع خلال إقامته بطليطلة فى ضيافة صديقه وحاميه المأمون ، أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ و٢٥٣ و٢٦١ و٢٦٧ و٣٠٣ ، ودوزى : Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 79 وراجع أيضاً اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨) ص ٤٩ .

ومواطن ضعفها ، وأن يستغل ذلك فيما بعد ، فى تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه[١] .

وقد أشرنا من قبل عند الكلام على دولة بنى جهور بقرطبة ، إلى ماحدث من محاولة المأمون بن ذى النون غزو قرطبة ، وانتزاعها من يد الجهاورة ، وكيف استغاث عبد الملك بن جهور بصديقه ابن عباد ، فبعث إليه بالمدد تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، ورد المأمون عن المدينة ، ولكن قوات ابن عباد استولت عليها بطريقة غادرة ، وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد ابن عباد من قبل ، وانتهى الأمر بالقضاء على دولة الجهاورة (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) وندب المعتمد لحكمها ولده الحاجب سراج الدولة عباداً بن محمد بن عباد ، وأبقى معه حامية بقيادة ابن مرتين .

ولكن المأمون بن ذى النون لم يقف عند هذا الحد ، ولبث يتحين الفرصة لتنفيذ مشروعه فى الاستيلاء على قرطبة ، وهنا لجأ إلى سلاح التآمر والدس ، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكم بن عكاشة ، وكان مغامراً وافر الجرأة ، وكان من قبل من معاونى ابن السقاء ، وزير بنى جهور ، فلما قتل ابن السقاء ، قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وزج إلى السجن ، ففر من محبسه ولحق بالمأمون ابن ذى النون ، فاستخدمه وولاه أحد الحصون القريبة من قرطبة ، وكان «شهماً صارماً » . وتفاهم المأمون مع ابن عكاشة ، على تدبير مؤامرة للفتك بالعباديين وأميرهم ، والاستيلاء على قرطبة . فوضع ابن عكاشة خطته ، ولبث يدبر أمره ، ويحشد إلى جانبه من استطاع من المغامرين ، وفى ذات ليلة دخل المدينة فى جمع من شيعته بواسطة رجال من أنصاره فتحوا له الأبواب ، ولم يفطن قائد العباديين ابن مرتين إلى ما يحدث من حوله ، وكان رجلا متهاوناً ، عاكفاً على لهوه وشرابه . وقصد المغيرون دار ابن جهور حيث كان يقيم سراج الدولة ، ودهموه على غرة ، فلقيهم فى نفر من رجاله ، وقتل مدافعاً عن نفسه . ثم قصدوا بعد ذلك إلى دار ابن مرتين ، وكان منكباً على لهوه ، فلما وقف على الخبر ، فر تحت جنح الظلام ، ولكنه أخذ بعد أيام قلائل وقتل . وفى صباح اليوم التالى

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ ، وكذلك : P.y Vives : Los Reyes de Taifas p. 53

كانت خطة ابن عكاشة قد كللت بالنجاح ، فبسط حكمه على المدينة ، وانضم إليه كثيرون من الدهماء ، ودعا الناس إلى بيعة المأمون بن ذى النون وطاعته ، وبعث إليه برأس سراج الدولة . وكان المأمون يقيم يومئذ فى بلنسية ، فقدم على عجل ، ودخل قرطبة فى موكب عظيم ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى أواخر ذى القعدة من نفس العام . واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها . ويقال إنه توفى مسموماً . وتولى ابن عكاشة من بعده حكم قرطبة ، نائباً عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون وخلفه فى حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون إيذاناً بتطور الحوادث . ذلك أن المعتمد بن عباد ، مذ قتل ولده وضاعت قرطبة ، كان يضطرم رغبة فى استرداد المدينة والانتقام لولده ، وكان جماعة من أهل قرطبة قد بعثوا إليه يدعونه للقدوم، فما كاد المأمون يختفى من الميدان ، حتى زحف على قرطبة فى قواته ، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له بالمقاومة ، ففر من المدينة ، ودخلها جند ابن عباد على الأثر ، وبعث المعتمد فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته ، وجىء به فصلب مع كلب إمعاناً فى الزراية به ، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة ، فولاه يحيى بن ذى النون حاكماً لقلعة رباح (١) ، وكان حريز هذا شاعراً مطبوعاً ذكره الفتح فى « مطمح الأنفس» (٢) .

وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف، وأطولهم عهداً ، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وامتدت رقعة مملكة طليطلة فى عهده حتى وصلت شرقاً إلى بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء . وجمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته قصوراً باذخة اشتهرت فى ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وكان منها مجلسه الشهير المسمى « المكرم » كان آية فى الروعة والبهاء .وقد نقل إلينا ابن حيان عن ابن جابر ، وقد كان من شهوده فى حفلة من حفلات المأمون الباذخة ، بعض أوصافه . قال : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٨ و ١٥٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وراجع دوزى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 122 — 126

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٩٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١٧٩ .

من بهى زخرفه ، الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه ، إلى ما فوقه ، إزاره الرائع الدائر بأسّه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ، ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار وأشكال الثمر . وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى إلى ما فوقها . قد فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت فى أماديح مخترعه المأمون . وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس ، بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار ، وصور أنعام وأشجار ، يذهل الألباب ويقيد الأبصار . وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير ، وأبدع تقدير ».

ثم قال : « ولهذه الدار بحيرتان ، قد نصت على أركانهما صور أسود مصنوعة من الذهب الإبريز ، أحكم صياغة تتخيل لمتأملها ، كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء ، هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين . وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح ، محفور من رفيع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت فى جنباته ، صور حيوان وأطيار وأشجار ... » .

وذكر ابن بدرون أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حواليها محيطاً بها ، متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل[١] .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣ . وراجع «سراج الملوك» للطرطوشى (القاهرة) ص ٤٥ .

ونقل إلينا ابن حيان أيضا ، عن ابن جابر أوصاف ذلك الحفل الباهر الذى أقامه المأمون ، احتفالا بختان حفيده يحيى ، الذى تولى الحكم فيما بعد باسم القادر ، وفيه من صور البذخ والإغداق والسعة ما ينم عن الغنى الطائل ، الذى حققه بنو ذو النون، واتسم به بلاطهم. بيد أن المأمون كان بالرغم من ذلك ينسب إلى التقتير والشح ، وكان قليل من الشعراء يقصدون إليه للمديح « لقلة نائله ، وتفاهة طائله » على حد قول ابن بسام [١] .

والواقع أنه لم يكن ببلاط بنى ذى النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان الشأن فى إشبيلية وألمرية وبطليوس . بيد أننا نجد مع ذلك أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون فى ظل المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأس، صاحب الموشحات المشهورة، والعلامة الرياضى ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمى «طبقات الأمم»، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، والعلامة النباتى ابن بصّال الطليطلى .

وقد رأينا فيما تقدم كيف ينوه ابن حيان أيضا، بما جبل عليه مؤسس دولة بنى ذى النون اسماعيل ، من البخل والتقتير ، ومع ذلك فإنه مما يلفت النظر حقاً ، أن ابن حيان لم يجد من يهدى إليه مؤلفه التاريخى الضخم ، سوى المأمون بن ذى النون، إذ يقول لنا فى مقدمته إنه كان بعد تأليفه ينوى الاستئثار به لنفسه ، وأن يخبئه لولده ضناً بفوائده الجمة على من تنكب إحماده به إلى ذمه ومنقصته ، ثم يقول : « إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية ، أتتنى على بعد الدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير المؤثل الإمارة ، المأمون ذى المجدين ، الكريم الطرفين يحيى بن ذى النون » [٢] .

— ٢ —

وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر. ذلك أن هشاماً ولد المأمون، توفى قبل وفاته أو أنه قد حكم بضعة أشهر فقط ثم توفى [٣] . وكان القادر

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان ، فى أوصاف الحفلات والقصور المأمونية ، القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ — ١٠٤ و ١١٤ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك :
P. y Vives: Los Reyes de Taifas (Cit. Cronica general p. 54, nota)

فتى حدثاً ، قليل الخبرة والتجارب قد ربى فى أحجار النساء، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فغلب على أمره العبيد والموالى . وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن مفككة . وكان المأمون قد قسم الأعمال بين وزيريه الأثيرين ، وهما ابن الفرج والفقيه أبو بكر بن الحديدى ، وكان الأول يختص بتدبير الأجناد ، والنظر فى طبقات القواد ، والشئون السلطانية ، والأعمال الديوانية ، ويختص الثانى بالنظر فى الشئون المالية وشئون الرعية ، وإبداء الرأى والمشورة . وأوصى المأمون قبل وفاته حفيده ، بأنه متى اضطلع بالحكم ، أن يعتمد على عون ابن الحديدى ونصحه ، وأن يأخذ رأيه فى كل أمر ، واتخذ العهود الوثيقة على ابن الحديدى ، أن يخلص النصح لحفيده ، وأن يشد أزره بكل ما وسع . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى بدأ نفر من خاصة القادر يسعون لديه فى حق ابن الحديدى ، ويوغرون صدره عليه ، ويقنعونه بأنه لا يمكن أن يحكم بصورة حقيقية، حتى يتخلص من نير ابن الحديدى وطغيانه ؛ وكان المأمون قد قبض من قبل بإيعاز ابن الحديدى على جماعة من أعيان طليطلة ، واعتقلهم بالمعتقل خشية انتقاضهم فرأى القادر بعد أن استقرت لديه فكرة التخلص من ابن الحديدى ، أن يستظهر بهم عليه ، فأطلقهم واستدعاهم إلى مجلسه ، فلما حضر ابن الحديدى ورآهم ، استشعر الخطر ، وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، فغادر القادر المكان ، وفتك الحضور بابن الحديدى ، ونهبت دوره ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) .

ولم يلبث القادر أن أدرك سقطته ؛ وأخذ يجنى ثمار جريمته . فقد وهم أنه تخلص من نير ابن الحديدى ، ولكنه وقع فى براثن تلك الطغمة التى آزرته فى الجريمة ، وبدأ أولئك الأعيان الحاقدون ، خصوم جده القدماء ، يحيكون له الدسائس ، ويضعون الصعاب فى طريقه ، ويثيرون الشعب ضده ، حتى ضعف سلطانه ، وبدأت أعراض الثورة تبدو فى النواحى . وكان ابن هود صاحب سرقسطة ، يرهقه بمطالبه وغاراته ، ويستعين ضده بالجند النصارى ، حتى انتهى بأن انتزع منه مدينة شنتبرية . ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبدالعزيز ببلنسية وخلع طاعة بنى ذى النون ، ونادى بنفسه أميراً مستقلا ، فداخله ابن هود وخطب إليه ابنته أملا فى أن يستطيع بذلك التغلب على بلنسية . وكادت مدينة

قونقة تسقط فى يد سانشو راميرز ملك أراجون ، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال . وحاول القادر أن يرد خصومه ، فبعث جنده تحت إمرة الفتى بشير لمقاتلة ابن هود وراميرز ، ولكنهما انصرفا دون قتال .وعندئذ اضطر القادر أن يتجه ببصره إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأن يلتمس عونه وحمايته . وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل ، وقبل تأدية الجزية . وحذا القادر بالطبع حذوه ، ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط فى مطالبه ، ويطالب القادر بالمال تباعاً ، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود ، وقد تسلم منها بالفعل حصون سرية وقتورية وقنالش ، كل ذلك والقادر عاجز عن رده ، مرغم على إرضائه ، حتى كادت خزائنه تنضب ، وكان خصومه فى الداخل من جهة أخرى يدبرون السعى لإسقاطه. وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، فاضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلجأ مع أهله وولده إلى حصن من حصونه الشرقية ، هو حصن وبذة (٤٧٢ هـ) وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ، ولا حكومة تقى المدينة شر الفوضى ، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ، ليتولى أمرهم ، وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً ، وقدم إلى طليطلة ، وقام بالأمر فيها .

وفى تلك الأثناء سار القادر بن ذى النون من ملجئه إلى مدينة قونقة ، وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل فى عونه وإغاثته ، ويطلب منه العون فى محنته .فاستجاب ألفونسو لدعوته ، وهو يزمع فى قرارة نفسه ، أن ينتهز كل فرصة سانحة ، وسار معه إلى طليطلة فى سَرِيّة من فرسانه. وكان المتوكل بن الأفطس خلال ذلك يجد فى اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب القادر ، من أثاث وفراش وآنية وسلاح وكتب وغيرها ، حتى بعث منها إلى بطليوس المقادير الجمة . فلما شعر بحركة ألفونسو ومقدم القادر ، غادر طليطلة مسرعا إلى حاضرته ، وذلك بعد أن قضى فى حكمها زهاء عشرة أشهر ، ويقال إن ألفونسو حاصر طليطلة بقواته ، واضطر ابن الأفطس أن يغادرها بطريق الفرار (إبريل ١٠٨٠)[١].

---

(١) ابن الخزرجى فى كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 16

ودخل القادر طليطلة فى حمى ألفونسو وجنده النصارى ، بعد أن تصدى له أهلها وحاولوا رده بالقوه ، فنكلت بهم الجند النصارى ، ومزقوهم شر ممزق ، وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى ، والفوضى تسود المدينة ، وأهلها فى كدر ووجوم ، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير ، وكان ذلك فى آخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م)[١] .

— ٣ —

والواقع أن كل شىء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة . ذلك أن ألفونسو السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، وكانت وهى فى يد ملكها الضعيف المتخاذل ، تبدو له ثمرة دانية القطوف ، بعد أن غدا القادر فى يده شبه أسيره . وتقول لنا الروايات القشتالية إن القادر كان حينما طلب من ألفونسو معاونته على استرداد المدينة ، قد تعهد له بأن يحكمها باسمه ، وأن يسلمها إليه متى شاء ، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقر إمارته . بيد أن الحوادث التالية ، وموقف القادر فى الدفاع عن مدينته ، يجعلنا نشك فى أنه قطع مثل هذا العهد . وعلى أى حال فإن سقوط طليطلة فى يد القشتاليين ، لم يحدث دون ممهدات ووقائع عنيفة .

وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية ، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، لما رأى من استفحال قوة ألفونسو ، وتغلبه على سائر ممالك الطوائف المتاخمة لمملكته ، قد خشى أن ينساب تيار الغزو إلى أراضيه ، ورأى أن عقد المهادنة والصلح مع ملك قشتالة ، هو خير ضمان لاتقاء شره ، وسلامة مملكته . فبعث وزيره البارع ابن عمار إلى ليون ليفاوض ملك قشتالة ، وانتهى ابن عمار إلى أن عقد معه معاهدة ، يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك ، بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو أن يتركه حراً طليقاً فى أعماله ضد طليطلة ، وألا يعترض مشروعه فى الاستيلاء عليها . وربما كان فى الرسالة التى بعث بها المعتمد فيما بعد إلى

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ — ١٢٧ .

ألفونسو السادس ما يؤيد هذه الرواية،حيث يعرب المعتمد عن ندمه لمسالمة ملك قشتالة؛وقعوده عن نصرة إخوانه . وتزيد الرواياتالقشتالية على ذلك أن المعتمد ابن عباد قدم فى هذه المناسبة أو فى مناسبة لاحقة ، إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها التواريخ القشتالية« بزائدة » وذلك لكى يكون مهرها مااستولى عليه من أراضى طليطلة ، حتى لاينزع النصارى منه هذه الأراضى ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها ، عند الكلام على الفتح المرابطى لمملكة إشبيلية .

وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف ، قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية ، إلا ملك بطليوس الشهم عمر المتوكل ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه، فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجو قد أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه ، وأنه لن يجرأ أحد أن يقف فى طريقه . وكان مما يقوى أمله أن أهل طليطلة ، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم ،وأن حزباً قوياً منهم يناصر سياسته وأطماعه ، ويشجعه على العمل ، وكانت الغزوات والحملات المتوالية ،التى شنها ألفونسو على أراضى طليطلة ، حتى ذلك الحين، سواء لحسابه الخاص ، أوبحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه؛ قد نالت من هاتيك السهول ، وخربت كثيراً من ربوعها النضرة ، وأشاعت فيها الضيق والحاجة ، وأخذت العاصمة طليطلة ، تتأثر بهذا الضغط على مواردها ، بيد أن ألفونسوكان يزمع أن يستمر فى حملاته المخربة حتى يتم تجريد المدينة العظمى من سائر مواردها . وقد بدأت هذه الحملات الجديدة منذ سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١ م)؛ أى مذ عاد القادر إلى عرشه ، واستمرت أربع سنوات كاملة ، وكانت تنظم بتواطىء الحزب الموالى من أهل طليطلة، وهو الحزب الذى تصفه الرواية القشتالية بالحزب « المدجنى » أى الموالى لملك النصارى، وفى كل عام يجتاح ألفونسو بقواته أراضى طليطلة من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، ويبيد الزروع ، ويسبى الذرية ، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث .وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة ، سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وبتجريدها من وسائل الدفاع ، وهو ماكان يرمى إليه ملك النصارى .

وكان موقف ملوك الطوائف فى تلك الآونة العصيبة من حياة اسبانيا المسلمة،

موقفاً يثير الألم والحسرة معاً .فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد ، بعد أن تفاهم مع ألفونسو السادس ، على تركه وشأنه فى مشاريعه نحو طليطلة ، مشغولا بمحاربة عبد الله بن بلقين بن باديس صاحب غرناطة .وكان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المتاخمين لمملكة طليطلة من ناحية الشمال والشرق ، مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة . وكانت دول الطوائف الشرقية والجنوبية ، بعيدة عن ميدان الخطر ، لاتستطيع حتى إذا شاءت ، لبعد الشقة ، أن تقوم بإنجاد طليطلة بصورة ناجعة . وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقى .كل ذلك والموقف يتحرج ، وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً يباباً . ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين أن الموقف عصيب ، وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة ، إنما هو نذير السقوط النهائى ، وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية ، إنما هو بداية انهيار الصرح كله ، فبادر جماعة منهم إلى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك ، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى ، بإشارة المتوكل بن الأفطس ، حسبما تقدم ، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منذراً ، محذراً من عواقب التفرق ، وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها ، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة ، مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها ، واحدة بعد الأخرى . ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ، ما يضمره المستقبل من ويل ، ذهبت كلها سدى ، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم ، ولبث ملك إشبيلية وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعة الإنجاد ، يشهد تفاقم الخطب جامداً معرضاً ، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضى مملكة طليطلة الجنوبية ، ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة ، سوى أمير بطليوس الشهم عمر المتوكل بن الأفطس ، فقد نزل إلى ميدان النضال ضد ألفونسو السادس ، وحاول مدافعته ، فبعث ولده الفضل والى ماردة فى جيش قوى ، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة . ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى المتفوقة عليه فى العدد والعدة ، فارتد آسفاً بعد أن خاض معارك دامية . وكان المتوكل قد بذل مثل هذه المحاولة قبل ذلك ببضعة أعوام فى سنة ٤٧١ هـ ، وتغلب عليه

أيضاً ألفونسو السادس ، وانتزع منه مدينة قورية من أملاكه الشمالية المجاورة لأراضى طليطلة .

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها . وفى خريف سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة ، ونزل بالمنية المسورة الواقعة فى منحنى نهر التاجُه ، وهى المنية الشهيرة التى كان المأمون بن ذى النون قد زودها بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة ، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهوه ، وهى التى تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey . ويقول ابن بسام فى وصفها « المنية المسورة ، التى كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن »[1] . وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة. ثم دخل الشتاء، وشحت الأقوات ، واشتد الأمر بأهل المدينة . وكان موقف القادر بن ذى النون مريباً ، ولم يكن دون شك متفقاً فى الشعور مع الحزب المناوىء لملك قشتالة المتشدد فى مقاومته ، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا لإطالة أمد المقاومة ، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبو عزمه ، أو أن يتقدم لإنجادهم أحد . وكان الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم ، حتى تحرج الموقف، واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر أن يرسلوا إلى ملك قشتالة وفداً للتحدث فى أمر الصلح ، فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سسندو (ششنند) . وكان هذا الوزير فى الأصل من النصارى المستعربين ، أسر حدثاً وربى فى بلاط إشبيلية ، وظهر أيام المعتضد بن عباد ، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة ، ثم نزح إلى جلِّيقية ، وخدم فرناندو ، ثم من بعده ولده ألفونسو ، وكان داهية ذا براعة فائقة ؛ فانتهى بأن وطد صولة ألفونسو لدى معظم ملوك الطوائف ، والتزموا بأداء الجزية . فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم ، وأبدى أنه لافائدة من المفاوضة ، وأنه لا أمل بأن يتزحزح الملك النصرانى عن موقفه قيد شعرة ، وأنه لابد من تسليم المدينة . ويقول لنا ابن بسام فى هذه المناسبة إن سسندو أدخل زعماء طليطلة لدى مليكه ، وأن ألفونسو حين أفضوا إليه أنهم ينتظرون العون والإنجاد من بعض ملوك الطوائف ، أنبهم وسخر منهم ، واستدعى من خيامه

---

(١) ابن بسام فى الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٨ . ويقوم اليوم مكانها حصن سان سرفاندو San Servando

سفراء ملوك الطوائف ، وقد كانوا جميعا يومئذ لديه يسعون إلى خطب وده ، ويقدمون إليه الأموال ، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لدنه ، يتعثرون فى أذيالهم ، وقد فقدوا كل أمل وأيقنوا بسوء المصير[١] .

وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر ، وقد تفاقم الخطب ، وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها ، وتحطمت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه ، أو من جانب زعماء المدينة ، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئاً ، وغلب صوت العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان . ولم تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلة ، حتى عرضت المدينة التسليم لملك قشتالة. ويلخص الأب ماريانا ، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة شروط التسليم فيما يلى : « أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك (وقد كانت حديقة نضرة غناء على ضفة التاجه) إلى الملك ألونسو (ألفونسو) ، وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته ، وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين ، وأن يأخذوا معهم أموالهم . وأما الذين يقيمون فى المدينة ، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم ، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم ، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم ، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون غيرهم ، وأن يقسم الطرفان كل وفق تقاليده على احترام هذه العهود ، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن » . على أن هذا النص الذى يقدمه ماريانا ينقصه شىء من الدقة فى بعض تفاصيله . والمتفق عليه ، أن شروط تسليم طليطلة قد صيغت على النحو الآتى : أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم ، وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم ، وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس ، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتعوا أحرارا بإقامة شعائرهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم ، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

والحصون والقصر الملكى ، والمنية المسورة التى كان ينزل بها ملكهم . وأما بالنسبة للقادر فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية ، وقيل بل عرض عليه أيضاً أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا خلصت للقادر ، فستكون فى الواقع ملكاً له ورهن تصرفه ، وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الإسمى الضعيف ، أعنى القادر(١)

تلك هى الشروط التى اتفق عليها لتسليم طليطلة، وتظاهر ملك قشتالة بقبولها، وتعهد باحترامها وعدم النكث بها . وكان ذلك فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٠٨٥ م . ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين ، كان يستعد خلالهما القادر لتهيئة أسباب الرحيل ، وإخلاء المدينة . وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من مايو (فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، ونزل فى الحال بقصرها المشهور ، وهو الذى كان ينزل به أيام محنته فى ضيافة المأمون ، وعهد بحكم المدينة إلى سسنندو ، فسلك مع أهلها مسلك المودة واللين ، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل فى مصايرهم ، فاستمال قلوب الكثيرين منهم ، وأقبل بعض العامة على التنصر ، ونصح سسنندو إلى مليكه أن يلتزم الاعتدال والروية فى معاملة المدينة المفتوحة ، وأن يقف مؤقتا عند هذا الحد ، وألا يلح على ملوك الطوائف خوفاً من أن تنقلب الآية ، فيتجهوا بأبصارهم إلى وجهة أخرى(٢) .

واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضى مملكة طليطلة، الباقية بعد الذى استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية ، أعنى قسمها الواقع شمال نهر التاجه من طلبيرة غرباً حتى وادى الحجارة وشنتبرية شرقاً ، وهى تتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد ، هذا عدا القرى والضياع(٣) .

أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذى النون ، فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف الذين آثروا مغادرة المدينة المفتوحة

---

(١) Mariana : Historia general de Espana (Cap .16) . وكذلك :
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 306

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٣) كتاب الإكتفاء للخزرجى ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 29

قاصداً إلى بلنسية ، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته ، وكان ملك قشتالة قد وعده بأنه إذا تعذر تحقيق غايته فى الحصول على بلنسية بطريقة سلمية ، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس . وقد ظهر للقادر بالفعل ، خلال مسيره من موقف الحصون المختلفة ، أنها جميعاً تقف ضده ولم يبق على ولائه منها سوى حصن قونقة ، فنزل به القادر وصحبه ، حتى تهيأ له ظروف العمل . وسوف نعود إلى تتبع أخباره فيما بعد . ،

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة فى تلك العبارات اللاذعة : « وخرج ابن ذى النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تُطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً ، ولم تنشىء عارضاً ، إلا مطرته فيه عذاباً شديداً ، واستقر بمحلة أذفنش ، مخفور الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دونه حرمه ستر ولا حجاب »(١) .

ويبدى ابن الخطيب شماتته فى القادر وفى أهل طليطلة حين يقول : « واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد . وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرمم ، ونفذ عقاب الله فى أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق الشقاق والنفاق ، والمثل السائر فى الآفاق »(٢) .

* * *

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة ، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة ، ويغدو « قصرها » منزلا للبلاط القشتالى ، بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين . وقد كانت بمنعتها المأثورة ، وموقعها الدفاعى الفذ ، فى منحنى نهر التاجه ، حصن الأندلس الشمالى ، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية ، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها . وانقلب ميزان القوى القديم ، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها فى شبه الجزيرة ، بعد أن استطاعت أن تحافظ

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣٠ .
(٢) أعمال الأعلام ص ١٨١ .

عليه زهاء أربعة قرون ، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لاشك فيه .ومن ذلك الحين تدخل سياسة الإسترداد الإسبانية « لاريكونكستا La Reconquista » فى طور جديد قوى ، وتتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة ، منذ الفتح الإسلامى، عبر نهر التاجه ، إلى أراضى الأندلس ، تحمل إليها أعلام الدمار والموت، وتقتطع أشلاءها تباعاً ، فى سلسلة لاتنقطع من الغزوات والحروب .

وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة ، فضلا عن آثاره المادية الخطيرة ، وقع أدبى عميق فى سائر ممالك اسبانيا النصرانية ، فقد كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية القديمة ، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا الدينية ، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها ، مركز الصدارة الذى يتمتع به بين زملائه ملوك اسبانيا النصرانية ، ووطد هيبته الملوكية والإمبراطورية ، فأضحوا جميعاً يقرون له بلقب الإمبراطور ، الذى اتخذه لنفسه . ومن جهة أخرى ، فقد كان لتلك النكبة التى حلت بالإسلام فى اسبانيا ، أعظم وقع فى جنبات الأندلس ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً ، وأدركوا بعد فوات الوقت ، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر ، وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص ، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم . بيد أن النكبة كانت فى نفس الوقت نقطة تحول عظيم فى تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين ، ملوك الطوائف ، وفى روحهم ، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً ، إلى ماوراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم فى الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم فى سير الحوادث بالأندلس، أعظم الآثار[١] .

واذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة، فجيعة الشعر الأندلسى، ونظمت فى بكائها القصائد الرائعة . وكان من أشهرها هذه القصيدة الرائية الكبرى ، التى مطلعها :

---

(١) راجع فى حوادث سقوط طليطلة : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ — ١٣٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٢ و٥٢٣ ، وراجع أيضا R.Menendez Pidal : La Espana del Cid p. 303-307 ، و دوزى Hist. des Musulmans de l'Espagne, V. III. p. 120 et suiv. وكذلك P. y Vives : Los Reyes des Taifas p. 54&56

المحيط الأطلنطي

دول الطوائف
والممالك الأسبانية النصرانية
عقب سقوط طليطلة
٤٧٨هـ - ١٠٨٥م

لثكلك كيف تبتسم الثغــور ... سرورا بعد ما يئست ثغــور
أما وأبى مصاب هد منــه ... ثبير الدين فاتصــل الثبــور

ومنهــا :

طليطلة أباح الكفر منهـــا ... حماها إن ذا نبــأ كبير
فليس مثالهــا إيوان كسرى ... ولا منهــا الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيــد ... تنــاولهــا ومطلبهــا عسير
ألم تك للدين صــــعباً ... فذلله كما شـــاء القــدير
وأخرج أهلهـــا منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمـــان وعلم ... معــالمها التى طمست تنــير
مساجدها كنائس أى قلب ... على هـــذا يقر ولا يطير
فيا أســـفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ماتكررت الدهـــور

ومنهـــا :

كفى حزناً بأن النـــاس قالوا ... إلى أين التحـــول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنهـــا ... وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضـــياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنـــا البكور
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القـــوم بالله الغــــرور
فلا دين ولا دنيـــا ولكن ... غرور بالمعيشـــة ما غرور
رضـــوا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشـــار به مشير
مضى الإسلام فابك دماً عليه ... فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقاً فى فلاة ... حيـارى لاتحط ولا تســير
ولا تجنح إلى ســلم وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير(١)

---

(١) راجع نفح الطيب ج٢ ص٥٩٣ وما بعدها حيث يورد القصيدة بأكملها، وهى فى أكثر من سبعين بيتاً

الكتاب الثاني

الدّول البربريّة
في جنوبي الأندلس

الفصل الأول

دولة بنى منـــاد البربرية
فى غرناطـــة ومالقـــة

البربر ونصيبهم من أنقاض الخلافة . بنو مناد . الخلاف بين باديس المنصور وقومه . هجرة زادى بن زيرى إلى الأندلس . انضواؤهم تحت لواء المنصور . اشتراك البربر فى معركة الخلافة . محاصرتهم لقرطبة وظفر مرشحهم سليمان بالخلافة . تفريق سليمان لهم . نزول زاوى وقومه بالبيرة . إنشاء مدينة غرناطة ونزولهم بها. الحرب بين المرتضى وصنهاجة.هزيمة أهل الأندلس ومصرع المرتضى . توجس زيرى من البقاء فى الأندلس . رحيله إلى إفريقية . استيلاء حبوس بن ماكسن على غرناطة . حكمه وصفاته . ولده باديس يخلفه . ائتمار ابن عمه يدير به . فشل المؤامرة . الخلاف بين باديس وزهير العامرى . مسير زهير إلى غرناطة . الحرب بينه وبين باديس . هزيمته ومصرعه . مصرع وزيره ابن عباس . استيلاء باديس على جيان . الحرب بين باديس وابن عباد . تدخل باديس فى شئون مالقة ثم استيلاؤه عليها . مهاجمة ابن عباد لمالقة وفشله . استيلاؤه على أركش . الوزير اسماعيل بن نغرالة اليهودى . صفاته وكفاياته . ولده يوسف . بغض بلقين ولد باديس له وسعيه إلى إسقاطه . يوسف يدبر مصرعه بالسم . الخصومة بين يوسف والناية . تغير باديس على يوسف . اتجاه يوسف إلى ابن صمادح . سخط صنهاجة على يوسف وسعيهم إلى إسقاطه . سخط أهل غرناطة على اليهود . قصيدة الإلبيرى فى التحريض على اليهود . افتضاح مؤامرة يوسف ومصرعه . مذبحة اليهود فى غرناطة . استرداد باديس لوادى آش . حوادث جيان . تولى الناية الوزارة . إئتمار الوزراء به ومصرعه . وفاة باديس . أعماله ومنشآته . عمله لتوطيد زعامة البربر . النزعة العنصرية بين البربر وأهل الأندلس . صفات باديس وخلاله . ولاية حفيده عبد الله بن بلقين . استيلاء ابن عباد على جيان. إغارته على غرناطة ورده . تحالف عبد الله مع ألفونسو السادس . اتفاق ابن عباد وألفونسو على فتح غرناطة . فشل المحاولة . تعهد عبد الله بتأدية الجزية لألفونسو . عبد الله والشئون الداخلية . الخلاف بين عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة . الصلح بين عبد الله وابن عباد . سقوط طليطلة وتأثيره . اتفاق عبد الله مع ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين . حملة ابن الخطيب على عبد الله .

كان انهيار الخلافة الأموية ، والسلطة المركزية ، وما اقترن بذلك من الفوضى الغامرة ، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية ، فى ميدان النفوذ والسلطان . وقد ظهر البربر فى الواقع ، منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، واحتلوا مراكز الصدارة فى الجيوش الأندلسية ، واتخذهم المنصور له عضداً وسنداً ، وآزر المنصور القبائل الموالية فى المغرب لبنى أمية ، ضد أولياء الدعوة الفاطمية ،

وشد أزرهم بالمال والجند ، واستطاع أن يجعل من المغرب ولاية أندلسية . فلما انهار صرح الخلافة الأموية ، بعد انهيار صرح الدولة العامرية ، وتواثب الزعماء والخوارج الطامحون ، إلى انتزاع أشلائها ، واقتسام سلطانها ، استطاع الزعماء البربر أن يظفروا من ذلك بنصيب وافر . فقامت منهم دولة بنى حمّود فى جنوبى الأندلس ، وأنشأت خلافة جديدة ، أحياناً فى قرطبة ، وأحياناً فى إشبيلية ومالقة ، وقامت خلالها ومن بعدها ، عدة دول بربرية محلية ، فى غَرناطة ، وفى رندة ، وفى مورور وشذونة ، وفى قرمونة ، وقامت دولة بنى ذى النون فى طليطلة ، وحيناً فى شرق الأندلس ، وقامت كذلك دولة بربرية صغيرة فى أرض السهلة فى شنتمرية الشرق ، وإذا نحن اعتبرنا دولة بنى الأفطس فى بَطَلْيوس من الدول البربرية ، وإنها لكذلك على أرجح الآراء ، استطعنا أن نقدر المدى العظيم ، الذى وصل إليه سلطان القبائل البربرية بالأندلس فى عصر الطوائف .

وقد أتينا فيما تقدم على أخبار دولة بنى حمود ، وأخبار الدويلات البربرية ، التى قامت فى المنطقة الوسطى والجنوبية ، على أنقاض دولة بنى حمود ، وبينا كيف استطاع المعتضد بن عباد ، أن يقضى على هذه الدويلات واحدة بعد الأخرى ، وأن يضمها جميعاً إلى مملكة إشبيلية الكبرى . وبقى علينا أن نتناول فى هذا الفصل ، أخبار دولة بنى مناد فى غرناطة ، وقد كانت بعد دولة بنى حمود ، أقوى الدول البربرية فى الجنوب .

— ١ —

إن بنى مناد يرجعون فى الأصل إلى قبيلة صَنْهاجة البربرية الشهيرة ، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى ، وكان منْزلهم بأواسط المغرب . فلما غلب العبيديون (الفاطميون) على إفريقية ، وقامت دولتهم بها ، انحاز بنى مناد إليهم ، وحاربوا إلى جانبهم الخوارج عليهم . وكان زعيمهم زيرى بن مناد من أعظم أمراء البربر ، وقد حارب قبائل المغرب المخالفة للعبيديين مع جوهر قائدهم ، وقتل فى بعض المعارك ، فخلفه ولده بُلُكِّين . ولما سار المعز لدين الله فى سنة ٣٦٢ هـ إلى مصر ، بعد افتتاحها على يد جوهر ، اختار بلكين لولاية إفريقية ، ثم خلفه على ولايتها ولده المنصور ، ثم خلف المنصور ولده باديس . وفى خلال ذلك ، كانت المعارك تضطرم فى ربوع المغرب باستمرار ، بين أمراء صنهاجة هؤلاء ،

وبين خصومهم من أمراء زناتة وغيرها ، من القبائل الموالية لبنى أمية خلفاء قرطبة . وقد تتبعنا فيما تقدم أدوار تلك المعركة ، التى نشبت فى المغرب ، بين الدعوة الفاطمية ، وبين الخلافة الأندلسية ، منذ أيام الناصر لدين الله ، واستعر لظاها بالأخص أيام الحكم المستنصر ، ثم المنصور بن أبى عامر ، وكانت صنهاجة تحمل دائما ، وعلى يد بنى مناد ولاة إفريقية، علم الدعوة الفاطمية ،وتحمل زناتة وحلفاؤها علم الخلافة الأندلسية .وقد انتهت هذه المعركة أيام المنصور ، حسبما رأينا ، إلى هزيمة صنهاجة ، وتوطيد سلطان الدعوة المروانية بالمغرب .

وقد حدث أيام ولاية باديس بن المنصور على إفريقية ، حادث كان له فيما بعد أكبر صدى ، فى حوادث الأندلس . ذلك أن باديس استبد بقومه آل مناد ، ووقعت بينه وبين أعمامه وأعمام أبيه ، فتن ومعارك ، قتل فى أثنائها ، عم أبيه ماكسن بن زيرى بن مناد ، فاستوحش الباقون من عاديته ، وعولوا على مغادرة إفريقية ، وكتب شيخهم زاوى بن زيرى إلى المنصور بن أبى عامر ، يستأذنه الجواز بقومه إلى الأندلس ، للجهاد فى سبيل الله ، فأذن لهم ، وعبر زاوى ابن زيرى ومعه أبناء أخيه ماكسن المقتول ، حُباسة وحَبّوس وماكْسَن فى أهلهم وأموالهم إلى الأندلس سنة ٣٩١ هـ ، فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسناً (١) ، واتخذهم له بطانة وعوناً ، ونظمهم مع زناتة ، وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم فى أواخر أيام المنصور ، ثم فى أيام ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم فى الجيش ، وغدوا للدولة عضداً . وقد كان إذن المنصور لزيرى وقومه ، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية ، بالجواز إلى الأندلس ، عملا من أعمال السياسة المستنيرة ، وكان غنما مادياً وأدبياً للدولة العامرية .

---

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . ولكن هناك رواية أخرى تقول إن زاوى وقومه وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم بالجواز . وهذه هى رواية ابن حيان التى أوردها صاحب الذخيرة (المجلد الأول القسم الرابع ص ٦١) ، ويتابعه فيها صاحب البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة) ج ١ ص ٤٤٠ و ٥٢١ . وقد أخذنا نحن بالرواية الأولى ، أولا لأنها رواية عبد الله بن بلكين ، وهو حفيد ماكسن أخى زاوى ، وأدرى بتاريخ أسرته ، وثانياً لأن ابن خلدون ، وهو حجتنا الأولى فى تاريخ البربر ، يأخذ بها ، ويحدد لنا سنة الجواز فى سنة ٣٩١ هـ ، أعنى قبل وفاة المنصور بنحو عامين .

بيد أن الدولة العامرية لم تعمر طويلا ، فكان السقوط ، وكان انهيار السلطة المركزية ، وبداية عهد الفتنة والفوضى ، وقام محمد بن هشام الملقب بالمهدى، باغتصاب الخلافة من هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) . ومن ذلك الحين يأخذ البربر بقسط بارز فى تلك المعركة المضطرمة المشعبة ، التى تدور حول عرش الخلافة . وكان أول باعث لإقحام البربر فى تلك المعارك ، ما خصهم به المهدى من الاضطهاد وسوء المعاملة ، ثم تحريض عامة قرطبة على مطاردتهم ، والتف البربر عندئذ حول سليمان بن الحكم خصم المهدى ومنافسه ، وتوالت الخطوب والمعارك ، وفتك أهل قرطبة خلال ذلك بحباسة بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فازدادوا نقمة واضطراماً ، وحاصر البربر قرطبة ، وفتكوا بأهلها ، ثم دخلوها فى مناظر مروعة من العيث والسفك ، وانتهى الأمر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة ، وتلقب بالمستعين ، وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣م) ، وقبض البربر ، وهم الذين عاونوه ونصروه ، على سائر السلطات فى القصر وفى الحكومة .

وعندئذ رأى سليمان المستعين ، أن يعمل على تفريق البربر فى الكور والثغور ، إرضاء لهم من جهة ، وتفريقاً لشملهم وإبعاداً لهم عن قرطبة ، من جهة أخرى ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بنى زيرى بن مناد ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأقطع بنى برزال وبنى يفرن ولاية جيَّان ، وبنى دمّر وإزداجة منطقة مورور وشذونة ، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى مواضعه ، فى أخبار سقوط الخلافة الأندلسية[١] .

ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلكين فى مذكراته ، إن صنهاجة حينما رأت تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، اعتزموا الرحيل عن الأندلس ، ولكن أهل إلبيرة ، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والخصب والنماء ، ولم يكن لهم من يدافع عنهم ، لجأوا إلى زاوى بن زيرى ، ودعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم ومشاركتهم فى خيراتهم ونعائمهم ، والدفاع عنهم ، وقبل زيرى وقومه دعوتهم ، واستبشروا بالنزول فى تلك الأرض ، وطابت لهم ربوعها ، وأجمعوا على الدفاع عنها .

---

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الرابع من «دولة الإسلام فى الأندلس» .

وأنهم بعد أن نزلوا بأرض إلبيرة ، رأوا أنها بموقعها لاتصلح للدفاع ، واتفق رأيهم على أن يبتنوا فى البسيط الواقع على مقربة منها ، فى وادى شَنيل المنحدر من جبل شُلَّير[1]، وهو البسيط الذى يحجبه الجبل ،مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم، فشرعوا فى بنيانها . وهكذا قامت مدينة غَرناطة ، وكان قيامها نذيراً بخراب إلبيرة ، فعفت منازلها بسرعة ، وأسبل عليها النسيان ذيله ، وأخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها[2] .

استقر بنو مناد إذاً فى كورة غرناطة ، لكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة . ذلك أن علياً بن حمود الإدريسى ، لما استولى على عرش الخلافة فى المحرم سنة ٤٠٧ هـ (يوليه ١٠١٦ م) ، وقتل سليمان آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، نهض خيران العامرى ، فأعلن الخلاف ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن بن محمد من أحفاد الناصر ، ولقبه بالمرتضى ، وانضم إليه فى تلك الحركة منذر بن يحيى التجيبى أمير الثغر ، وعدة من ولاة شرقى الأندلس، وسار فى جموع كبيرة لمقاتلة الحمّوديين ، ولكنه عرج فى جموعه أولا على غرناطة لمقاتلة جيش صَنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ، ونشبت بينهما معركة شديدة استمرت أياما ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس وتمزيق جموعهم ، ومقتل خليفتهم المرتضى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .

على أن هذه المعركة كان لها أثر عميق فى نفس زاوى ، فبدلا من أن يرى فى كسبها دليل التفوق والاستقرار ، شعر بالعكس مما آنسه من مرارة القتال وروعته أن هذا النصر إن كان بداية طيبة ، فقد تعقبه نكسات ونحن لايستطيعون الصمود لها ، وأن أهل الأندلس لن يتركوا مقارعة البربر ، حتى يفوزوا بالقضاء عليهم. وقال زيرى لقومه ، حسبما يروى لنا الأمير عبد الله : « وقد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبداً (أى أهل الأندلس) ، وإن كنا قد منحنا الظفر فى أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا فى كل حين ، وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف ، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم » . وهو مايورده ابن حيان على لسان زيرى على النحو الآتى : « إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، إنما جره مع القضاء ،غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا . فإنى عرفت ذلك من يوم

(١) هو بالإسبانية Sierra Nevada أو جبل الثلج .
(٢) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ — ٢٢ .

نزولهم ، ولذلك ماكنت أقوى نفوسكم ، وقد نجانا منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدموا إلا رئيسهم ، واستخلافه هين عليهم ، ولست آمن عودهم حملة إليكم فيما بعد ، فلا يكون لنا قوام بهم» . هذا ومن جهة أخرى فقد كان زاوى يخشى من غدر بربر زناتة أعدائهم الحقيقيين ، ويخشى بالأخص أن يتحالفوا ضدهم مع أهل الأندلس ، فتكون الطامة الكبرى عليهم . وأخيراً فقد كان زاوى يرى بعد وفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية ، الذى اضطهده وقومه ، وولاية ولده الطفل المعز حفيد أخيه بلكين ، أن الجو قد تهيأ لعودته ، واحتلال مكانته فى وطنه . ومن ثم فقد اعتزم زاوى أن يغادر الأندلس إلى إفريقية ، وقال لقومه : « فالرأى الخروج عن أرضهم ، واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة ، والرجوع إلى الحملة التى انفصلنا عنها »[١] .

وهكذا قرر زاوى بن زيرى العودة إلى إفريقية بالرغم من معارضة ولده ووجوه قومه . وخرج عن غرناطة فى أهله وأمواله ، مستخلفاً عليها بعض شيوخ قومه ، وركب البحر من المنكب ، ومعه الكثير من الأموال والذخائر . وكان خروجه من الأندلس فى سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) . واستقبله حافد أخيه المعز ابن باديس صاحب إفريقية وبنو عمه أجمل استقبال ، وأنزل فى القيروان أجمل منزل ، وكان بعد مهلك الشيخة من بنى عمه وذوى قرابته زعيم القوم ، وكان النساء من محارمهم نحو ألف امرأة لا يحتجبن عنه . بيد أنه لم يلق بالقيروان فى ظل المعز ، ماكان يؤمل من رياسة وسلطان[٢] .

قال ابن الخطيب : « وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة والأنفة والحزم »[٣] .

وعلى أثر ارتحال زاوى سعى الفقيه ابن ابى زمنين قاضى غرناطة ، فى أن يعين لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فلحق به فى حصن أشتر على مقربة

---

(١) راجع التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٤ و ٢٥ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٤٠٢ ، والإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٥ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥٢٢ .

من وادى آش . وكان يرابط هنالك مترقباً رحيل عمه . فبادر بالسير إلى غرناطة، ودخلها فى موكبه وطبوله ، واحتلها فلم يعارضه أحد من قومه ، وتربع فى رياستها من وقته . وقيل إن عمه زاوى اختاره ليخلفه قبل رحيله . وقيل من جهة أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك ، بينه وبين ابن عمه جلالى بن زاوى، ولكنه انتهى برحيل جلالى ولحاقه بأبيه ، وخلصت له الرياسة ، ومن ذلك الحين تبدأ بغرناطة دولة بنى زيرى بن مناد[1] .

وبدأت ولاية حبّوس لغرناطة فى سنة ٤١١ هـ ، حسبما تقدم فى أخبار الفتنة، فسار حبوس سيرة حسنة ، وضبط النظام والأمن ، وقسم الأعمال بين أقاربه وبنى عمه ، واتسعت رقعة مملكته ، فغلب على قبره ونواحيها وعلى مدينة جيان ، وأتم بناء غرناطة ، وحشد الجند ونظم الجيش ، وكان يشرك بنى عمه فى الرأى ، ويجرى فى حكمه على طريق الشورى . ووطد حبوس ملك قومه بغرناطة ، وأقام له بلاطاً فخماً ، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء البربر وفى مقدمتهم بنى حمود أصحاب مالقة ، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى العامرى صاحب ألمرية . ولما قتل يحيى بن حمود (المعتلى) أمام أسوار قرمونة سنة ٤٢٧هـ على يد القاضى ابن عباد ، وخلفه فى الملك ولده إدريس المتأيد بالله ، كان حبوس وحليفه زهير العامرى من المعترفين ببيعته ، وقد سارا لمعاونته على محاربة ابن عباد، وسار معهما البرزالى صاحب قرمونة فى قواته ، وزحفت القوات المتحدة على إشبيلية ، وعاثت فى بسائطها ، ثم عاد كل إلى قواعده ، وذلك فى أواخر سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) . وفى العام التالى (٤٢٨ هـ) توفى حبوس بن ماكسن، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس[2] .

ويشيد ابن حيان ، وقد عاصر هذا العهد ، بخلال حبّوس ، فيقول لنا إنه كان أحد نائبى برابرة الأندلس الذين يعتد بهم ، وإنه كان على قسوته «يصغى إلى الأدب ، وينتمى فى العرب ، للأثر المقفو فى قومه صنهاجة . وكان وقوراً حليماً فظاً مهيباً ، نزر الكلام ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ،

---

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ٤٠٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ .

(٢) راجع فى أخبار حبوس بن ماكسن : التبيان ص ٢٥ و ٢٦ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤

شجاعاً ، حسن الفروسية ، جبارا متكبراً ، داهية واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له فى كل ذلك أخبار مأثورة »[١] .

— ٢ —

فخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، الذى قدر له أن يكون أقوى ملوك البربر فى جنوبى الأندلس ، وأعظمهم شأناً ، فى تلك الفترة التى كثرت فيها الممالك والرياسات ، ولم ينازعه فى الملك أخوه بُلُقِّين بن حبوس ، ولكن كان له فى الملك منافس من قومه ، هو ابن عمه يدّير بن حُباسة بن ماكسن . وكان يدير ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمه حبوس ، أن ينتزع السلطة لنفسه ، فلما فشل أيام حبوس ، حاول أن يعيد الكرة فى أوائل عهد باديس . وكان من مشجعيه ومحرضيه الكاتب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى ، وهو من علماء المشرق الذين وفدوا على الأندلس أيام الفتنة ، ولحق بغرناطة . وكان فضلا عن أدبه الغزير ، يعنى بدراسة الفلك والحكمة ، ويلقى بنبوءاته فى روع يدير ، أنه سوف يظفر بعرش غرناطة ، ويحكمها ثلاثين عاماً[٢] .

وكان لأبى العباس كاتب حبوس ، مساعد من اليهود يدعى أبو إبراهيم يوسف ابن اسماعيل بن نغرالة كان يتولى جمع المال ، وكان رجلا متواضعاً حسن السيرة ، فلما توفى أبو العباس تقدم مكانه ، وعلت منزلته ، ولما ولى باديس زادت حظوته وظهرت همته فى جمع الأموال . فلما دبر القوم مؤامرتهم لانتزاع السلطة من باديس وإجلاس يدير مكانه ، لجأوا إلى أبى إبراهيم ، وحاولوا ضمه إليهم ، فتظاهر بالقبول ، وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزلة ، وحضور باديس ليسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين ، ومن ذلك الحين غدا ذلك اليهودى أثيراً عند باديس ، وصار ناصحه الأول ، لا يبرم أمراً دون رأيه .

وكان المتآمرون قد اعتزموا أمرهم لقتل باديس ، أثناء تنزهه ، بمكان بالضاحية يعرف بالرملة ، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان . فأفضى بالأمر لباديس وحذره فى الوقت المناسب ، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم ، ففروا إلى خارج غرناطة ، وفى مقدمتهم يدير بن حباسة والكاتب أبو الفتوح

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٤ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٦٣ و ٤٦٥

الحرجانى ، وقد فرا معاً إلى إشبيلية . ووقف باديس على أسماء كثير ممن شاركوا فى المؤامرة من شيوخ صنهاجة ورجالها ، وهم بقتلهم جميعاً ، فرده أبو إبراهيم عن عزمه ، وحذره من اتساع نطاق الفتنة ، لأنهم رجاله وجنده وأولى أن يلاينهم وأن يغمرهم بالعطايا ، وأن يضرب بعضهم ببعض ، فنزل عند نصحه، واستتب له الأمر دون منازع(١) .

وكان أول حادث خطير واجه باديس ، هو حربه مع زهير العامرى صاحب ألمرية . وكان زهير من أخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة ، واحتلوا معظم القواعد الشرقية ، وكان قد ولى حكم ألمرية بعد وفاة صاحبها الفتى خيران فى سنة ٤١٩ ه (١٠٢٨ م) ، وامتد سلطانه شرقاً حتى شاطبة، وشمالا حتى بيّاسة وقرطبة . وكان يرتبط بعلائق المودة بجيرانه الأقربين بنى حمود أصحاب مالقة ، وبنى زيرى أصحاب غرناطة . وقد رأينا كيف تحالف زهير مع حبوس ابن ماكسن على قتال ابن عباد ، فلما توفى حبوس وخلفه باديس ، بدأت العلائق بين زهير وباديس فى الفتور ، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس الألد محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته ، وأرسل باديس إلى زهير رسوله يعاتبه ، ويطلب إليه تجديد المحالفة التى كانت بينه وبين أبيه حبوس(٢) ، ولم يمض قليل على ذلك ، حتى خرج زهير من ألمرية فى قواته ومعه كاتبه ومستشاره الأثير أحمد ابن عباس ، وسار متجهاً صوب غرناطة . ولم توضح لنا الرواية غرض زهير من تلك الحركة . ولكن الأمير عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، يقول لنا فى مذكراته ، إن زهيراً « أدركه الطمع فى عرناطة » عقب موت حبوس(٣) . وإذاً فقدكان زهير يرمى إلى غزو غرناطة ، وافتتاحها . وعلى أى حال فقد استمر زهير فى السير بقواته ، واخترق أراضى غرناطة من شرقها حتى وصل إلى قرية ألفنت(٤) الواقعة على مقربة من شمال غرناطة . وكان باديس فى أثناء ذلك قد عبأ قواته وقد ملأته الدهشة والريب، لاقتحام زهير أراضيه على هذا النحو ، وشعر أنه قد غدا

---

(١) فصل لنا الأمير عبد الله أدوار هذه المؤامرة بإفاضة (التبيان ص ٣١ — ٣٤) .

(٢) ابن حيان فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ ، ونقلها البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) كتاب التبيان ص ٣٤ .

(٤) هى بالإسبانية Daifontes وهى تقع على قيد عشرين كيلوا متراً شمالى غرناطة .

فى قبضته وتحت رحمته . ولكنه بدأه بالجميل والمودة، وزوده هو ورجاله بالصلات والقرى ، ثم لقيه ووقعت بينهما المناظرة ، ومن حول كل رجال دولته ، فاشتط زهير ، وأغلظ لباديس فى القول ، وكان كاتبه أحمد بن عباس هو الذى أشار عليه بهذا المسلك ، فغادره باديس مقضباً ، وقد عول على الحرب ، ووافقه قومه شيوخ صنهاجة . وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيباً محكماً ، وهدم رجاله قنطرة فى مؤخرة القوات الهاجمة ، قطعاً لخط رجعتها ، ورتب من ورائها الكمائن فى المفاوز المستترة . كل ذلك وزهير فى غروره وعجبه ، لايشعر بما يدبره خصومه . وفى صباح اليوم التالى ، فاجأت قوات صنهاجة جيش زهير بهجومها العنيف ، وكان يقودها بلقين بن ماكسن أخو باديس، فلقيها زهير بعزم وثبات ، ودفع لردها قائده هذيلا الصقلبى فى خيرة قواته من الفتيان العامريين والصقالبة ، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة ، صدمت فيها قوات الصقالبة وأسر قائدهم هذيل، وقتل فى الحال بأمر باديس ، فدب الخلل فى قوات زهير ، ونكصت على أعقابها ، والبربر من ورائها يحصدونها حصداً ، وفر زهير فيمن فر من أصحابه إلى شعب الجبال المجاورة ، ولكنه أخذ وقتل ، ولم يعثر بجثته ، وأبيد معظم قواته قتلا وأسراً ، وظفر البربر بغنائم هائلة من المال والسلاح والعدة والغلمان والخيام ، وأمر باديس بقتل القواد والفرسان من الأسرى ، وكان من بين الأسرى عدة من الكتاب فى مقدمتهم أحمد بن عباس وابن حزم والد الفيلسوف وأبو عمر الباجى وغيرهم ، فأطلق باديس سراحهم جميعاً ماعدا ابن عباس وعدة آخرين من الأسرى ، فقد زجهم فى الأصفاد إلى المعتقل . وتمت هذه الوقيعة الساحقة على زهير العامرى وأصحابه ، فى آخر يوم من شوال سنة ٤٢٩هـ(١٠٣٨ م)(١)

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى قتل ابن عباس فى معتقله بالقصبة . قتله باديس بيده تشفياً منه ، لتيقنه من أنه هو ناصح زهير والمحرض له على غزوه . ولم ينقذه ماعرضه لافتداء نفسه من المبالغ الضخمة ، ولم تنجح شفاعة الوزير ابن جهور عميد قرطبة لدى باديس للإبقاء على حياته . وكان ابن عباس من أعلام كتاب عصره ، وافر المعرفة والأدب ، عظيم الوجاهة ، والسراوة ،

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ — ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ ١٧٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٥٢٦ — ٥٢٨ ، والتبيان ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان له فى حكومة ألمرية ، فى ظل صاحبها زهير ، أعظم نفوذ وسلطان[١] .

وكان من أثر مصرع زهير ، وانهيار حكومته على هذا النحو ، أن استولى باديس على القسم الغربى من أراضى مملكة ألمرية المتاخمة لمملكته ، وهى تشمل مدينة جيّان وأعمالها ، وكذلك جزءاً من أراضى ولاية قرطبة الجنوبية .

* * *

وكان لهذا النصر الباهر الذى أحرزه باديس فى بداية حكمه ، أعظم أثر فى توطيد سلطانه وإذاعة ذكره . وكان باديس ، مثل معظم أمراء البربر فى جنوبى الأندلس ، يتوجس من أطماع القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ومشاريعه . وكانت المعركة الحقيقية ، تدور فى هذا القسم من اسبانيا المسلمة ، بين بنى عباد والبربر ، وقد بدأت منذ الساعة الأولى بين بنى عباد وبنى حمود ، الذين يمثلون زعامة البربر . ومن ثم فقد كان باديس ، ومن قبله والده حبوس ، ينضوى تحت لواء الحموديين ، ويشد أزرهم كلما دعت الظروف ، وقد أشرنا من قبل إلى ما كان من مسير حبوس فى قوات صنهاجة لمعاونة إدريس المتأيد بالله على محاربة ابن عباد (٤٢٧ هـ) . ولما سير القاضى ابن عباد قواته تحت إمرة ولده إسماعيل لغزو مدينة قرمونة ، وانتزاعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، استعان البرزالى بإدريس المتأيد وباديس ، فهرعا إلى إنجاده ، وكانت قرمونة قد سقطت بالفعل فى يد إسماعيل بن عباد ، ونشبت بين قوى العباديين وبين البربر على مقربة من إستجة معارك شديدة انتهت بهزيمة جيش ابن عباد ، ومقتل قائدهم إسماعيل ، وذلك فى المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)[٢] . وهكذا أكد باديس مرة أخرى تفوقه وتفوق قومه صنهاجة على قوات الأندلس المناوئة للبربر .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر انتهاء المعركة ، ووجود باديس تحت أسوار إستجة ، وفد على مخيمه فجأة الكاتب أبو الفتوح الجرجانى ، وكان قد فر حسبما تقدم عند اتهامه بالتآمر مع يدّير لى إشبيلية ، وهنالك علم أن باديس أمر بالقبض

---

(١) راجع فى ترجمة أحمد بن عباس : الإحاطة ج ١ ص ٢٦٧ — ٢٧٠ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٧٥ — ١٨٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ ، والمعجب للمراكشى ص ٥٠ .

على زوجه وأولاده ونفيهم إلى المنكب . وكانت زوجه أندلسية بارعة الحسن ، وله منها ولدان ، وكان يعبدها حباً . فلما اقترب باديس من إشبيلية هرع أبوالفتوح إليه يستأمنه ويستجير به . ولكن باديس استقبله بجفاء ، وبعث به مخفوراً إلى غرناطة ، وهناك شُهر وعذب ثم اعتقل أياماً ، دخل من بعدها باديس إلى مطبقه، وأخذ فى تأنيبه وسبه ، ثم قتله بيده ، واحتز رأسه (آخر المحرم سنة ٤٣١ هـ)(١) .

ولما اضمحل شأن بنى حمود وافترقت كلمتهم ، بدأ باديس بالتدخل فى شئون مملكة مالقة ، تحيناً للفرصة فى أخذها . ومن ذلك أنه حينما ثار على إدريس ابن يحيى العالى ، ابن عمه محمد بن إدريس فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، واستطاع أن ينتزع منه الملك ، تقدم باديس لمعاونة الملك المخلوع ، وسار معه فى بعض قواته إلى مالقة ، ولكنهما لم يفوزا بطائل ، فلجأ إدريس عندئذ إلى سبتة، وبويع محمد بن إدريس وتلقب بالمهدى ، ولكنه لم يفز عندئذ بإجماع الزعماء البربر على مبايعته ، وكان باديس أشدهم معارضة فى إقامته ، ذلك لأنه كان يشعر عندئذ ، وبعد أن ضعف شأن بنى حمود ، أنه أحق برياسة البربر فى الأندلس ، وأخذ من ذلك الحين يتحين الفرصة لتسديد الضربة القاضية لرياسة بنى حمود ، وذلك بانتزاع مالقة مقر سلطانهم .

وتم له ذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وذلك بعد أن ارتقى عرش مالقة ، بعد محمد بن إدريس المهدى ، ثلاثة أخر من بنى حمود ، وهم إدريس ابن يحيى الملقب بالسامى ، ثم إدريس بن يحيى العالى ، ثم ولده محمد المستعلى . فلما تولى المستعلى نكل الزعماء البربر عن مبايعته ، وفى الحال سار باديس فى قواته إلى مالقة واستولى عليها ، وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى وعبر البحر إلى المغرب ، وانتهت بذلك مملكة بنى حمود فى مالقة ، وبقيت بعد ذلك فى الجزيرة الخضراء فترة قصيرة أخرى ، حتى بعث ابن عباد قواته إلى الجزيرة فطوقتها ، من البر والبحر ، واضطر صاحبها القاسم بن حمود أن يغادرها بالأمان مع أهله وصحبه ، وذلك فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٥ م) ، وبذلك انتهت دولة بنى حمود فى الجزيرة أيضاً ، وطويت صفحتهم بالأندلس .

ولما استولى باديس على مالقة ، عنى بتحصينها ، وشيد قصبتها على أجمل

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٦ .

طراز وأمنعه ، حماية لها من أطماع الطامعين من أمراء الأندلس ، ولاسيما بني عباد . وقد كان أهل مالقة بالفعل قد سئموا حكم البربر ، وتاقت نفوسهم للتخلص منه ، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد رسلهم سراً يستحثونه على افتتاح مالقة ، واستجاب المعتضد لدعوتهم ،وسير إليها حملة بقيادة ولديه جابر والمعتمد، فزحفت على مالقة وطوقتها ، وكادت المدينة تسقط فى أيديهم ، لولا أن اعتصمت حاميتها من البربر والسود بقصبتها المنيعة ، ودافعت دفاعاً شديداً ، بقيادة قائدها الشجاع مخلوف بن ملول ، وهرع باديس فى قواته إليها ، ونشبت بينه وبين المهاجمين معركة شديدة مزق فيها جند إشبيلية ، وقتل وأسر منهم عدد جم ، وأسرع جابر والمعتمد ابنا عباد بالفرار فى فل جندهما إلى رندة [١] . وكان ذلك فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) . وبعث محمد بن عباد (المعتمد) إلى والده المعتضد من رندة ، قصيدته الشهيرة ، يستعطفه فيها ويعزيه فى مصابه وهذا مطلعها :

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر ... ماذا يعيد عليك البثُّ والحذر
وازجر جفونك لاترض البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصبر
فان يكن قَدَرٌ قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما يأتى به القـــدر
وإن تكن خيبة فى الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر [٢]

وكان من مظاهر هذه المعركة ، التى اضطرمت بين باديس وبنى عباد ، ماحدث فى نفس هذا العام ، من التجاء بنى برزنيان وأميرهم محمد بن خزرون أصحاب أركش ، حينما أرهقهم ابن عباد بغاراته ، إلى باديس ليتسلم هو قاعدة أركش ، ويعطيهم بدلا منها ، مكاناً ينزلون به فى أراضى غرناطة ، وقد استجاب باديس لرغبتهم وتسلم منهم أركش ، وخرجوا عنها باهلهم وأموالهم ومتاعهم ، فدهمتهم قوات ابن عباد فى الطريق ومزقتهم ، وانتزعت حصن أركش من يد قائد باديس ، وسيطر ابن عباد بذلك على سائر منطقة شذونة ، وكانت من قبل تحت سيطرة البربر [٣] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ . وراجع كتاب التبيان ص ٤٣ .
(٢) وهى طويلة . وقد أوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦ — ٥٨ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧٢ و ٢٧٣ .

— ٣ —

وكان باديس قد قطع إلى ذلك الحين ثلاثين عاماً فى الحكم ،وكانت مملكته تمتد يومئذ من بسطة شرقاً ، حتى رندة غرباً ، ومن جيّان شمالا إلى البحر جنوباً ، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة ، وانهمك فى الشراب ، وترك مقاليد الأمور كلها لوزيره اليهودى يوسف بن نغرالة[١] ، وكان يوسف قد حل فى المنصب مكان أبيه اسماعيل بن نغرالة وزير حبوس ثم باديس ، وكان هذا الوزير اليهودى قد استأثر بعطف باديس وثقته ، فرفعه فوق سائر كتابه ووزرائه ،وفوضه فى جميع أموره ،وعين معظم المتصرفين والعمال من اليهود ، واستطاع بمهارته وحنكته أن يملأ خزائن باديس بالمال ، وأن يمكنه من الإنفاق على جيشه ، ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية . وكان اسماعيل فوق ذلك من أهل الأدب والشعر ، وكان حسن السيرة رضى الأخلاق ، وافر الأناة والحلم ،فلم يثر من حوله خصومة ولا منافسة . ويقدم إلينا ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر عن ابن نغرالة ، الصورة الآتية : « وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علما وحلماً وفهماً ، وذكاء ودماثة ، ورصانة ودهاء ، ومكراً وملكاً لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداراة لعدوه ، واستسلالا لحقودهم بحلمه » . ثم يقول لنا إنه كان بارعاً فى الآداب العبرية والعربية ، وإنه شغف بالعربية ونظر فيها ، وقرأ كتبها ، وألف فيها ،وكتب رسائل يشيد فيها بالإسلام وفضائله ، ودرس الرياضة والفلك والهندسة والمنطق ،وكتب كتاب « السجيج فى علوم الأوائل الرياضية » . وأخيراً إنه كان بارعاً فى الجدل يتفوق فيه على سائر الناس ، قليل الكلام ، ماقتاً للسباب ، دائم التفكر ، جماعة للكتب[٢] . وقد ساعدته هذه الصفات كلها ، بلاريب ، على الاستئثار بعطف الأمير وإعجابه وثقته وخلقت من حوله جوا من العطف بين سائر ممن يتصلون به أو يتعامل معهم . واستمر ابن نغرالة عن مكانته حتى توفى ، فندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه . وكان يوسف فتى جميلا غض الإهاب ، وافر الذكاء والبراعة ، فقام بالأعمال خير قيام ، واستعمل اليهود كذلك على الأعمال ، وأبدى فى جمع المال همة مضاعفة ، فتمكنت منزلته لدى باديس ، واجتمعت فى يده السلطات شيئاً فشيئا

(١) كتاب التبيان ص ٤٢ .

(٢) الإحاطة عن ابن حيان ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

حتى غدا كأبيه من قبل ،أول رجل فى الدولة ، وأمضاهم تصرفاً فى شئونها .

وكان بُلُقّين ولد باديس الأكبر الملقب بسيف الدولة ، والمرشح من بعده لولاية عهده ، ينظر إلى استئثار الوزير اليهودى بزمام الأمور، واستئثار بنى جنسه بالتصرف فى الأعمال ، وسيطرتهم التامة على الدولة ، ينظر إلى ذلك كله بعين السخط والحسد ، وكان يجاهر ببغضه لابن نغرالة ، وسعيه إلى إسقاطه ،ويفضى أحياناً إلى خاصته برغبته فى إزالته وقتله ، وكان يذكى فيه هذا الشعور تحريض وزراء الدولة ، ولاسيما على وعبد الله ابنا إبراهيم الشيخ، وإلقاؤهم فى روعه أنه أحق بهذا النفوذ ، وهذه الأموال التى يتمتع بها اليهود ، وأنه قد أخمله وأخمل سائر رجال الدولة بسيطرته عليها[1] .

وكان يوسف من جانبه ، يضع عيونه وجواسيسه من خاصة باديس فى القصر وفى الحريم ، فلا يكاد باديس يأتى بحركة أو تصدر عنه كلمة ، حتى يقف عليها لفوره ، وكان فى نفس الوقت يحيط بلقين بعيونه ، ويتقصى سائر حركاته وسكناته ، ويقف على نياته نحوه . وكان بلقين مع بغضه ليوسف، يبدى له المودة ويتردد على داره ، ويشاطره الشراب ، وكان منهمكاً مدمناً .فاعتزم يوسف أن يتلخص من بلقين ، قبل أن يقضى هو عليه ، ودعاه ذات يوم مع خاصته وصحبه ، إلى مجلس شراب حافل ، ودس له السم فى كأسه ، فما كاد يغادر مجلسه حتى ملكه قىء شديد ، وما كاد يصل إلى داره ، حتى لزم فراشه ، ثم توفى بعد يومين . فروع باديس لمهلك ولده ، على هذا النحو المفاجئ ،واستطاع يوسف أن يقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل منهم باديس عدة ، وفر الباقون . وكان مصرع بلقين بن باديس فى سنة٤٥٦هـ (١٠٦٤ م)[2]

وكان هذا الحادث مقدمة لحادث أخطر وأوسع مدى ، وهو الذى اتسم به عهد باديس قبل كل شىء . ذلك أن باديس ترك المجال لوزيره يوسف ، وزاد بفقد ولده انطواؤه على نفسه ، وزاد يوسف بذلك استئثارا وسيطرة على الدولة ، وبُسط على غرناطة وأعمالها نوع من الطغيان اليهودى المرهق ، واستسلم سائر الوزراء والشيوخ إلى هذا السلطان . ولم يكن يناوئ يوسف ويحاول مقاومته سوى « الناية » وهو شخصية غامضة ،وأصله من عبيد المعتضد بن عباد ،

---

(١) التبيان ص٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص٢٦٥ ، والتبيان ص٤٠ ،وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص٢٣١.

وكان متهماً فى المؤامرة التى دبرها ضده ولده اسماعيل ، ففر من إشبيلية ، والتجأ إلى باديس وخدمه وحظى عنده ، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة . ثم وقع التنافس بينه وبين يوسف ، وكان النابة يحرض على قتله ، ويفضى إلى الأمير بذلك كلما سنحت الفرص . وشعر يوسف بتغير الأمير عليه . وبأن منزلته أخذت فى الضعف ، ففكر فى التفاهم مع أبى يحيى بن صمادح صاحب ألمرية ، واستدعائه للاستيلاء على غرناطة . وكانت تربط ابن صمادح وباديس علائق مودة قديمة ، إذ كان باديس قد وقف إلى جانبه حينما أراد ابن أبى عامر محاربته واسترداد ألمرية منه ، ومهد يوسف لمشروعه بأن عمل على تعيين زعماء صنهاجة ،الذين يخشى بأسهم ، فى الأعمال البعيدة ، واستطاع ابن صمادح بالفعل أن ينتزع وادى آش ، الواقعة شمال شرقى غرناطة ، وأن يشحنها برجاله ، ومضى يوسف فى مفاوضته وهو محجم متهيب من تنفيذ المشروع . كل ذلك وباديس غارق فى لهوه، منكب على لذاته[1] ، وخصوم يوسف من صنهاجة ، وسائر أهل غرناطة ،يضطرمون سخطاً على الطاغية اليهودى ، ويترقبون الفرص لإسقاطه . ولقى سخط الشعب الغرناطى على اليهود فى تلك الآونة ، متنفسه فى الشعر ، ونظم الفقيه الورع الزاهد أبو إسحاق الإلبيرى[2] قصيدته الشهيرة فى التحريض على سحق اليهود ، والتخلص من طغيانهم ، وإليك بعض ماورد فى تلك القصيدة التى ذاعت يومئذ ذيوع النار فى الهشيم ، وألهبت مشاعر الشعب الغرناطى ، وكانت كالشرارة التى أضرمت الحريق ، وأثارت الانفجار :

ألا قل لصنهاجة أجمعـــــين ... بدور الزمان وأسد العرين

لقـــد زل سيدكم زلة ... تقـــر بهـــا أعين الشامتين

تخـــير كاتبـــه كافـــراً ... ولو شاء كان من المؤمنين

فعـــز اليهـــود به وانتخـــوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلـــين

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ — ٥٣ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى الإلبيرى. كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً وشاعراً . سعى به الوزير يوسف بن نغرالة لأمور نقمها منه لدى سلطانه باديس ، فأبعده عن غرناطة فسكن إلبيرة القريبة منها ، وانقطع إلى العبادة والزهد . ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود فى شعره ووعظه ، حتى وقع الانفجار ، وتم الفتك بهم . وتوفى الإلبيرى فى أواخر سنة ٤٥٩، بعد أن شهد آثار تحريضه فى بطش صنهاجة باليهود .

ونالوا منــاهم وحازوا المدى وقد جــاز ذاك وما يشعرون

ومنهــا :

أباديس أنت امرء حــاذق تصيب بظنك مرمى اليقــين
فكيف تحب فــراخ الزنا وقد بغضــوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاســق وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله فى وحيــه يحــذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخــذ منهم خادمــاً وذرهم إلى لعنــة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم وكادت تميــد بنا أجمعين
وكيف انفردت بتقــريبهم وهم فى البلاد من المبعــدين
وإنى احتللت بغرناطة فكنت أراهم بهــا عابثين
وقد قسموها وأعمالها فنهم بكل مكان لعــين
وهم يقبضون جبــاياتهــا وهم يخصمون وهم يقصمــون
وهم يلبســون رفيع الكسا وأنتم لأوضــاعها لابســون
وهم أمنــاكم على سركم وكيف يكون أمينــاً خؤون
وقد لابســوكم بأسحارهم فما تسمعــون ولا تبصرون

ومنها فى التحريض على ابن نغرالة وقومه :

فبادر إلى ذبحــه قــربة وضح به فهــو كبش سمين
ولاترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عــراهم وخــذ مالهم فأنتم أحــق بما يجمعــون
ولا تحسبن قتلهم غــدرة بل الغــدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا عهــدنا عندهم فكيف تلام على النــاكثين
فلا ترض فينــا بأفعالهم فأنت رهين بمــا يفعلــون
وراقب إلهــك فى حزبه فحــزب الإله هم المفلحون(١)

ووقع الانفجار فى مساء يوم السبت العاشر من شهر صفر سنة ٤٥٩ ﻫ

---

(١) نشر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام هذه القصيدة بأكلها وهى فى ثلاثة وأربعين بيتاً ص ٢٣١ — ٢٣٣ ، ونشرها دوزى فى كتابه Recherches; V, I. App. XXVI

(٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م) . فنى تلك الليلة اجتمع يوسف بن نغرالة بالقصبة على الشراب مع طائفة من صحبه من الضالعين معه من عبيد باديس وخاصته. والظاهر أن مشروعه لاستدعاء ابن صمادح إلى غرناطة كان قد نضج ، وأن ابن صمادح كان يكمن مع نفر من صحبه فى مكان قريب من المدينة ، ينتظر النذير باستدعائه. وكان ثمة فى نفس الوقت جماعة من صنهاجة ، ممن يرتابون فى مشاريع يوسف ونياته، وينقمون على أميرهم تهاونه وتخاذله ، يرقبون حركات اليهودى وسكناته . فحدث والمتآمرون فى مجلسهم ، أن وقعت مشادة بين عبد من الحضور ، وبين حاشية اليهودى ، فانطلق العبد إلى خارج القصبة، وهو يصيح : لقد غدر اليهودى ودخل ابن صمادح البلدة . وفى الحال هرع الناس وهم يتصايحون ، وفى مقدمتهم رهط صنهاجة المناوئين لليهودى ، واقتحموا القصبة ، فاستغاث يوسف لفوره بباديس ، وحاول الأمير عبثاً أن يهدىء الهاجمين ، فهرب يوسف إلى داخل القصر ، ومن ورائه مطاردوه ، حتى عثروا به فى بعض خزائن الفحم وقد تنكر وصبغ وجهه بالسواد فعرفوه وقتلوه ، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة . وكان الجند والمدينة بأسرها ، قد ماجت عندئذ ، وتخاطف الناس السلاح ، وهجموا على بيوت اليهود فى كل مكان ، وأمعنوا فيهم تقتيلا وتعذيباً، ونهبوا دار يوسف، وكانت غاصة بالنفائس والذخائر ، ووجدت له فيما وجد خزانة جليلة من كتب العلوم الإسلامية، ونهبوا سائر دور اليهود وحوانيتهم ، وطاردوهم وفتكوا بهم فى كل مكان ، واستولوا من أموالهم على مقادير هائلة . وهلك من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف أو أكثر من أربعة آلاف على قول آخر ، فى تلك المذبحة التى يصفها ابن بسام بأنها ، « ملحمة من ملاحم بنى اسرائيل، باءوا بذلها، وطال عهدهم بمثلها » . وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه [1] .

قال ابن الخطيب : « وقبره اليوم (أى قبر يوسف) وقبر أبيه يعرف أصلا من اليهود ، ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب إلبيرة ، على غلوة يعترض الطريق ،

---

(١) راجع أخبار هذه المذبحة فى التبيان ص ٥٤ ، وفى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٧١ و ٢٧٢ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٣٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦ و ٢٧٥ و ٢٧٦ وقد اتبعنا ما ورد من التفاصيل فى التبيان والذخيرة . وجاء فى المصادر الأخرى أن اجتماع ابن نغرالة فى أصحابه كان فى داره ، وأنه هوجم وقتل بها .

ومكانه من الترفـه والترف ، والظرف والأدب ، معروف »[١] .

— ٤ —

وأفاق باديس بعد هذا الحادث من خموله وتهاونه، ونهض لاسترداد وادى آش من يد ابن صمادح ، فسار إليها فى قواته ، واستنصر بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فوافاه فى بعض قواته على مقربة منها . وضرب باديس الحصار حول وادى آش ، وشدد فى إرهاقها ، وكان بها فضلا عن الحامية ، بعض وزراء ابن صمادح وأكابر دولته ، ولما اشتد الضيق بالمحصورين بعث زعماؤهم إلى المأمون يرجونه أن يتوسط لهم لدى باديس فى تسليم المدينة ، والخروج بالأمان ، ففعل وأخلى جند ابن صمادح المدينة ، وسلمت إلى باديس ، واقتطع المأمون من باديس مدينة بسطة ثمناً لمؤازرته ، وبعث ابن صمادح إلى باديس يستسمحه ويعتذر عن تصرفه ، ثم وافاه إلى غرناطة ، وعاد الوئام بين الرجلين[٢] .

وكانت مدينة جيان قد خرجت عن الطاعة، وكان قد لجأ إليها ماكْسَن الابن الأصغر لباديس حينما سخط عليه أبوه ونفاه من غرناطة، لارتيابه فى ولائه وتوجسه من مشاريعه[٣] . فنزل فى جيان فى كنف حاكمها مسكن بن حبوس، واستبد مسكن بحكم المدينة ، ولم يجد ماكسن سبيلا إلى منافسته ، وقنع بالسلامة والدعة، وأخيراً تمكن باديس من إغراء الحامية بالمال والوعود ، فثارت على مسكن وماكسن معاً ، ونادت بالطاعة لباديس، ففر كلاهما من المدينة ناجياً بنفسه، وقصد ماكسن إلى طليطلة، حيث لجأ إلى ابن ذى النون وخدم فى جيشه ، وعادت جيان بذلك إلى سلطان باديس .

وكان باديس بعد مقتل وزيره ابن نغرالة ، قد استوزر الناية ، فعلا سلطانه بسرعة ، وانتهى إلى الاستئثار بالأمور على نحو ما كان ابن نغرالة . وقدّم الناية بنى برزال ، وأخر صنهاجة وأهلهم ، فسخطوا عليه ، وأخذوا يترقبون الفرص لإهلاكه . وكان من مشاريع الناية أن يفتتح مدينة بياسة القريبة من جيان ، وكانت عندئذ من أملاك إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى ، ووافق باديس على مشروع

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٨ ، وباب إليرة ما يزال إلى اليوم قائماً بمدينة غرناطة .

(٢) التبيان ص ٥٥ — ٥٧ .

(٣) التبيان ص ٤٩ .

وزيره كارهاً ؛ وانتهى النابة بالاستيلاء على بياسة بعد جهود ونفقات طائلة ، وازدادت بذلك مكانته لدى باديس توطداً . وهنا شعر وزراء الدولة ،وحكام المدن،أن سلطان النابة يكاد يحجب سلطان باديس ذاته . وخشوا عاقبة تمكنه ، وأذاعوا أنه طامع فى الرياسة بالائتمار مع بنى برزال ؛ ودبروا مؤامرة لقتله والتخلص منه ؛ واتفق على أن يقوم واصل حاكم وادى آش وهو صديق النابة وموضع ثقته بتنفيذ الجريمة ، ووعدوه بالوزارة . ولم يمض سوى قليل ، حتى وفد النابة على وادى آش لتحقيق بعض الأمور السلطانية ؛ ونزل عند واصل، فانتهز واصل الفرصة السانحة . وقتل ضيفه بالليل وهو سكران .وطار الخبر إلى غرناطة ، فانزعج باديس ، وأوضح له رجال الدولة أن الجريمة تمت لخيره ، وإنقاذه من استبداد وزيره . فتظاهر بالاقتناع مرغماً ، وعهد إلى واصل بمنصب قائد الفرسان .

واستطال حكم باديس بضعة أعوام أخرى ، وتوفى فى العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ (يونيه ١٠٧٣ م)[١] بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة .

وكان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر فى عصر الطوائف وأقواهم جانباً، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعة، إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى إستجة ورندة غربا ، ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوباً . وباديس هو الذى مصّر مدينة غرناطة ، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية،وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة ، وسميت باسمها القديم « القلعة الحمراء » وهو الاسم الذى خلد على كر العصور ، وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة ، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذى دفن فيه ، وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التى تقع عليها القصبة[٢] . وأنشأ حسبما قدمنا قصبة مالقة المنيعة ، التى مازالت آثارها باقية إلى اليوم ، وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم ، وبذل له المال الوفير ، ووطد الدولة ، ونظم مراتبها وعمالاتها . بيد أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى ، ولم يسطع بالأخص، كما سطعت دولة بنى ذى النون البربرية فى الشمال، ولم يجتمع حوله

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٠. وفى ابن خلدون أنه توفى سنة ٤٦٧هـ (ج ٤ ص ١٦١) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .وراجع كتابي « نهاية الأندلس » الطبعة الثالثة ص ٢٨٩ .

الكتاب والشعراء كما اجتمعوا فى قصور الطوائف الأخرى، ذلك أن بلاط غرناطة البربرى . لبث محتفظاً بطابع البداوة والخشونة ، الذى كان يغلب على دولة آل زيرى ، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة ، التى امتازت بها دول الطوائف الأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن سياسة باديس ، كانت متأثرة بالروح العنصرى ، وكانت ترمى قبل كل شىء إلى تأييد زعامة البربر وسلطانهم فى جنوبى الأندلس. وكان يقابل هذا الاتجاه لدى الأمراء الأندلسيين اتجاه مماثل ، فقد كانوا جميعاً يداً واحدة ضد البربر ، فى تلك المعركة التى اضطرمت زهاء نصف قرن ، منذ استطاع بنو حمود أن يقيموا سلطانهم وخلافتهم فى جنوبى الأندلس. ولما تضاءل سلطان بنى حمود ، تولى باديس زعامة البربر ، وأخذ يقود نفس المعركة القديمة ضد أمراء الأندلس . وقد كان هؤلاء الأندلسيون ، على قول ابن حيان ، معاصر هذه الأحداث ، « نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، ومن تميز معه من البربر ، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم ، على اختلافهم فى الرأى والدعوة» . ويسوق لنا ابن حيان دليل هذا التحزب فى موقف الأندلسيين والبربر من الخلاف ، فقد كان أمراء الأندلس يدعون للخليفة هشام الذى نصبه ابن عباد فى إشبيلية ، وكان باديس ومن والاه من أمراء البربر يدعون لإمامهم بمالقة ، وهو إدريس بن يحيى بن حمود .

وكانت هذه النزعة العنصرية تحمل باديس فى بعض الأحيان ، على أخطر القرارات والمشاريع . ومن ذلك ما حدث حينما قام أحد الفرسان باغتيال أمير رندة البربرى أبى نصر بن أبى نور وذلك بتحريض من المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية. فقد ثار باديس لذلك الحادث أيما ثورة ، وجال بخاطره أن يفتك برعاياه الأندلسيين فى غرناطة ، وأن يزهقهم جميعاً تخلصاً من شرهم ومؤامراتهم ، ورتب الخطة لتنفيذ هذا العزم الدموى ، وذلك حين اجتماع الغرناطيين بالمسجد الجامع يوم الجمعة ، ولم يقتنع بنصح وزيره اليهودى اسماعيل بن نغرالة وتحذيره من عواقب عمله ، وحشد الجند للتنفيذ ، ولكن ابن نغرالة سبقه ، فدس بعض النساء إلى دور زعماء الأندلسيين وغيرهم ، لتحذيرهم من الحضور إلى المسجد ، وهكذا

فشل تدبيره ، ثم عدل عنه بعد ذلك حينما أيد نصح وزيره بعض شيوخ صنهاجة(١)

وتشيد الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بما كان عليه باديس من القوة والطغيان والجبروت . فيقول لنا عنه معاصره ابن حيان: « إنه أرفع أملاك البرابرة فى هذا الوقت شأناً ، وأشدهم سلطاناً ، وأكثرهم رجالا ، وأوسعهم أعمالا أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختياراً ، فالبسه بغياً واستكباراً ، وأساء الانتقام ، ولم يقل العثرة ، وأخذ بالظنة ، وأسرف فى العقوبة ، وشدّ يداً بالعصبية وتقلد الحمية الجاهلية ، واستأثر بالقسوة والجبرية ، فأسلف فى ذلك كله أخباراً مأثورة »(٢) . ويقول لنا الفتح فى القلائد بعبارته المسجعة المنمقة : « كان باديس ابن حبوس بغرناطة ، عاتياً فى فريقه ، عادلا عن سنن العدل وطريقه ، يجترى على الله غير مراقب ، ويسرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب ، قد حجب سنانه لسانه ، وسبقت إساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولم يشرب الماء إلا من قلب دم . أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابتكر ، ومازال متقداً فى مناحيه ، مفتقداً لنواحيه ، لايرام بريث ولاعجل ، ولايبيت له جار إلا على وجل »(٣) .

ويقدم إلينا عنه ابن الخطيب تلك الصورة القوية الجامعة : « كان رئيساً يبساً ، طاغية جباراً شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جلداً شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام ، شره السيف ، وارى زناد الشر ، جماعة للمال ، ضخمت به الدولة ، ونبهت الألقاب ، وأمنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناح سيفه العمران ، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب بيأسه النظر ، وانفسخ الملك ، وكان ميمون الطائر ، مطعم الظفر ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله بسلمه ، ولايطمع أعداؤه فى حربة »(٤) .

على أن حفيده الأمير عبد الله بن بلقين ، يحاول أن يقدمه إلينا فى صورة أقل جفاء ، وأكثر إشراقاً حين يقول: « وكان باديس بن حبوس – جدنا رحمه الله ، كبير النفس ، عالى الهمة ، حاد المزاج ، لايستطيع أحد أن يخرق عليه فى أمر

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤ .
(٢) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .
(٣) قلائد العقيان ص ١٨ .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٣ .

من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بنى عمه ؛ ثقة منه بسعادته ،وأن الانخضاع والتمريض فى القول لايعنيه ؛ولا يزيد فى أيامه . وكان ذلك كله منه فى حزم وروية ، لايفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض ، فوجست أنفس البعض منه ،وأشربوا هيبته ومخافته »(١) .

والخلاصة أن باديس كان طاغية من أقوى الطغاة البربر ، الذين عرفتهم الأندلس ، ومن أشدهم دهاء وقسوة وإقداماً ، ومن أكثرهم ظفراً فى الحروب .

وكان أسوة بسائر ملوك الطوائف ، قد اتخذ ألقاب الملك ، وتلقب بالمظفر بالله ، الناصر لدين الله .

— ٥ —

ولما توفى باديس المظفر بالله، اتفق رجال الدوله وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقّين مكانه ، وكان صبياً حدثاً . وكان أخوه الأكبر تميماً يتولى حكم مالقة منذ أيام جده . أما ماكسن ولد باديس ، فقد كان خارجاً على أبيه حسبما ذكرنا من قبل ، وكان قد عاد إلى مدينة جيان ، وامتنع بها ، وكان سيئ الخلال والسيرة ؛ فلم يلتفت إليه ، ولم يقم أحد بدعوته ، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبى ، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة ، وكان هذا الوزير رجلا حازماً ، قوى العزم ، شديد السطوة ، مرهوب الجانب ، فضبط الدولة ، واستأثر بالسلطة ، وأحسن السيرة .

وكان المعتمد بن عباد يرقب سير الحوادث فى غرناطة . فلما توفى باديس ، وخلفه حافده الصبى ، أدرك أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشاريعه ،فسار فى قواته إلى مدينة جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية ،واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) . ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة فى قوات كبيرة ، وابتنى بعض الحصون على مقربة منها ، لكى يستطيع بواسطتها إرهاق المدينة . فحشد الوزير سماجة قوات صنهاجة ، وأبدى منتهى العزم فى مقاومة المغيرين ، فاضطر ابن عباد أن يعود أدراجه دون طائل(٢) . ورأى الأمير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة ، أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، على نسق معظم أمراء الطوائف، معاهدة

---

(١) كتاب التبيان ص ٢٧ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

حلف وصداقة ، يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار . وعلى أثر ذلك سار عبد الله فى قوات صنهاجة ، ومعها سرية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس ، وأغار على أراضى إشبيلية المجاورة ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة الواقع فى جنوب غربى جيان .

وفى العام التالى سار ألفونسو إلى إشبيلية وغرناطة ، ومعه وزيره ومستشاره النصرانى المستعرب الكونت سسنندو (ششنند) ، وهو الذى سبق ذكره فى حوادث سقوط طليطلة ، ليطالب بأداء الجزية المفروضة . ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إنه أبى أن يدفع تلك الجزية ، وإنه لم يخش يومئذ ضراً من ألفونسو ، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف[١] . وهنا يقوم المعتمد بن عباد بدوره المأثور فى انتهاز الفرصة ، وفى استعداء ملك قشتالة . ذلك أنه بعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ، فعقد معه اتفاقا وحلفاً ، خلاصته أن يتعاون الفريقان فى افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد ، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدى ابن عباد إليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار[٢] .

وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده ، وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة ، شحنه بالجند لإرهاق المدينة . وحاول ابن عباد أن يؤثر بواسطة هذا الحصن فى أهل المدينة ، ولكنه لم ينل منها مأربا بالرغم مما أحاق بها من الضيق . ولما منى ابن عباد بالهزيمة فى قرطبة على يد ابن ذى النون (٤٦٧ هـ) اضطر أن يخلى الحصن ، فاحتلته جنود غرناطة .

ثم عاد ابن عمار فحرض ألفونسو السادس على غزو أراضى غرناطة ، وزين له سهولة افتتاحها ، وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أن يتفاهم مع الملك النصرانى ، فسار إليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدى جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصرانى إلى ابن عباد .

وينقل إلينا الأمير عبد الله بهذه المناسبة ، ما سمعه من أقوال الكونت سسنندو (ويسميه ششلاند) مستشار ألفونسو ، شرحاً لسياسة مليكه فى الاستيلاء

---

(١) كتاب التبيان ص ٦٩ .

(٢) التبيان ص ٧٠ .

على الأندلس ، على النحو الآتى ، قال : « وإنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بأنحس البقاع ، جليقية ، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف(١) .

والتفت عبد الله للشئون الداخلية ، فعمل أولا على إزالة وزيره سماجة ، وكان هذا الوزير قد غلا فى الاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالأمور ، حتى شعر عبد الله بأنه لم يبق له سلطان إلى جانبه . ومن جهة أخرى ، فقد كان هذا الاستبداد يثير سخط رجال الدولة وطوائف الشعب عليه ، حسبما يحدثنا بذلك الأمير فى مذكراته ، ومن ثم فقد عمل عبد الله على إقالة وزيره بالحسنى ، وسمح له أن يسير فى أهله وأمواله الطائلة إلى ألمرية ، حيث نزل بها فى كنف صاحبها ابن صمادح ، واستقر هناك بحال ثروة وغناء (٢) .

وحاول عبد الله أن يعمل فى نفس الوقت على تنظيم الإدارة ، وعزل الحكام الظلمة ، وبدأ فى ذلك بوادى آش ، فعزل حاكمها ابن أبى جوش واعتقله ، ثم عزل حاكم المنكب وعين حكاما آخرين يظن فيهم العدل وحسن السيرة . وعقد الصلح والمودة مع ابن صمادح صاحب ألمرية ، بعد أن سوى النزاع بينهما على حصون الحدود مما يلى فنيانه (٣) .

وكان تميم بن بلقين أخو عبد الله ، قد استقل فى تلك الأثناء بحكم مالقة وأعمالها ، وتلقب بالمنتصر بالله ، واستبد وساء فى حكمه السيرة ، وأخذ يغير على نواحى المنكب وغيرها مما هو واقع تحت حكم أخيه . فسار إليه عبد الله فى بعض قواته ، واستولى على بعض حصون مالقة الأمامية ، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة وهزم عبد الله أولا ، ولكنه عاد فهزم جند مالقة ، وضيق على المدينة ، فبعث إليه أخوه يستعطفه ، وتدخلت والدتهما فى الأمر ، وخشى عبد الله من جهة أخرى أن يتحول أخوه إذا اشتد عليه ، إلى محالفة ابن عباد ، فمال إلى مهادنته ، وترك له حكم مالقة ونواحى الغربية أى غربى مالقة .

---

(١) كتاب التبيان ص ٧٣ .

(٢) كتاب التبيان ص ٨٧ و ٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٣) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

وثار فى نفس الوقت كباب بن تميت حاكم أرشدونة (أرجدونة) وأنتقيرة وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه عبد الله ، وضيق عليه ، حتى خضع ، وأخرج بالأمان .

وأخيراً تم عقد الصلح والمهادنة بين عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد ، ولم يتيسر ذلك إلا بعد مصرع ابن عمار وزير المعتمد ، وهو الذى يصفه عبد الله « بالفاسق » ، وبأنه كان أس الفتنة ، وسويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع ، من حدود وغيرها (أواخر سنة ٤٧٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى وقع الحادث بسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك فى فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٤ مايو سنة ١٠٨٥ م) ، فاهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وأفاق ملوك الطوائف لأول مرة من تلك الغمرة التى خدرت مشاعرهم ، وأعمت بصائرهم مدى نصف قرن ، سادت فيه بينهم الفتن والحروب الأهلية ، ولبثوا يمزقون بعضهم بعضاً ، والعدو الخالد يضرب بينهم ، ويؤلب بعضهم على بعض ويتربص الفرصة لانتزاع كل ما يمكن انتزاعه من أراضى ذلك الوطن الذى نسوا قضيته ، وضحوا بمصلحته العليا ، استبقاء لمصالحهم الخاصة ، وأطماعهم الدنيا .

كان سقوط الحاضرة الأندلسية الكبرى — طليطلة — إذن نذير الخطر العام فنهض المعتمد بن عباد — وقد كان يحمل فى وقوع تلك المحنة أكبر الأوزار — ونهض زملاؤه أمراء الطوائف ، يحاولون جمع الكلمة ، ويزمعون الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ويبعثون بصريخهم ، إلى عاهل المرابطين الأمير يوسف ابن تاشفين ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة إشبيلية .

ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إن أول من خطر له الاستنصار بالمرابطين من أمراء الأندلس ، هو أخوه الأمير تميم والى مالقة ، وأنه أراد أن يستعين بهم ضده ليستدرك ما فاته من مملكة جده باديس ، ولكن أمير المسلمين لم يلتفت إلى دعوته (١) .

وقد كان عبد الله على اتفاق مع زملائه أمراء الطوائف فى استدعاء المرابطين ، وقد أرسل رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين ، وتم الاتفاق فيما بين

---

(١) كتاب التبيان ص ١٠٢.

أمراء الأندلس ، وبين أمير المسلمين على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة ، وعلى أنه لايعرض لأحدهم فى بلده ، ولايشجع أحداً ممن يروم الخروج عليه(١) .

ويحمل ابن الخطيب على الأمير عبد الله، ويقول إنه كان جباناً مغتمد السيف متكاسلا عن الخيل ، زاهداً فى النساء ، موصوفاً بالضعف ، لكنه يكتب ويشعر ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة ، ثم يقول لنا إنه وقف خلال زيارته لبلده أغمات على ديوان لعبد الله بخطه « ألفه بعد خلعه ، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه ، مما يستظرف من مثله » مشيراً بذلك إلى مذكراته ، وهى التى رجعنا إليها فى مختلف المواطن(٢) .

ونستطيع أن نستشف من هذه المذكرات التى تركها لنا الأمير عبد الله بعنوان « كتاب التبيان » والتى كتبها فيما بعد خلال إقامته فى منفاه بأغمات ، وسرد فيها تاريخ آبائه ، وأحوال حكمه ، وحوادث الأندلس فى عصره : نستطيع أن نستشف منها مايؤيد قول ابن الخطيب فى جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والملاينة والدعة ، وفى مجانبته للإقدام ، وتخوفه من الحروب وعواقب النضال ، وحبه للسلامة والعافية ، وإنه ليشكر الله فى آخر مذكراته أن نجا من المصير الذى حل بابن الأفطس ، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين(٣) .

---

(١) التبيان ص ١٠٣ .
(٢) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٥ .
(٣) كتاب التبيان ص ١٧٦ .

الفصل الثانى

الإمارات البربرية الأخرى
فى جنـــوبى الأندلس

الإمارات البربرية فى الجنوب. خواصها وتكتلها. إمارة قرمونة. بنو برزال وجوازهم إلى الأندلس. ولاية عبد الله البرزالى لقرمونة. استبداده بها. حكمه وسيرته. التحالف بين البرزالى وابن عباد. انقلاب ابن عباد عليه. الحرب بين ابن عباد والبربر. وفاة البرزالى وولاية ولده إسحاق. ولاية عزيز المستظهر. إرهاق ابن عباد له. نزوله عن قرمونة لابن ذى النون. نزول ابن ذى النون عنها إلى ابن عباد. بنو يفرن وجوازهم إلى الأندلس. نزولهم أيام الفتنة برندة. زعيمهم أبو نور هلال. مصانعة ابن عباد للبربر ثم غدره بهم. باديس ولد أبى النور. عود أبى النور إلى رندة ووفاته. ولده أبو نصر فتوح ومصرعه. استيلاء ابن عباد على رندة. بنو دمر وهجرتهم إلى الأندلس. نزولهم بمورور. أبو تزيرى الدمرى وولده نوح. محمد بن نوح ومصرعه فى كمين ابن عباد. ولده مناد يخلفه. غارات المعتمد على مورور. إذعان مناد ونزوله عنها إلى ابن عباد. بنو خزرون وتغلبهم على أركش. محمد بن خزرون وخلفاؤه. غارات ابن عباد على أركش. تخلى بنى خزرون عنها وخروجهم منها. مداهمة ابن عباد لهم. استيلاء ابن عباد على أركش وأراضيها. انتهاء الدول البربرية فى تلك المنطقة.

إلى جانب دولة بنى مناد أو بنى زيرى فى غرناطة، كانت تقوم ثمة عدة إمارات بربرية أخرى فى هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، منطقة المثلث الإسبانى الواقع جنوب نهر الوادى الكبير، والممتد من غربى مملكة غرناطة شرقاً، حتى مصب الوادى الكبير غرباً، ومن الوادى الكبير شمالا، حتى ثغر مربلة وأرض الفرنتيرة جنوباً.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة فى هذه المنطقة، يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية. ذلك أن المثلث الإسبانى هو أقرب مناطق شبه الجزيرة إلى المغرب، بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الضرورة أمراً ميسوراً، وكذلك تستطيع الأمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة. ومن جهة أخرى فإن اجتماع هذه الإمارات فى هذه المنطقة جنباً إلى جنب، كان يحمل معنى التكتل القَبَلى أو العنصرى بصورة واضحة، ويمكنها وقت الخطر من توحيد الصفوف، والتعاون على رد العدو

المهاجم . وهذا مارأينا ينطبق بصورة عملية فى المعارك التى لبثت طوال أيام الطوائف، تضطرم فى هذه المنطقة بين البربر وبين خصومهم الألداء بنى عباد، وهم أقوى الممالك الأندلسية المناهضة لهم فى معظم النواحى .

وقد قامت هذة الممالك البربرية الصغيرة إلى جانب شقيقتها الكبرى ، دولة بنى مناد فى غرناطة، وفى مثل الظروف التى قامت فيها ، وكانت مملكةغرناطة تتولى حمايتها والدفاع عنها كلما دهمها خطر بنى عباد ، وكانت هى تلتف فى نفس الوقت حول غرناطة ، كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية .

ولم تكن هذه الإمارات البربرية تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة، ولكنها كانت فى الواقع أقرب إلى سيادة العصبة القبلية، أو رياسة الأسرة ذات البأس والجاه ، ولم يكن لها حكومات أوجيوش منظمة بالمعنى الصحيح،وإنما كانت تستند فى سلطانها إلى حشود القبيلة أو الأسرة المسيطرة ، وكانت تجرى فى الحكم على قاعدة الإستبداد المطلق ، وأصول العرف البدوى الساذج ، ومن ثم فإنها لم تكن محبوبة من رعاياها الأندلسيين . الذين عرفوا منذ بعيد مزايا الحكم المنظم ، ورفاهة العيش المتحضر .

وكانت ثمة من هذه الإمارات — غير مملكة غرناطة — أربع تقوم من حولها وهى إمارة قرمونة ،وإمارة رندة ،وإمارة مورور ، وإمارة شذونةوأركش .

١ — دولة بنى برزال فى قرمونة

وكان أهم هذه الإمارات ، إمارة قرمونة الواقعة فى منحنى الوادى الكبير ، بين إمارة قرطبة شرقاً ، ومملكة إشبيلية غرباً ، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرقى إشبيلية . وكانت تشمل غير قرمونة ، مدينة إستجة الواقعة فى شرقها . ومدينة المدوّر الواقعة غربى قرطبة على نهر الوادى الكبير.

وكانت مدينة قرمونة منذأيام هشام المؤيد ، وقبل انهيار الدولة العامرية ، بيد حاكمها الحاجب أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال المعروف بأبى عبد الله البرزالى، وكان بنو برزال هؤلاء ينتمون إلى بطن من بطون زناتة من بنى يفرن، وكانوا يقطنون بالمغرب بأرض المسيلة والزاب الأسفل . ونحن نعرف أن زناتة كانت أيام الدولة الأموية من القبائل المشايعة لها بالمغرب ضد خصومها الشيعة العبيديين أو الفاطميين ، وكان من خصوم الشيعة فى نفس الوقت جعفر ويحيى

ابنا على بن حمدون الأندلسى ، صاحب المسيلة وما جاورها من أراضى المغرب الأوسط. فلما اضطرمت الحرب بين بنى زيرى زعماء صنهاجة وأولياء العبيديين. وبين زناتة وحلفائها ، ومنهم جعفر ويحيى ابنا حمدون ، فى أواخر أيام الحكم المستنصر ، وهزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيرى بن مناد (سنة ٣٦٠ هـ) ، هاجر جعفر ويحيى فى الأهل والصحب والمال إلى الأندلس ، خوفاً من انتقام صنهاجة ، وخدما الحكم المستنصر ، وحظيا فى دولته ، وذلك حسبما ذكرنا من قبل فى أخبار الحكم .

ولما استطالت صنهاجة على المغرب الأوسط ، شعر بنو برزال الزناتيين باشتداد وطأتها ، فكتبوا إلى جعفر بن على الأندلسى ، أن يسعى فى جوازهم إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم ، فعمل جعفر على تحقيق رغبتهم ، ووصفهم لدى الحكم بالشجاعة والإنقياد إلى الطاعة ، فأذن لهم بالجواز ، وانتظموا فى خدمة الجيش تحت يد جعفر ، واستمروا كذلك أيام الحكم ثم المنصور ، حتى ندب كبيرهم الحاجب أبوعبد الله محمد بن عبدالله بن برزالى أو البرزالى لحكم مدينة قرمونة فى أواخر الدولة العامرية ، واستقر أهله وصحبه هنالك فى كنفه ، إلى أن وقعت الفتنة ، فخاض بنو برزال غمارها إلى جانب أضرابهم من البطون البربرية الأخرى ، ولما انتثر عقد الأندلس ، واحتفظ كل رئيس بمدينته ، دعا أبو عبد الله لنفسه فى قرمونة ، وذلك فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، واستبد بحكمها ، وضبط شئونها ، ورتب جندها[١] . وفى بعض الروايات المتعلقة بالطوائف أن أبا عبد الله سار فى حكمه سيرة حسنة ، وعامل الرعية بالرفق والعدل فمالت إليه النفوس ، وعمرت قرمونة ، وسادها الأمن ، وبايعته مدينة إستجة ثم أشونة والمدور وغيرها من البلاد[٢] ، وغدت قرمونة بذلك إمارة لها خطرها وأهميتها فى تلك المنطقة ، وغدت بعد غرناطة ، ثانى الإمارات البربرية .

ولكن ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر ، يحمل على أبى عبد الله البرزالى ويصفه « بقطب رحى الفتنة » وينوه بفتكه وعيثه ، وقبح ثاره فى تلك المنطقة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ : ونبذ تاريخية فى أخبار البربر (الرباط ١٩٣٤) ص ٤٤ .

(٢) نشرت هذه الرواية المتعلقة بالطوائف ، وهى لكاتب مجهول فى نهاية الجزء الثالث من البيان المغرب . راجع منها ص ٣١١ و ٣١٢ .

وقطعه للسبل إلى آخر ماجاء فى أقواله ، مما سبق أن ذكرناه فى موضعه من قبل[١] .
وعلى أى حال فإنه يبدو أن البرزالى ، كان زعيما قوياً ، وافر الإقدام والعزم والشجاعة . وهذا ما يقرره لنا ابن الخطيب ، إذ يصفه بأنه كان يلى باديس فى جلالة الشأن ، وقوة السلطان ، « بقية أمراء البربر المسلطين فى هذه الفتنة ، وأعظمهم شأناً فى الدهاء والرجولة ، وأبصرهم بتدبير العساكر ، وأربطهم جأشاً على الخطوب المقلقة »[٢] .

وقد رأينا من قبل كيف كان القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ، يعتمد فى البداية على محالفة البرزالى ضد خصومه ، وكيف كان البرزالى من جانبه يرحب بهذه المحالفة ، اتقاء لشر بنى حمود وأطماعهم فى إمارته . وكان من آثار هذا التحالف أن حارب البرزالى إلى جانب ابن عباد ضد بنى الأفطس أصحاب بطليوس، فى حملته ضد باجة سنة ٤٢١ هـ ،وكان من آثاره أيضاً أن توجس يحيى ابن حمود المعتلى صاحب مالقة شراً من مشاريع ابن عباد ، فسار فى قواته إلى قرمونة وانتزعها من يد البرزالى ، فاستغاث البرزالى بحليفه ابن عباد ، وبعث ابن عباد قواته مع ولده إسماعيل ، ونشبت بينه وبين المعتلى معركة قتل فيها المعتلى ، واستردت قرمونة وأعيدت إلى البرزالى ، وذلك فى المحرم سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦ م) .

ولكن ابن عباد كانت له نحو قرمونة مشاريع أخرى ، فقد كانت قرمونة حصن إشبيلية من الشرق، وكان وجودها بيد هذا الزعيم البربرى أمرلا يحتمل ، ومن ثم فقد تحول ابن عباد فجأة إلى مخاصمة البرزالى ، وسير إليه قواته فاستولت على إستجة ، ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة، وعندئذ استغاث البرزالى ، بزملائه البربر ، وهرع إلى نصرته باديس صاحب غرناطة ، وإدريس المتأيد صاحب مالقة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انتهت بانتصار البربر وهزيمة الإشبيليين ومقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، واسترداد قرمونة، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) .

وتوفى أبو عبد الله محمد البرزالى بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) بعد أن حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين عاماً .

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب . وراجع البيان المغرب ص ٢٠٦ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

فخلفه والده الأكبر إسحق بن محمد ، وهو فى سن الكهولة . ويصفه ابن حيان بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأس والفروسية ، ولكن دون أبيه محمد فى القسوة والفظاظة « وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة ، والبعد عن آفات الملوك الشائنة »[١] . والظاهر أنه لم يحكم طويلا . بل إن صاحب الرواية الخاصة بالطوائف ، التى سبقت الإشارة إليها ، يغفل ذكره تماماً ، ويقول لنا إن الذى خلف أبا عبد الله البرزالى ، هو ولده عزيز الملقب بالمستظهر وإن أخاه إسحق بايعه ، وتم له الأمر[٢] .

وسار المستظهر فى حكمه سيرة حسنة ، وبايعت له البلاد التى كانت تحت حكم أبيه ، وساد الأمن والرخاء فى أيامه ، بيد أنه لم يلبث أن بدأ المعتضد بن عباد فى مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه ، واستمرت المعارك بينهما أعواماً ، وهلك فى ذلك النضال كثيرمن البربر ، واضطربت الأحوال فى مملكة قرمونة ، وعندئذ بعث عزيز المستظهر إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، يعرض عليه أن يسلمه قرمونة ، نكاية فى ابن عباد ، على أن يعوضه عنها ابن ذى النون قسما من أراضيه الجوفية ، فقبل المأمون هذا العرض ، وانتقل عزيز بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالى إستجة من أراضيه ، وعاش هنالك حتى توفى . وفى أثناء ذلك وقعت المفاوضة بين ابن عباد ، والمأمون ، وتفاهما على أن ينزل المأمون للمعتضد عن قرمونة لقربها من أراضيه ، وأن يتعاون الاثنان على افتتاح قرطبة ، واستلم ابن عباد قرمونة ولكنه لم يف للمأمون بشىء من عهوده[٣] .

وفى رواية أخرى ، أن المستظهر اضطر فى النهاية أن ينزل مباشرة عن قرمونة إلى ابن عباد ، بعد ما يئس من القدرة على الاحتفاظ بها ، وأنه سار بأمان ابن عباد إلى إشبيلية ، وهنالك توفى بعد قليل . وكان استيلاء ابن عباد على قرمونة فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) . وبذلك انتهت دولة بنى برزال فى هذا القطاع من المثلث الأندلسى ، واختفت واحدة من الإمارات البربرية[٤] .

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٧ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٨ .

(٤) راجع فى أخبار مملكة قرمونة ، أعمال الأعلام ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، وذيل البيان المغرب ص ٣١١ و ٣١٢ . وكذلك : P. y Vives : Historia de los Reyes de Taifas; p.23

٢ — دولة بنى يفرن فى رندة

وبنو يفرن هم أيضاً بطن من بطون زناتة، وكانوا بالمغرب من أولياء الدعوة الفاطمية، وقد اشتركوا فى الحرب التى وقعت بالمغرب أيام المنصور بن أبى عامر، وقاتلهم زيرى بن عطية أمير مغراوة وعامل المنصور على المغرب، حتى هزمهم بعد معارك هائلة، وهلك أميرهم يدّو بن يعلى وذلك فى سنة ٣٨٣ هـ. وعلى أثر ذلك افترقوا إلى شقين، وجنحت منهم شيعة إلى الانحياز إلى الدعوة المروانية، واستأذنوا المنصور فى الجواز إلى الأندلس، فأذن لهم وخدموا فى الدولة والجيش أسوة بباقى الوافدين من القبائل البربرية. ولما انتهت الدولة العامرية، واضطربت نار الفتنة، وتفرقت القبائل البربرية فى النواحى، استقر بنو يفرن فى ولاية تاكرونّا، واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً لرياستهم[1]، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبى قرة بن دوناس اليفرنى. وكان زعيماً «جسوراً جشعاً، مقداماً، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله، وحصانة قلاعه»، ولكنه كان فى نفس الوقت عاطلا عن كل فضيلة وكل خلة حسنة. وبدأ هلال رياسته لمنطقة تاكرونّا، حسبما يقول لنا صاحب الرواية المتعلقة بتاريخ الطوائف، عقب وفاة إدريس بن على بن حمود فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م)[2]، وكانت تشمل أراضى ولاية ريُّه، ما بين نهر وادى لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع معاقل الأندلس الجنوبية. وقد رأينا القاضى ابن عباد يخطب منذ البداية ود أولئك الأمراء البربر الذين يحتلون أراضى القطاع الأندلسى الجنوبى المتاخم لأراضيه. وجرى ولده المعتضد على سياسته فى توثيق أواصر المودة معهم. بيد أن سياسة بنى عباد، لم تكن تقوم فى ذلك حسبما رأينا، على الصدق والولاء، وإنما كانت تقوم على الخديعة والمصانعة، وقد تجلت حقيقتها فى حوادث مملكة قرمونة. وهكذا كان المعتضد يبدى مودته لأبى نور زعيم بنى يفرن، وزملائه أمراء بنى دمر أصحاب ولاية مورو، وبنى خزرون أصحاب ولاية شذونة وأركش،

---

(١) نبذ تاريخية فى تاريخ البربر ص ٤٥.

(٢) راجع ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢. ويقول صاحب الرواية إن هلالا قد بويع له بعد موت إدريس بن على بن حمود سنة ست وأربعمائة وهو تحريف. فقد توفى إدريس سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٩م).

وكان يستميلهم بالصلات والدعوات الودية . وفى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م وجه المعتضد دعوته لأبى نور ، ولمحمد بن نوح الدمرى صاحب مورور ، والقائم ابن محمد بن خزرون أمير بنى أرنيان وصاحب شذونة وأركش ، لزيارته فى إشبيلية ، فساروا إليه فى صحبهم وفرسانهم فى أحسن زى وأكمل هيئة ، وكان المعتضد قد دبر كمينه لاغتيالهم حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بنى عباد ، وانتهت هذه الدعوة الغادرة بالقبض على أولئك الأمراء وصحبهم وتكبيلهم بالأغلال ثم هلاك اثنين منهم ، وهما ابن نوح وابن خزرون ، فى الحمام ، وأفلت منهم هلال أبونور ، حيث أطلق المعتضد سراحه وأخلى سبيله .

وفى خلال ذلك كان باديس ولد هلال أبى نور ، قد قام بالرياسة فى غيبته أثناء اعتقاله بإشبيلية ، وكان « فاسقاً مجرماً » فاستبد بالأمر ، وأرهق الناس ببغيه وطغيانه ، وأطلق العنان لشهواته الدنيئة ، فاستباح الحرم وسطا على الأعراض هو وصحبه ، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، ولم يفر حتى أقرب الناس إليه من خاصة محارمه . فلما تخلص أبونور من الأسر ، وعاد إلى رندة ، وعلم بما وقع من ولده من العظائم ، أمر فى الحال بالقبض عليه وإعدامه وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) . انه لم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى توفى أبونور نفسه ، وخلفه فى الإمارة ولده أبونصر فتوح بن أبى نور[١] .

واستطال حكم أبى نصر زهاء ثمانية أعوام . وكان عادلا حسن السيرة . بيد أنه كان ميالا إلى الدعة منهمكاً فى الشراب . وكان المعتضد بن عباد من جهة أخرى يتربص به ويترقب الفرصة لهلاكه ، وانتهى بأن دس عليه رجلا من دعاته برندة يدعى ابن يعقوب ، وكان فارساً مقداماً ، فدهم أبانصر ذات يوم فى جماعة من صحبه ، وهو فى إحدى شرفات القصبة العليا ، وصاحوا بشعار بنى عباد ، فحاول أبو نصر الفرار ، ووثب من الشرفة فهوى إلى أسفل ، فارتطم بالصخر وزهق على الأثر ، ولم يأبه الناس لما حدث ، ولم يتعرض للقتلة أحد ، وانتهت بذلك دولة بنى يفرن ، واستولى ابن عباد على رندة وأعمالها بأيسر أمر ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م)[٢] . ونظم المعتضد بهذه المناسبة قصيدته التى مطلعها

لقد حصلت يارندة　　　فصرت لملكنــا عقدة

---

(١) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٤ .

٣ — دولة بنى دمّر فى مورون

وكانت ثالثة الإمارات البربرية فى تلك المنطقة من الأندلس الجنوبية ، هى إمارة بنى دمر فى مورور أو مورون[١] . وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول مدينة مورور ، وجنوباً حتى وادى لكه . وقام بها أيام الفتنة نوح بن أبى تزيرى الدمّرى زعيم بنى دمّر . وقد كان بنو دمر من بربر تونس ومن بطون زناتة ، وهم خوارج إباضية . وفد جدهم أبو تزيرى إلى الأندلس أيام المنصور ، وخدم كسائر زملائه الزعماء البرابرة فى الجيش ، وانحاز منذ أيام الفتنة إلى تلك المنطقة ، واستقر بها وبسط عليها سلطانه . ولما توفى فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) خلفه ولده نوح بن أبى تزيرى ، واستمر فى حكمها زهاء ثلاثين عاماً ، ثم توفى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فخلفه ولده محمد بن نوح . وكان محمد فتى غرا ، وجندياً جاهلا ، خاوياً من الفضائل . بيد أنه كان مقداماً جسوراً ، « وافر العنف والفتك »[٢] . وكان حديث عهد بالإمارة ، فاستبد وبغى وتلقب بعز الدولة ، واستطاع بجرأته وصرامته ، أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية الشاسعة ، ويعمل الفكرة فى إزالتها ، وكان حسبما تقدم يصانع أولئك الأمراء البربر أحياناً ويهاجمهم أحياناً أخرى ، وقد ذكر لنا صاحب الذخيرة أنه استغل هذه السياسة المزدوجة تجاه إمارة مورور الصغيرة ، فأغارت قواته على أراضى مورور ، واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر ، ولم يقابله بمثله[٣] . وجنح المعتضد بعد ذلك إلى مصانعة ابن نوح ، واستمالته بالصلات والهدايا ، كما فعل ذلك مع زميليه ، أبى نور صاحب رندة ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، ثم دعاهم وصحبهم كما تقدم إلى زيارته فى إشبيلية ، ثم قبض عليهم وغدر بهم ، وهلك فى ذلك الكمين الخائن الذى رتبه المعتضد فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) محمد بن نوح وابن خزرون . وفى رواية أخرى أن محمداً بن نوح لبث فى

---

(١) وهى بالإسبانية Morón .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٩ ، وذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) نقله صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٤ .

معتقل المعتضـــد حتى توفى فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) .

فخلفه فى الإمارة ولده مناد بن محمد بن نوح ، وتلقب بعماد الدولة ،وسار على سنة أبيه من الصرامة والحزم ، وقصده البربر من إشبيلية وإستجة وزادت جموعه ، واستمر محافظاً على سلطانه ، والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضيه ، ويحرق بلاده وزروعه ، ويرهقه بطريقة قاسية منظمة . فلما ضاق بهذا العدوان المستمر ، ولما شعر فى النهاية أنه عاجز عن الدفاع عن إمارته ، كتب إلى المعتضد ، يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ، ويخرج إلى إشبيلية ، يعيش فيها تحت كنفه ، فأجابه المعتضد إلى رغبته ، وسلم إليه عماد الدولة حصن مورور ، وما يتبعه من حصون وأعمال ، وذلك فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، وانتهت بذلك مملكة بنى دمّر الصغيرة ، وأضيفت إلى أعمال مملكة إشبيلية الشاسعة. وسار عماد الدولة إلى إشبيلية فى أهله وأمواله ، وبالغ المعتضد فى إكرامه والتوسعة عليه ، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥م) .

٤ — دولة بنى خزرون فى أركش

وكانت دولة بنى خزرون هى رابعة الإمارات البربرية الصغيرة فى تلك المنطقة . وبنو خزرون هم من أبناء قبيلة يرنيان أو إرنيان من زناتة ، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزرى ، وهو كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية ، قد ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة بكورة شذونة على مقربة من أركش ، وذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة. ثم تغلب على مدينة أركش المنيعة ، وأقام بها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة ، وتلقب بعماد الدولة ، وكان زعيما جسورا مقداما ، سفاكاً للدماء ، فهابه الناس واستمر يحكم تلك المنطقة حتى توفى فى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩م) . فخلفه ولده عبدون ابن خزرون ، وبايعته البلاد المجاورة لأركش وقلشانة وشريش ، واستمر حكمه زهاء خمسة وعشرين عاماً ، إلى أن هلك بإشبيلية فى الكمين الشائن، الذى استدرجه إليه المعتضد بن عباد هو وزميلاه محمد بن نوح الدمرى ، وأبو نور بن أبى قرة ، حسبما أشرنا إلى ذلك غير مرة ، وكان ذلك فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) .

فتولى الأمر من بعده أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم ، وأخذ يحصن بلاده ، ويتأهب لمقاومة ابن عباد بعد الذى بدا من غدره . والواقع أن

ابن عباد ما فتىء يترقب الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة التى تجاوره من الجنوب الشرقى، وتفصله عن إمارة رندة ، وهى التى كان يطمح إلى أخذهافى نفس الوقت ، فعمد إلى الإغارة عليها، وتخريب أراضيها وإرهاقهابكل الوسائل وابتنى حصناً على مقربة من أركش وشحنه بالمقاتلة لمضايقتها بطريقة منظمة ، والقائم صامد يدافع عن أراضيه ما استطاع . وأخيراً ألفى القائم أنه لا يستطيع مدافعة ابن عباد إلى النهاية ، فلجأ إلى باديس بن حبوس أمير غرناطة ،واتفق معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التى تحت حكمه ، على أن يعطيهم أرضاً من بلاده ينزلون بها ويقيمون فيها ، وبعث باديس بقوة كبيرة من جنده ليعاونهم على الجلاء . وخرج بنو إرنيان من أركش بأهلهم وأموالهم، يقصدون إلى أرض غرناطة . وكان ابن عباد قد رتب الكمائن لاعتراضهم ، فما كادوا يبتعدون بأحمالهم عن القلعة حتى خرجت كمائن ابن عباد ، ونشب بين الفريقين قتال مرير ، دافع فيه بنو إرنيان عن أنفسهم وعن أموالهم وحريمهم أشد دفاع ، بيد أنهم مزقوا فى النهاية ، وقتل أميرهم محمد بن خزرون وقتل معه قائد جند باديس ، وأبيد معظمهم . ومما يذكر أن محمداً بن خزرون لما شعر بالهلاك أمر غلامه أن يقتل زوجته وكانت رائعة الحسن ، وكذلك أخته ، حتى لاتقعا فى أيدى العدو ، واكتفى ابن عباد بتمزيق بنى إرنيان وترك فلولهم دون مطاردة ، ودخل أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها، وذلك فى سنة ٤٦١ه (١٠٦٨م)(١)

وهكذا سقطت الإمارات البربرية الصغيرة الأربع ، التى تقع فى منطقة المثلث الإسبانى الجنوبى ، وضمت كلها تباعاً إلى مملكة إشبيلية القوية ، وذلك خلال أعوام قلائل فقط ،رندة فى سنة ٤٥٧ ه ،ومورور سنة ٤٥٨ه ،وقرمونة سنة ٤٥٩ ه ، وأركش فى سنة ٤٦١ ه .

وأضحت مملكة إشبيلية ، بعد الاستيلاء على تراث هذه الإمارات، تمتد من ولاية تدمير شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطى غرباً ،ومن وسط الأندلس ،من شرق مملكة طليطلة ، وغربى مملكة قرطبة شمالا ،حتى أرض الفرنتيرة، وثغر الجزيرة جنوباً ، وإذا استثنينا مملكتى ألمرية وغرناطة ، فان مملكة إشبيلية كانت تضم معظم تراث الدولة الأموية الذاهبة فى وسط الأندلس وفى جنوبها .

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، والبيان المغرب ج ٤ ص ٢٧١ و ٢٧٢ وذيله ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الكتاب الثالث

دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

فى شرقى الأندلس

الفصل الأول

مملكة ألمرية

الفتيان الصقالبة . اشتراكهم فى حوادث قرطبة . نزوحهم إلى شرق الأندلس . استيلاء خيران العامرى على أوريولة ومرسية وألمرية . يؤيد خلافة المرتضى . اختيار الفتيان لعبد العزيز المنصور زعيماً لهم . خيران يبايع محمد بن عبد الملك ثم يختلف معه . حكم خيران فى ألمرية ومنشآته . شجاعته وإقدامه. وفاته وولاية زهير العامرى مكانه. صفاته. وزيره أحمد بن عباس. حملته إلى غرناطة ومصرعه استيلاء عبد العزيز بن أبى عامر على ألمرية . استخلافه لوزيره ابن صمادح عليها . تغلب ابن صمادح على ألمرية . بنو صمادح وزعيمهم أبى يحيى عامل وشقة. ولده معن يتولى الوزارة لصهره عبد العزيز ثم ينتزع منه ألمرية . وفاته وقيام ولده أبى يحيى المعتصم مكانه. صداقته لباديس صاحب غرناطة . خلافه مع عبد العزيز صاحب بلنسية . الثورة فى لورقة . تأييد عبد العزيز لها . الحرب بينه وبين المعتصم وباديس. استقلال الثوار بحكم لورقة . الخلاف بين المعتصم وباديس . استيلاء المعتصم على أراضى غرناطة الشرقية . إستيلاؤه على جيان . الخلاف بين المعتصم وعبد الله صاحب غرناطة والصلح بينهما . أدب المعتصم وشاعريته . أقوال ابن بسام . سقوط طليطلة وموقف المعتصم من استدعاء المرابطين . تنافسه مع ابن عباد لدى أمير المسلمين . مساهمة جنده فى موقعة الزلاقة . مساهمته فى حصار حصن لييط . وفاته وما يروى حولها . ولده معز الدولة . فراره من ألمرية عند مقدم المرابطين .

١ — عهـــد الفتيان العامريين

لما وقعت الفتنة ، وانتهت الدولة العامرية ، بتربع محمد بن هشام المهدى على كرسى الخلافة ، فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ، ومقتل عبد الرحمن بن المنصور ، بعد ذلك بأيام قلائل ، غادر معظم الفتيان الصقالبة قرطبة ، فراراً من اضطهاد العهد الجديد ، وقصدوا إلى شرق الأندلس ، حيث كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً ، وجو العمل والمغامرة أكثر انفساحاً . وكان منهم عدة من الفتيان الفحول والخصيان الأذكياء ، ذوى الإقدام والعزم ، مثل مجاهد ، وقد غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ، ولبيب وقد غلب على طرطوشة . ومظفر ومبارك وقد غلبا على بلنسية ، ونبيل وقد غلب على شاطبة ، وخيران ، وقد غلب على ألمرية ومرسية وأوريولة .

وإنما يهمنا هنا ، من هذه الجمهرة من الفتيان الصقالبة، خيران العامرى ،

وقد كان من أقواهم عزماً ،وأنشطهم إلى خوض غمار الحوادث ، التى تلت سقوط الدولة العامرية . ونحن نعرف أن محمداً بن هشام المهدى حينما تولى الخلافة ثار عليه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى أنصاره ومرشحيه من البربر ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة حول قرطبة وفى الزهراء ،هزم فيها سليمان وحزبه فى البداية . وكان الفتيان العامريون ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد من حبسه بالقصر واضطهاده ، وما فعله بعبد الرحمن المنصور وبنى عامر ، فائتمروا به وقتلوه ، وكان من بين مدبرى هذه المؤامرة الحاجب واضح الفتى ، وزميلاه عنبر وخيران ، وكانا قد قدما من شرقى الأندلس إلى قرطبة مع عدد آخر منهم ، ليشتركوا فى حوادث قرطبة ، وليبحثوا عن طالعهم فيها .

ورفع الفتيان الصقالبة ، هشاماً المؤيد إلى كرسى الخلافة مرة أخرى،وتولى واضح حجابته . ولكن البربر تمسكوا بموقفهم وبمرشحهم سليمان ، واستأنفوا هجومهم على قرطبة وحاصروها ، وقاتلوا أهلها بمنتهى الشدة ، ودافع القرطبيون عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، ولكنهم ضاقوا بالحصار والعدوان ذرعاً ، ووجه اللوم فى ذلك إلى الحاجب واضح ، فقتله زملاؤه ، وفى النهاية تغلب البربر على كل مقاومة ، واعتلى سليمان كرسى الخلافة باسم المستعين ،وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو ١٠١٣ م) .

وكان الفتيان العامريون قد خشوا العاقبة بعد مقتل واضح،وهالهم فى نفس الوقت، ما ارتكبه سليمان وصحبه البربر من العيث والسفك ، وجرح الكثير منهم خلال القتال ومنهم خيران ، فغادروا قرطبة ناجين بأرواحهم ، وقصدوا إلى شرقى الأندلس مرة أخرى .

وسار خيران أولا إلى أوريولة فى شرقى الأندلس فاستولى عليها ، ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير ، فأخضعها لسلطانه (٤٠٣ هـ) ، وخرج منها بعدئذ بقواته إلى ثغر ألمرية . وكان عليها أفلح الصقلبى ، وهو حسبما تصفه الرواية غرّ جلف ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، وكان يدل على زملائه الفتيان الصقالبة بقدمه وشيخوخته ، فهاجمه خيران ، وقتله هو وولده ، وانتزع منه ألمرية ، وذلك فى المحرم سنة ٤٠٥ هـ (يوليه ١٠١٤ م) وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية،ومستودع أمواله وعدته ، كما غدت مركز الدعوة

لإمامة هشام المؤيد ، وهو الذى كان يعتبره فتيان الصقالبة إمامهم ومولاهم .

وقد رأينا فيما تقدم من أخبار الدولة الحمودية ، كيف ادعى على بن حمود الحسنى حاكم سبتة أيام الفتنة ، أنه تلقى عهد هشام ، وكيف تحالف معه خيران ثم عاونه بقواته ، كما عاونه بربر غرناطة ، وانتهى الأمر بأن زحفت القوات المتحدة على قرطبة ، وكتب النصر لعلى بن حمود ، ودخل قرطبة ؛ ولما لم يعثر على هشام المؤيد بالقصر ، دعا لنفسه بالخلافة ، وبدأت بذلك دولة بنى حمود (سنة ٤٠٧ هـ) .

ثم رأينا كيف غادر خيران قرطبة مغضباً متوجساً من غدر على بن حمود ، وقصد إلى جيان ، ودعا أصحابه بالخلافة لعبد الرحمن المرتضى ، وأيده فى تلك الحركة عدة من ولاة الثغور ، ثم وقعت الحرب بين قوات المرتضى وبربر غرناطة ، فهزم المرتضى ثم قتل ، وعندئذ سار خيران فى أصحابه ، وقصد إلى ألمرية مرة أخرى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .

والظاهر أن خيران ، بالرغم من اتخاذه ألمرية قاعدته الرئيسية ، قد لعب فى حوادث شرق الأندلس دوراً ملحوظاً . ذلك أن الفتيان العامريين فى شرق الأندلس ، قد اتفق رأيهم على أن يتخذوا لهم رئيساً من سلالة مولاهم العظيم ، المنصور بن أبى عامر ، ينضوون جميعاً تحت لوائه من الناحية الأدبية ، فوقع اختيارهم فى ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، وكان فتى حدثاً ونحن نذكر أنه كان أيام أبيه عبد الرحمن المنصور طفلا ، ومع ذلك فلقد أسبغ عليه والده لقب الحجابة ، ولقبه بسيف الدولة ، وكان منذ مصرع أبيه قد غادر قرطبة سراً ، وسار إلى سرقسطة ، وأقام بها فى كنف صاحبها منذر ابن يحيى التجيبى ، فلما اختاره الفتيان العامريون زعيما لهم ، غادر سرقسطة ، ولحق بشاطبة ، حيث أعلنت بيعته ، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) . وفى رواية أخرى أن سليمان بن الحكم المستعين ، حينما ولى الخلافة لأول مرة ، عمل على رد اعتبار بنى عامر ، فدفن شلو عبد الرحمن المنصور بالتكريم ، وآوى ولده الطفل عبد العزيز ، وابن عمه الطفل محمداً بن عبد الملك تحت رعايته ، فبقيا فى كنفه وقتاً قصيراً ، حتى خلع ، واسترد محمد بن هشام الخلافة . فعندئذ غادر الطفلان قرطبة [1] . ولسنا نعرف ماهو الدور الذى أداه خيران فى اختيار عبد العزيز

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ .

للزعامة ، وهل كان من مؤيديه أم من خصومه . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك حتى اختلف خيران مع عبد العزيز ، وأعلن الخروج عليه ، وسار من ألمرية إلى مرسية ، وهنالك بايع بالزعامة محمداً بن عبد الملك بن المنصور، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان قد غادر قرطبة ولجأ إليه ، فقدمه وصحبه إلى مرسية ،وثار فى نفس الوقت أهل شاطبة بعبد العزيز فغادرها سراً إلى بلنسية .وتسمى محمد بالمؤتمن ، ثم بالمعتصم . ثم تنكر له خيران ، وأخرجه من مرسيه ، واستولى الفتيان على أمواله ، فسار إلى غرب الأندلس ؛ وعاش هنالك حتى توفى[١]

وهكذا لم يكن خيران ، وهو فى عمالته فى شرقى الأندلس ، دائما على وفاق مع أصحابه الفتيان العامريين ، وكانت علائقه بالأخص سيئة مع مجاهد صاحب دانية ، وكانت تقع بينهما المناوشات والمعارك من آن لآخر.

* * *

ولتتبع بعد ذلك حكم خيران فى ألمرية ، بعد أن فصلنا الحوادث التى خاضها منذ اضطرام الفتنة ، والتى تدل فى مجموعها على ماكان يتمتع به هذا الزعيم الصقلبى من الحصافة ، والإقدام ، وقوة العزم .

استقر خيران فى ألمرية ، وبسط حكمه على أعمالها ، وكانت إمارة ألمرية تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطىء اسبانيا الشرقى الجنوبى ، على هيئة مثلث كبير ، غرباً حتى وادى آش وحدود مملكة غرناطة ، وشمالا حتى بسطة وجيان ، وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية ، وهذا عدا أوريولة ومرسية ، وقد كان يحكمهما بالنيابة زهير العامرى .وأبدى خيران فى ضبط ألمرية وتنظيمها همة فائقة ، وحصن ألمرية ، وأصلح قصبتها الشهيرة ، وزاد فيها حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، وأودعها أمواله وذخائره ، ومازالت أطلالها الماثلة إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة . وزاد خيران فى قبلة جامع ألمرية زيادة اتسع لها الجامع ، وبنى السور الهابط من الجبل إلى البحر ، وجعل له أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة[٢] ونظم خيران جيشه ، واستوزر

---

(١) يراجع فى هذه الحوادث أعمال الأعلام ص ٢١٠ و ٢١١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 96-98.

(٢) كتاب ترصيع الأخبار للعذرى (نصوص عن الأندلس نشرت منه بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى) (مدريد ١٩٦٥) ص ٨٣ .

الكاتب البليغ أحمد بن عباس بن أبى زكريا ، وعامل رعيته بالرفق والعدل ، وفى أيامه بلغت ألمرية منتهى العمران والرخاء ، وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس .

وكان خيران رئيساً وافر الدهاء والشجاعة ، والحصافة ، وحسن التدبير ، وكان بصيراً بالحروب ومكايدها ، وقد جرت بينه وبين جيرانه البربر أصحاب غرناطة ، وقائع أبدى فيها قوته وصرامته ، فهابوه ، ولم يفكروا فى مناوأته . وكان فوق ذلك كله متواضعاً زاهداً فى الألقاب ، فلم يتسم بشىء من تلك الألقاب الضخمة ، التى اتسم بها سائر أمراء الطوائف فى عهده ، واكتفى بما كان يوصف به من « الخليفة » و« الفتى الكبير »(١) .

وقد مدحه شاعر العصر الكبير ، أبو عمرو أحمد بن درّاج القسطلى ، بقصيدته الشهيرة ، التى مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران	وبشراك قد وافاك عزٌّ وسلطان
هو النجم لايدعى إلى الصبح شاهد	هو النور لايُبغى على الشمس برهان
إليك شحنّا الفلك تهوى كأنها	وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها ثبير وثهلان(٢)

وتوفى خيران العامرى بألمرية فى جمادى الآخرة سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فاجتمع فى الحال رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير أحمد بن عباس ، ونبأهم بأن خيران ، قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه زهير العامرى ، واتفق الجميع بذلك على تولية زهير . وكان خيران حينما شعر بدنو أجله قد بعث بالفعل يستدعى زهيراً ، نائبه فى مرسية وجيان ، فقدم زهير على عجل ، وأدرك خيران قبيل وفاته ، فلما توفى قام فى الحال مكانه ، وتسلم زمام السلطان ، ورضى به الناس ورجال الدولة(٣) .

وكان زهير ويكنى أبا القاسم ، من أهم الفتيان العامريين ، وأشدهم بأساً ، « وكان شهماً داهية » بعيد النظر ، وقد لعب فى حوادث الفتنة بقرطبة أدواراً أشرنا إليها فى مواضعها ، ولما تولى حكم ألمرية اقتفى أثر صاحبه خيران فى حسن

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٢ .

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ص ٨٦ — ٨٨ ، ووردت فى الذخيرة (القسم الأول المجلد الأول ص ٧٤ — ٧٨) ، وكذلك ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٢١٢ — ٢١٥) وهى طويلة جداً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

السيرة وحفظ النظام ، وهو الذى زاد فى المسجد الجامع بألمرية من غربيه وشرقيه وجوفيه ، وعظم المسجد بذلك . وبنى السقاية ، وكثر الماء فى ألمرية . وكان يكرم الفقهاء ويشاورهم فى الأمر .

وكانت مملكة ألمرية وقت أن تولى حكمها زهير ، تمتد من ألمرية حتى شاطبة ، شرقاً ، وتمتد شمالا حتى جيّان وبيّاسة ، وحتى أعمال طليطلة ، ولو أن زهيراً استمع إلى صوت العقل والحكمة ، وقنع بتدبير مملكته الكبيرة ، لكان له فى تاريخ الطوائف شأن آخر ، ولكنه كان يقع تحت نفوذ وزيره الكاتب أحمد بن عباس ، وقد كان هذا الوزير ، بالرغم من صفاته العلمية والأدبية اللامعة ، ميالا إلى التهور والمغامرة ، وكان يلقى فى روع أميره مشاريع خطيرة ، ويحرك أطماعه بتحريضه وسيئ نصحه ، والظاهر أنه هو الذى بعث إليه فكرة غزو غرناطة ، على أثر موت أميرها حبوس بن ماكسن ، وتولى ولده باديس الحكم مكانه فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) . فنظم زهير حملته المشئومة إلى غرناطة ، ولم يلتفت إلى ما طلبه إليه باديس وأخوه بُلُقّين ، من تجديد أواصر المودة والصداقة التى كانت معقودة بينه وبين أبيهما حبوس ، ثم سار إليها فى قواته الكبيرة ، وقد أخذه الغرور والعجب ، حسبما فصلناه فى أخبار غرناطة ، وهنالك التقى بقوات باديس فى ظاهر قرية ألفنت القريبة من غرناطة ، وذلك فى آخر شوال سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) ونشبت بينهما الموقعة الهائلة التى انتهت بهزيمة زهير ومصرعه وتمزيق قواته ، وأسر أكابر رجاله ، وفى مقدمتهم وزيره ابن عباس ، وقد قتله باديس أيضاً بعد ذلك بأسابيع قلائل[١] .

فكانت هذه النكبة ضربة أليمة لمملكة ألمرية ، وكان من أثرها أن استولى باديس على الجزء الشمالى الغربى من أراضى ألمرية ، وفيها مدينة جيان أكبر قواعدها الشمالية .

ولما فقدت ألمرية أميرها ووزيرها على هذا النحو ، اجتمع أهلها ، وأسندوا رياستهم إلى شيخ الجماعة أبى بكر الرميمى ، فتولى شئونها ، وضبط النظام والأمن . ثم كتب أهل ألمرية إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية يستدعونه لحكم مدينتهم . وكان عبد العزيز يعتبر أنه صاحب الحق الشرعى فى تراث الفتيان العامريين ، وذلك بحق الميراث والولاء باعتبارهم موالى أسرته ، وكان مذ هلك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ — ١٧٢ .

زهير ،قد بعث وزيره ابن صمادح إلى باديس ، يلح عليه فى إعدام أكابر الأسرى من زعماء ألمرية الذين وقعوا فى يده ، ولاسيما الوزير ابن عباس ، حتى لايعارضه منهم أحد بعد فى امتلاك ألمرية ، وبادر عبد العزيز على أثر ذلك إلى ألمرية ، فبايعه أهلها ودخلها فى آخر ذى القعدة سنة ٤٢٩هـ ، ووجد بيت مالها مليئاً بالمال المضروب والذخائر فنقلها جميعا إلى بلنسية(١) ، وترك عليها والياً من قبله هو صهره ووزيره أبو الاحوص معن بن صمادح التجيبى ، فكانت ولايته إيذاناً بتطور مصاير مملكة ألمرية .

٢ — عهد بنى صمادح التجيبيين

ذلك أن عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، لم يكد يفرغ من شئون ألمرية ، حتى جاءته الأنباء بأن منافسه وخصيمه مجاهد العامرى صاحب دانية وجزائر البليار ، قد تحرك لغزو أراضيه . وكان مجاهد يرقب تقدم عبد العزيز واتساع ملكه بعين الحسد ، فلما شغل بما آل إليه من تراث الفتيان فى ألمرية ، خرج مجاهد فى قواته صوب بلنسية ، فهرع عبد العزيز إلى مدافعته ، وترك صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن صمادح ليرعى شئون ألمرية . وكان معن رجلا قليل الولاء كثير المطامع ، فما كاد عبد العزيز يغادر ألمرية ، حتى وضع مشروعه للاستئثار بالسلطة ، والاستيلاء على مملكة ألمرية ، وما زال يوطد الأمر لنفسه حتى جاهر بخلع الطاعة ، ودعا لنفسه واستجاب الناس لدعوته ، واستولى على ألمرية وأعمالها وذلك فى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، وكان من مؤيديه ومعضديه فى هذا الانقلاب باديس صاحب غرناطة . ودخلت مملكة ألمرية بذلك فى عهد جديد من تاريخها .

وكان هذا الرئيس الجديد الذى سيطر على أقدار ألمرية، ينتمى إلى بيت من أعرق البيوتات العربية ، وكان حسبما يوصف من أهل الدهاء والفضل والعلم والأدب(٢). وهو معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمادح ، وبه عرف بيتهم . وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ٢١٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٢ وراجع دوزى : Hist. ; V. III ; p.28

(٢) العذرى فى « نصوص عن الأندلس » من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤ .

ابن المهاجر بن عميرة ، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس . وفى عبد الرحمن ابن عبد الله يجتمعون مع بنى هاشم التجيبيين أصحاب سرقسطة، فهم مثلهم ينتمون إلى تجيب[١] . وكان والده أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح حاكم مدينة وشقة وأعمالها منذ أواخر أيام هشام المؤيد بالله . ولما تولى سليمان الظافر الخلافة فى سنة ٤٠٣ ﻫ أقره على ولايته ، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة فى البداية علائق مودة وسلام ، فلما انتهت أيام سليمان ، واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية فى سنة ٤٠٧ ﻫ ، وعادت الأمور إلى اضطرابها ، ساءت العلائق بين منذر وأبى يحيى ، وسار منذر إلى وشقة فى قواته واستولى عليها ، وفر أبو يحيى فى أهله وولده ناجياً بنفسه . فكان على قول ابن حيان « أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده » .وكان أبو يحيى مع رياسته عالما محدثا من أهل الفضل والأدب ، روى عنه ابنه أبو الأحوص معن ، وله مختصر قيم فى غريب القرآن . وقد اشتهرت وصيته لابنيه معن وصمادح بأسلوبها البارع ، ومحتوياتها الجامعة لمعظم آداب الدنيا والدين ، ودلالتها على وفور علمه ، وجلالة معارفه ، وسمو نفسه[٢] . ووصف لنا ابن بسام فى الذخيرة أبا يحيى بأنه كان فارساً مقداماً، وكان أديباً ذلقاً حسن البيان، ولكنه كان منكود الطالع ، فلم تدم رياسته طويلا[٣] .

ولجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، فأكرم وفادته وتوثقت علاقتهما بالمصاهرة ، إذ تزوج ولداه معن أبو الأحوص ، وصمادح أبو عتيبة بأختى عبد العزيز . ثم أراد أبو يحيى اللحاق بالمشرق ، فمات غرقاً فى البحر . وذكر لنا ابن حيان أنه هلك غرقا فى البحر الرومى، فيما بين جزيرة يابسة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) فى ترجمة المعتصم بن صمادح ، لوحة ٨٠ و ٨١ ، ونقلها دوزى مقتضبة فى كتابه : Recherches, V. II. App. XX. وذكر ابن الخطيب أن صمادح إنما هو اسم امرأة هى صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله إلى آخر نسبتهم، وأنهم عرفوا باسم أمهم المذكورة (أعمال الأعلام ص ١٨٩) . ولكنا لم نجد تأييداً لهذه الرواية . وبالعكس فان النسابة ابن حزم يقرر أن صمادح هو جدهم (جمهرة أنساب العرب ص٤٠٥) . ويوافقه ابن الأبار حسبما تقدم . وراجع الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٧٨ — ٨١ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — الجزء الأول — مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٦ .

وشاطىء الأندلس ، وكان قد ركبه من ثغر دانية ، فى مركب تأنق فى صنعه واستجادة آلته وعدته ، مع نفر عديد من صحبه ، فغرق معظمهم ، ولم ينج منهم سوى القليل، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ[١] وبقى ابنه معن فى كنف صهره عبد العزيز ، وقد ولاه وزارته ، فلما قتل زهير العامرى ، واستولى عبد العزيز على ألمرية ، استخلف عليها وزيره معن . قال ابن حيان : « فكان شر خليفة استخلف . لم يكد يواري وجهه عبد العزيز عنه ، حتى خان الأمانة ، وطرده من الإمارة ، ونصب له الحرب، فغرّب فى اللؤم ما شاء . وتنكب ابن أبى عامر التوفيق لاسترعائه الذئب الأزل على ثلته ، ومسترعى الذئب أظلم ، وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا فى عقبه »[٢] ، وانتهى الأمر باستيلاء معن على ألمرية والدعاء بها لنفسه حسبما تقدم . واستمر معن فى حكم ألمرية وأعمالها زهاء عشرة أعوام . وكانت بينه وبين باديس صاحب غرناطة علائق مودة وصداقة . وتوفى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بعد أن وطد رياسته ، ومهد الملك لعقبه .

فخلفه ولده أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح بإجماع القرابة ورجال الدولة، ولما يستكمل الثامنة عشرة من عمره ؛ وكان أبوه قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، بعد أن عرضها على أخيه صمادح أبى عتبة ، فاعتذر عن قبولها ، واتخذ من الألقاب الملوكية لقبين ، هما المعتصم بالله والواثق بفضل الله ، والرشيد على قول آخر ، وتوطدت فى بداية حكمه علائق المودة بينه وبين باديس صاحب غرناطة ،على ما كانت بينه وبين أبيه[٣] . ولكن الخلاف لبث بالعكس مستحكما بينه وبين خاله عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، وكان باديس يعمل على إذكاء هذا الخلاف وتقويته كلما بدت بوادره . ذلك أنه كان باعتباره زعيم البربر يكره الجبهة الأندلسية، ويحاول دائماً أن يعمل على إضعافها، وكان من أبرز الحوادث المتصلة بهذا الخلاف ثورة ابن شبيب صاحب لورقة على المعتصم وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) . وكان من الواضح أن هذه الثورة لم تكن بعيدة عن وحى

(١) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — ج ١ من مخطوط مكتبة باريس الوطنية .
(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٣٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ وأعمال الأعلام ص ١٩٠ .
(٣) كتاب التبيان ص ٤٥ .

عبد العزيز . ذلك أن لورقة،وهى آخر قواعد مملكة ألمرية الشمالية الشرقية،تقع على حدود مملكة بلنسية ، وقد استنصر الثائر بعبد العزيز ، فبادر بتلبية دعوته ، وأمده ببعض قواته ، وزحف المعتصم فى جيشه على لورقة ، وأمده باديس من جانبه بقواته ، ونشبت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة ابن شبيب واستيلاء المعتصم على حصون لورقة ، وعودتها إلى حظيرة مملكة ألمرية[١] . بيد أنه يبدو أن ابن شبيب قد استأنف الثورة بعد ذلك ، واستطاع أن يستقل بحكم لورقة ، وخلفه إخوته الثلاثة فى حكمها بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، واستمر على حكمها باسمه ، حتى سقطت إشبيلية فى يد المرابطين فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[٢] . فلما توفى عبد العزيز فى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ، ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، بعث المعتصم بن صمادح بعض قواته فأغارت على بعض حصونه فى تدمير ، وساعده فى تلك الحركة أيضا باديس ، ولكنه باء بالفشل ، وردت جنده على أعقابها[٣] .

ثم تطورت العلائق بعد ذلك بين المعتصم وباديس ، وثابت للمعتصم أطماع فى الاستيلاء على أراضى غرناطة المجاورة لمملكته . والظاهر حسبما يحدثنا الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة فى مذكراته ، أن الذى كان يوحى إليه بتلك الأطماع ويشجعها ، هو يوسف بن نغرالة اليهودى ، وزير باديس ، بل يقول لنا الأمير إن مشروع ابن نغرالة كان يرمى إلى تمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة ذاتها[٤] . وعلى أى حال فقد استطاع المعتصم أن يستولى على بعض أراضى غرناطة الشرقية وعلى حصن وادى آش . وقد رأينا فيما تقدم من أخبار باديس أنه ركن إلى الدعة فى أواخر عهده ، ووقع التفكك فى مملكته . وهو قد استرد وادى آش من ابن صمادح فيما بعد ، ولكن الظاهر أنه فقد جيان فى أواخر عهده ، واستولى عليها المعتصم بمداخلة الخوارج فيها . وكانت مملكة ألمرية تشمل

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 105

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) كتاب التبيان ص ٥٣ .

عندئذ من القواعد الهامة غير ألمرية ، لورقة ، وجيان ، وبياسة[١] التى استطاع المعتصم أن ينتزعها من أملاك على بن مجاهد العامرى صاحب دانية ، بيد أنه لم يحتفظ طويلا بمدينة جيان التى استولى عليها المعتمد بن عباد فيما بعد .

ولما توفى باديس وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين ، وقعت بين المعتصم وعبد الله منازعات كثيرة بسبب الحصون الغرناطية الواقعة على الحدود مما يلى فنيانة ، وانتهى الأمر بأن أرغم عبد الله على هدم تلك الحصون استبقاء للمهادنة والسلم بينه وبين أمير ألمرية[٢] .

وبذل المعتصم جهوداً عظيمة ، فى توسيع قصبة ألمرية وتجميلها ، وأنشأ بها قصره الكبير الممتد حتى الجبل ، وإلى جانبه بستانه العظيم ، وأنشأ مجلسا رحبا مفروشاً بالرخام الأبيض ، ومجلسا آخر مقرنساً بالرفوف المذهبة ، ويليه من الجهة القبلية أبواب عليها شراجب يمكن منها أن يرى جميع مدينة ألمرية ، وبحرها ، وإقبال السفن إلى مرساها وخروجها منه. وجلب المعتصم الماء إلى المدينة ووصلها إلى جامع ألمرية ، وجلب منها فرعا إلى ما وراء القصبة ، ونظم وصول الماء إلى الرياض الملحقة بالقصر ، كما ابتنى بخارج ألمرية قصوراً فخمة ، وإلى جوارها بساتين تغص بغرائب الأشجار والثمار ، وفى إحداها بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتوحة ، مفروشة بالرخام الأبيض ، وكان ذلك البستان الفخم يسمى « بالصمادحية » وهو قريب من ألمرية[٣] .

على أن أهم ما يشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره ، وحمايته لدولة الشعر والأدب . وقد كان بلاطه الصغير بألمرية ، ينافس فى مجالسه الأدبية وفى رعايته للأدباء والشعراء ، بلاط إشبيلية .

وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفة من أكابر شعراء العصر ، فقد كان وزيره أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح ، وكان من شعرائه المختصين به ، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، إمام الموشحات ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وهو من أهل برجة ، وكانت

---

(١) A. R Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 167

(٢) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

(٣) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٨٥ .

مدائحه للمعتصم تمتاز بطرافتها ، وبديع تصويرها ، وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالميسر ، أصله من إلبيرة ، وكان يجيد شعر التهكم اللاذع ؛ وابن الحداد الوادى آشى ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط المعتصم ، ولكن غضب عليه المعتصم ذات يوم لزلة ارتكبها فى شعره ، فغادر ألمرية ، ولجأ حيناً إلى بلاط المقتدرين بن هود بسرقسطة ، ثم عاد إلى ألمرية ، وكان فضلا عن شاعريته التى تبدو فى مدائحه الكثيرة للمعتصم ، عالماً بالفلسفة . ومن مديحه للمعتصم قوله من قصيدة طويلة :

لعلك بالوادى المقدس شاطىء	فكالعنبر الهندى ما أنا واطىء
وإنى فى رؤياك واجد ريحهم	فروح الهوى بين الجوانح ناشىء
ولى فى السُّرى من نارهم ومنارهم	هداة حداة والنجوم طوافىء
لذلك ماحنت ركابى وحمحمت	عرابى وأوحى سيرها المتباطىء[1]

وقد نوهت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب . فمثلا يقول لنا ابن بسام : « ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة ، أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه ويبرز فيه . غير أنه كان رحب اللقاء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمته جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبد الله بن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد وغيرهم .. » .

ويزيد ابن بسام على ذلك ، أن ما خاضه المعتصم من الفتن والحروب مع خصومه من ملوك الطوائف ، لم يكن مما يتفق وطبيعته الوادعة ، وإنما استدرج إليها ، وأكره عليها إكراهاً[2] .

وقد كان المعتصم فى الواقع يؤثر العيش الهادىء بقصره الأنيق المشرف على البحر والمسمى ، « بالصمادحية » وينفق كثيراً من وقته فى المجالس الشعرية والأدبية.

---

(١) أوردها ابن بسام فى الذخيرة — القسم الأول المجلد الثانى ص ٢١٨ ، وأورد من بعدها قصائد أخرى من مدائحه للمعتصم (ص ٢١٨ — ٢٣٣) وراجع أيضاً نفس المصدر ص ٢٤١ و ٢٤٢ و ص ٣٧٢ — ٣٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٢ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ٨٢ و ٨٣ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ .

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب ، ولكن بلاطه كان فى نفس الوقت مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب ، ومن هؤلاء أبوعبيد عبد الله البكرى أعظم جغرافى الأندلس ، وصاحب المعجم الجغرافى اللغوى الشهير ، فقد عاش حيناً فى ألمرية فى كنف المعتصم ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته .

وكان بنو صمادح أنفسهم جميعاً من نجوم الشعر والأدب ، فقد كان المعتصم، وبنوه معز الدولة ورفيع الدولة ورشيد الدولة من شعراء العصر . ولهم جميعاً آثار شعرية انتهى إلينا الكثير منها . وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها[١]

وكان المعتصم فوق ذلك كله ، معنياً بشئون الدين ، وإقامة أحكام الشريعة، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً فى كل أسبوع للفقهاء والخواص ، يتناظرون بين يديه فى كتب التفسير والحديث[٢] .

واشتهر المعتصم بن صمادح بشعره وطرائفه الأدبية ، وقد أورد لنا صاحب الذخيرة ضمن ما أورده من بعض قصائده ، الأبيات الغزلية الآتية :

وتحت الغلائل معنى غريب   شفاء الغليل وبرء العليـــــل

فهـــل لى من نيـــله نائل   ولابن السبيل اليـــــه سـبيل

فما لى إلا الهــــوى متجر   فغــــير الغوانى متـــاع قليل

فيــــاربة الحسن فى غاية   وعصر الشباب وظل المقيل

ذرينى أعانق منـــك القضيـ   ـب وأرشف من ثغرك السلسبيل [٣]

ولما تطورت الحوادث ، وأدت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف ، إلى عاقبتها المحتومة ، واستأسد عليهم ألفونسو السادس ملك قشتالة ،وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى ظفر بالاستيلاء على طليطلة (صفر ٤٧٨هـ) ، واتجه ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد ، إلى الاستنصار بأمير المسلمين يوسف

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة كثيرا من قصائدهم (القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ — ٢٤٤) . وكذلك فى المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٣ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (المخطوط) لوحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(٢) الحلة السيراء (القاهرة) ج٢ ص ٨٢

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ .

ابن تاشفين المرابطى ، لم يكن المعتصم فيما يبدو من المتحمسين لتلك الفكرة . ذلك أنه نظراً لموقع مملكته فى الطرف الجنوبى فى شبه الجزيرة ، لم يكن قد آنس بعد خطر النصارى الداهم ، كما آنسه ابن عباد وابن الأفطس ، وكان فضلا عن ذلك يشعر كما يشعر معظم أمراء الطوائف بما يقترن بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة من الاحتمالات الخطيرة[١] . ومع ذلك فإن المعتصم ، حينما عبر أمير المسلمين إلى الأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) لم يتقاعس عن المساهمة فى القوات الأندلسية التى حشدت للتعاون مع الجيش المرابطى ، وذلك حسبما نفصل بعد فى موضعه ، ثم إنه بعد ذلك تقرب من أمير المسلمين يوسف بالهدايا والتحف الجليلة ، والتلطف فى خدمته ، حتى قربه إليه وأغدق عليه عطفه. وكان يوسف يبدى عطفه وتقديره بالأخص لرجلين من أمراء الطوائف هما المعتصم والمعتمد بن عباد، وكان يقول عنهما لأصحابه إنهما رجلا الجزيرة . ويقول لنا عبد الواحد المراكشى ، إن المعتصم وابن عباد كان يشعر كل منهما نحو الآخر بعاطفة من المرارة والتحاسد ، وأنهما حاولا غير مرة أن يتصافيا باللقاء، وأن المعتمد زار المعتصم بقصره بألمرية، واحتفل المعتصم بإكرامه أعظم احتفال ،ومع ذلك فقد لبث الضغن كامناً فى نفسيهما . فلما شعر المعتصم بتمكن منزلته لدى أمير المسلمين فيما بعد ، أخذ يدس لديه فى حق المعتمد ، ويحاول أن يغير نفسه عليه ، وقد كان فى ذلك فاسد التدبير قصير النظر ، حسبما أثبتت الحوادث فيما بعد[٢] .

ولم يشهد المعتصم موقعة الزلاّقة، معتذراً لدى أمير المسلمين بضعفه وكبر سنه ، ولكن قواته ساهمت فيها بقيادة ولده معز الدولة .واستمر المعتصم بعد ذلك فى الحكم بضعة أعوام أخرى . وكان ألفونسو السادس بعد هزيمته المروعة فى الزلاّقة ، قد استطاع أن ينهض من عثارها بسرعة ، وتحول عدوانه عندئذ إلى شرق الأندلس ، حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة . وكانت القوات القشتالية، قد رابطت فى حصن لييط[٣] المنيع الواقع فيما بين مرسية ولورقة ، وأخذت ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية ، وكان أمير المسلمين قد

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٠٤ . وراجع كذلك دوزى : Hist., V. III. p. 124

(٢) راجع المعجب ص ٧٣ و ٧٤ .

(٣) هو بالإسبانية Alédo ، ومازالت أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم .

عاد على أثر موقعة الزلاقة إلى المغرب ، فلما وقف على اضطراب شئون الأندلس وتفككها بعد رحيله ، واشتداد عدوان النصارى فى المنطقة الشرقية ، عاد فعبر البحر إلى الأندلس فى قواته (٤٨١ هـ) ، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى حصار حصن لييط ، وكان المعتصم فى مقدمة الأمراء الذين هرعوا إلى المساهمة فى ذلك الحصار ، وخصوصاً لقرب ذلك الحصن من أراضيه ، وتعرضها بذلك لعيث النصارى . وطال الحصار مدى أربعة أشهر ، ولم ينجح المسلمون فى اقتحام لييط ، بالرغم من وفرة قواتهم وعددهم ، واضطروا إلى ترك الحصار ، بعد أن فنيت معظم حاميته ، واضطر ألفونسو بعد ذلك إلى إخلائه لعقم الدفاع عنه .

وتوفى المعتصم بن صمادح فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن حكم إحدى وأربعين عاماً . بيد أنه شهد قبل أن يثوى إلى قبره نذر الخاتمة المشئومة تبدو فى الأفق . ذلك أن يوسف بن تاشفين عبر البحر للمرة الثالثة (٤٨٣ هـ) لا لينجد أمراء الأندلس هذه المرة ، ولكن ليقضى عليهم وعلى دولهم المنحلة المفككة ، وبدأ فى ذلك بإمارة غرناطة واستولى عليها ، ثم بعث قواته إلى إشبيلية لتقضى هنالك على دولة بنى عباد . وهنالك روايتان فيما يتعلق بسقوط ألمرية ، الأولى أن المرابطين حاصروها بالفعل ، وامتلكوا معظم حصونها ، وضيقوا على المعتصم ، وهو ملازم سريره يعانى مرض موته ، وأنه ألقى عندئذ عبارته المشهورة : « نُغص علينا كل شىء حتى الموت » . وحينما ألفى جاريته تبكى عند رأسه قال هذا البيت :

ترفق بدمعـــــك لا تفنه   فبين يديك بكاء طويل[1]

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله :

تمتعت بالنعماء حتى مللتهـــا   وقد أضجرت عينىَّ ممـا سئمتها
فيا عجباً لما قضيت قضاءها   وملَّيتُها عمرى تصرم وقتهـا

وأما الرواية الثانية فتقول بأن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه أوصى

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

قبل وفاته ولده معز الدولة أحمد ، بأنه متى علم بسقوط إشبيلية وخلع أميرها المعتمد وهو قطب الجزيرة ، أن يعبر البحر فى أهله وأمواله إلى أمراء بنى حماد أصحاب القلعة بشرقى العدوة ، وأن معز الدولة تولى حكم ألمرية بعد وفاة أبيه بضعة أشهر . فلما سقطت إشبيلية ، وأسر أميرها المعتمد ، وذلك فى رجب سنة ٤٨٤ هـ ، بادر معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار ، ثم ركب البحر فى أهله وأمواله فى ثلاث سفن أعدها لذلك ، وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة ، واستطاع أن يغادر ألمرية قبل أن يطوقها المرابطون وذلك فى رمضان سنة٤٨٤ هـ (١٠٩١م) ونزل على آل حماد أمراء القلعة على مقربة من بجاية ، فأكرمت وفادته ، وعاش هناك حتى توفى [١]

(١) أورد هذه الرواية صاحب الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٤ والقاهرة ج٢ ص٨٩ و ٩٠ وراجع روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ .

الفصل الثانى

مملكة مرسية

مدينة مرسية وانشاؤها. تغلب خيران العامرى عليها أيام الفتنة. اختياره محمد بن عبد الملك للزعامة ثم تنكره له . زهير العامرى يتولى حكم مرسية وأوريولة . إمارته لألمرية . نائبه أبو بكر بن طاهر بمرسية . عراقة ابن طاهر وأدبه . مصرع زهير وقيام عبد العزيز المنصور مكانه فى ألمريه. إقراره لولاية ابن طاهر لمرسية. حزم ابن طاهر وسراوته . ولده أبو عبدالرحمن يخلفه . استيلاء ابن ذى النون على بلنسية وعزل صاحبها عبد العزيز المنصور . استقلال ابى عبد الرحمن بمرسية . خلاله وعلمه وأدبه . مطامع ابن عباد فى مرسية . اتفاق وزيره ابن عمار وأمير برشلونة على افتتاحها . فشل المحاولة . ابن عباد يستأنف الكرة . ابن رشيق يفتتح مرسية . القبض على ابن طاهر ثم الإفراج عنه . ندب ابن عمار لحكمها . طمعه فى الاستقلال بها . تحريضه لأمراء النواحى . تحريضه لأهل بلنسية على الثورة . قصيدته فى ذلك . متاعب ابن عمار فى مرسية . غدر ابن رشيق به واستيلاؤه على المدينة . فرار ابن عمار والتجاؤه إلى سرقسطة . محاولته فتح حصن شقورة . القبض عليه وتسليمه لابن عباد ثم مصرعه . أستبداد ابن رشيق بمرسية . يشترك مع المرابطين فى حصار حصن لييط . اتهامه لدى أمير المسلمين بالخيانة . تسليمه لابن عباد ثم فراره . استيلاء المرابطين على مرسية . حياة ابن طاهر فى بلنسية ثم وفاته بها .

إن مدينة مُرْسِية ، قاعدة ولاية مرسية أو ولاية تدمير القديمة الواقعة فى شرقى الأندلس ، هى مدينة أندلسية محضة ، نشأت وترعرعت فى ظل الأندلس المسلمة ، ولم يكن لها وجود عند الفتح . وكانت قاعدة ولاية تدمير عند الفتح هى مدينة أوريولة . وفى سنة ٢١٦هـ (٨٣١ م)، أنشأ الأمير عبد الرحمن بن الحكم مدينة مرسية لتكون عاصمة لتدمير ، ومقراً للعمال والقواد ، وقام على إنشائها عامله مالك بن جابر بن لبيد ، وسميت فى البداية بتدمير ، على نسق تدمير الشام[1] . وكان إنشاء مرسية فى بسيط أخضر من الأرض ، يقع فى منحنى نهر شقورة ، على مسافة قريبة من جنوب غربى أوريولة ، الواقعة على نفس النهر ، قبيل مصبه فى البحر الأبيض المتوسط ، ومازالت مرسية حتى اليوم تحتفظ بطابع أندلسى عميق .

(١) الروض المعطار ، صفه جزيرة الأندلس ، (القاهرة) ص ١٨١ ، بقيت فى معجم البلدان تحت كلمة مرسية .

ولما انهارت الدولة العامرية ، واضطرمت الفتنة فى نهاية المائة الرابعة ، وشعر الفتيان العامريون ، أنه لاأمل لهم فى النهوض والسلطان،خلال الفوضى الشاملة ، التى غمرت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، سار معظمهم إلى شرقى الأندلس . وكان من هؤلاء كبيرهم خيران العامرى ، فسار أولا إلى أوريولة ، وهى أمنع قواعد ولاية تدمير ، وبسط عليها سلطانه ، ثم سار منها إلى مرسية واستولى عليها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . واستخلف عليها نائبه وزميله زهيراً العامرى ، ثم سار منها فى قواته إلى ألمرية ، وانتزعها من صاحبها أفلح الصقلبى ، على نحو ماذكرنا فى موضعه ، وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية ، تتبعها مرسية وأوريولة من شرقى الأندلس .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف أجمع الفتيان العامريون ، الذين تغلبوا على شرقى الأندلس ، على أن يتخذوا لهم زعيما ، من بيت مولاهم العظيم المنصور ابن أبى عامر ،وكيف وقع اختيارهم فى ذلك علىعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، فتمت بيعته فى شاطبة ، ثم لحق بعد ذلك ببلنسية ، وبسط سلطانه عليها بتأييد الفتيان ، وتسمى بالمنصور ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .

ثم أشرنا إلى موقف الخصومة ، الذى وقفه خيران بعد ذلك من زعامة عبد العزيز المنصور ،وإلى ما عمد إليه من ترشيح ابن عمه محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور للزعامة مكانه ، واستقدامه إلى شرقى الأندلس ، ونزوله له عن رياسة مرسية وأوريولة . وتلقب محمد بالمعتصم ، بيد أن أمد رياسته لم يطل، إذ تنكر له خيران ، كما تنكر من قبل لابن عمه عبد العزيز المنصور ،ثم سار إليه فى قواته ، وضيق عليه ، حتى اضطر إلى مغادرة مرسية،ولجأ إلى أوريولة ، فشدد خيران فى مطاردته حتى فر منها ، وسار إلى دانية ، فعاش حيناً فى كنف أميرها مجاهد العامرى : ثم غادرها إلى غربى الأندلس ، وهنالك عاش بقية حياته ، وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) [١] .

وعاد زهير العامرى نائباً لخيران على مرسية وأوريولة : واستقر خيران بألمرية أميراً عليها ، حتى توفى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م).

وعندئذ خلفه فى حكم مملكة ألمرية ، وفى حكم مرسية وأوريولة بالأصالة ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

زهير العامرى ، واستمر حكمه عليها حتى مصرعه فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) .

— ١ —

وكان يتولى حكم مرسية وقت أن كان زهير أميراً لألمرية ، نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر . وكان بنوطاهر هؤلاء ، من أعيان ولاية تدمير وسراتها ، وينتمون إلى قيس ، وكان منزلهم بمرسية ، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة . ولما توفى خيران العامرى ، وغادر نائبه زهير مرسية ليتولى مكانه إمارة ألمرية ، كان رئيس الجماعة بمرسية أبوعامر بن خطاب ، فخشى زهير ، إن تركه خلفه بمرسية ، أن يثور بها وينتزعها منه ، فصحبه معه إلى ألمرية ، وأسكنه بها حافظاً عليه مكانته ونعمته . والظاهر أن أبا عامر هذا هو حفيد أبى عمر أحمد بن خطاب كبير أعيان مرسية وسراتها أيام المنصور بن أبى عامر ، وهو الذى استضاف المنصور وجيشه عند مروره بمرسية سنة ٣٧٤ هـ ، فى طريقه إلى غزوة برشلونة ، وأبدى يومئذ من وافر الشهامة والجود ، ما غدا مضرب الأمثال [١] . واستخلف زهير على ألمرية أبا بكر بن طاهر ، ندّ أبى عامر وخصيمه لثقته بولائه وأمانته ، وكان قد استطاع يومئذ أن يفتدى نفسه من أسر مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأن يعود إلى مرسية[٢] . والظاهر أن ابن طاهر وقع فى الأسر حينما غزا مجاهد مرسية ، على أثر وفاة صاحبها خيران ، وتوجسه من مشاريع خليفته زهير ، وكان ابن طاهر عندئذ حاكماً لمرسية حسبما يبدو ذلك من إشارة لابن الأبار ، من أنه بعد عوده من الأسر « عاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لم شعثه ، ووفى بعهده »[٣] .

وضبط أبوبكر بن طاهر مرسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة . وكان فضلا عن عراقة بيته ، وأرومته العربية المؤثلة ، وثرائه الواسع ، من أكابر علماء عصره ومن أغزرهم أدباً ، وأبلغهم بياناً ، وكان الشعب المرسى يحيطه بتقديره وحبه ، لما كان يراه من نبيل صفاته ، ووفرة حزمه ولينه وصيانته . وبالرغم من أنه كان

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٥١ و ٢٥٢ . (والقاهرة) ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ . (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٧

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ .

يستأثر بسائر السلطات ، فإنه لم يتخذ شيئاً من مظاهر السلطان والإمارة ، ولم يتخذ لقباً من الألقاب الملوكية التى كان يشغف بها أضرابه من رؤساء الطوائف ، وإنما كان يسمى فقط بالرئيس (١) .

ولما توفى زهير العامرى قتيلا فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واستطاع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية ، أن يخلفه فى إمارة ألمرية ، كانت مرسية وأوريولة من البلاد التابعة لها . وقدر عبد العزيز حزم ابن طاهر ، ورسوخ مكانته ، فلم يتعرض له بشىء ، وأقره على حكم مرسية . وكان ابن طاهر ، مع ولائه الظاهر لعبد العزيز المنصور ، يسير فى رياسته وحكمه على قاعدة الاستقلال التام ، ولا ينفذ من أوامر عبد العزيز إلا مايراه متفقاً مع رأيه وظروف بلده ، ويرسل إلى بلنسية فائض الدخل ، ويقوم بالنفقة على من ينزل طرفه من الجند ، وكان عبد العزيز يقنع منه بهذا المسلك المتسم بالحزم والكرامة والاحترام المتبادل . وفى خلال حكمه الطويل الذى استمر نحو ستة وثلاثين عاماً ، ازدهرت أحوال مرسية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاعت بها العلوم والآداب لقدوة أميرها الأديب العالم ، واجتمعت له محبة الشعب وتقديره ، وهو ماكان يندر يومئذ فى دول الطوائف . وأضحى ابن طاهر فى أواخر أيامه من أقوى الرؤساء جانباً ، ومن أغنى سراة الأندلس ، حتى لقد كان يمتلك وحده نصف أراضى بلده ، وكان يعاونه فى الحكم والإدارة ولده النابه أبو عبد الرحمن محمد ، ولاسيما فى أواخر عهده حيث أصيب بالفالج ، وطالت علته أعواماً ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) (٢) .

فخلفه فى حكم مرسية ولده أبوعبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان عبدالعزيز المنصور قد توفى قبل ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، فأقر عبد الرحمن مكان أبيه على حكم مرسية . وكان أبوعبد الرحمن بن طاهر ، صنو أبيه فى الصراوة والحزم والهيبة ، فسار فى الحكم سيرته ، مستقلا عن حكومة بلنسية ، معترفاً بطاعتها فى نفس الوقت . ونحن نعرف أنه لم يمض على ولاية عبدالملك المظفر لبلنسية أعوام قلائل ، حتى زحف فرناندو ملك قشتالة فى قواته على بلنسية وحاصرها ، ثم

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ .

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

هزم البلنسيين هزيمة شديدة في موقعة بطرنة (٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م)، وعلى أثر ذلك نفذ المأمون بن ذى النون مشروعه لانتزاع بلنسية من صهره، زوج ابنته عبد الملك المظفر، فدخل بلنسية على أثر ارتحال القشتاليين عنها، وقبض على عبد الملك وولده، ونفاهما إلى إحدى قلاعه، وضمت بلنسية عندئذ إلى مملكة طليطلة.

وهنا ألفى أبوعبد الرحمن بن طاهر، الفرصة سانحة للاستقلال التام عن حكومة بلنسية وإنهاء ولائه الاسمى لها، وسار فى حكم مرسية وأعمالها أميراً مطلقاً لها. وكانت إمارة مرسية تشمل عندئذ مدينة أوريولة المنيعة، الواقعة فى شمالها الشرقى، وكذلك بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى تجاه أوريولة، وإلش وكتندة. بيد أنها لم تكن تشمل لورقة الواقعة فى جنوبها الغربى، وقد كانت لورقة مثل مرسية فى البداية تابعة لمملكة ألمرية، بيد أنها انفصلت عن ألمرية على يد ابن شبيب الثائر بها فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م)، وحكمها ابن شبيب المذكور، واخوته الثلاثة من بعده، بالتعاقب، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية، حسبما ذكرنا فى موضعه، واستمرت لورقة بذلك طوال هذه المدة منفصلة عن حكومة مرسية [1].

وكما أن أبا عبد الرحمن، كان قرين أبيه فى السراوة والقوة والحزم، فكذلك كان قرينه فى العلم والأدب، بل كان يفوقه فى ذلك المضمار. وقد كان أبو عبد الرحمن بن طاهر فى الواقع من أعظم علماء الأندلس وكتابها فى عصره، وقد أشاد معاصره ابن بسام بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة، وشبهه فى أسلوبه بالصاحب بن عباد بالمشرق، ونوه بروعة رسائله ونبلها، ولاسيما رسائله الهزلية، فإنه يتقدم فيها على الجماعة، ثم وضع عنه كتاباً ضمنه رسائله فى أعلام رؤساء الأندلس بخلاصه من محنة اعتقاله (حسبما نذكر بعد)، وشكر ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية على السعى فى إنقاذه منها، وهى عدة من الرسائل البارعة، ضمها ابن بسام مع سواها من رسائله فى كتاب عنوانه «سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر». ويشير إليه ابن عبد الملك فى ترجمته بقوله: «وكان أحد المتقدمين فى البلاغة، بارع الكتابة، فصيحا، خطيبا، وكانت أيامه أيام عدل وأفضال،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص١٦٢، وراجع: Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 105

ودفع باس ،وتسويغ آمال » . ويقول لنا ابن الأبار ، إنه كان من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره فى البيان والبلاغة (١) .

ويصفه ابن الخطيب بقوله : « وكان صدر زمانه ، والمثل السائر فى بلاغته وبيانه » . وكان أساوب ابن طاهر يميل إلى الدعابة . « وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه » . وكان بلاط مرسية فى عهده منتجع الأدباء والشعراء ، يقصدون إليه ، ويلتفون حوله ، ويغمرونه بمدائحهم ، فيغمرهم برعايته وصلاته . وكان ممن وفد عليه بمرسية الوزير الشاعر ابن عمار ، وزير المعتمد ، وفد عليه أيام خموله ، فأثابه ، ودرس ابن عمار يومئذ أحوال مرسية ، ووقف على قصور معداتها الدفاعية ، ثم دبر مشروعه لافتتاحها فيما بعد (٢) .

— ٢ —

واستمر أبوعبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية زهاء خمسة عشر عاماً ، يتسم عهده بالسلم والرخاء . بيد أنه كان ثمة بعض العناصر الناقمة من خصوم ابن طاهر يسعون إلى نكبته وإسقاطه . وكانت حدود مملكة إشبيلية الكبرى قد امتدت يومئذ ، بعد استيلاء أميرها المعتمد بن عباد على قرطبة وجيان ، حتى نهر شقورة ومدينة لورقة القريبة من مرسية . وكان زعيم لورقة ابن شبيب قد اعترف بطاعة المعتمد ، وأضحى سلطان المعتمد فى هذه الأنحاء يهدد مملكة مرسية بطريق مباشر ، فكتب الناقمون من أهل مرسية إلى ابن عباد يدعونه لافتتاحها (٣) ، ويؤكدون له ضعف وسائلها الدفاعية ، وهذا إيضاح لمشروع المعتمد فى فتح مرسية . وهناك إيضاح آخر خلاصته أن صاحب هذا المشروع هو أبوبكر ابن عمار وزير المعتمد ، وأنه كان يضطرم برغبة خفية فى الحصول على السلطان والإمارة ، أو على حد قول ابن بسام : « كان يطلب سلطاناً ينثر فى يديه سلكه ، وملكاً يخلع على عطفيه ملكه » . ويؤيد ابن الأبار هذه الرواية ويقول لنا إن ابن عمار

---

(١) ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — المجلد الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . وابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩٥ ، والحلة السيراء ص ١٨٨ و ١٨٩ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

قد أشار على المعتمد بفتح مرسية[1] . وعلى أى حال فقد اعتزم المعتمد أن يسعى إلى فتح مرسية ، وعهد إلى وزيره القوى الماكر ابن عمار ، أن يقوم بتنفيذ المشروع . واتباعاً للخطة التى كانت سائدة يومئذ بين ملوك الطوائف فى الاستعانة بالأمراء النصارى ، على مشاريعهم الباغية ، بعث المعتمد وزيره ابن عمار، إلى الكونت رامون برنجير أمير برشلونة، ومر الوزير الماكر فى طريقه بمرسية، فأكرم ابن طاهر منزله . والظاهر أن ابن عمار كان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى دراسة أحوال مرسية الدفاعية ، وإلى الاتصال سراً ببعض الزعماء الناقمين خصوم ابن طاهر . ولما وصل ابن عمار إلى برشلونة عقد مع أميرها الكونت برنجير اتفاقاً على أن يؤدى له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب ، لقاء معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة بالوفاء . وتنفيذاً لهذا الاتفاق قدم المعتمد ولده الرشيد، وقدم الكونت ابن أخيه ،وبعث المعتمد بقسم من قواته صوب مرسية بقيادة ابن عمار ، ولحقت بها قوة جهزها الكونت برنجير ، وطوقت القوات المتحدة مدينة مرسية، ولكن ابن عباد لم يسعف برنجير بأداء المال المطلوب ، فارتاب فى الأمر ، واعتقد أنه قد غرر به ، وانسحب بقواته عن المدينة المحصورة، بعد أن قبض على ابن عمار ، وعلى الرشيد ولد المعتمد .

وكان المعتمد بن عباد يسير عندئذ بقواته صوب مرسية ، وكان قد وصل إلى مقربة من شقورة ، حينما وفد إليه رسل ابن عمار مع بعض الهاربين من جنده من حملة مرسية ، وأعلموه بما حدث ، فارتد بقواته إلى جيان ، ووضع ابن أخى الكونت برنجير ، المودع لديه رهينة ، فى الأصفاد ، ثم وقعت المفاوضات بين الفريقين، وانتهى المعتمد بأداء المال المطلوب للكونت ، وأفرج عن ابن عمار والرشيد ، وأفرج المعتمد من جانبه عن ابن أخى الكونت .

بيد أن إخفاق هذه الحملة الأولى على مرسية لم يثن ابن عمار عن عزمه ، فما زال بالمعتمد يحثه على إعداد حملة ثانية ، ويؤكد له أنه تلقى رسائل كثيرة من أهل مرسية يدعونه لافتتاحها ، حتى نزل المعتمد أخيراً على رغبته ،وجهز له حملة قوية ، وعينه حاكماً لمرسية ، وسائر البلاد التى يفتتحها .

وسار ابن عمار فى قواته إلى مرسية ، واصطحب معه حين مروره بقرطبة،

---

(١) الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١٤٠ .

سَرية من الفرسان ، أمده بها حاكمها الفتح ولد المعتمد ، ومر فى طريقه بحصن بلج ، فاحتفى به حاكمه عبد الرحمن بن رشيق ، وصحبه فى قواته إلى مرسية ، فندبه ابن عمار للقيادة ، وعاد إلى إشبيلية . وكان ابن رشيق رجلا وافر الدهاء ، والمقدرة ، وكانت له أطماع دفينة يخفيها تحت ثوب من الرياء والخديعة . وطوقت جند ابن عباد مرسية ، وشددت الحصار عليها . واستطاع ابن رشيق أن يحقق نجاحه الأول ، بالاستيلاء على بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى ، والتى كانت تمدها بالأقوات والمؤن . وعندئذ انهار خط مرسية الدفاعى ، واشتد بداخلها الضيق والحرمان ، واستمر ابن رشيق فى إرهاقه للمدينة المحصورة ، وفى تحريض أهلها على الوثوب بابن طاهر ، وأخيراً عاونه بعض الخونة من أوليائه على فتح بعض أبواب المدينة ، وانتهى الأمر بسقوطها على هذا النحو فى أيدى جند ابن عباد ، وذلك فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) (١) .

ودخل ابن رشيق مرسية ، وقبض على أبى عبد الرحمن بن طاهر وألقاه إلى السجن ، وأعلن بيعة المعتمد ، وكتب إلى بن عمار بالفتح . فسار ابن عمار من فوره إلى المدينة المفتوحة ، التى عين حاكماً لها من قبل ، وتقرب من أهلها بالهدايا ولين القول . بيد أنه جنح غير بعيد إلى تحقيق فكرة كانت تخالجه من قبل ، وهو أن يستأثر بحكم هذه المدينة النائية ، البعيدة عن متناول أميره ، ويغدو كباقى الرؤساء أميراً مستقلا ، وأخذ بالفعل فى تنفيذ فكرته ، فتجاهل رغبات ابن عباد وأوامره ، وتصرف فى سائر الأمور تصرف الحاكم المستقل ، وبدا نداً لأميره السابق ، أوعلى قول ابن بسام : « وقعد له مقعد الرؤساء ، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء ، مستظهراً بجر الأذيال ، وإفساد قلوب الرجال ، معتقداً أن الرياسة كأس يشربها ، وفلاة ينتجعها » . وأخذ فضلا عن ذلك يدس لأمراء تلك النواحى ، ويوقع بينهم ، ويحرض أهل بلنسية بنوع خاص ، على الوثوب

---

(١) راجع فى حوادث فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٦٥ ، ودوزى عن الشلبى فى : Hist. Abbadidarum. V. II. p. 86 & 87
و Hist. des Musulmans d' Espagne; V. III. p. 108-109
وكذلك : M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 109-110
و R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 259 & 281
و A. P.. Ibars : Valencia Arabe, p. 189-191

بالوزير أبى بكر بن عبد العزيز المتغلب عليها يومئذ . وكان قد شفع لدى المعتمد فى أمر ابن طاهر حينما قبض عليه ، فأذن بتسريحه ، وسار إلى بلنسية ، ملتجئاً إلى حمايته . وفى رواية أخرى أن ابن طاهر ، نجح فى الفرار من سجنه بمعاونة ابن عبد العزيز ، وسار خفية إلى بلنسية . وقد كان لفوز ابن طاهر باسترداد حريته ، وقع طيب فى مختلف الدوائر الرفيعة ، ولاسيما دوائر العلم والأدب . وفى ذلك يقول أبو جعفر البتى من قصيدة :

أترضى عن الدنيا فقد تتشوف … لعمر المعالى أنها بك تكلف
يقولون ليث الغاب فارق غيله … فقلت لهم أنتم له الآن أخوف
ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا … غدا لكم بارزا من غمده وهو مرهف
إذا غضبت أقلامه قالت القنى … فديناك إنا بالمفاصل أعرف
فتكشف عن سر الكتيبة مثل ما … رأيناك عن سر البلاغة تكشف
رويداً قليلا يازمان فإنه … يغصك منه بالذى أنت تعرف (١)

هذا ، وقد أسرّ ابن عمار لأبى بكر بن عبد العزيز ، هذا المسعى الجميل فى العمل على تسريح ابن طاهر ، وأخذ يكيد له ويحرض أهل بلنسية عليه ، وقد وجه إليهم فى ذلك قصيدة ملتهبة من نظمه يقول فيها :

بشّر بلنسية وكانت جنة … أن قد تدلت فى سواء النار
جاروا بنى عبد العزيز فإنهم … جرّوا إليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا … ملكاً يقوم على العدو بثار
هذا محمد أو فهذا أحمد … وكلاهما أهل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها … عن سوأة سوءى وعار عار
نكث اليمين وحاد عن سنن العلا … وقضى على الإقبال بالإدبار
آوى لينصر من نأى المثوى به … ودهاه خذلان من الأنصار
ماكنتم إلا كأمة صالح … فرميتم من طاهر بقدار
هذا وخصكم بأشأم طائر … ورمى دياركم بألأم جار

(١) أوردها ابن عبد الملك فى ترجمة ابن طاهر فى «الذيل والتكملة» — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . ووردت أيضا فى « قلائد العقيان » ص ٦١ .

بر اليمين ولم يعرض نفسه ... ونفوسكم لمصارع الفجار
لابد من مسح الجبين فإنما ... لطمته عذراً غير ذات سوار

ثم يقول فى ختامها :

وأنا النصيح فإن قبلتم فاتركوا ... آثارها خبراً من الأخبار
قوموا إلى الدار الخبيثة فانهبوا ... تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية ... بأغر وضاح الجبين نضار(١)

ومضى ابن عمار فى خطته من تحدى ابن عباد ، والاستئثار بشئون مرسية ، واستعمل عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع ، وانهمك فى الشراب واللذات ، وأعرض عن كل نصح(٢) . وكان ابن رشيق ، وهو قائد الجند وفاتح المدينة الحقيقى ، يرقب الموقف ، ويتحين الفرص . وكان أبو بكر بن عبد العزيز ، انتقاماً من ابن عمار ، يحرضه على الوثوب به ،وانتزاع حكم المدينة منه ،وفضلا عن ذلك فقد استطاع أبو بكر أن يحصل بواسطة يهودى من عملائه فى مرسية ، على النسخة الأصلية من قصيدة هجاء مقذع ، وضعها ابن عمار طعناً فى ابن عباد وزوجه اعتماد الرُّميكية ، وأن يرسلها إلى ابن عباد فى إشبيلية . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه القصيدة فى أخبار مملكة إشبيلية ، وأوردنا بعض محتوياتها اللاذعة . وهكذا كان الجو يظلم حول ابن عمار من كل ناحية ، وزاد الموقف خطورة ، حينما بدأ الجند بتحريض ابن رشيق فى المطالبة بأجورهم المتأخرة،واشتطوا فى ذلك، وابن عمار عاجز عن تهدئتهم . فعندئذ خشى ابن عمار البادرة على نفسه ، وخرج من مرسية ، بحجة تفقد الحصون الخارجية ، فانتهز ابن رشيق الفرصة لفوره ، واستولى على القصر وضبط المدينة وأغلق أبوابها . ولم ير ابن عمار أمامه سبيلا سوى الفرار .

وهكذا لقى ابن عمار جزاء غدره ، من غادر مثله . ويصف لنا ابن بسام هذه الضربة الغادرة من ابن رشيق بقوله : « فقيض له (أى ابن عمار) من عبد الرحمن بن رشيق عدواً فى ثياب صديق ، من رجل قلدة ختر ، وجزيل خديعة ومكر ، فلم يزل يطلع عليه من الثنايا والشعاب ، حتى أخرجه من

---

(١) نشرت القصيدة بأكلها فى قلائد العقيان ص ٦١ و ٦٢ .
(٢) ابن الأبار عن ابن بسام فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٤٢ .

مرسية كالشهاب » . وطوحت الخطوب عندئذ بابن عمار ، فقصد إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وقضى حيناً فى بلاطه ، ثم قصد بعد ذلك إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه فى بعض شئونه ، ولكنه توفى بعد قليل فى سنة ٤٧٥ (١٠٨١ م) . فلبث فى خدمة ولده المؤتمن فترة أخرى ، ولم يهدأ له بال حتى أغراه على سجيته بافتتاح حصن شقورة الواقع شمال غربى مرسية ، وهو من أعمال دانية ، فبعث معه المؤتمن سرية من جنده ، ولما وصل ابن عمار إلى شقورة ، احتال عليه صاحبها ابن مبارك ، وكان رجلا وافر الدهاء ، واستقبله داخل حصنه بترحاب ومودة ، ثم قبض عليه وزجه إلى السجن . وما كاد ابن عباد يقف على ذلك الخبر ، حتى فاوض ابن مبارك فى تسليم ابن عمار ، وانتهى الأمر بحصوله فى يده ، ثم حمله المعتمد إلى إشبيلية ، واعتقله بقصره ، ومازال يمعن فى تأنيبه وتقريعه حتى انتهى إلى قتله بيده ، على النحو المؤسى الذى فصلناه من قبل فى أخباره ، وذلك فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل سنة ١٠٨٥ م) [1] .

وخلصت مرسية لابن رشيق ، واستبد بحكمها وأعان خلع طاعة المعتمد ، واستمر بحكمها وأعمالها أعواماً بقوة وحزم ، حتى كان عبور المرابطين إلى اسبانيا وانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة فى موقعة الزلاقة على الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وكان شرقى الأندلس يومئذ مايزال بمعزل عن حوادث الغرب . ولما شعر ألفونسو السادس ملك قشتالة بانهيار قواه ومشاريعه العسكرية فى غربى الأندلس ، رأى أن يتحرك إلى شرقى الأندلس ، حيث كان يسوده الاضطراب والتفرق والضعف. وكان المعتمد بن عباد يتوق إلى استرداد مرسية ، وتوطيد سلطانه فى هذا القطاع النائى من مملكته . وهناك فيما يتعلق بمصير مرسية روايتان الأولى : هى أن ابن عباد حرض صاحب لورقة القائد أبا الحسن بن اليسع ، وكان قد اعترف ببيعته ، والتجأ إلى حمايته ، على مهاجمة مرسية ، وأنه نجح فى انتزاعها من ابن رشيق ،

---

(١) راجع فى محنة ابن عمار ومصرعه : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ . وكذلك دوزى Hist. Abbadidarum V. II. p.90, 91, 100 & 101.

وكذلك R. M Pidal : La Espana del Cid, p. 244

وحكمها باسم المعتمد وموافقته، واستمر فى حكمها حتى استولى عليها المرابطون[١]
والثانية ، هى أنه لما عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة
الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، ولاسيما
أصحاب القواعد الشرقية ، لقمع غارات النصارى فى شرقى الأندلس ، والقضاء
على مركز عدوانهم فى حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وتعاونت
القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى محاصرة الحصن المذكور ، كان ابن
رشيق ضمن الأمراء الذين اشتركوا فى الحصار بقواتهم . ولما انتهى هذا الحصار
بالفشل ، وهمت الجيوش الأندلسية بالعودة إلى بلادها ، شكى المعتمد ابن رشيق
إلى أمير المسلمين يوسف ، واتهمه بالتحالف سراً مع النصارى ، ومعاونتهم
على الصمود فى الحصن ، هذا فضلا عن كونه كان مغتصبا لولاية مرسية منه ،
وطلب تسليمه إليه ، لمعاقبته ، واستشار يوسف الفقهاء فى الأمر ، فوافقوا
على طلب ابن عباد ، وأمر يوسف بتسليمه ابن رشيق مع اشتراط الإبقاء على
حياته ، وارتدت القوات المرسية غاضبة إلى بلدها . وحمل ابن عباد معه ابن رشيق
إلى إشبيلية ، واعتقله هناك ، ولكنه فر غير بعيد من سجنه ،وعاد إلى مرسية ،
وعاش بها حتى توفى . واستولى المرابطون على مرسية فى شوال سنة ٤٨٤ هـ
(أكتوبر ١٠٩١ م) . واستولوا فى نفس العام على معظم أعمالها[٢] . وهنا يقدم
لنا ابن الخطيب رواية أخرى ، هى أن ابن رشيق نزل من تلقاء نفسه عن مرسية
لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، حين جوازه الثانى إلى الأندلس وهو مايدلى
بأن ابن رشيق كان عندئذ هو المتولى حكمها[٣] . وكان القائد ابن عائشة أول
حاكم لمرسية من المرابطين . وكانت مرسية قاعدة لتحركات الجيوش المرابطية ،
التى حشدت لمقاومة عدوان السيد الكمبيادور ، واسترداد بلنسية من قبضته ،
حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

أما ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، فإنه كان قد استقر عقب فراره حيناً

---

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٠ .
(٢) راجع روض القرطاس لابن أبى زرع (طبعة أوبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ ، وكذلك دوزى :
M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. و Hist.; Vol. III. p. 132—133
136 & 140,
(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

ببلنسية ، فى كنف الوزير أبى بكر بن عبد العزيز . ثم فى كنف ولده أبى عمرو عثمان . ولما استولى القادر بن ذى النون على المدينة ، تقرب إليه ،واستمر على حاله من الكرامة والدعة . فلما ثار القاضى ابن جحاف ،وقتل القادر،واستولى على الحكم ، لم يكن ابن طاهر من أنصار هذا الانقلاب ،وكان يأخذ بالأخص على ابن جحاف أنه سفك دم القادر ، وله فى ذلك أبيات يقول فيها :

أيها الأخيف مهــــلا   فلقــد جئت عويصا
إذ قتلت الملك يحيى   وتقمصــــت القميصا
رب يوم فيه تجـزى   لم تجـد عنــه محيصا

ومن ثم فقد كان ابن جحاف يتوجس منه ، ويخشى مناوأته ، ويتهمه بالاتصال بالسيد والقشتاليين ، والتآمر معهم ضده . وقد كانت هذه التهمة باطلة . ذلك أنه لما دخل السيد وجنده القشتاليون بلنسية فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، لم يستطع ابن طاهر أن يروض نفسه على البقاء فيها ، فغادرها فيمن غادرها من الأكابر . وفى رواية أنه كان ضمن من قبض عليهم السيد من أكابرالمدينة ثم أفرج عنه بعد ذلك فسار إلى شاطبة ، واستقربها حيناً ، حتى تطورت الحوادث،ومات السيد ، واستولى المرابطون على بلنسية ، وعادت إليها سلطة الإسلام ، فعندئذ عاد إليها ابن طاهر ،وقد أثقلته السنون، وهدمه الإعياء والمرض،فعاش بها أعواماً أخرى فى عزلة واعتكاف ، ثم توفى فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) ، وقد أربى على التسعين (١) .

ويلخص ابن بسام المرحلة الأخيرة من حياة ابن طاهر فى الفقرة الآتية : « ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر فى البقاء ، حتى تجاوز مصارع الرؤساء ، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور قصمه الله ، وجعل بذلك الثغر فى قبضته سنة ثمانية وثمانين» (٢) .

---

(١) راجع فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر : الحلة السيراء — ليدن — ص ١٨٦ — ١٨٩ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٦—١٢٨ ، وقلائد العقيان ص ٥٦ ومابعدها . وقد أورد له كثيراً من الرسائل البليغة . وكذلك المغرب فى حلى المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ .

(٢) الذخيرة — القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ

الفصل الثالث

مملكة دانيـــة والجزائر

مدينة دانية وخواص موقعها . مجاهد العامرى . أصله ونشأته . نزوحه إلى شرق الأندلس . تغلبه على دانية والجزائر الشرقية . الفقيه أبو عبد الله المعيطى . مشروع مجاهد لغزو سردانية . استعداداته البحرية.أسطوله الغازى.سردانية وغزوات المسلمين.مسير مجاهد إلى سردانية واقتحامها . المعارك داخل الجزيرة وافتتاحها . حلف البابوية وجنوة وبيزة لطرد المسلمين . الحرب الصليبية . مقاومة مجاهد ومتاعبه.هزيمته وتحطيم أسطوله.أسر ولده وحريمه.غزوات مجاهد للشواطىء الإيطالية والفرنسية . الفقيه المعيطى وعزله ونفيه . مجاهد يفتدى زوجه وبناته . استطالة أسر ولده على ثم افتداؤه . عجمته وعوده إلى الإسلام. تثقيفه وإعداده لولاية العهد . تأييد مجاهد للخليفة المرتضى . اشتراكه فى محاربة البربر . اشتراكه فى حكم بلنسية ثم انفراده به.اختيار عبد العزيز المنصور لإمارة بلنسية . غزو مجاهد لمرسية وأسره لابن طاهر . محاربته لعبد العزيز صاحب بلنسية . وفاة مجاهد . عبقريته ومآثره العلمية . التفاف العلماء حوله . قصته مع أبى غالب النحوى. تفوقه فى الفروسية . براعته البحرية. ولده على إقبال الدولة يخلفه . الخلاف بينه وبين أخيه حسن. محاولته اغتيال بناته ومصاهراته .حكمه وصلاته.شئون الجزائر وحكامها.استجابة على لنداء المستنصر الفاطمى ورسالته إليه . تسامحه نحو النصارى . ابن غرسية ورسالته ضد العرب . بعض الآراء والتعليقات حولها . أطماع المقتدر بن هود فى دانية . خلافه مع صهره على . مسيره لافتتاح دانية واستيلاؤه عليها . اعتقال على ثم فراره إلى العدوة . ولده سراج الدولة . على ومواهبه وخلاله . الجزائر الشرقية واستقلال حاكمها المرتضى . خلفه مبشر بن سليمان . حكمه الزاهر . غارات البحارة المسلمين فى عهده . إغارة النرويج على الجزائر . بيزة ومشروعها لفتح الجزائر . أسطول الغزو النصرانى يهاجمها. استعداد مبشر للدفاع . استغاثته بعلى بن تاشفين.وفاة مبشر وولاية أبى ربيع . خروجه من الجزيرة وأسره.دخول النصارى مدينة ميورقة وفتكهم بأهلها.مقدم الأسطول المرابطى . انسحاب النصارى واستيلاء المرابطين على الجزائر .

تقع مدينة دانية فى شمال اللسان المثلث ، الممتد من ولاية لقَنت فى البحر الأبيض المتوسط ،وتبدو برقعتها الصغيرة،وشوارعها القصيرة العريضة،التى تظللها أشجار التوت الوارفة ، مدينة متواضعة هادئة ، لايتبادر إلى ذهنك ، وأنت تجوب أحياءها القليلة الصامتة، أنها كانت ذات يوم عاصمة لدولة أندلسية بحرية كبيرة .

أجل قامت فى دانية ، أيام الطوائف ، مملكة تمتاز بصفتها الخاصة ،التى تميزها عن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى . فقدكانت أولا تمتاز بموقعها المنعزل

فى شرق الأندلس ، وتمتد رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية ، فكانت بذلك تغلب صفتها البحرية على صفتها البرية . ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية، التى كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى ، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة ، الذى كان يهدد سائر الطوائف . ومن ثم فإن تاريخ مملكة دانية يتخذ طابعاً آخر ، غير ذلك الطابع الذى رأيناه يغلب على تاريخ ممالك الطوائف الأخرى .

وكانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية ، عند اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، من نصيب الفتيان العامريين . تغلب عليها منهم مجاهد العامرى فى أوائل عهد الفتنة . وقد كان مجاهد هذا من أكابر زعماء العامريين . وكان وفقاً لأرجح الروايات من فحول الموالى أو الفتيان العامريين . وقد كان معظم أولئك الفتيان من الصقالبة ، من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والإيطاليين والجلالقة وأهل البلقان وغيرهم ، يؤتى بهم أطفالا ويربون فى البلاط تربية عربية إسلامية . وكان منهم الفحول والخصيان . وكان مجاهد ينتمى إلى الفريق الأول أعنى إلى الفتيان الفحول ، وقد نشأ وربى فى عهد المنصور بن أبى عامر . وفى رواية أخرى أن مجاهداً ينتمى إلى طائفة الموالى العامريين ، وقد رباه المنصور وعلمه ، وقيل أيضاً إنه كان مولى لعبد الرحمن المنصور ، أو أن أباه يوسف كان معتوقاً لعبد الرحمن [1] . وقيل من جهة أخرى إن مجاهداً كان «رومى» الأصل ، أعنى من الفتيان الصقالبة[2] . ويعتقد العلامة المستشرق أمارى بالاستناد إلى هذه الإشارة أن مجاهداً يرجع إلى أصل إسبانى محلى [3] . بيد أنه مما يؤيد الرواية الأولى ، وهى نسبة مجاهد إلى الموالى ، وليس إلى الفتيان الصقالبة ، اسمه وكنيته ، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن على ، ويؤيدها أيضاً ما كانت تتمتع به شخصية مجاهد من عروبة قوية ، ومن تضلع فى علوم القرآن واللغة ، حسبما نبين بعد[4] .

---

(١) جذوة المقتبس (مصر) ص ٣٣١ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٤١ .

(٣) M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868) V. III. p. 4

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ . ويقدم إلينا ابن الابار مجاهداً بانه أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامرى (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) .

وعلى أى حال فقد كان مجاهد عند اضطرام الفتنة، إلى جانب واضح وخيران وزهير ، وغيرهم من أكابر الفتيان أو الزعماء العامريين ، اندمج فى زمرتهم ، واشترك معهم فى بعض الأحداث التى أعقبت الفتنة ، وشاطرهم خطتهم فى النزوح إلى شرقى الأندلس . ويقول لنا ابن خلدون إن مجاهداً غادر قرطبة عند مقتل الخليفة محمد بن هشام المهدى فى أواخر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، وإنه سار عندئذ إلى طرطوشة ، فتملكها ، ثم سار منها إلى دانية . وكان مجاهد كباقى الفتيان العامريين ، من شيعة الخليفة المؤيد بالله ، والخلافة الأموية بوجه عام ، وقد حارب معهم إلى جانب الخليفة المرتضى بالله ضد البربر والقاسم بن حمود ، فى الموقعة التى هزم فيها المرتضى ولقى مصرعه، وذلك فى سنة ٤٠٩هـ (١٠١٩م)(١) .

بيد أنه توجد رواية أخرى عن تغلب مجاهد على دانية خلاصتها ، أنه كان عند انهيار الخلافة واضطرام الفتنة ، والياً على الجزائر الشرقية ، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، فلما تمخضت الفتنة عن تمزق الأندلس ، سار من الجزائر إلى دانية ، وتملكها ، وأقام بها دولته (٢) .

وتقول بعض الروايات أيضاً إن مجاهداً ، كان وقت اضطرام الفتنة قائماً بشئون بلنسية ، فثار به عبدان من العبيد أو الفتيان العامريين ، هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فخرج مجاهد من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها .

والظاهر من مقارنة الروايات المختلفة أن مجاهداً نزل أولا فى دانية ، وغلب عليها ، ثم وثب منها على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وتملكها ، وذلك فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ (أوائل ١٠١٥ م) . وتتكون الجزائر الشرقية من أربع جزائر هى مينُورقة ، وميورقة وهى أكبرها ، وبها مدينة ميورقة وهى عاصمة الجزائر كلها ، ويابسة ، وفرمنتيرا ، وهى أصغرها . وهنا وقبل أن نتتبع أخبار مجاهد ، يجب أن نذكر واقعة تدعو إلى التأمل ، وهو أن مجاهداً ندب إلى معاونته فى الحكم فقيهاً ورعاً هو أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطى ، وكان المعيطى هذا ينتمى إلى بنى أمية، وهو من أشراف قرطبة وفقهائها البارزين ، وكان ممن أزعجته الفتنة ، فغادرها إلى شرقى الأندلس . والظاهر أن مجاهداً كان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ .

يحيط هذا الفقيه بنوع من التقدير والإجلال . ذلك أنه نصبه «خليفة» بدانية والجزائر وسائر أعماله ، وأخذ له البيعة على الناس ، وسماه بأمير المؤمنين المستنصر بالله ، ونقش اسمه فى سكته وفى أعلامه ، وذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥ ﻫ [١] . ويقال إن مجاهداً صحب معه المعيطى فى حملته إلى الجزائر الشرقية ، وإنه كان ساعده الأيمن فى الاستيلاء عليها . بل يقال إنه هو الذى أوعز إليه بغزو سردانية .

— ١ —

وبينما كانت دول الطوائف الأخرى ، سواء فى شرقى الأندلس ، أو فى غربها ، تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة ، كان مجاهد العامرى يفكر فى مشروع ضخم ، ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء الطوائف ، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها . وقد كان مجاهد ، زعيما قوى النفس ، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً ، وكان يرى أن مملكته الساحلية ، وأملاكه البحرية ، تقتضى أن يكون اعتمادها فى القتال على الأساطيل قبل كل شىء ،ومن ثم فقد اقتضت همته أن يجدد دار الصناعة القديمة (دار صناعة السفن) التى كانت بدانية ، وأن يضاعف طاقتها لتمده بالسفن المقاتلة والناقلة من مختلف الأحجام ، واستكثر من السفن والمعدات الحربية ، واستطاع فى فترة قصيرة أن ينشئ أسطولا كبيراً يرابط فى مياه دانية والجزائر ، وغدت دانية فيما بعد ، فى عصره ، وعصر ولده على ، أعظم مركز للأساطيل الأندلسية . وكان مجاهد يتطلع بعيداً من جزائره الشرقية إلى ما وراء هذه المياه من الجزائر الكبيرة الغنية ولاسيما جزيرة سردانية العظيمة ، التى عرفها البحارة المسلمون من قبل ، فى كثير من الغزوات المتعاقبة .

وضع مجاهد خطته لغزو هذه الجزيرة الكبيرة ، فحشد أسطولا قوامه مائة وعشرين سفينة ، وقوة من ألف فارس ، وأقلعت السفن الغازية من دانية والجزائر فى ربيع الأول سنة ٤٠٦ ﻫ (أغسطس ١٠١٥ م) ، وعلى الأسطول قائده أمير البحر أبو خروب . وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين سردانية ، يومئذ تستغرق ثمانية أيام . وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

الغزاة العرب منذ فتح الأندلس ، وقد غزاها العرب لأول مرة فى سنة ٧١١ م ، أيام موسى بن نصير . ثم توالت غزوات البحارة المسلمين لسردانية ، فغزوها فى سنة ٧٥٢ م ، ثم فى سنى ٨١٣ و٨١٦ و٨١٧ و٨٣٨ م . بيد أن هذه كانت كلها من الغزوات العارضة ، التى يقنع الغزاة فيها بالسبى والغنائم ، وكانت المقاومة العنيفة التى يلقونها من أهل الجزيرة تحول دون احتلالها والاستقرار فيها . وكانت سردانية فى البداية تحت حكم الدولة البيزنطية ، فلما ضعف سلطانها فى تلك المياه ، وقعت سردانية تحت حكم اللونبارد ، ثم تحت حكم الفرنج . بيد أن هذه لم تكن سوى حماية اسمية . وكان يحكم الجزيرة منذ القرن الثامن قضاة أو أمراء محليون . وكانت طبيعتها الوعرة ، وشجاعة أهلها الجبليين ، واعتزازهم بحرياتهم ، مما يعاون فى دفع الغزاة ، ورد الحملات الغازية العارضة .

بيد أن هذه الحملة ، التى سيرها مجاهد العامرى إلى الجزيرة ، كانت تمتاز بضخامتها ، وضخامة عُددها ، وتمتاز بالأخص بما يقترن بها من عزم راسخ على الفتح والاستقرار . ومن ثم فإنه ما كادت السفن الغازية ترسو على شواطىء الجزيرة — والظاهر أنها رست فى خليج كاليارى فى جنوبى الجزيرة — حتى شق الغزاة طريقهم إلى الداخل بمنتهى العنف ، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم ، وكان قائدهم مالوتو فى مقدمة القتلى ، وأسر الغزاة جموعاً غفيرة ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال . واستطاع الغزاة أن يحتلوا معظم أراضى الجزيرة ، بالرغم من المقاومة العنيفة التى لقوها ، وأن يسيطروا على معظم حصونها (١) .

وهكذا فتحت سردانية على يد مجاهد العامرى ، وذلك فى شهر أغسطس أو سبتمبر سنة ١٠١٥ م (ربيع الثانى سنة ٤٠٦ هـ) (٢) . وكان أول فتح إسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن مجاهداً غلب على معظم أنحاء سردانية وافتتح معاقلها ، ثم قرر البقاء فى الجزيرة ، حتى يوطد مركزه بها ، واختط بها بالفعل مدينة واسعة شرع فى بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، وأنه أحرز من الغنائم والسبى مالا يأخذه الحصر ، حتى كسد السبى فى زمانه ،

(١) Amari : ibid., V. III. p. 6 & 7

(٢) وفى جذوة المقتبس أن الفتح وقع سنة ٤٠٦ أو ٤٠٧ هـ (ص ٣٣١) .

وانحطت أثمانه (١) . ومن المحقق على أى حال أن مجاهداً لبث فى سردانية حتى نهاية سنة ٤٠٦ هـ ، أعنى نحو عشرة أشهر . وفى خلال ذلك كانت البابوية والدول الإيطالية القريبة ، قد اهتزت لهذا الحادث الخطير ، وزاد فى روعها وسخطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطىء الممتد بين چنوة وبيزة واقتحام مدينة لونى ونهبها ، وكانت چنوة وبيزة يومئذ هما أقوى الدول البحرية فى هذه المياه ، ولكلتاهما مصالح تجارية عظيمة تحرص على حمايتها . وفى الحال أعلن البابا ، وهو يومئذ بندكتوس الثامن ، الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد تحالفاً مع چنوة وبيزة على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة . ومما يروى بهذه المناسبة ، أن مجاهداً العامرى أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بحبات القسطل ، معلناً أنه سوف يعود بعددها ، وأن البابا رد بأن بعث إليه كيساً مملوءاً بالحشائش الرفيعة ، قائلا إنه سوف يلقى بعددها ممن يرتدون الخوذات . وهكذا عقدت الدول الإيطالية بزعامة البابا ، العزم على تحطيم الغزاة المسلمين ، ورد خطرهم عن هذه المياه .

وهنا يحيط الغموض بالفترة القصيرة ، التى قضاها مجاهد العامرى فى سردانية . ففى بعض الروايات أن مجاهداً عاد بعد هذه الحملة الأولى إلى دانية وجهز حملة ثانية إلى سردانية ، فى صيف العام التالى أعنى فى سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وذلك لكى يقضى على كل مقاومة فى الجزيرة ، وهذه رواية يصعب تصديقها ، وليس فى سير الحوادث ما يؤيدها . والحقيقة هى أن مجاهداً لبث بعد غزو الجزيرة ، يبذل جهده فى تحصينها ، وفى الاستعداد للدفاع عنها ، واستمر طوال الوقت فى كفاح دائم مع أهل الجزيرة . ولما قدمت السفن الجنوبية والبيزية والسفن النصرانية الأخرى من مختلف الأمم ، ودخلت مياه كاليارى ، استعد مجاهد للمعركة الحاسمة ، ولكن مقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصارى فى أسطوله ، وتوالى العواصف القاصفة ، كانت كلها عوامل فتت فى عضده ، وحطمت خطط دفاعه ، فلم يقو طويلا على المقاومة ، وأصابته السفن النصرانية بهزيمة فادحة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن أمير البحر أباخروب حذر مجاهداً من دخول مياه كاليارى بسفنه ، ولكنه لم يأخذ بهذا

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٩ . وجذوة المقتبس ص ٣٣١ .

النصح ، وكانت الريح تقذف بمراكبه تباعاً ، والروم لا عمل لهم سوى قتل المسلمين وأسرهم ، ومجاهد خلال ذلك يبكى [١] ، وهكذا تحطمت معظم سفنه وأسرت أو أغرقت ، وقتل معظم أصحابه ، واستولى العدو على سائر غنائمه وسبيه ، وعلى أهله وحريمه وولده وفيهن نساؤه وبناته ، وعلىّ ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم ينج من أسطوله الضخم سوى بضع سفن ، شقت به عرض البحر مسرعة . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامرى فى شهر يونيه أو يوليه سنة ١٠١٦ م .

ويقدم إلينا العلامة المستشرق أمارى رواية أخرى خلاصتها أن مجاهداً لبث فى سردانية عاماً آخر حتى مايو سنة ١٠١٧ م ، وأنه حينما سمع بأمر الأساطيل الضخمة التى جهزت لقتاله ، أنشأ بالجزيرة قلعة يستعين بها على الدفاع . ولكن جنده كانوا خلال ذلك، قد سئموا المقام بالجزيرة لقلة الغنائم ورداءة الطقس، وساد بينهم التذمر . وفى شهر مايو سنة ١٠١٧ م ، أقبل أسطول البيزيين . والجنويين الضخم ، وعول مجاهد على الانسحاب . ولكنه حينما خرج بأسطوله وذلك فى شهر يونيه ، اصطدم بالأساطيل الإيطالية ، وفاجأته فى نفس الوقت عاصفة شديدة ، أغرقت كثيراً من سفنه ، واصطدم الكثير منها بالشاطىء ، فسار فى فلول أسطوله صوب دانية تاركاً فى الأسر ولده وأخاه وزوجه [٢] .

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا فى سردانية كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا فى صقلية . ولو نجح مجاهد العامرى فى مشروعه، واستقر المسلمون فى سردانية ، لكان مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية ، كتلك التى ازدهرت فى صقلية ، بل وكان مرجحاً أن يطول عهد الإسلام فى صقلية ، وأن يتأخر سقوطها فى أيدى النورمان عصوراً أخرى . ولكن المشروع كان فى الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف ، وكانت الدول النصرانية كلها تتحفز لحماية هذه الجزائر ، كى تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية ، وكان فى تفوق الجمهوريات الإيطالية البحرى ، فى هذه العصور ، ما يكفل تحقيق هذه الغاية [٣] .

---

(١) راجع جذوة المقتبس ص ٣٣١ .

(٢) Amari : ibid.; V. III. p. 9

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢١٩ و ٢٢٠، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ، وابن خلدون —

على أن غزو مجاهد الجرىء لسردانية ، وغاراته المتكررة بعد ذلك على الشواطىء الإيطالية وشواطىء بروڤانس ، جعلت منه شخصية خيالية مروعة ، وتفيض الروايات النصرانية المعاصرة ، من إيطالية ولاتينية ، فى غزوات مجاهد وغاراته البحرية ، وتعرفه باسم موجيتوس Mogetus أو موسيتو Museto وتحيطه بهالة من البطولة والروع .

وفى بعض الروايات أن المسلمين غزوا سردانية بعد ذلك مرتين أخريين ، فى سنة ١٠١٩ م ، ثم فى سنة ١٠٤٩ م ، وذلك بقيادة مجاهد العامرى أيضاً ، وأن مجاهداً سقط أخيراً فى أيدى النصارى ، وهى رواية لا سند لها . ثم إنه يروى أيضاً أن البحارة المغامرين أو القراصنة حسبما يسمونهم ، من دانية والجزائر ، لبثت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الغربية للبحر المتوسط مدة طويلة ، يظللها دائماً اسم «موجيتو» أى مجاهد ، على أنه ملك إفريقية . وإذا كان لنا أن نستخلص من ذلك شيئاً ، فهو الروع الذى كان يبثه اسم هذا البحار الجرىء — مجاهد العامرى — فى ثغور البحر المتوسط الغربية ، فى ذلك العصر .

ومن الأسف أن الرواية الإسلامية تنقصها الإحاطة فى هذا الجانب الشائق من حياة مجاهد ، وهى حياته كبحار من أعظم بحارى العصر ، فهى لا تقدم لنا عنه سوى نبذة يسيرة متناقضة ، وهى أكثر اهتماماً بنواحيه العلمية والأدبية .

وعاد مجاهد العامرى من غزوته المنكوبة لسردانية ، ليلقى الأمور فى دانية قد اضطربت وتعقدت . ذلك أن الفقيه أبا عبد الله المعيطى ، لم يحفظ العهد ، ولم يرع الأمانة ، فاستبد بالحكم ، واغتصب السلطة لنفسه ، ومحا اسم مجاهد ورسومه ، وكثرت مظالمه وعيثه ، وابتزازه للأموال ، ومجاهرته بالمعاصى . وما كاد مجاهد يقف على ذلك ، حتى بادر بالقبض على المعيطى ، ونزعه كل سلطة وصفة ، واشتد فى تأنيبه وتعنيفه ، ثم أرسله مخفوراً إلى العدوة فى سفينة أنزلته فى بجاية ، وهنالك لجأ إلى البربر ، وعاش مغموراً حتى توفى (١) .

— ج ٤ ص ١٦٤ ، والمقدمة ص ٢١٢ . وراجع بحثاً بالإسبانية عن مجاهد العامرى وعلى ابنه : Roque Chabas : Mochahid ijo de Yusuf y Ali ijo de Mochahid en (Estudios de Erudición Oriental) Homenaje a Fr. Codera . وراجع أيضا : Amari : ibid., V. III p. 4—14

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

وعمد مجاهد إلى تنظيم شئون مملكته ، والعمل على النهوض من عثرته . وكانت أعوص محنه يومئذ أسر ولده وأهله فى سردانية ، وقد استطاع أن يفتدى زوجته وبناته وإخوته فى مدة قريبة . ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه ، وكذلك أختها ، وآثرتا العيش فى أرض نصرانية ، فأعرض عنهما . وبقيت مشكلة ولده على . وكان وقت أسره فى سردانية طفلا فى السابعة من عمره ، وكان وحيده يومئذ ، وكانت أمه نصرانية كذلك . وقد رفض السرادنة كل عرض لافتدائه ، وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده . ومضت الأعوام والغلام يعيش فى الأسر بين النصارى ، يربى على دين النصرانية ، ويتحدث لغة القوم . وأخيراً وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه ، وذلك بعد عشرة أعوام من أسره . وكانت وجهة نظر السرادنة فى احتجاز الغلام على هذا النحو ، هى استبقاؤه رهينة ثمينة ، لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى ، ولم يرتضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة ، وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم فى سلام ، وألا يعود إلى إزعاجهم بأية صورة . وخرج على من الأسر ، وهو فتى يتكلم بلسان «الروم» الذى ربى بينهم ، ويتزيا بزيهم ، ويعتنق دينهم . فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام ، فقبله ، وحسن إسلامه ، وعنى مجاهد بتأديبه وتثقيفه . وكان قبل افتدائه من الأسر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة ، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه فى ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم ، فقدمه على أخيه الأصغر ، وعينه لولاية عهده ، وعهد إليه بقيادة الجيش . وكان لذلك فيما بعد أثره فى توتر العلائق بين الأخوين (١) .

— ٢ —

كانت غزوة سردانية أعظم أعمال مجاهد العامرى ، وهى ألمع صفحة فى تاريخه . بيد أنه مذ عاد إلى دانية ، قدر له أن يخوض سلسلة من الحوادث والأعمال الأخرى .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ . وبحث الأستاذ Chabas السالف الذكر . ويقول لنا ابن بسام إن الذى افتدى علياً من الأسر ، هو أحد آل حماد أمراء بنى مناد بالمغرب الأوسط ، وأنه أسدى بذلك إلى والده يداً بيضاء (راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦) .

فنى سنة ٤٠٨ هـ ، اجتمع رأى الفتيان العامريين ، وعلى رأسهم زعيمهم خيران صاحب ألمرية ، على معارضة خلافة على بن حمود الناصر فى قرطبة ، والدعوة لخلافة مرشح أموى جديد هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فأعلن خيران بيعته ، وأيده فى بيعته المنذر التجيبى صاحب سرقسطة ، وولاة بلنسية ودانية وطرطوشة وألبونت وغيرها ، وكان ذلك فى مؤتمر عقد فى بلنسية ، وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى ، وأعلن الخلاف على الناصر ، وسار على رأس جيش متحد من حلفائه ومؤيديه ، ومنهم مجاهد العامرى. والتقى جيش الفتيان وحلفائهم فى ظاهر غرناطة بجيش البربر ، بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فهزم جند الأندلس هزيمة فادحة ، وقتل المرتضى خلال فراره (٤٠٩ هـ) ، وانهارت بذلك حركة الفتيان لمعارضة خلافة البربر ، وعاد مجاهد إلى دانية .

وفى خلال ذلك تطورت الحوادث فى بلنسية ، وكانت تحت حكم الفتيين العامريين مظفر ومبارك ، فتوفى مظفر أولا ثم تبعه مبارك فى حادث قتل فيه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ حسبما فصلنا من قبل فى موضعه . فعندئذ خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما ، ثم وقع الخلاف بينهما ، وسخط أهل بلنسية على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة النصرانى ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية ، إلى جانب مملكته فى دانية ، واستمر على ذلك زهاء عامين ، حتى اجتمع الفتيان العامريون مرة أخرى ، وعقدوا البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ، وندبوه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، وعندئذ تخلى مجاهد عن حكمها .

ولسنا نجد بعد ذلك تفصيلا شافياً لأعمال مجاهد فى الأعوام التالية ، بيد أن هنالك واقعتين واضحتين ، الأولى أن مجاهداً غزا مرسية ، والثانية أنه خاض حرباً مع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية . فأما عن الواقعة الأولى ، فإنه يبدو من إشارة لابن الأبار ، أن مجاهداً سار إلى غزو مرسية ، وقت أن كان عليها أبو بكر بن طاهر نائباً عن زهير العامرى صاحب ألمرية . ولا توضح لنا الرواية أسباب هذا الغزو ، ولا تاريخه بالضبط ، ولكن الظاهر أنه وقع حوالى سنة

٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) فى أوائل ولاية زهير لألمرية ومرسية عقب وفاة خيران العامري. وقد كان النزاع قائماً داخل مرسية حول حكمها بين بنى طاهر، وبنى خطاب، وكان مجاهد فيما يبدو من مؤيدى بنى خطاب، فلما غلب بنو طاهر على المدينة سار مجاهد لغزوها، وأسر أبا بكر بن طاهر، وحمله معه إلى دانية، ولم يطلقه إلا لقاء فدية طائلة، بيد أنه ليس هنالك مايدل على أن مجاهداً حكم مرسية أو استقر بها طويلا. وعندئذ ندب زهير أبا بكر بن طاهر لحكم المدينة واصطحب معه خصمه ومنافسه أبا عمرو بن خطاب إلى ألمرية حسما للنزاع، وضماناً للسكينة والسلام فى مرسية [١].

ولما توفى زهير العامرى فى سنة ٤٢٩ هـ، قتيلا فى حربه مع باديس صاحب غرناطة، واستولى عبد العزيز المنصور من بعده على ألمرية وأعمالها، وعلى مرسية وأوريولة، شعر مجاهد بأن تضخم مملكة بلنسية على هذا النحو سوف يغدو خطراً على مملكته، فساءت بينهما العلائق بسرعة وانتهت إلى الحرب. وسار مجاهد فى قواته من دانية، واخترق أراضى مملكة بلنسية الوسطى من شاطبة إلى لورقة. وكان عبد العزيز المنصور يومئذ فى ألمرية، فغادرها فى قواته، وكانت شاطبة ولورقة وشوذر [٢] من أعمال مملكته، قد خرجت كلها عليه وانضمت إلى مجاهد. ووقعت الحرب بين الفريقين (٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م) وانتصر عبد العزيز فى النهاية على خصومه، واستعان فى محاربته لمجاهد ببعض سريات من المرتزقة النصارى أمده بها ملك قشتالة، وعاد مجاهد إلى دانية، دون أن يفوز بشىء.

وولى مجاهد حكم ميورقة (الجزائر الشرقية) ابن أخ له يدعى عبد الله. وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد، وبها كانت مرافىء معظم أساطيله، لأن مياه دانية لاتصلح لرسو السفن الكبيرة. واستمر عبد الله على ميورقة خمسة عشر عاماً حتى عزل فى سنة ٤٢٨ هـ، وندب مجاهد لحكمها مولاه الأغلب فاستمر فى منصبه بقية عهد مجاهد، وقسما من عهد ولده على [٣].

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧، وطبعة القاهرة ج ٢ ص ١١٦ و ١١٧. وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢.

(٢) وهى بالإسبانية Jōdar

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧.

وتوفى مجاهد العامرى سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) بعد أن حكم مملكة دانية والجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، ساد فيها النظام والأمن والرخاء .

وقد أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة ، بخلال مجاهد العامرى ، وعبقريته الحربية والسياسية ، ومآثره العلمية والأدبية ، وكان أكبرهم تنويها بشأنه ، معاصره المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان ، وإليك نبذة مما قاله فى ذلك ، نقلها إلينا ابن بسام فى الذخيرة ، قال : «كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك من صباه ، وابتداء حاله إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد ، عظيم ما مر به فى الحروب براً وبحراً ، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة ، لانتحالهم الفهم والعلم ، فأمه جلة العلماء وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة ، وجلة ظاهرة ، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس فى الشعراء ، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده فأقصر الشعراء عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره »[١] .

وذكر لنا فى نبذة أخرى نقلها إلينا ابن الخطيب ، أنه كان بين أعلام العصر الذين يلتفون حول مجاهد ، أبو عمرو بن سعيد الدانى صاحب القراءات ، وأبو عمر ابن عبد البر ، وابن مغمر اللغوى ، وابن سيده صاحب كتاب المحكم وغيرهم[٢]. وكان منهم أيضاً الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن رشيق ، وكان يحتل فى دولة مجاهد أرفع منزلة ؛ وقد ولاه ميورقة فحكمها بالسياسة والعدل ، واشتغل هناك بالحديث والفقه[٣] وكان بعض هؤلاء العلماء منقطعاً إليه ، متفرغاً للعمل فى كنفه ، مثل ابن سيده الذى ألف معظم كتبه تحت رعايته ، ولازمه حتى توفى ، ثم غادر دانية بعد وفاته خوفا من سطوة ولده على[٤] . « فشاع العلم فى حضرته

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٥ أ . ونقلها صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ .

(٢) توفى أبو عمرو الدانى سنة ٤٤٤ هـ ، وابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ ، وابن سيده سنة ٤٥٨ هـ.

(٣) هذا قول ابن الأبار (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) ولا نعرف متى كانت هذه التولية . ولعلها كانت فى أوائل عهد مجاهد . وقد توفى ابن رشيق بعد سنة ٤٤٠ هـ .

(٤) المقرى عن المطمح فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

حتى فشا فى جواريه وغلمانه ، فكان له من المصنفين عدة ، يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون فى فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرفون دولته » .

ومما يذكر عن علائق مجاهد بعلماء عصره ، قصته مع إمام اللغة والنحو فى عصره ، أبى غالب بن غالب المعروف بابن التيانى المرسى . فإن مجاهداً أثناء تغلبه على مرسية ، وأبو غالب إذ ذاك بها ، أرسل إليه ألف دينار ، على أن يزيد فى ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد . فرد عليه المال ، وأنف من ذلك قائلا ، « والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، فانى لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته لكل طالب علم »(١) .

ولم تقف إشادة المؤرخ المعاصر بخلال مجاهد عند مآثره العلمية ، ولكنه ينوه فى نفس الوقت بخلاله كفارس من أعظم فرسان عصره . ويقول لنا ابن حيان إنه « كان بهمة ، وأكثر الناس علما بالثقافة ، فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان ، وإنه لم يكن فى ملوك الزمان فارس يعدله شكلا ولباقة ورواء وهيبة ، وحسن عمل فى السلاح ، وتقليباً له ، إلى حذق بأبواب الثقافة والرماية ، وتدقيق لمعانيها »(٢) .

كذلك فإنه يبدو أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف وأحذقهم بالشئون المالية والتجارية . وكان نشاطه التجارى الواسع ، المترتب على نشاط سفنه التجارية الكثيرة فى مياه غربى البحر المتوسط ، يحقق له ثروات طائلة ، وكانت مملكة دانية فى الواقع من أغنى ممالك الطوائف ، وأكثرها تمتعا بالرخاء .

وقد رأينا مما ذكرناه فى غزوة ميورقة ، وغارات مجاهد البحرية على الشواطىء الفرنسية والإيطالية ، أن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره ، وكان من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية . ويصفه دوزى ، بأنه كان أعظم « القراصنة » فى عصره ، وبأنه قد اشتهر بغزواته لسردانية وشواطئ إيطاليا وكذلك بحمايته للأدباء(٣) .

ومع كل ما تقدم فإن ابن حيان لم يفر مجاهداً من نقده اللاذع ، إذ يبدو أنه

(١) راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٢ .
(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٥ أ . وأعمال الأعلام ص ٢١٨ .
(٣) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, V. III. p. 3

جنح فى أواخر عهده إلى نوع من التناقض والاستهتار ، فتارة يبدو ناسكاً ، معتكفاً متبرئاً من كل باطل ، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، شأنه فى ذلك شأن سائر ملوك الطوائف(١) .

وكان مجاهد العامرى يكنى حسبما قدمنا بأبى الجيوش ، وفى بعض الروايات بأبى الحسن(٢) ، ويلقب من الألقاب الملوكية بالموفق .

— ٣ —

وخلف مجاهد العامرى فى مملكة دانية والجزائر ، ولده على الملقب بإقبال الدولة . وقد سبق أن أشرنا إلى قصة أسره ، وهو صبى ، فى غزوة سردانية ، وعوده من الأسر بعد أعوام طويلة ، فتى تغلب عليه صفات الروم ولسانهم ، وكيف عنى أبوه مجاهد برده إلى حظيرة الإسلام ، وبتثقيفه وإعداده ليخلفه فى الملك .

وكان مجاهد ، قبل عود ولده على ، قد رشح أخاه الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة لولاية عهده ، فلما صار الأمر بعد ذلك إلى أخيه على ، تحطمت آماله ، وشعر نحو أخيه الأكبر ، بعاطفة بغض قوى ، ورغبة جامحة فى إزالته . وهناك فى الواقع بعض الغموض فيما يتعلق بمركز حسن من مسألة الحكم وولاية العهد ، ذلك أنه توجد قطع من النقود التى ضربت فى دانية سنة ٤٣٢ هـ ، وعليها اسم حسن سعد الدولة ، كما توجد نقود ضربت فى دانية وميورقة فى سنتى ٤٣٥ ، و٤٣٦ هـ ، تحمل اسمه واسم أخيه على وأبيهما مجاهد . وفى ذلك ما يدل على أن حسناً ، ربما ولى الحكم بالفعل خلال حياة أبيه نائباً عنه ، أو أنه كان مشاركاً لأخيه على فى ولاية العهد ، أو نحو ذلك(٣) . وعلى أى حال فقد سار حسن مغضباً إلى صهره ، وزوج أخته المعتضد بن عباد فى إشبيلية ، وأفضى إليه بمشروعه فى الوثوب على أخيه ، واسترداد حقه فى الملك ، فشجعه المعتضد ، وهو من عرفنا من الجرأة والإقدام على الكبائر ، ولعله كان يرى فى معاونته على تنفيذ مشروعه ، سبيلا إلى بسط حمايته فيما بعد على مملكة دانية . وبعث معه إلى دانية غلاماً فتاكاً من غلمانه ، ووضع حسن والغلام العبادى خطتهما لاغتيال على ،

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠ ، وراجع معجم ياقوت الجغرافى تحت كلمة « دانية »

(٣) P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 36

واتفقا على أن يكون ذلك يوم جمعة عقب خروج على من الصلاة . وكان من عادة على ، عقب الخروج من الصلاة ، أن يتنزه قليلا على شاطىء البحر ، وكان إذا ركب ، كان أخوه حسن وراءه فى الموكب ، فلما انتهى على فى ذلك اليوم من نزهته ، وسار عائداً إلى قصره ، انتهز حسن والغلام العبادى فرصة مروره فى زقاق ضيق ، وانقض حسن عليه بخنجره ، فأصابه فى يده ، ثم حاول أن يثنى الطعنة فلم يوفق ورده على ، وعندئذ حاول الغلام العبادى أن يطعن علياً بالرمح الذى يحمله ، فنشب الرمح فى الحائط لضيق الزقاق ، وانقض رجال علىّ على الغلام العبادى فقتلوه ، وفر حسن ناجياً بنفسه ، وسار مسرعاً إلى بلنسية ، حيث لجأ إلى صهره ، وزوج أخته الآخر ، عبد الملك بن عبد العزيز ، وهناك عاش فى كنف أخته مغموراً حتى توفى(١) .

وهكذا فشلت هذه المحاولة الغادرة فى اغتيال على بن مجاهد ، وبرىء على من جراحه واستقر فى ملكه ، واتفق الجميع على طاعته وتأييده . وحذا على حذو أبيه فى اتباع سياسة الحيدة والمودة مع جيرانه ، وحاول مثل أبيه أن يوثق علائقه مع ملوك عصره بالمصاهرة ، وكانت له بنات حسان يصفهن صاحب الذخيرة بأنهن كن « أحسن من الشموس ، وافتن من الطواويس » ويقول لنا إن ملوك الطوائف تنافسوا فى الزواج منهن ، وجعلهن والدهن على عيوناً له على أزواجهن ، معتمداً على ما تحققه له المصاهرة وصلة الرحم ، من الرعاية والحماية(٢) ، فزوج إحداهن للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأخرى إلى المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وتزوج هو من ابنة أحمد بن هود المقتدر بالله ، بيد أنه كان من غرائب القدر أن هذه السياسة ذاتها ، وهى سياسة المصاهرة ، كانت أيضاً هى السبب فى سقوط على وضياع ملكه .

ولم نعثر على أية تفاصيل شافية عن الأحداث التى مرت بمملكة دانية أيام على ابن مجاهد ، ولا عن أعمال على ذاته . وكل ما نستخلصه من الإشارات القليلة المتعلقة بحكمه ، أنه جرى على نفس سياسة أبيه فى مخاصمة بنى طاهر أصحاب مرسية ، وأنه كان متحالفاً مع أصحاب بلنسية ومربيطر وشنتمرية الشرق . وأما عن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

علائقه مع الملوك النصارى، فإنه كان على علائق المودة والصداقة مع ملك قشتالة، أسوة بالمأمون صاحب طليطلة، ولكن على مبدأ الاستقلال لا الخضوع، إذ كانت مملكة دانية، حسبما بينا من قبل، بموقعها النائى الحصين، بعيدة عن متناول عدوان قشتالة. وكذا كان يرتبط بمثل هذه العلائق الودية مع كونتات برشلونة، وهم أمراء آل برنجير.

وكان على يولى شئون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائما أنها أهم أقسام مملكته. وكان حاكمها وقت ولاية على، هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان قد ولى حكمها منذ سنة ٤٢٨هـ. وكان جندياً وبحاراً مجرباً، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطىء النصرانية فى قطلونية وبروفانس[1]. ولما توفى مجاهد، استأذن الأغلب علياً بعد ولايته بقليل، أن يسير إلى الحج، فأذن له، وندب لحكم الجزائر صهره سليمان بن مشكيان، فاستمر فى حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م)، فولى على مكانه عبد الله المرتضى فحكمها مدة طويلة. ولما سقطت دانية فى يد ابن هود، وانقضت دولة على، حسبما يجىء، أعلن المرتضى استقلاله بحكم الجزائر، واستمر فى حكمها أميراً مستقلا حتى وفاته فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٢ م)، فخلفه فى حكمها مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة حسبما نذكره فى موضعه[2].

وكان من أبرز أعمال على بن مجاهد، استجابته لنداء المستنصر بالله خليفة مصر الفاطمى، أيام الشدة العظمى، التى نكبت فيها مصر بالوباء والمجاعة الغامرة، حيث دعاه إلى المساهمة فى إغاثة أهل مصر بالغلال والمؤن، فبادر على إلى الاستجابة، وبعث إلى الإسكندرية مركباً كبيراً مشحوناً بالمؤن والأطعمة، (٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م)، فردها إليه المستنصر مشحونة بالتحف والذخائر، وتبالغ بعض الروايات فتقول إنه أرسلها إليه مشحونة «بالأموال والذخائر، أو بالياقوت والجواهر والذهب»[3].

وبعث على إلى المستنصر رسالة شكر تفيض بلاغة وإجلالا، مكتوبة بقلم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.

(٢) راجع : A. P. Ibars: Valencia Arabe, p 171 & p172

(٣) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٨، وأعمال الأعلام ص ٢٢١ و ٢٢٢.

وزيره أبى الأصبغ بن أرقم ، يشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية وجلالها ، ومقام المستنصر بالله . وقد نقل إلينا ابن بسام نص الرسالة المذكورة ، ومما جاء فيها على لسان على :

« فالآن استمد المريد ، واستقر الضمير ، فتبسم مولى الحضره رياضاً عطراً ، وراد روضها زهراً ، وشام برقها ممطراً ، واستوضح هلالها مبدراً ، وارتشف ماءها حضراً ، فما الشكر وإن جزل ، يوف ثنايا ذلك الإفضال والإنعام ، ولا اللسان وإن جفل يتعاطى ذلك الشأو ، ولا الأقلام ، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام . وأى وسع يبارى البحر وهو طام ، وأى طوق يطيق ركنى شمام . ولو كانت للمولى بالقدر يدان وساعده إمكان ، وساعفه زمان ، لأم بشخصه كعبة الآمال ، واستقبل بقصده قبلة السعة والإقبال ، واستلم بيده ركن الإنعام والإفضال .. »(١)

وكان على يتبع سياسة المودة والتسامح المطلق نحو النصارى ، ونحو أمانيهم الدينية ، وربما كان ذلك راجعاً من بعض الوجوه إلى ظروف حياته ، وإلى نشأته خلال أسره الطويل ، بين نصارى سردانية ، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام . ولدينا فى ذلك وثيقتان صادرتان منه ، الأولى بوضع سائر الكنائس والبيع التى بمملكة دانية والجزائر تحت رعاية أسقف برشلونة ، وأن يتولى هو تعيين سائر رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس ، والثانية بأن يسمح للنصارى المعاهدين فى أعمال مملكته ، بأن يذكروا اسم أسقفهم فى خطبهم ومواعظهم . ولدينا بالأخص النص العربى للوثيقة الثانية ، وقد جاء فيه : « وأشهده إقبال الدولة ، أيده الله ، على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة . إلى أن يكون مذكوراً فى خطب النصارى فى بيعهم بجميع أعماله ، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك فى شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ، ثم يلى ذلك أسماء الشهود (٢) .

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط ، لوحة ٦٥ ب وما بعدها ، وهى طويلة .

(٢) تحفظ هذه الوثيقة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان بروما . وراجع نصها الكامل فى بحث الأستاذ شاباس السالف الذكر عن مجاهد وابنه على فى كتاب : **Estudios de Erudición Oriental, Homenaje a Fr. Codera**

وراجع أيضاً فى هذا الموضوع **A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 175—176.**

وكان من أثر هذه الحرية الدينية المطلقة ، أن تحققت فى نفس الوقت حرية فكرية شاملة، وانطلقت الأقلام بما شاءت. وفى هذا الجو المشبع بالتسامح والحرية، كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وهو مولد من كتاب شرق الأندلس ، يرجع إلى أصل نصرانى بشكنسى ، سبى من ماردة صغيراً ، ونشأ فى بلاط دانية ، فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠–٤٣٦هـ) ، وولده على إقبال الدولة (٤٣٦ — ٤٦٨ هـ)[١] : كتب رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وهى رسالة قوية عجيبة ، تفيض تحاملا ضد الجنس العربى ، وتنوه بوضاعة منبته ، وخسيس صفاته ، وحقارة عيشه وميوله ، وانغماسه فى شهوات الجنس ، وتشيد بالعكس بصفات العجم (والمقصود بها مختلف أجناس الفرنج) ، وترفعهم عن الشهوات الدنية ، وفروسيتهم، ونجدتهم ، وتبحرهم فى العلوم ، وغير ذلك . وقد وجه ابن غرسية هذه الرسالة إلى صديقه الكاتب الشاعر أبى عبد الله بن الحداد ، يعاتبه فيها ، لأنه يخص ابن صمادح دون مجاهد وولده على بمدائحه ، وصاغها فى أسلوب عنيف مقذع ، ينبىء بما كان يضمره هذا الكاتب المولد للجنس العربى من المقت والحقد والكراهية . ولا تحمل هذه الرسالة تاريخاً ما . ولكنا نعرف مما تقدم أن ابن الحداد، الذى وجهت إليه، كان شاعراً فى بلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية ، الذى حكم من سنة ٤٣٣ — ٤٨٤هـ[٢]. والمرجح أنها وجهت إليه حوالى سنة ٤٥٠ إلى سنة ٤٦٠هـ، وابن غرسية يقيم بدانية فى كنف على إقبال الدولة ، وإليك بعض ما جاء فى هذه الرسالة فى التنوية بفضائل العجم ، ونقائص العرب :

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٠٦ و ٤٠٧ ، وأبو الحجاج البلوى فى كتاب الف با (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ٣٥٣ . وابن الأبار فى المعجم رقم ٢٨٢ فى ترجمة أبى العباس الجزيرى حيث يقول عنه «وكان بها (أى بدانية) يؤدب أبا جعفر أحمد بن غرسية الكاتب».

(٢) ان اسم ابن الحداد الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته ، هو الذى ورد فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى الآتى ذكره . ولكن ورد فى الذخيرة لابن بسام (الجزء الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) وكذلك فى كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (مخطوط باريس السالف الذكر) أن الذى وجهت إليه الرسالة هو أبو جعفر الجزار ، وهو باسمه الكامل أحمد بن محمد بن سهل السرقسطى ، وأنه كان من شعراء بنى هود ، وكان عالماً أديباً شاعراً ، وكان قد هبط من سرقسطة يريد ألمرية ليلحق بالمعتصم بن صمادح وقد عدل عن الورود إلى دانية ، والالتجاء إلى أميرها على بن مجاهد . بيد أننا نؤثر الأخذ بما ورد فى مخطوط الإسكوريال.

« أألحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت أنهم الصهب الشهب، ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ،مُجد ، نُجد، بُهم، لارعاة شويهات ، ولاتّهم ، شغلوا بالماذى والمرّان ، عن رعى البعران ، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة ، قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الحرصان ، لكنهم خطبة بالحرصان ، شعر .

ما ضرهم أن شهدوا مجـــادا   أوكافحوا يوم الوغى الأندادا
أن لايكون لونهم سوادا

« شرهوا برنات السيوف ، لابربات الشنوف ، وبركوب السروج الكلب والفرُوج، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبايب ، وبالحب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمروالزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم ، وحصونهم حصنهم ، أقيال آباؤهم من بين الأنام أقتال .

أولئك قومى أن بنوا شيدوا البناء   وان حاربوا جدوا وان عقدوا شدوا

حُلُمُ عُلُم ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية كحملة الاسترلوميق ، والموسيق والعلمة بالأرتماطيق ، والجومطريق ، والقومة بالألوطيق والبوطيق ، ما شئت من تدقيق، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لاعلى وصف الناقة الفدنية ، فعلمهم ليس بالسفساف كفعل نائلة وأساف ،أصغر بشأنكم، إذ بزقخرباع الكعبة أبو غبشانكم، وإذ أبور غالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى   رأيتك فى انتحالك كنت أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالقديم المفرى للأديم ، ولكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولاغرو أن كان منكم حبره وسبره ، ففى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك العزال :

لله ماقد برا صـــــفوة   وصـــفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم   محمد النور أبو القاسم

بهذا النبى الأمى ، أفاخر من تفخر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتقى بالرسالة ، والمنتقى للأداء والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام » .

وقد أثارت رسالة ابن غرسية مرارة فى الأوساط الأدبية المعاصرة، ورد عليه من العلماء القريبين من عصره فى رسائل شديدة ، انتهى إلينا بعضها . ومن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ، وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان معاصراً لابن بسام ، وأورد لنا ابن بسام رده على ابن غرسية فى الذخيرة . ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ ، وقد ورد رده فى الذخيرة أيضاً ، وفى مخطوط الإسكوريال ، فى رسالة عنوانها : «حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة، بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية» . ومنهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، وقد رد على ابن غرسية فى رسالة يوردها لنا صاحب الذخيرة ، وعنوانها : « خطف البارق ، وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق » . ومنهم الفقيه أبو يحيى ابن مسعدة من فقهاء الموحدين ، وقد عاش فيما يبدو فى النصف الثانى من القرن السادس ، فى رسالة طويلة وردت فى مخطوط الإسكوريال ، ومنهم أخيراً أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسى فى رسالة « الاستدلال بالحق فى تفضيل العرب على جميع الخلق »[1]

---

(١) توجد رسالة ابن غرسية ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال لا عنوان لها ، وتحمل رقم ٥٣٨ الغزيرى ، وتحتوى على عدة رسائل تاريخية منوعة ، وتشغل بها اللوحات ٢٦-٢٩ وتليها رسالة ابى يحيى بن مسعدة فى الرد عليها وتشغل اللوحات من ٢٩ — ٤١ ، ثم يليها رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسيه ، ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ويشمل اللوحات ٥٣ — ٥٤ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة (القسم الثالث المخطوط المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد) رسالة ابن غرسيه ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين ، ورد ابن عبد الله القروى . وقد نشر العلامة المستشرق جولد سيهر رسالة ابن غرسيه ما عدا الفقرة الأخيرة منها ضمن بحث له بالألمانية عنوانه : «الشعوبية عند مسلمى اسبانيا» = Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien

وقد استمر صدى السخط على رسالة ابن غرسية عصوراً حتى أننا نجد كاتبا أندلسياً عاش بعد ذلك بقرنين هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى ، يتناول هذه القضية ، فى كتابه « ألف با » ، ويعقد فصلا خاصا عن « فضل العرب » يردد فيه ما قيل فى ذلك ، وما ينسب للعرب من الفروسية ، والشجاعة ، وحب الحرية ، والإباء والجود ، وفصاحة اللسان والشاعرية ، وغير ذلك من الخلال المأثورة ثم يعطف على رسالة أبى عامر بن غرسية « البشكنسى الأصل » ، ويقول إنه قد « فسق فى رسالته وبدع ، وسب بسببها وجدع » ، ويعدد لنا من تصدوا للرد عليه ، ممن سبق ذكرهم وذكر رسائلهم ، ثم يبدى دهشته من تسامح أهل العصر ، وتركهم لابن غرسية وأمثاله دون عقاب ويقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتن ، وأقروا هذا المجترى على هذا الاجتراء ، وما جاء به من الافتراء ، أم كيف أبلغوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه »[1]

وقد عنى البحث الحديث بدراسة رسالة ابن غرسية والتعليق عليها ، وتناولها العلامة جولدسيهر فى بحثه « الشعوبية عند مسلمى اسبانيا » الذى سبقت الإشارة إليه . ويلاحظ جولدسيهر ، أنه يوجد بين عظماء الأمة الأندلسية كثيرون ممن يرجعون إلى أصول غير عربية وبخاصة المولدين ، ومن هؤلاء أئمة من المفكرين مثل بقى بن مخلد ، والعلامة ابن حزم ، وإمام اللغة ، أبومروان عبدالملك ابن السراج ، وغيرهم ، وكذلك كان الشأن فى عنصر الصقالبة ، الذى ازدهر ، فى ظل أمراء بنى أمية ، وشغل منه الكثيرون أرفع المناصب من قيادة ووزارة وغيرهما . بيد أن عنصر المولدين ، كان أهم العناصر غير العربية فى الأمة الأندلسية وكانت النزعة الشعوبية أكثر تمكنا لديهم من أى عنصر آخر . وتعتبر رسالة ابن غرسية من أبرز نماذج الشعوبية الأندلسية ، فقد كان مؤلفها مولدا يرجع إلى أصل نصرانى ، وهو يردد فى رسالته ما تضمنه أدب الشعوبية فى الشرق الإسلامى من الأسباب والمبادىء . بيد أن رسالةابن غرسية تمتاز بأنها فى تفضيل

— نشر بمجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Z. der D. Morg. Gesell.) سنة ١٨٩٩ ص٦٠١–٦٢٠ ونشرها الأستاذ مختار العبادى ضمن بحث له عن «الصقالبة فى اسبانيا» (مدريد ١٩٥٣) ونشرها أخيراً ، ونشر معها الردود التى سبقت الإشارة إليها الأستاذ عبد السلام هارون فى مجموعة نوادر المخطوطات ، (المجموعة الثالثة) (القاهرة ١٣٧٣ هـ) . وقد نشرناها نحن فى نهاية الكتاب .

(١) أبو الحجاج البلوى فى كتابه «ألف با» ص ٣٤٧ – ٣٥٣ .

العجم على العرب ، تعنى قبل كل شيء بالإشادة بفضائل الروم أو بنى الأصفر أى النصارى ، فى حين أن معظم رسائل الشعوبية المشرقية تعنى بالمفاضلة بين العرب والعجم (أى الفرس) .

أما ما كتبه ابن غرسية فى نهاية رسالته من تمجيد النبى العربى ، والإشادة بمآثره ، ورسالته الروحية : فيصفه جولدسيهر بأنه حجاب للتمويه ، وفى رأى ابن غرسية أن العروبة ليست مفخرة النبى ، « فنى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال »(١) .

واستمر على إقبال الدولة فى حكم مملكته زهاء ثلاثين عاماً ، ثم ساءت العلائق بينه وبين صهره ، حميه أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب سرقسطة . وكان المقتدر أميراً صارماً وافر الأطماع ، فحارب أخوته واستولى على بعض أعمالهم ، وانتزع طرطوشة من صاحبها الفتى العامرى مقاتل ، وحاول أن ينتزع لاردة من أخيه المظفر . ثم اتجهت أبصاره إلى مملكة دانية ، وأخذ يكيد لعلى ويشتد فى مضايقته . وكانت أهم الأسباب التى انتحلها لخصومته ، هو أنه أى على قد استقبل بدانية بعض الأسر القوية ، التى فرت من لاردة بلد المظفر أخى المقتدر وخصيمه ، ولجأت إلى حمايته . وذكر لنا ابن بسام سبباً آخر لذلك ، وهو أن المقتدر طالب علياً ببعض القلاع الشمالية الواقعة فى مملكته ، والتى كان يريد أن يلحقها بثغر طرطوشة ، وأن علياً ، خشية من صولته ، سلم إليه تلك القلاع ، بيد أنه ضبط فيما بعد كتباً أرسلها على إلى أصحاب تلك القلاع يحثهم فيها على التحصن والمقاومة(٢) . وأخيراً سار المقتدر فى قواته إلى دانية ، وحاصرها ، وشعر على أنه عاجز عن مقاومته ، فعرض عليه أن يسلمه المدينة والقصر بما فيه ، على أن يؤمنه فى نفسه وأهله ، فوافق المقتدر ، ودخل دانية واستولى عليها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٨ هـ (إبريل ١٠٧٦ م) . وانتهت بذلك الدولة المجاهدية. وجلس المقتدر بالقصر ، وبايعه الناس خاصتهم وعامتهم ، وأقام بدانية وقتاً ينظم فيه شئونها ، ثم غادرها . وأخذ المقتدر معه صهره علياً وأهله ، إلى سرقسطة ؛ وأنزله فى كنفه ، فعاش هنالك محجوراً عليه حتى توفى ، وذلك فى

---

(١) I. Goldziher: Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien (Z. der. Morg. Gesell.) B. 53 (1899) s. 607-615.

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٧ .

سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . وفى رواية أخرى ، أنه استطاع الفرار من اعتقال المقتدر ، ولحق بالعدوة ، والتجأ إلى بنى حماد أصحاب بجاية وهنالك توفى(١) .

وحاول ابنه سراج الدولة ، وكان وقت سقوط دانية ، حاكماً لحصن شقورة ، أن يسعى إلى استرداد ملك أبيه ، فسار إلى برشلونة ، واستغاث بصاحبها الكونت برنجير ، فاستجاب إليه بشروط وأمده ببعض قواته ، واستطاع بالفعل أن يسترد بعض الحصون ، ولكن المقتدر كان له بالمرصاد . ويقال إن المقتدر استطاع أن يدس عليه من اغتاله بالسم ، فتوفى فى سنة ٤٦٩ هـ ، لنحو عام من خلع أبيه(٢) .

وكان على بن مجاهد أميرا فاضلا ، رفيع الخلال والمواهب ، وكان مثل أبيه من حماة العلوم والآداب ، وكان لطول إقامته بسردانية يتحدث ويكتب بالفرنسية والقشتالية ، وينظم الشعر بهما(٣) . وكان ميالا إلى السلم والدعة ، بعيداً عن أحداث السياسة وتقلباتها ، مؤثراً لجمع المال ، والاشتغال بالمشاريع التجارية(٤) وفى عهده ساد السلام والرخاء فى مملكة دانية ، وازدهرت أحوالها وتجارتها . وقد أشاد بذكره عبد الواحد المراكشى فى تلك العبارة المؤثرة : « ثم ملكها (أى دانية) بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ، ولا أطهر عرضاً ، ولا أنقى ساحة ، كان لايشرب الخمر ، ولايقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية ، مكرماً لأهلها »(٥)

— ٤ —

ويجدر بنا قبل أن نختتم الكلام على مملكة دانية ، أن نتبع مصاير ولاية ميورقة أو الجزائر الشرقية ، التى كانت تؤلف أهم وحدة فيها .

وقد رأينا أنه كان على حكمها وقت أن سقطت دانية فى يد المقتدر بن هود فى سنة ٤٦٨ هـ ، عبد الله المرتضى الذى ندب لحكمها منذ سنة ٤٤٢ هـ . وعندئذ أعلن المرتضى استقلاله ، واستبد بحكم الجزائر ، وبعث إلى دانية ليستقدم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 170, Note 3

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

(٥) المعجب ص ٤١ . وذكره أن علياً تلقب بالموفق من باب السهو ، إذ هو لقب والده مجاهد.

أسرة سيده المخلوع على ، فأرسلت إليه ، وعاشت فى كنفه معززه مكرمة[1] . واستمر المرتضى بعد ذلك فى حكم الجزائر أعواماً طويلة أخرى ، حتى توفى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

فخلفه فى الإمارة مساعده مبشر بن سليمان . ويقول لنا ابن خلدون إن مبشراً هذا ، قد ولى على الجزائر فى أوائل عهد على إقبال الدولة فى سنة ٤٤٢ هـ ، وإنه كان من شرقى الأندلس ، وأسره النصارى صغيراً وجبوه ، وإن مجاهداً وقع عليه بين أسرى سردانية ، فأعجب بمواهبه ، وقربه واصطفاه ، وترقى فى خدمته[2] . وفى هذه الرواية غموض وتحريف . والحقيقة فى أمر مبشر أنه كان من أهل قلعة حمير من أعمال لاردة ، وأسره النصارى فى صباه وجبوه ، وعاش فى برشلونة ، حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر ، وكان قد وفد مبعوثاً إلى الأمير برنجير فى بعض الشئون ، فأعجب بمواهب مبشر ، وافتداه من الأسر ، وأخذه إلى ميورقة وقدمه إلى المرتضى ، فسر بخلاله ومواهبه ، وأولاه ثقته ، واستعان به فى تصريف شئون الحكم ، واستمر على ذلك حتى توفى المرتضى ، فخلفه فى الإمارة حسبما تقدم .

وضبط مبشر شئون ميورقة (الجزائر) بحزم وكفايه ، واتخذ لقب ناصر الدولة . وفى تلك الأثناء كان المرابطون ، بعد أن أحرزوا نصرهم فى الزلاّقة ، قد استولوا على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، ثم زحفت جيوشهم نحو شرقى الأندلس ، واستولت على مرسية ثم بلنسية وذلك فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، كل ذلك ومبشر ماض فى حكمه للجزائر ، يرقب سير الحوادث حذراً متأهباً .

والظاهر أن الجزائر تمتعت فى عهده بفترة من الأمن والرخاء ، واشتهر أمر مبشر ، وقصده الأدباء والشعراء ، ووفد إليه بميورقة أبو بكر بن اللبانة المعروف بالدانى شاعر المعتمد بن عباد ووزيره من قبل ، وامتدحه بقصيدة هذا مطلعها :

ملك يروعك فى حلى ريعانه   راقت برونقه صفات زمانه

وكانت حملات البحارة المجاهدين فى عهده ، وهم الذين تنعتهم التواريخ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وهو ينسب هذا التصرف إلى مبشر خلف المرتضى .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

الفرنجية بالقراصنة ، تخرج من ثغور الجزائر المختلفة ، وتغير من آن لآخر على شواطىء قطلونية ، وبروڤانس وليجوريا ، وكانت سفن النورمان والبيزيين والقطلان من جانبها تغير على شواطىء الجزائر وتعيث فيها . وكان من الحوادث الشهيرة فى هذا العهد أن طائفة من السفن النرويجية جاءت بقيادة الملك سيجورد ملك النرويج ، وعاثت فى شواطىء اسبانيا الغربية ، ثم عبرت مضيق جبل طارق ، وسارت إلى الجزائر الشرقية ، وهاجمت جزيرة فورمنتيرا الصغيرة المنيعة الواقعة جنوبى جزيرة يابسة ، وكانت قد أودعت بها أموال وذخائر كثيرة للمسلمين ، تقوم على حراستها حامية صغيرة ، فاقتحم سيجورد الجزيرة ، وأضرم فيها النار ، واستولى على ما فيها من الأموال ، ومات سائر المسلمين المدافعين عنها(١)

وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتماماً بالاستيلاء على الجزائر الشرقية ، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطىء الإيطالية ، وكان البابا يشجع هذا المشروع ويباركه . وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفاً مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث . وفى صيف سنة ١١١٤ م (أوائل ٥٠٨ ﻫ) خرج من مياه بيزة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة ومن فرنسا ، وعرج الأسطول أولا على مياه الجزائر ، ونزلت بعض وحداته فى إحدى الجزر الصغيرة . ولما علم بذلك مبشر ، بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة ، ويعرض تسليم الأسرى ، وأن يؤدى تعويضاً عن نفقات الحملة ، فرفض الغزاة ، وسارت سفنهم فرست فى مياه قطلوانية حتى اقترب الربيع ، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة ، وكانت سفن الغزاة ، قد غدت يومئذ نحو خمسمائة سفينة ، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة ، فحصن ميورقة ، وبذل جهده فى إعداد وسائل الدفاع . واستولى الغزاة على يابسة بسهولة ، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ، ونزلوا فيها ، وضربوا الحصار حول مدينة ميورقة عاصمتها .

واستعد مبشر لحصار طويل الأمد ، وبعث فى الحال صريخه إلى أمير المسلمين

---

(١) راجع : Dozy : Recherches; V. II p. 323-326 . وكذلك A. Campaner y Fuentes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Palma 1888) p. 44-96

على بن تاشفين ، يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر فى أيدى النصارى . وكان المرابطون قد استولوا عندئذ على شرقى الأندلس كله، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ — ١١٠٨ م) ثم استولوا فى العام التالى على سرقسطة (٥٠٢ هـ) ، وقضوا على ملك بنى هود ، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية .وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة ، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجادها ، ورأى المرابطون أن يضغطوا فى نفس الوقت على مملكة برشلونة التى كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله فى حصار ميورقة ، فسارت قواتهم شمالا ، واخترقت أراضى قطلونية وعاثت فيها . ولكن الكونت برنجير ، اضطر إزاء ضغط حلفائه ، أن يبقى معهم حتى النهاية فى مياه ميورقة .

واشتد الحصار على ميورقة، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة وقطعوا عنها كل معونة ونجدة ، وقاسى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان ، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم ، وتوفى خلال ذلك الأمير مبشر ابن سليمان ، فخلفه فى الحكم أبو الربيع سليمان ، وصمم أن يمضى فى المقاومة ، وحاول أن يغادر الجزيرة مع بعض صحبه فى مركب صغيرة ، ليسعى إلى طلب النجدة، فأسره النصارى. واستطاع النصارى أن يقتحموا السور الأول فى فبراير سنة ١١١٦ م (أواخر سنة ٥٠٨ هـ) ثم اقتحموا بقية الأسوار تباعاً .وفى أواخر مارس دخل النصارى مدينة ميورقة، واحتلوا قصر المُدَينة قصر الحكم، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً وسبياً ، ثم أضرموا فيها النار ، ولم يكن بها عندئذ سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن هلك معظم المدافعين عنها فى الحصار ؛ فقتل النصارى منهم جملة كبيرة ، وكان الكونت برنجير صاحب برشلونة ،قد اضطر قبيل سقوط المدينة ، أن يعود إلى مملكته حين علم باشتداد ضغط المرابطين عليها ، وحصارهم لبرشلونة عاصمتها .

وفى أثناء ذلك كان أمير المسلمين على بن تاشفين ، قد تلقى صريخ مبشر على يد بحار جرىء هو عبد الله بن ميمون ، وكان قد استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، وأن يعبر البحر إلى المغرب . وبادر أمير المسلمين فجهز أسطولا ضخماً من خمسمائة سفينة ،وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش . وعلم البيزيون وحلفاؤهم بذلك ،فأدركوا

أنه لامحل لأن يخوضوا مع هذه القوات البحرية الضخمة ، معركة غير مأمونة العواقب ، فأقلعوا مثقلين بالسبي والغنائم ، بعد أن استصفوا ثروات الجزيرة ، وغادروها قاعاً صفصفاً . ودخل المرابطون على أثرهم ميورقة، وذلك فى أواخر سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) ، وفى الحال شرعوا فى تعميرها ، وعاد إليها الفارون من سكانها،وكانت قد لجأت منهم إلى الجبال جموع غفيرة ، وعين أمير المسلمين حاكماً على الجزائر يدعى وانور بن أبى بكر اللمتونى ، ومن ذلك التاريخ تدخل الجزائر الشرقية أوميورقة فى حظيرة الإمبراطورية المرابطية الكبرى ،وهى التى كانت قد اشتملت يومئذ على سائر ممالك الطوائف الأندلسية(١) .

(١) تراجع أخبار غزو النصارى لميورقة واستردادها على يد المرابطين ، فى ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨ وكذلك ، P. y Vives : Los Reyes و A. Campaner y Fuentes : ibid ; p. 105—135 de Taifas, p. 41



الكتاب الرابع

دول الطوائف

فى منطقة بلنسية

الفصل الأول

مملكة بلنسية

١ – عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون

الصقالبة وشرق الأندلس . العبدان مظفر ومبارك . تغلبهما على بلنسية . اشتراكهما وامتزاجهما . تغلب مبارك على شاطبة . أحوال بلنسية فى عهدهما . وفود الصقالبة والموالى إليها . الحرب بين مبارك والمنذر التجيبى . وفاة مظفر . مصرع مبارك . بلاطهما ووزراؤهما . مديح الشعر لهما . لبيب العامرى ومجاهد يخلفان مبارك . اختلافهما وفرار لبيب إلى طرطوشة . مبايعة الفتيان العامريين لعبد العزيز المنصور بالزعامة . توليه إمارة بلنسية . خيران العامرى يقدم للزعامة محمد بن عبد الملك المنصور . توليه إمارة مرسية وأوريولة . تنكر خيران له ومغادرته لمرسية . عبد العزيز المنصور ووزراؤه . وفاة خيران وخلافة زهير له فى ألمرية . مصرع زهير . مبايعة أهل ألمرية لعبد العزيز . اتساع مملكة بلنسية وموقف مجاهد العامرى . عبد العزيز يعهد بشئون ألمرية إلى ابن صمادح . غدره واستيلاؤه على ألمرية . الحرب بين عبدالعزيز والفتيان العامريين . عبد العزيز وعلائقه بالملوك النصارى. وفاة عبدالعزيز وقيام ولده عبد الملك . وزيره ابن رويش . موقف المأمون بن ذى النون . مشروعه للاستيلاء على بلنسية . استيلاؤه عليها واعتقاله لصهره عبد الملك . مختلف الروايات فى ذلك . مهاجمة القشتاليين لبلنسية . موقعة بطرنة . مقدم المأمون بحجة إنجاد صهره . دخوله بلنسية واستيلاؤه عليها . وفاة ابن رويش وقيام ولده أبى بكر بن عبد العزيز . استبداده بحكم بلنسية . استيلاء المؤتمن بن هود على دانية . توجس ابن عبد العزيز والتجاؤه لألفونسو السادس . محاولة المؤتمن الاستيلاء على بلنسية وفشله . التفاهم بين أبى بكر والمؤتمن . وفاة أبى بكر وقيام ولده عثمان مكانه . تطور الحوادث . سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس . وعده لصاحبها القادر باسترداد بلنسية . مسير القادر إلى بلنسية مع الجند النصارى . موقف أهل بلنسية . إعلان الجماعة خلع عثمان ومبايعة القادر . دخول القادر بلنسية واستيلاؤه عليها . استبداده واضطراب الأحوال فى عهده . مقدم المرابطين إلى الأندلس . رحيل القشتاليين عن بلنسية . أطماع المنذر بن هود فى بلنسية . مسيره إليها ومحاصرتها بمعونة الجند القطلان . موقف القادر واستغاثته بألفونسو السادس والمستعين بن هود . المستعين بن هود ومشروعه فى الاستيلاء على بلنسية .

كانت دول الطوائف التى قامت فى شرقى الأندلس ، تمتاز بغلبة العنصر الصقلبى ، وتفوقه فى سيادتها ، وفى تكييف أحداثها ، وكانت هذه العناصر الصقلبية التى ألفت فى شرقى الأندلس ، ميدانا لنشاطها وأطماعها ، هى نفس العناصر التى ظهرت بادىء ذى بدء فى ميدان الفتنة القرطبية ، وساهمت فى أحداثها

بقسط بارز ، ثم غادرت قرطبة ، حينما غلبت هنالك على أمرها ، وألفت ملاذها فى ذلك الركن النائى من الأندلس ، بعيداً عن موجة الطغيان البربرية التى اجتاحت قرطبة ، وجنوبى الأندلس .

وكانت بلنسية ، وهى أعظم القواعد الشرقية ، مركز التجاذب فى معركة السلطان التى اضطرم لظاها فى تلك المنطقة ، وكانت هذه المعركة فى البداية متواضعة محدودة المدى ، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقى الأندلس كله ، من طركونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوباً ؛ بيد أنها فيما عدا بعض اتصالات محدودة بأحداث المنطقة الغربية، حافظت على سيرها المستقل ، وطابعها الخاص .

وذلك أنه لما اضطرمت الفتنة ، وانهارت الدولة العامرية فى أوائل سنة ٣٩٩ (١٠٠٩ م) ، واستطاع محمد بن عبد الجبار المهدى أن ينتزع الخلافة لنفسه من هشام المؤيد ، كان على بلنسية — وفقاً لبعض الروايات — فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامرى ؛ فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضاً هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فغادر مجاهد بلنسية إلى دانية ، وتربع العبدان — ويسميهما ابن الخطيب بالأميرين — مكانه فى حكم المدينة . ويقدم إلينا ابن حيان رواية أخرى عن تغلب مبارك ومظفر على بلنسية، خلاصتها أنهما كانا يتوليان وكالة الساقية بالمدينة ، أيام ولاية عبد الرحمن ابن يسار عليها ، ثم ضرب الدهر ضرباته ؛ وشاء القدر أن ينتزع الإمارة مبارك . ويصف ابن حيان الحادث بأنه « من غرائب الليالى والأيام ، اللاعبة بالأنام » . ثم يقول لنا إن العبدين مبارك ومظفر توليا هما حكم بلنسية، وامتزجا فى ذلك امتزاج الإخوة وعشاق الأحبة ، ونزلا فى قصر الإمارة مختلطين « تجمعهما فى أكثر الأوقات مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر فى عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ؛ لا ينفردان إلا فى الحرم خاصة ؛ على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر ، ومستويات فى سائر الأمر » . وكان لمبارك مع ذلك التقدم فى المخاطبة ورسوم الإمارة لصرامته وشدته ، ولدماثة مظفر وانصياعه لزميله فى سائر الأمور .

وذكر فى بعض الروايات أن مظفراً ومباركاً كانا يقتسمان فيما بينهما حكم الولاية ، فكان مظفر يختص بحكم بلنسية ، ومبارك بحكم شاطبة[1] . وذكر لنا

A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 152 (١)

ابن الخطيب من جهة أخرى، أن شاطبة كان يتولى حكمها منذ انقراض الدولة العامرية ، الفتى خيرة الصقلبى ، وتوطد بها أمره ، وكان مبارك يتوق إلى إزالته عنها ، فنى ذات يوم زار خيرة بلنسية، واستضافه مبارك ودس له السم فى الطعام فهلك بعد أيام قلائل ، وتولى نائبه عبد العزيز بن أفلح حكم شاطبة مكانه تحت رعاية مبارك ، وتركه مبارك على حاله إلى أن استولى عليها مجاهد العامرى(١). وعلى أى حال ، فإنه يبدو ، أن مظفراً ومباركاً كانا وفقاً لرواية ابن حيان المتقدمة ، يحكمان معاً مدينة بلنسية بصفة فعلية .

وبلغت جباية بلنسية فى عهدهما مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون منها من بلنسية ذاتها ، وخمسون من شاطبة التابعة لعمالتها ، وكانا يشتدان فى تحصيل هذه الأموال ، حتى أرهقت الرعية وأثقل كاهلها .

على أن هذين العبدين لم يقصرا فى تحصين بلنسية وصيانتها ، فابتنيا سورها وزود بأبواب حصينة ، فارتفع طمع الطامعين عنها ، ووفد إليها الناس بأموالهم ، واستقروا بها ، وابتنوا المنازل والقصور الفخمة ، والرياض الزاهرة ، وكان مبارك ومظفر قدوة فى ذلك فأنشآ القصور الفخمة ، واقتنيا نفيس المتاع والرياش والآلات . وكان موكبهما إلى المسجد الجامع ببلنسية ، يذكر الناس بفخامته وأناقته ، وفاخر ما يرتديانه من اللباس ، بمواكب مولاهما عبد الملك المظفر ابن المنصور نفسه .

ووفد على بلنسية فى ظل مبارك ومظفر ، كثير من الموالى والصقالبة من الإفرنج والبشكنس وغيرهم ، من طائفهم وعشيرتهم ، وكثير من العبيد الآبقين من مختلف نواحى الأندلس ، وكان من هؤلاء الصقالبة ، الوافدين المشردين ، كثير من الفرسان الشجعان ، وانتسب معظمهم إلى ولاء بنى عامر ، واكتسبوا بذلك نفوذاً ، ووفد على المدينة أيضاً كثير من أرباب المهن والحرف ، وكان لذلك كله أثره فى تقدم العمران والرخاء بالمدينة(٢) .

وكان من أهم أعمال مبارك العسكرية محاربته لمنذر بن يحيى التجيبى صاحب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — اللوحة ٣ أ و ب و ٤ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٨ — ١٦١ .

سرقسطة . وذلك أن الفتى لبيباً العامرى كان يحكم طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى، فثابت لمنذر رغبة فى الاستيلاء عليها ، وهاجمها ، ففر عنها لبيب وسار إلى بلنسية واستغاث بمبارك ، فخرج معه فى خمسمائة من خيرة فرسانه ، ولقيهم منذر فغلبوا عليه وهزموه هزيمة شنيعة ؛ وعاد مبارك إلى بلنسية ظافراً ، واستفحل أمره ، ودانت له جماعة الموالى(١) .

واستمر مبارك ومظفر فى حكم بلنسية بضعة أعوام ، ثم توفى مظفر ،واستمر مبارك من بعده ، فترة يسيرة . وفى ذات يوم خرج للنزهة فحدث حين عبوره فوق قنطرة النهر ، أن عثرت به فرسه ، فسقط منها ، واصطدم ببعض أخشاب خرجت من القنطرة فشج وجهه وبطنه ومات لساعته ، وكان مصرعه فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧) م(٢) .

ومن الغريب أن مباركاً ومظفراً بالرغم من جهلهما ، وبعدهما عن ميدان التفكير والأدب ، كانا يستخدمان فى بلاطهما طائفة من كتاب العصر النابهين مثل ابن التاكرنى ، وابن مهلب ،وابن طالوت ؛ وكانا يرتبان هؤلاء الكتاب فى دولتهم على نسق مشيخة الوزراء فى قرطبة، ويرجعان إلى رأيهم ومشورتهم فى معظم الأمور ، وكانا يعملان فى حكم بلنسية مستقلين تمام الاستقلال ، لايعترفان فى ذلك برياسة قرطبة أوغيرها .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مباركاً ومظفراً كان لهما نصيب من مديح الشعر المعاصر ، وقد مدحهما شاعر العصر ، أبو عمر بن دراج القسطلى بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك ... لباغ قراك أم لباغ جوارك
ورياك أم عرف المجامر أشعلت ... بعود الكباء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق ... حداه دعائى أن يجود ديارك
وطرة صبح أم جبينك سافراً ... أعرت الصباح نوره أم أعارك(٣)

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ . ويقول لنا ابن الخطيب إن مظفراً توفى بعد مبارك وإنه على أثر مصرع مبارك ، ثار العامة ونهبوا القصر وقتلوا مظفراً (أعمال الأعلام ص ٢٢٥) .

(٣) نقل ابن الخطيب فى أعمال الأعلام أقوال ابن حيان التى نقلها صاحب البيان المغرب ، ورجعنا إليها ، وقد نشر جزءاً كبيراً من قصيدة ابن دراج القسطلى (راجع ص ٢٢٢ — ٢٢٥) . وردت القصيدة كلها بديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ص ١٠١ — ١٠٨ ، وهى من غرر قصائده .

ولما توفى مبارك ، خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما معاً ، ثم وقع الخلاف بينهما ، ففر لبيب إلى طرطوشة واستأنف رياسته بها ، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية مع حكمه لدانية فى نفس الوقت . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج عليه الفتيان العامريون ، وعقدوا البيعة لسيدهم وحفيد مولاهم ، عبد العزيز ابن عبد الرحمن المنصور ، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) .

وقد سبق أن أشرنا إلى تعلق الفتيان الصقالبة بتراث الدولة العامرية ، وولائهم لإمامة هشام المؤيد بالله ، وإلى الدور الذى قام به زعماؤهم مثل واضح وخيران ، فى تطورات الخلافة القرطبية ، وقد كانت بيعتهم لعبد العزيز المنصور أثراً من آثار هذا الولاء الراسخ لبنى عامر . وكان عبد العزيز وقت مبايعته ، فتى حدثاً فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة ٣٩٧ هـ[1] ، وكان حينما نزلت النكبة بأسرته قد حمل سراً إلى سرقسطة ، وهنالك عاش فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى ، فلما استدعاه الفتيان العامريون لبيعته لحق بشاطبة ، وهنالك تمت بيعته أميراً لبلنسية ، وزعيما لبنى عامر .

على أن هذه البيعة لم تلبث طويلا دون منازع . ذلك أن خيران العامرى ، وكبير الفتيان العامريين ، وصاحب ألمرية ومرسية وأوريولة ، لم يكن على وفاق مع عبد العزيز . والظاهر أنه خشى على سلطانه فى مرسية ، وأوريولة ، من هذه الزعامة الجديدة ، أو أنه لم يحصل على ماكان يرجوه فى ظلها من نفوذ . ومن ثم فإنه قدم للزعامة فى شرق الأندلس ، مرشحاً جديداً من بنى عامر ، هو محمد ابن عبد الملك المظفر بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان يومئذ فتى فى نحو العشرين من عمره ، وكان قد فر من قرطبة فى عهد القاسم بن حمود ، ومعه أموال جليلة كانت لأمه ، ولجأ إلى حماية خيران ، فلما وقع الخلاف بين خيران وعبد العزيز ، نادى خيران بزعامة محمد ، ونزل له عن حكم مرسية وأوريولة ، ولقبه بالمؤتمن ثم بالمعتصم . بيد أنه لم يمض طويل على ذلك حتى اضطربت الأمور فى تلك المنطقة ، فثارت شاطبة ضد عبد العزيز ، واضطر أن يغادرها إلى بلنسية ، وتنكر خيران فى الوقت نفسه لمرشحه الجديد محمد المعتصم ، وغادره

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠١ .

مغضباً إلى ألمرية ، ثم عاد فى قواته إلى مرسية ، وضيق على المعتصم حتى اضطره إلى الخروج عنها، وذلك فى ربيع الأول سنة ٤١٣ﻫ (١٠٢٢ م)، واستولى الفتيان على سائر أمواله ، ولجأ المعتصم إلى أوريولة فطارده خيران ، وألح عليه ، ففر منها ، ولحق بدانية ، والتجأ حيناً إلى أميرها مجاهد العامرى ، ثم غادرها، وسار إلى غربى الأندلس ، وهناك عاش بضعة أعوام أخرى حتى توفى فى سنة ٤٢١ ﻫ (١٠٣٠ م)(١) .

— ١ —

واستقر عبد العزيز المنصور فى حكم بلنسية دون منازع . وكانت له فى بداية حكمه علائق مودة متبادلة مع القاسم بن حمود الخليفة بقرطبة ، كذلك انضوى تحت لوائه مجاهد العامرى حيناً ، ثم اختلفا وناصبه العداء، وأخذ مجاهد يتربص الفرص لمهاجمته والإيقاع به . وعمل عبد العزيز على جمع المشردين من أهل بيته ، فآواهم ، وأولاهم صادق المحبة ، وأغدق عليهم الأرزاق الوفيرة ، حتى غدا فى ذلك أجمل قدوة لأمراء عصره ، واستخدم فى ديوانه أربعة من أشهر كتاب عصره ، كانوا يعرفون بالطبائع الأربع ، وهم ابن طالوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرنى كاتب رسائله . ولما أعلن القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ٤٢٦ﻫ (١٠٣٥ م) ظهور هشام المؤيد ودعا لخلافته ، كان عبد العزيز المنصور فى مقدمة الأمراء الذين بايعوه ، واعترفوا بخلافته(٢) .

وكانت تطورات الحوادث فى مملكة ألمرية ، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية . ونحن نعرف أن مملكة ألمرية ، كانت وقت أن ظفر عبد العزيز برياسة بلنسية ، تحت حكم الفتى خيران العامرى ، وهو فى نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة ، فلما توفى خيران فى سنة ٤١٩ ﻫ ، خلفه فى رياسة مملكة ألمرية ، نائبه وزميله الفتى زهير العامرى ، وقد كان مثل خيران من أكابر الفتيان العامريين ، وأكثرهم إقداماً وعزماً . ونحن نعرف كيف

---

(١) راجع فى هذه الحوادث : ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p.97&98

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٤٩ ب ، وأعمال الأعلام ص ١٩٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ و ١٦٥ .

حدثت زهير نفسه بالسير إلى غرناطة لافتتاحها ، وكيف لقى مصرعه فى المعركة التى نشبت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وذلك فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) . وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور ، الفرصة السانحة لتوسيع مملكته ، وكتب إليه أهل ألمرية يدعونه لرياستهم ، وبعث وزيره وصهره زوج أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقواده وفى مقدمتهم كاتبه أحمد بن عباس، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوأته فى حكم ألمرية . فكان له ما أراد ، وخلصت له ألمرية أولا لمبايعة أهلها له، وثانيا لأنها باعتبارها من أملاك الفتيان العامريين موالى أبيه وجده ، تعتبر له ميراثاً شرعياً . وهكذا استولى عبد العزيز على ألمرية وأعمالها ، ماعدا ولاية جيان التى انتزعها باديس لنفسه عقب مصرع زهير .

وغدت مملكة بلنسية بإضافة ألمرية إليها من أعظم ممالك الطوائف .وهنا شعر مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، بخطر هذه المملكة القوية الجديدة على سلطانه ، فنهض لمهاجمتها ومحاربتها ، وزحف عليها بقواته ،واجتاح رقعتها الوسطى من شاطبة إلى لورقة ، وثارت حصون شاطبة ولورقة وشوذر على عبد العزيز . وكان عبد العزيز عندئذ فى ألمرية ينظم شئونها مع وزيره معن ابن صمادح ، فبادر بمغادرة ألمرية للدفاع عن أرضه ، وندب وزيره معناً ليسهر على شئون ألمرية ، فكان أن خان ابن صمادح عهد أميره ، وانتزع لنفسه رياسة ألمرية حسبما فصلناه فى أخباره .

وخرج عبد العزيز من ألمرية فى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) لملاقاة خصومه ، وزحف توا على شاطبة ،فخرج إليه العبيد العامريون،وهزموه فى أول موقعة نشبت بينهما ، ولكنه جمع فلوله وعاد فكرّ عليهم ، وظفر بهم، وقتل منهم جملة كبيرة ، ودخل شاطبة[1] . وكانت مدينة مرسية تابعة حسبما تقدم لمملكة بلنسية، وكان عليها من قبل زهير ،نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر ،وكان حسبما تقدم رجلا وافر العلم والوجاهة والسراوة ، فضبط المدينة وحكمها بحزم وبراعة ، دون أن يتخذ ألقاباً أويبدو فى ثوب الإمارة ، فأقره عبد العزيز على ولايته .

وكان عبد العزيز على علائق طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية ، ولاسيما

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. V. III. p. 30

فرناندو الأول ملك قشتالة ، وقد استعانَ عبد العزيز فى محاربة خصمه مجاهد العامرى ببعض سريات من المرتزقة النصارى . ولم تصب أراضى بلنسية فى عهده بشىء من الغزوات المخربة ، التى كانت تجتاح ولايات الأندلس الغربية والوسطى . وربما كان ذلك راجعا من بعض النواحى إلى أرومته وقرابته عن طريق جدته ، إلى الملوك النصارى(١)

واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً . ثم توفى فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (يناير ١٠٦١ م) .

فخلفه ولده عبد الملك بإجماع أهل الدولة ، وبويع فى بلنسية وشاطبة ، واستقر فى بلنسية ، ولقب بنظام الدولة ، وبالمظفر . وكان حدثاً يافعاً ، فتولى تدبير الدولة ، وزير أبيه أبو عبد الله محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى المشهور بابن رويش ، وكان رجلا وافر العلم والحنكة ، فأحسن تدبير الأمور ، واستقر على يديه النظام والأمن ، بالرغم مما كانت تعانيه بلنسية من نقص فى المواد والرجال ، وفساد فى الأعمال . وكان يولى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة القوى مكانة خاصة ، إذ كان صهر عبد الملك وحماه ، وكان يبدى نحوه عطفاً واهتماماً بمعاونته والدفاع عنه ، وكان عقب وفاة عبد العزيز ، قد سار فى بعض قواته إلى قلعة قونقة القريبة من بلنسية ، ليكون قريباً من صهره ، ثم أوفد إلى بلنسية أحد قواده فى جماعه قوية من الجند ، وكاتبه ابن مثنى ، ليكونوا إلى جانب عبد الملك ، بحجة معاونته وشد أزره ، والمحافظة على السكينة والنظام(٢) .

بيد أن المأمون كان يضمر نحو صهره ونحو بلنسية نيات أخرى ، وكان يُسر له بالأخص أنه يسىء معاملة ابنته ، ويبالغ فى إهانتها وإيلامها . وكان عبد الملك حسبما يخبرنا ابن حيان « منهمكاً فى الشراب ، غارباً عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ونقص المروءة ، وكثرة الاستمهال ، والانحطاط فى مهاوى اللذات »(٣) ثم كان يُسر له أيضاً أنه يأوى فى بلنسية بعض خصومه من السياسيين الفارين من طليطلة ، وأخيراً فقد طلب المأمون إلى صهره أن يعاونه بجنده فى حملته ضد ابن عباد ، فأبى عليه ذلك وفقاً لنصح وزيره ، واعتذر بأنه يخشى عدوان أمير

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٤٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ .

دانية ومن يحالفه من الفتيان أصحاب المدن القريبة . كل ذلك حمل المأمون على أن يضع مشروعه للاستيلاء على بلنسية .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكة طليطلة ، خلاصة الروايتين المتعلقتين باستيلاء المأمون على بلنسية ، وأولاهما أن المأمون سار إلى بلنسية فى بعض قواته بحجة زيارة صهره ، وأنه خلال إقامته بالقصر ، دبر كميناً لصهره ، وقبض عليه ، وأرسله إلى شنتبرية ، وسيطر بذلك على بلنسية . والثانية أنه زحف على بلنسية بمعاونة الجند القشتاليين ، ودهم المدينة وهى فى غفلة ، فاقتحمها ، وأسر صهره عبد الملك وآله ، وهم بقتله لولا أن شفعت فيه زوجه ابنة المأمون ، فبعث به إلى إحدى قلاعه فى قونقة ، أو إقليش ، واعتقله هناك(١) .

ونود أن نعرض الوقائع مفصلة وعلى ضوء الروايات القشتالية التى تقدمها إلينا بصورة أخرى .

ذلك أن فرناندو الأول ملك قشتالة خرج بقواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، (٤٥٧ هـ) متجهاً صوب أراضى مملكة سرقسطة لمعاقبة أميرها المقتدر بن هود ، لتخلفه عن دفع الجزية التى كان متعهداً بأدائها ، ولأنه من جهة أخرى قد وقع الاعتداء على النصارى فى سرقسطة وغيرها من بلاد مملكته ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وعاث فرناندو فى أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وخربها بشدة وأحرق المزارع والقرى ، واجتاح على هذا النحو سائر الرقاع والوديان الواقعة خارج الحصون والقلاع المسورة ، وأشرف فى غزوته المخربة على ظاهر بلنسية فى الربيع ، وضرب القشتاليون الحصار حول المدينة ، وروع البلنسيون ، وروع ملكهم الضعيف عبد الملك داخل الأسوار ، وتأهبوا للدفاع عن مدينتهم . ولما رأى القشتاليون مناعة الأسوار ، وأهبة أهل المدينة لجأوا إلى الحيلة ، فتركوا الحصار ، وتظاهروا بالارتداد نحو الشمال إلى بلدة تسمى «بطرنة» ، واعتقد أهل بلنسية أن القشتاليين قد ارتدوا عن مدينتهم خائبين ، فخرجوا وعلى رأسهم أميرهم عبد الملك ، لمطاردة الفارين فى ثياب فخمة وكأنهم فى عيد ، وعندئذ فاجأهم القشتاليون وهاجموهم بشدة ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، فارتدوا إلى مدينتهم والقتل يعمل فيهم ، واستطاع عبد الملك أن ينجو بحياته ، وعاد القشتاليون إلى محاصرة المدينة .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٦ و ٢٦٧ و ٣٠٣ .

وفى تلك الأثناء كان المأمون بن ذى النون قد هرع بقواته لإنجاد صهره والدفاع عن المدينة المحصورة ، وذلك بالرغم من أنه كان مقراً بسيادة فرناندو ، ويؤدى له الجزية ، وكان فرناندو قد شعر وهو تحت أسوار المدينة بالمرض يدهمه ، فآثر الارتداد بقواته إلى ليون ، وهناك توفى بعد قليل فى ديسمبر سنة ١٠٦٥ م .

وهنا رأى المأمون بن ذى النون أن يحقق مشروعه القديم فى الاستيلاء على بلنسية . وكان يدفعه إلى ذلك أسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها ، فدخلها فاتحاً لا منقذاً ، وعزل صهره عبد الملك ، ثم قبض عليه وعلى ولده ، ونفاهما إلى قلعة إقليش أو قونقة . وفى رواية أنه أشفق عليه ، وعينه والياً لقصبة شلبة الواقعة شمال غربى بلنسية ، وضمت بلنسية وأعمالها بذلك إلى مملكة طليطلة ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (نوفمبر سنة ١٠٦٥ م)(١) .

وعهد المأمون بتدبير شئون بلنسية إلى أبى بكر محمد بن عبدالعزيز (ابن رويش) وكان ابن عبد العزيز قد توفى قبل هذه الحوادث بقليل فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ . ويقول لنا عنه معاصره المؤرخ ابن حيان « إنه كان على خمول أهله فى الجماعة من أرجح كبار الكتاب الطالعين فى رمس هذه الفتنة المدلهمة، وذوى السداد من وزراء ملوكنا ، ذا حنكة ومعرفة وارتياض وتجربة وهدى وقوام سيرة ، إلى ثرى وصيانة » . وفى بعض الروايات أن هذا الوزير النابه توفى منتحراً لما توقعه من سوء العواقب . فخلفه فى الوزارة ولده أبو بكر بن عبد العزيز ، ولم يمكث فى منصبه طويلا حتى سقطت بلنسية فى يد المأمون ، ويقال إنه غدر بأميره عبد الملك ، وعاون المأمون فى أخذها ، فكافأه المأمون عن خيانته بأن عينه نائباً عنه فى حكم المدينة . وكان أبو بكر مثل أبيه عالماً حازماً ؛ فضبط بلنسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة ، واتبع الرفق والعدل ، وأجزل العطاء للعمال والجند . وشغل عنه المأمون بمغامراته فى سبيل فتح قرطبة ، وانتزاعها من يد بنى عباد المتغلبين عليها. واستمر فى محاولاته حتى انتهى أخيراً إلى تحقيق مشروعه فى الاستيلاء على عاصمة

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid, 1861) V. II. p. 390
و A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 178—180
و R. M. Pidal : La Espana del Cid V. I. p. 151
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 41

الخلافة القديمة ، ودخلها ظافراً وذلك فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . بيد أنه لم يلبث أن مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل فى أواخر ذى القعدة من نفس هذا العام . وانتهز أبو بكر بن عبد العزيز هذه الفرصة ، فأعلن استقلاله بحكم بلنسية ، وأصلح أسوارها ، ودانت له المدينة بالطاعة ، واستمر فى حكمها دون منازع .

ولما غزا المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مدينة دانية ، واستولى عليها من صاحبها على إقبال الدولة بن مجاهد العامرى فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) ، توجس أبو بكر من سطوته وطمعه فى بلنسية ، فخاطب ألفونسو السادس وانضوى تحت حمايته ، وتعهد له بأداء الجزية . وكان المؤتمن ولد المقتدر يتطلع بالفعل إلى امتلاك بلنسية ، يدفعه إلى ذلك صحبه ومستشاروه ، وذلك لأهمية موقعها ووفور غلاتها ، فخاطب بدوره ملك قشتالة ، ودفع إليه مائة ألف دينار ليعاونه على فتحها ، وزحف فرناندو بالفعل على بلنسية ، فخرج إليه أبو بكر بنفسه ، وخاطبه برقة ولباقة ، وأقنعه بعقم محاولته ، فانصرف عنه ، ووعده بحمايته وفشلت محاولة المؤتمن . وكان ملك قشتالة يقدر أبا بكر ويعجب بخلاله ، وكان يقول فى مختلف المناسبات ، رجال الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششنانده[١] .

وعندئذ رأى أبوبكر أن يلتمس حماية المؤتمن نفسه ، ففاوضه ، وقدم إليه ابنته عروساً لابنه أحمد المستعين . فوافقه المؤتمن ، ورأى من جانبه أن هذه المصاهرة قد تكون سبيلا لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية فى مملكة قوية موحدة . واحتفل بعقد هذا الزواج بسرقسطة فى حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء (رمضان ٤٧٧ هـ — فبراير ١٠٨٥ م) . ولم يعش أبوبكر طويلا بعد ذلك ، إذ توفى فى السابع من صفر سنة ٤٧٨ هـ (يونيه ١٠٨٥ م) بعد أن حكم عشرة أعوام[٢] .

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩ أ و ب

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ . وقد وهم ابن عذارى فى حقيقة شخصية أبى بكر بن عبد العزيز ، فذكر أنه أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر ، ونسبه بذلك إلى بنى عامر ، وهو خطأ واضح . وراجع فى هذه الحوادث : R.M.Pidal; ibid; V.I.p.310 وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas p.57 و A.P. Ibars : Valencia Arabe; p. 187 & 188

— ٣ —

فخلفه فى حكم بلنسية وأعمالها ولده أبو عمرو عثمان بن أبى بكر. وبويع فى التاسع من صفر ، لأيام قلائل فقط من سقوط مدينة طليطلة ، فى يد القشتاليين فى فاتحة صفر ٤٧٨ هـ . وكان هذا الحادث الجلل الذى هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها نذير تطورات خطيرة فى شرقى الأندلس ، وفى مصاير مملكة بلنسية بوجه خاص .

وقد كان ألفونسو السادس ، حينما استولى على طليطلة من يد صاحبها القادر ابن ذى النون ، حفيد المأمون ، قد تعهد له أو وعده ، ضمن عهوده لقاء الاستيلاء على المدينة ، أن يمكنه من استرداد بلنسية التى خرجت عن طاعته ، بل قيل إنه وعده بمعاونته ، على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعلم أنه بتمكين القادر من الاستيلاء على هذه المدن ، فإنها تغدو فى الواقع تحت حمايته ، ويغدو شرقى الأندلس كله ، واقعاً تحت سيادته ، عن طريق القادر. وخرج القادر فى آله وصحبه ومتاعه قاصداً إلى بلنسية ، وصدته خلال الطريق سائر القلاع القديمة ، التى كانت تحت حكمه وأغلقت أبوابها دونه ، ماعدا قلعة قونقة (كونكة) ، فقد لبثت على طاعته ، ورحب به صاحبها ابن الفرج ، وأكرم منزله . ورأى القادر أولا أن يسبر غور الأحوال فى بلنسية ، فبعث إليها ابن الفرج ليداخل صاحبها عثمان ابن عبد العزيز ، وحاول ابن الفرج أن يروج لقضية سيده ، وهو حاكم المدينة الشرعى ، فكثر الجدل وافترق الرأى ، ورأى فريق من الشعب أن تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين بن هود ، وانحاز فريق آخر إلى القادر ، وسرت الفوضى إلى المدينة . وفى خلال ذلك عاد ابن الفرج إلى قونقة ، ودعا القادر إلى السير إلى بلنسية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، فسار القادر إلى المدينة ومعه سرية قوية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس ، تحت إمرة قائده ألبار هانيس الذى تسميه الرواية الإسلامية ألبرهانس . ولما وصل القادر فى ركبه إلى المدينة ، بعث إلى أهلها رسوله برسالة ، يتودد فيها إليهم ، ويقدم إليهم أطيب الوعود ، فاجتمع أهل المدينة ، وتشاوروا فى الأمر . ورأى « الجماعة » قبول مطالب القادر ، باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل ، واستبعاد مطالب ابن هود ، وإن كان ابن هود لم ينقطع عن المجاهرة بها ، والترويج لها ، وخشية من أن تتعرض المدينة لهجوم القشتاليين ، أعلنت « الجماعة » خلع عثمان بن

عبد العزيز ، وكان قد قضى فى منصبه تسعة أشهر فقط ، وبعثت إلى القادر توافق على مقدمه وتسلمه للمدينة . فسار القادر فى موكبه إلى بلنسية ، ودخلها فى مظاهر حافلة ، وتسلم القصر من القاضى ابن لبون ، ونزل فرسانه فى بيوت المدينة ، ونزل ألبارهانيس وجنده القشتاليون فى ضاحية الرُّصافة على مقربة منها ، وكان ذلك فى شوال سنة ٤٧٨ ﻫ (فبراير ١٠٨٦ م)(١) .

وهكذا استولى يحيى القادر على بلنسية ، وقامت دولة بنى ذى النون ، مرة أخرى فى شرق الأندلس ، بعد أن درست فى طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع — القادر — فى مثل الظروف التى كانت عليها فى أواخر أيامها بطليطلة ، دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها لملك قشتالة ، ولحراب الجند النصارى . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف إذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وتولى القاضى ابن لبون حجابته ، وغدا يده اليمنى ، وتقرب إليه الأعيان والقضاة بالأموال والهدايا . وثقلت وطأة القشتاليين على المدينة فى نفس الوقت ، وأرهقوها بمؤنهم ومغارمهم ، وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس ، وعاث النصارى فى المدينة وضواحيها ، فاشتد السخط على القادر ، وعلى شيعته القشتاليين ، واضطرب حبل النظام والأمن . ومع ذلك فقد مضى القادر فى عسفه وطغيانه ، فمال على الأعيان والأكابر ، يطاردهم بطلب المال سداداً لمطالب القشتاليين ، وقبض على بعضهم من أجل ذلك ، واعتقل ولدي ابن عبد العزيز وغيرهم ، وحشد حوله كثيراً من أوباش الجند المرتزقة يعيثون فى المدينة ، ويعتدون على الأموال والأنفس ، وغدت السيادة الحقيقية على المدينة لألبارهانيس وجنده ، وغادر كثير من الأعيان والأكابر ، بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق(٢) .

وفى خلال ذلك كانت تجرى فى جنوب الجزيرة حوادث هامة ، فقد عبر المرابطون بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ٤٧٩ ﻫ (أغسطس ١٠٨٦ م) غياثاً لأمرائها ، وللإسلام ، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية ، لرد هذا السيل المنهمر ، وغادر ألبارهانيس وجنده بلنسية

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٨ ب . وراجع R.M. Pidal : ibid; V.I p. 306 & 310 - 312 وكذلك: P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 57

(٢) R. M. Pidal : ibid; V. I. p. 313-316

ليخوضوا المعركة إلى جانبه ، وكان أن كتب النصر الباهر لجيوش الإسلام على جيوش النصرانية فى موقعه الزلاّقة وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م).

وتنفس أهل بلنسية الصعداء لرحيل القشتاليين ، وانتعشت نفوسهم لانتصار المسلمين ، وتحطيم قوى ملك قشتالة ، وبادر القادر من جانبه ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، يلتمس صداقته ومحالفته ، أسوة بباقى أمراء الأندلس . بيد أن هذه المحالفة النظرية ، لم تفده بشىء لأن أمير المسلمين ، كان ما يزال فى شغل شاغل عن الالتفات إلى شئون شرقى الأندلس .

سرى الاضطراب إلى بلنسية ، وبدأ حكام الحصون المختلفة ، فى التحرك والعصيان ، وشعر القادر أنه عاجز عن أن يملك زمام الموقف ، وأن الأمور سوف تنتهى به إلى أسوأ العواقب ، إذا تركت بلنسية إلى مصيرها ، وقد كانت بلنسية فى الواقع فى هذه المحاولة التى افتقدت فيها كل زعامة قوية ، وكل إدارة حازمة ، تضطرم حولها الأطماع من كل صوب .

ذلك أن المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، كان يرقب فرص الاستيلاء على بلنسية ، وخصوصاً منذ استطاع أبوه أن يتغلب على مملكة دانية ، وأن يضمها إلى أراضيه وذلك فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وبذلك امتدت مملكته من لاردة شمالا حتى دانية وأعمالها جنوبا ، وكانت بلنسية بذلك تشطر مملكته إلى شطرين ، وتحول دون وحدة أراضيها . فلما رأى المنذر اضطراب الأحوال فى بلنسية ، شعر أن الفرصة المنشودة قد سنحت ، فسار فى قواته صوب بلنسية ، ومعه سرية من المرتزقة القطلان ، وضرب الحصار حول المدينة (١٠٨٨ م) ، وكان يؤازره فى داخلها كثير من الأنصار ، كانوا يؤيدون قضيته ، ويودون أن تسلم إليه .

وهنا استولى الاضطراب والذعر على القادر ، وفكر بالفعل فى تسليم المدينة ، لولا أن نصحه ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، وكان قد لجأ إلى بلنسية مذ غلب عليه ابن عمار وزير المعتمد ، بالتريث وشجعه على الصمود والدفاع . وبعث القادر فى نفس الوقت إلى ألفونسو ملك قشتالة يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وخصيم المنذر : وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية ، ويشعر دائما بالأسف والألم لفشل محاولة

أبيه المؤتمن فى هذا السبيل ، وضياع الأموال الطائلة التى دفعها من أجل ذلك لملك قشتالة ، وكان له بسبب مصاهرته لأبى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية السابق ، داخل المدينة حزب يناصره ، ويود أن تنضم بلنسية إلى مملكة سرقسطة ، فلما تلقى صريخ القادر ، بادر بالإستجابة ، وهرع إلى بلنسية فى بعض قواته ، فتظاهر بالسير إلى إنجادها ، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها[1] .

---

(١) R. M ' Pidal : ibid ; V. I. p. 351

الفصل الثانى

مملكة بلنسيـــة

٢ — السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية

السيد إلكمبيادور . أصله ونشأته . بدء حياته الحربية . وسول ألفونسو السادس إلى ابن عباد . تغير ألفونسو عليه وإبعاده عن قشتالة . ملوك الطوائف واستعانتهم بالجند النصارى. مسير السيد إلى شمال شرق الأندلس . التحاقه بخدمة المقتدر بن هود . وفاة المقتدر . الحرب الأهلية بين ولديه المؤتمن والمنذر . إنضمام السيد إلى المؤتمن ونفوذه لديه . وفاة المؤتمن وقيام ولده المستعين . التحاق السيد بخدمته . حملة ابن بسام على بنى هود . مسير المستعين والسيد إلى بلنسية . يعقدان ميثاقا بشأنها . مقدمهما فى قواتهما إلى بلنسية . انسحاب المنذر بن هود عنها . موقف القادر بن ذى النون ومساعيه السرية . المستعين يكشف للسيد عن حقيقة مشروعه . موقف السيد ومطله . السيد يبدو على حقيقته . مخادعاته ومفاوضاته السرية. مسيره إلى قشتالة وتفاهمه مع ألفونسو. وقوف المستعين على غدر السيد ومقاطعته. تحالفه مع الكونت برنجير . عود السيد ونزوله بأراضى السهلة . يخضع ابن رزين لأداء الجزية . السيد يغدو قائد عصابة ناهبة . السيد والكونت برنجير . مسير السيد إلى بلنسية . إخضاعه لمربيطر ونزوله فى الكدية . القادر يضع نفسه تحت حمايته ويمده بالأموال الوفيرة . قصة أموال القادر . خروج السيد إلى ألبونت وإرغامه صاحبها على أداء الجزية . فرضه الجزية على سائر النواحى المجاورة . صدى أعمال السيد فى قشتالة . تغير ألفونسو عليه . تطور الأمور فى الثغر الأعلى . توجس المستعين ابن هود من المرابطين . عوده إلى الاستمانة بالسيد . مقدم السيد إلى سرقسطة وتحالفه مع الملوك المجاورين . تعليق ابن بسام . شروع ألفونسو السادس لغزو بلنسية وتحطيم نفوذ السيد . تحالفه مع جنوه وبيزه . مسيره إلى بلنسية . رسالة السيد إلى ألفونسو . حرج موقف ألفونسو وتركه لحصار بلنسية . عيث السيد فى أراضى قشتالة . عود ألفونسو إلى مصانعته والعفو عنه . الاضطراب فى بلنسية . القاضى ابن جحاف يتزعم الثورة ضد القادر والسيد . مفاوضته للمرابطين . دخول قوة مرابطية بلنسية . ابن جحاف يقتحم القصر بجموعة . مقتل القادر واستيلاء ابن جحاف على ذخائره . اختيار ابن جحاف لحكم المدينة . استعداده للطوارىء . مسير السيد إلى بلنسية ومحاصرتها . المفاوضة بين ابن جحاف والسيد . شروط الإتفاق بينهما . نكث السيد وغدره . مطالبه المرهقة لا بن جحاف والخلاف بينهما . ابن جحاف يغلق المدينة . استغاثته بالمرابطين وغيرهم . اشتداد السيد فى محاصرة المدينة وعيثه فى أحوازها . عصف الحصار بأهل بلنسية . المفاوضة بين أهل بلنسية والسيد . شروط الهدنة والتسليم . انتهاء الهدنة وتوقيع عهد التسليم . دخول السيد بلنسية . وعوده الخلابة . تسلمه أموال القادر من ابن جحاف . مطالبته له بباقيها واستحلافه عليها . حلف ابن جحاف بالنفى . اكتشاف السيد لمخبأ الأموال والحلى . قبضه على ابن جحاف وإحراقه . أقوال ابن بسام . إحراق بعض أعلام بلنسية . طغيان السيد وعسفه . شعر فى محنة بلنسية . صدى سقوط بلنسية فى الأندلس والمغرب . اعتزام

أمير المسلمين العمل لاستردادها . إرساله حملة آلى الأندلس . مسير المرابطين إلى بلنسية . الذعر بين النصارى فى بلنسية . حصار المرابطين لها . مفاجأة السيد للمحاصرين . استغاثة السيد بملك أراجون وألفونسو السادس . المعارك بين السيد وبين المرابطين . غزو المرابطين لأراضى طليطلة وقونقة . مرض السيد ووفاته . زوجه خمينا تتولى الدفاع عن المدينة . استغاثتها بألفونسو . قدوم ألفونسو فى قواته إلى بلنسية . اجتماع القوات المرابطية بقيادة المزدلى . توجس ألفونسو واعتزامه الانسحاب . مغادرة خمينا للمدينة ومعها أموال القادر . انسحاب ألفونسو وجنده . إحراقه للمدينة . دخول المرابطين بلنسية وانتهاء مغامرات النصارى . السيد وشخصيته . اختلاف الآراء فى تصويره وتقديره . مبالغة الرواية القشتالية فى تصوير بطولته . الأساطير القشتالية حولها . السيد فى الشعر وفى الأغانى . حقيقة السيد . السيد جندى قدير . أوصاف ابن بسام للسيد. السيد مغامر لا ذمام له ولا مبدأ . نزعته المكيافيلية . السيد ليس بطلا قومياً . السيد والتفكير الغربى . رأى دوزى ورينان . رأى مننديث بيدال . السيد فى الرواية العربية . تاريخ بلنسية لابن علقمة .

لم يسر المستعين بن هود وحده إلى إنجاد بلنسية ، بل كان معه جيش آخر ، يسير أيضاً لإنجاد بلنسية فى الظاهر ، وكان على رأس هذا الجيش صديق المستعين وحليفه . وصديق أبيه المؤتمن ، وجده المقتدر من قبل ، الفارس القشتالى الأشهر ، السيد إلكمبيادور.

إن قصة السيد الكمبيادور ، تملأ فراغاً كبيراً فى الروايات والتواريخ القشتالية ، ونجد كذلك صداها فى التواريخ العربية . وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص بمغامراته فى بلنسية ، وافتتاحه إياها ، وسيطرته عليها بضعة أعوام ، ثم وفاته ، مدافعاً عنها ضد المرابطين . فهذه الأحداث هى ألمع صفحة فى تاريخ السيد ، وهى التى اتخذت منها التواريخ القشتالية عناصر بطولته ، بل هى التى رفعته فى نظر التواريخ والأساطير القشتالية إلى مرتبة بطل اسبانيا القومى ، ومن ثم فإنه يجدر بنا قبل أن نمضى فى تسطير هذه الأحداث ، أن نقول كلمة موجزة فى نشأة السيد وحياته الأولى .

إن السيد ، هو فارس قشتالى ، واسمه الأصلى رودريجو أو روى دياث دى بيبار ، أما تلقبه « بالسيد » El Cid فهو تحريف لكلمة « السيد » العربية ، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ، ويحارب معهم ، وأما وصفه بالكمبيادور ، El Campeador ، فمعناها المحارب الباسل ، وقد أطلقت عليه لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال[١] . وقد ولد « السيد » فى مدينة

---

(١) ويعرف السيد الكمبيادور فى الرواية العربية «بالقنبيطور» (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧) ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور ، وهو أدق تعبير للاسم القشتالى ، « رودريجو إلكمبيادور » =

برغش على ما يرجح فى سنة ١٠٤٣ م ، وكان أبوه لايان كالفو قاضى قشتالة فى عهد الملك فرويلا الثانى . ولايعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى ، بل كل ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره فى ميدان الحوادث ، عقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون فى أواخر سنة ١٠٦٥ م ، ونشوب الخلاف بين أولاده، فقد انضم «السيد» يومئذ إلى ولده سانشو (شانجه) وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، لمحاربة راميرو ملك أرجوان ، وقد هزم فى جرادوس سنة ١٠٦٨م . ثم كان إلى جانب أخيه سانشو سنة ١٠٧١م ، حينما نشبت الحرب ، بينه وبين أخيه ألفونسو ملك ليون، وقد هزم سانشو فى البداية، ولكنه عاد وجمع فلوله تحت جنح الظلام ، ودهم أخاه بإرشاد «السيد» وهزمه وأسره .

ولبث «السيد» يحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة ، حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سمورة فى العام التالى (١٠٧٢م) . فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو. الذى تولى عرش قشتالة أيضاً بعد مصرع أخيه . ولما اشتد بأس ألفونسو على ملوك الطوائف ، وأخذ يرهقهم بمطالبه فى الجزية ، كان رسوله إلى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ١٠٧٩ م هو «السيد» نفسه ، وقد اشترك «السيد» يومئذ مع قوات ابن عباد ، فى معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله صاحب غرناطة ، وقد كان يغير على أراضيه مع سرية من الفرسان النصارى ، فهزم عبد الله ، وسر المعتمد لذلك ، وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة[1] .

وقضى السيد فى بلاط ملك قشتالة ، عامين آخرين . ولكن الظاهر أن الدسائس كانت تعمل ضده حتى قيل إنه احتجز لنفسه الهدايا والتحف ، التى تلقاها من المعتمد برسم مليكه . هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط وقوفه ضده إلى جانب أخيه سانشو ، وانتصاره عليه ، وقد كان يشعر من ذلك الحين

= (الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ١٩ أ) . وكذا يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة السيراء ، دوزى ص ١٨٩ ، والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٠٣ . ويقول لنا ابن عذارى إن كلمة «القنبيطور» معناها «صاحب الفحص» ج ٣ ص ٣٠٥ .

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 256 & 261

بعاطفة من الحسد إزاء هذا الفارس المظفر ، لازمته طول حياته[1] ، ومن ثم فقد انتهى إلى إبعاد « السيد » عن بلاطه ، وعن سائر أراضيه ، وذلك فى سنة ١٠٨١م .

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً فى حياة السيد إلكمبيادور ، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويخرج على كل اعتبار دينى أو قومى ، فيؤجر نفسه وصحبه ، تارة للأمراء المسلمين وتارة للأمراء النصارى ، ويندس إلى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك ، ويطالب الغنم والسلطان ، حيثما استطاع ، وبأى الوسائل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة ، يومئذ مما يفسح المجال لأطماع ، جندى مغامر كالسيد . فهناك الحروب الأهلية المستمرة ، وهناك الرغبة المستمرة فى الاستعانة بالجند النصارى ، وإغداق الأموال عليهم ، وقد رأينا فى أخبار دول الطوائف ، وأخبار ملوكهم ، ما يؤيد هذه الحقيقة المؤلمة كل التأييد . وكانت هذه الحروب الإنتحارية تجرى يومئذ فى سائر أنحاء الأندلس ، وكانت فى الوقت الذى خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص فى الإمارات الشمالية ، التى استقر فيها بنوهود ، فيما بين سرقسطة ، وثغور الشاطىء ، وفيما بينها وبين بلنسية . فإلى هذا الميدان المضطرم ، هبط السيد وجنوده المرتزقة ، والتحق أولا بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة ، وكان المقتدر قد استعان على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة ، بجنود من البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره ، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعد قليل سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه ، فخص ولده المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة. ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستعان المنذر بسانشو رامبرز ملك أراجون وكونت برشلونة ، وحارب السيد إلى جانب المؤتمن ، ولد حاميه والمحسن إليه ، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر ، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء ، وبالغ المؤتمن فى إكرامه وإثابته . وكان المؤتمن يعتز بصداقة السيد ومحالفته ، ويعلى من شأنه ويأخذ بنصحه فى معظم الأمور ، ولايرى فى ذلك غضاضة وانحرافاً ، وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد أشد البغض ، ويستعين فى محاربته بالأمراء القطلان أصحاب برشلونة . ولما توفى

---

(١) R. M. Pidal : Ibid; p. 261, 580 & 590

المؤتمن فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، خلفه فى سرقسطة وأعمالها ولده المستعين ، والتحق السيد بخدمته أيضاً ، واستمر على نفوذه ومكانته فى المملكة . ويحمل ابن بسام على حماية بنى هود للسيد ، واستخدامهم إياه ، وإعلائهم لشأنه فى قوله : « وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه (أعنى السيد) من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها ودانيها شره »[١] .

ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السيد فى خدمة المستعين فى بضعة الأعوام التالية . بيد أننا نرى السيد والمستعين فى سنة ١٠٨٨م ، كلاهما يسير فى قواته صوب بلنسية . وهناك رواية خلاصتها أن المستعين والسيد ، حينما ورد صريخ القادر ، عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية وافتتاحها ، نص فيه على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب السيد ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين[٢] . وهناك رواية أخرى ، هى أن المستعين دعا السيد إلى مرافقته فى جيشه لإغاثة بلنسية ، دون أن يفضى اليه بنيته فى الاستيلاء على المدينة ، وقدم إليه أموالا جليلة لكى يحشد بها القوات اللازمة ، وكان السيد فى هذا الوقت بالذات يدعو الجند إلى رايته ، للمحاربة مع المسلمين ، وقد اجتمع له منهم ، حسبما يخبرنا ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية عدد كبير ، وكانت قوة المستعين لاتعدو أربعمائة فارس ، أما جيش السيد فكان يضم ثلاثة آلاف فارس ، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر .

وهكذا أشرف المستعين والسيد فى قواتهما على بلنسية ، إجابة لصريخ مليكها وإنجاداً له فى الظاهر ، وكلاهما يضطرم فى الواقع بنيات ومشاريع أخرى . وكان المنذر صاحب لاردة وطرطوشة ، ما يزال مرابطاً بقواته حول المدينة ، فلما علم بمقدم السيد ، وابن أخيه المستعين ، أدرك أنه لاطائل من الانتظار وعول على الانسحاب[٣] ، وبعث إلى القادر يعرض عليه صداقته ومحالفته ، « استعداده

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب .

(٢) وردت هذه الرواية فى كتاب «الاستكفاء» لابن الكردبوس . ونقله دوزى فى : Recherches ; V. II App. II.

(٣) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر .

لمعاونته ضد ملك سرقسطة ، فأجابه القادر إلى عقد الحلف المنشود ، ولكنه لما رأى المنذر بعد ذلك يبتعد بقواته عن بلنسية فى طريق العودة إلى بلاده ، أدرك أنه لا مفر من الالتجاء إلى القشتاليين ، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون إنجاده وإنقاذه .

ودارت عندئذ سلسلة من المفاوضات والمواثيق السرية ، بين أولئك الزعماء المخادعين المخاتلين ، فبعث القادر إلى السيد خفية عندما اقترب من بلنسية ، يرجوه عقد المودة والتحالف بينهما سراً ، ودون علم المستعين ، وبعث إليه فى الوقت نفسه طائفة من الأموال والتحف الجليلة . ولما وصل السيد والمستعين إلى بلنسية ، أفضى إليه المستعين بحقيقة نياته ، وأنه إنما قدم إلى بلنسية لا لإنجادها ولكن لافتتاحها ، وطلب إليه النصح والعون ، ولكن السيد ماطل فى مهاجمة المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو ، وأن المدينة فى الواقع هى من أملاك ألفونسو وقد أعطاها للقادر ، فأية محاولة لافتتاحها تعتبر اعتداء على حقوق الملك ألفونسو نفسه ، وأنه لابد قبل إجراء مثل هذه المحاولة ، أن يأذن الملك ألفونسو نفسه بذلك ، وأخيراً أنه لايستطيع أن يقوم بعمل ضد مليكه وسيده الطبيعى ، أعنى ملك قشتالة .

وهنا يبدو السيد على حقيقته ، ويكشف عن خلاله الأصيلة ، خلال مغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معا ، وينتهز الفرصة بأى ثمن ، فهو ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد ، وهو يعد القادر والمستعين كل بمعزل عن الآخر أنه سوف يعاونه على تحقيق بغيته فى الوقت الملائم ، ويؤكد للمستعين أنه على أهبة لأن يساعده على أخذ بلنسية ، إذا حصل على موافقة الملك ألفونسو ، ثم يعتزم السيد أن يقطع علائقه القديمة مع صديقه وحاميه المستعين ، ويبعث سراً إلى عمه وخصيمه المنذر بن هود ، يعقد معه اتفاقاً بالصداقة والتحالف ، وأخيراً يبعث السيد إلى ألفونسو ملك قشتالة ، يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه ، إنما هو تابع له ، وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم فى أراضى المسلمين ، دون أية نفقة من الملك — إنما هم تحت تصرف الملك ، ينزلون ضرباتهم « بالكفرة » ، وفى وسعهم أن يحصلوا على شرقى الأندلس بسهولة . وقد وافق ألفونسو على

رسالة السيد ، وأذن له أن يجول بفرسانه حيث شاء فى أراضى المسلمين[١] .

ولم يكتف السيد بذلك ، بل رأى بعد أن قام بعدة غارات ناهبة فى الأنحاء القريبة ، ودرس طبيعتها وأحوالها ، أن يذهب بنفسه إلى الملك ألفونسو ، ليعقد معه الإتفاق اللازم لإخضاع هذه المناطق ، فسار إلى قشتالة ، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على وثيقة الموافقة ، وفيها يصرح للسيد ويؤكد ، بأن كل الأراضى والحصون التى يستطيع السيد أن ينتزعها من المسلمين ، تغدو ملكاً خاصاً له ، ثم لأولاده وبناته وسائر عقبه من بعده ، ميراثاً شرعياً .

وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى نفاق السيد وغدره ، وانصرافه إلى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، فقطع علائقه معه ، واتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء السيد ، وعقدت بينهما ، أواصر التحالف ، وقدم المستعين إلى الكونت أموالا جزيلة ، وبعثه إلى محاصرة بلنسية . ولكن القادر اعتزم أن يصمد لهذا الحصار الجديد ، حتى يعود السيد من قشتالة . وأخيراً عاد السيد من قشتالة ومعه سبعة آلاف مقاتل ، ونزل بجيشه فى أراضى السهلة ، التابعة لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق (مايو ١٠٨٩م) فخرج إليه ابن رزين ، وتعهد من جديد بأداء الجزية لملك قشتالة ، وكان يؤديها قبل موقعة الزلاقة ، واتفق على أن تكون الجزية عشرة آلاف دينار فى العام ، فقبل السيد عهده ، وغادر أراضى السهلة وسار بجيشه صوب بلنسية .

وغدا السيد عندئذ قائد جيش خطير من المرتزقة ، أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة ، تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب ، وهابه سائر الأمراء والحكام فى تلك النواحى ، وأخذوا جميعاً يترقبون الفرص لمقاومته وسحقه . وكان أشدهم نشاطاً فى ذلك خصمه القديم الكونت برنجير أمير برشلونة ، وكان الكونت يحاصر بلنسية بقواته منذ حين ، والظاهر أنه حين اقترب السيد بقواته من بلنسية ، وقعت بينه وبين الكونت معركة هزم فيها الكونت ، وأسر مع نفر من بطانته ، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم ، ورفع الكونت الحصار عن بلنسية ، وعاد بجيشه شمالا إلى برشلونة .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 352-354 . وقد نقل الأستاذ بيدال هذه الفقرة الأخيرة المتعلقة برسالة السيد إلى الملك الفونسو ، من أقوال ابن علقمة صاحب تاريخ بلنسية المفقود ، الذى نقلت منه شذور كثيرة فى التواريخ القشتالية .

وكان السيد قد عسكر بقواته أولا تجاه مربيطر شمالى بلنسية ، ثم سار بعد ذلك جنوباً إلى بلنسية ، وأخضع فى طريقه مربيطر ، وأرغم صاحبها ابن لبُّون على أن يؤدى له جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار . ونزل أخيراً بجنده فى « الكُدية » ضاحية بلنسية الشمالية التى يفصلها عن المدينة نهر « طوريا » ، فنى الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف ، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته ، ويؤدى له الجزية ، واتفق على أن يدفع له فى كل أسبوع ألف دينار ، على أن يقوم بحمايته من سائر أعدائه . وقيل إن الجزية التى ارتضى القادر أن يؤديها للسيد مقابل حمايته بلغت مائة ألف دينار فى العام ، وهو مبلغ طائل فى هذا العصر(١) .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل عن مصدر هذه الأموال الوفيرة التى كان يغدقها القادر فى كل مناسبة على السيد وغيره ، ممن كان يستصرخهم لحمايته . والجواب عن ذلك أن القادر ورث عن جده المأمون صاحب طليطلة أموالا طائلة ، وطائفة عظيمة من الحلى والجواهر والتحف . وكان ألفونسو ملك قشتالة حينما عاون القادر على استرداد عرشه فى طليطلة ، عند ما أقصته الثورة عنه ، يرهق القادر بمطالبه المالية المتوالية ، لما كان يعلمه من غناه الطائل ، وكانت سياسة ألفونسو ترمى إلى استصفاء أموال ملوك الطوائف بطريقة إرغامهم على دفع الجزية ، وغيرها من أنواع الإبتزاز السياسى والعسكرى ، وقد رأيناهم جميعاً يسارعون إلى الأداء، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال الوفيرة . وكان القادر من أكثرهم ثراء واقتداراً . وكان يخفى أموالا طائلة حملها معه حينما سار منفياً إلى بلنسية ، بعد أن فقد ملكه فى طليطلة ، وهناك أخفاها بمنتهى الحيطة والحذر ، وقد أثارت هذه الأموال الدفينة فيما بعد شره السيد ، واستطاع أن يحصل عليها عقب دخوله بلنسية حسبما نفصل بعد .

وخرج السيد من مقره فى « الكدية » إلى جبال ألبونت القريبة ، حيث كان يحكم عبد الله بن قاسم ، وعاث فى أراضية، وأرغمه على أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، ثم عاد جنوباً وعسكر فى بلدة « ركّانة » الواقعة غربى بلنسية . وهكذا أخضع السيد لصولته سائر إمارات هذه المنطقة :

---

(١) هذا ما ذكره ابن الكردبوس فى روايته السالفة الذكر : Recherches; V.II. App, II.

بلنسية ومربيطر ، وألبونت وشنتمرية الشرق ، وفرض عليها جميعاً الإتاوات الفادحة ، واستقر بقواته على مقربة منها تتردد بعوثه فى أراضيها ، وتشعرها بصفة مستمرة أنها رهينة سلطانه ورحمته .

فى ذلك الحين تطورت الأمور فى قشتالة ، وكان لهذا النجاح الضخم الذى أحرزه السيد على هذا النحو فى شرق الأندلس صداه السيء فى نفس الملك « الإمبراطور » ألفونسو السادس(١) ، وكان السيد قد تخلف عن معاونة ألفونسو فى معركة حصن لييط « أليدو » التى نشبت بينه وبين المرابطين سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ، وانتهز خصوم السيد فى البلاط هذه الفرصة ، فأثاروا نفس الملك عليه ، وصوروا له تصرفه بالعقوق والخيانة ، وأوعزوا إليه بمعاقبته. وفعلا أمر الملك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأن القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة فى الأمور الجنائية ، ولا يسمح بذرة من التهاون أو الرأفة فى تهمة الخيانة(٢) .

وتطورت الأمور أيضاً فى الثغر الأعلى، وشعر المستعين بن هود ملك سرقسطة بأن المرابطين بعد استيلائهم على مرسية وحصن لييط ، أضحوا على مقربة منه ، وأضحوا يهددون سلامته وملكه ، فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى ، وعقد معه صلحاً وحلفاً جديداً . وسار السيد فى جيشه إلى سرقسطة ، وعسكر على مقربة منها على ضفة النهر الأخرى، وهنالك عقد محالفة مع ملك أراجون وأخرى مع ملك نافار ، وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع خطر المرابطين الداهم ، وإنقاذ شرق الأندلس من سلطانهم . ولبث السيد حيناً فى سرقسطة ينظم شئونها وخططها الدفاعية . وهذا ما يشير إليه ابن بسام فى الذخيرة بقوله المسجع : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب، آسد كلباً من أكلب الجلالقة ، يسمى بلذريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره إطلاعات ومطالع »(٣) .

---

(١) R. M. Pidal : ibid. p. 360

(٢) R. M. Pidal : ibid, p. 367 & 368

(٣) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط ، لوحة ٨ ب و ٩ ا . وراجع :
R. M. Pidal : ibid; p. 415 & 416

ولم يجد ألفونسو ملك قشتاله لمعاقبة السيد، على مطله وغدره وخيانته، وتحطيم نفوذه البالغ ، الذى أخذ يزعجه ويثير حفيظته ، خيراً من أن يفتتح بلنسية ، التى كان السيد فى الواقع سيدها الحقيقى ، وكانت أمنع معقل لسيادته ونفوذه ، وأخصب مصدر لموارده ، فعقد حلفاً مع جمهوريتى جنوه وبيزه ، لكى يعاونانه بأساطيلهما من البحر على أخذها ، ثم سار فى قواته إلى بلنسية ، وعسكر فى جُبالة أو « كبولا » من ضواحيها ، وطلب من أصحاب القواعد والحصون المجاورة أن يؤدوا إليه الجزية التى كانوا يدفعونها للسيد ، وبعث إلى القادر بأن يحجز الجزية وسائر الإيرادات التى كان يتلقاها السيد . فلما علم السيد بذلك وهو فى ظاهر سرقسطة ، وبأن ملك قشتالة جاء لينتزع نفس المنطقة التى أعطاه إياها ، اعتزم أن يقابل القوة بالقوة ، وبعث إلى ألفونسو يعرب له عن دهشته واستنكاره وعن ثقته بالله ، وينذره بأنه لن يصبر على تلك الإهانة بل سينتقم لها ، وبأنه سوف يرى كيف أسيء نصحه وتوجيهه[١] .

والواقع أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر ألفونسو بحرج موقفه . وذلك أن السفن الجنوية والبيزية لم تأت حسبما تقرر ، وقد قلت المؤن فى عسكره ، وأخذ يعانى الصعاب ، فعندئذ أمر برفع الحصار ، وغادر بلنسية لدهشة قواده وصحبه ، وارتد راجعاً إلى قشتالة . وما كاد يبتعد عنها حتى أشرفت السفن الحليفة وكانت نحو أربعمائة . بيد أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً . فغادرت بلنسية وسارت إلى طرطوشة ، ولكنها استطاعت أن تصمد لها . وفضلا عن ذلك فقد أراد السيد أن ينتقم من الملك ومستشاريه ، فسار نحو قلهرّة ولوجرنيو ، وضرب الأراضى التابعة لرجال البلاط من خصومه ، وعاث فى أحواز قشتالة ، واجتاح منها منطقة شاسعة ، وأمعن فيها قتلا وتخريباً[٢] . فعندئذ رأى ألفونسو أن يعود إلى سياسة اللين ، وأصدر عفوه عن السيد ، وكتب إليه بذلك ، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه ، وسمح له بأن يعود إلى قشتالة متى شاء ، فكتب إليه السيد يشكره ويرجوه ألا يصغى لنصحاء السوء . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) .

* * *

(١) R. M. Pidal : ibid, p. 418

(٢) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر فى : Recherches; V. II. App. II

وفى ذلك الحين اشتد الاضطراب فى بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النير المرهق الذى فرضه السيد على المدينة . وكان قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى ، يتزعم أقوى الأحزاب فى المدينة ، وهو الحزب المناوئ للسيد والقشتاليين بوجه عام ، ويناهض الحزب « الإسبانى » أو الحزب الذى يلتف حول القادر ، وكان يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة ، وكان المرابطون قد اقتربوا فى ذلك الوقت من بلنسية ، باستيلائهم على مرسية ودانية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة، ووعده بتسليم بلنسية إذا ساعده على محاربة القادر والسيد ، فاستجاب ابن عائشة لدعوته ، وبعث إليه سرية من الجند المرابطين بقيادة أبى ناصر المرابطى ، فما كادت تدخل بلنسية حتى اشتد بها الهرج والاضطراب، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب « السيد » فى المدينة ، واقتحم القصر ، وبحث عن القادر حتى عثر به ، وكان قد اختفى فى بعض حمامات القصر ، ومعه صندوق من الحلى والجواهر الخاصة بزوجه السلطانة زبيدة. فقتل فى الحال ، وحملت رأسه على رمح وطيف بها فى شوارع بلنيسة ، وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ (٢٨ أكتوبر سنة ١٠٩٢) . واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التى كان يحتفظ بها القادر . وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » . وفى اليوم التالى ، الرابع والعشرين من رمضان ، اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة ، فتولى زمام الأمور ، وأخذ يحشد الجند ، ويحصن أطراف المدينة ، ويستعد للطوارئ .(١)

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة ، سار فى الحال فى قواته صوب بلنسية ، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة فى طريقه ، ونزل فى « جبالة » (كبولا) ، وهنالك اجتمع إليه أنصار الملك المقتول (أواخر سنة ١٠٩٢ م) . وفى الحال ضرب الحصار حول المدينة ، بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، واستولى على معظم الأنحاء القريبة ، واقتحم « الكدية » ضاحية المدينة الشمالية ، وفرض عليها سلطانه . وأنشأ ابن جحاف داخل المدينة فرقة من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم ، لتقاوم الحملات المخربة التى كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ . و R. M. Pidal : ibid ; p. 434

يشنها السيد على أحواز المدينة . وكثر الجدل فى الداخل بين مختلف الأحزاب والطوائف . وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين ، ويتعهد له بأن يتركه ملك بلنسية الوحيد ، وأن يمده بالعون والحماية ، فجنح ابن جحاف إلى التفاهم ، وأخذ يدبر الأمر ، وآثر البلنسيون كذلك التفاهم والصلح ، وانتهت المفاوضات بين السيد وأهل بلنسية على ما يأتى : أن يغادر المرابطون المدينة آمنين ، وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ماكان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر ، وأن تؤدى له الجزية السابق تقريرها ، ومقدارها ألف دينار فى الأسبوع مع متأخراتها ، من وقت أن بدأت الحرب ، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد ، وأن يرتد الجيش القشتالى إلى « جبالة » ويبقى هنالك ومعه السيد . وهكذا عقدت شروط التسليم ، وعادت بلنسية بمقتضاها ، كما كانت بلداً خاضعاً يؤدى الجزية كما كان أيام القادر(١) .

ولم يمانع المرابطون فى عقد الصلح على هذا النحو ، لما تولاهم من السأم فى بلد لاتهدأ له ثائرة ، وغادروا المدينة بسلام . وعاد السيد فرابط بقواته فى « جبالة » . ولكن سرعان ما نقض عهوده ، شيمته التى تلازمه فى كل عمل وكل موطن ، وأخذ يتردد فى جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها ، ويرهق ابن جحاف بمطالبه المالية ، التى لايرتوى منها شرهه قط ، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى ، ومن مناوأة الزعماء المحليين ، ولاسيما بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين النازلين ببلنسية ، وكان هؤلاء يتصلون سراً بالسيد ، ويتآمرون معه على ابن جحاف . ثم طلب السيد من ابن جحاف أن يأذن له بالنزول مع بعض صحبه فى قصر وحدائق « بله نوبه » وهى ضاحية بلنسية فى الشمال الشرقى ، وينزل باقى جنده فى « ريوسا » فى جنوبها الغربى تجاه الرُّصافة ، فوافق ابن جحاف مرغماً ، وكان السيد يرمى بذلك إلى إحكام تطويق المدينة ، لاسيما وهو يحتكم من قبل على ضاحية الكدية . وعاد السيد بعد ذلك فاشتط فى مطالبه ، وطلب إلى ابن جحاف أن يسلم كل موارد المدينة ، وأن يقدم إليه ابنه رهينة بولائه . فعندئذ رفض ابن جحاف ، وأغلق أبواب المدينة ، وكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين ملك

---

(١) R. M. Pidal : ibid ; p. 449

سرقسطة ، فأرسل إليه يعده خيراً ، وكتب كذلك إلى ألفونسو السادس ، فبعث إليه يعده بالعون . واعتزم ابن جحاف مقاومة السيد إلى آخر لحظة ، واستؤنفت الأعمال العدوانية بين الفريقين ، وضرب السيد حول المدينة حصاراً صارماً ، وعاث فى الأنحاء المجاورة ، ولم يدخر وسعاً فى قطع الأقوات عن المدينة المحصورة خوفاً من أن تصمد له حتى يدهمه المرابطون ، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً ، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى ، وفتك بهم الجوع أيما فتك ، « وأكلوا الفيران والكلاب والجيف » وغدوا كالأشباح هزالا[1] . وقد وصف المؤرخ البلنسى المعاصر ، محمد بن علقمة فى تاريخه الذى سوف نشير إليه فيما بعد ، بعض ما قاساه البلنسيون من المحن فى تلك الآونة العصيبة ، فذكر « أن رطل القمح بلغ ثمنه مثقال ونصف ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم بستة دنانير . وفى ربيع الأول (٤٨٦ هـ) عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء ، فأمر ابن جحاف اقتحام الدور بحثاً عن القوت . وأعاد استصراخ ابن هود ، ورغبه فى المال والبلد مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر . وترمق ساير الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهجم على نصرانى وقع فى الحفير فأخذ باليد ، ووزع لحمه . وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ليلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . وبان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم على صوامع الأرباض وبواسق الأشجار . ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا النزر اليسير ، وتوالى اليبس واستحكم الوباء . ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه أبى الوليد الوقشى فى التكلم لابن جحاف[2] وعندئذ اجتمع أعيان المدينة ، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد فى التسليم وعقد الصلح ، فأذعن وترك لهم المفاوضة ، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد ، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة ،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ١٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ الملحق ص ٣٠٥ .

(٢) من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف بخزانة جامع القرويين بفاس .

وإلى ابن عائشة قائد المرابطين فى مرسية، فى طلب الغوث والإنجاد ، وذلك فى مدة خمسة عشر يوماً ، وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالإشراف على المدينة ، وأن تسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

« أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين (المستعربين) الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السيد بجيشه فى « جبالة » (كبولا) وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها » .

عقدت الهدنة على هذه الشروط ، وسافر الرسل فى طلب النجدة ، ولكن مضت الخمسة عشر يوماً دون أن يعود أحد منهم . ففى صباح اليوم التالى، وهو يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤م (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ)[١]، خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المسلمين والنصارى ، ووقعوا عهداً بتسليم المدينة ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر . وفى الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد إلكمبيادور وجنده ، واحتشد البلنسيون ، وهم كالأشباح هزالا ، أوكأنهم كالموتى خرجوا يوم الحشر من القبور ليمثلوا أمام الخالق[٢] ، ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين بلدهم .

ودخل السيد وجنده بلنسية ، وفى الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ، ونزل السيد بالقصر ، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ دخول السيد بلنسية . فيقول ابن بسام وهو معاصر الحادث أنه وقع فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) – الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ١٩ ب . ويوافقه صاحب الذيل فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦ . ولكن ابن الأبار يقول لنا إن دخول السيد بلنسية كان فى سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م (الحلة السيراء دوزى ص ١٨٩ والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) . وهذه أيضاً رواية ابن الكردبوس فى « كتاب الاكتفاء » Recherches, V, II. App. II . وهذا التاريخ هو الأرجح ، وهو يوافق الرواية القشتالية ، وبه يأخذ الأستاذ مننديث بيدال مؤرخ السيد ، فيقول إن دخول السيد بلنسية كان فى ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م . (Pidal : ibid; p. 485)

(٢) وهو تصوير ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية ، وقد نقلت روايته المفقودة فى التواريخ القشتالية (Pidal : ibid; p. 484) .

فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلامات أهلها ، وأن يحميهم ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها ، ولم يستمع أحد إلى تذمر أو ظلامة ، وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره ، وأبقاه فى منصبه قاضياً للمدينة ، ولكنه شدد عليه فى السؤال عما إذا كان قد بقى لديه شىء منها ، وطلب إليه الحلف أمام أعيان الشهود من الملتين ، فحلف ابن جحاف بأنه لم يخف شيئاً وليس لديه شىء منها . وأنذره السيد بأنه إن وجد لديه شيئاً مما تقدم ، فإنه سوف يستبيح دمه ، ووافق على هذا العهد أعيان الملتين ، المسلمون والنصارى . وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيراً بنكبته المروعة ، التى ترك لنا عنها المؤرخ البلنسى المعاصر ، وشاهد العيان السابق ذكره أبو العباس بن علمقة ، صوراً مؤسية مبكية .

ذلك أن السيد أمر فى الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته ، وعذبه عذاباً شديداً ، ثم أمر بإعدامه حرقاً ، فأقيمت له وقدة كبيرة فى ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة ، ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة . قال ابن علقمة، وكان من شهود المأساة « إن القنبيطور أمر بتعذيبه أى ابن جحاف فعذب عذاباً شديداً ، ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها ، وأصير الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه »[1] . وقال ابن بسام، بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف : « أخبرنى من رآه فى ذلك المقام، وقد حفر له إلى مرفقيه ، وأضرمت النار حوله ، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ، ليكون أسرع إلى ذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله له فى صحيفة حسناته، ومحا به سالف سيئاته ، وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجه وبناته ، فكلمه فيهن بعض طغاته ، فبعد لأى ما لفته عن رأيه ، وتخلصهن من يدى نكرائه . وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً ، وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً »[2] .

---

(١) أورده البيان المغرب فى الذيل ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٢) الذخيرة — القسم الثالث المخطوط لوحة ١٩ ب .

وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية ، ومنهم أبو جعفر البتى الشاعر المشهور[١] ، وبدا السيد عندئذ فى ثوبه الحقيقى ، ثوب الفاتح المتجبر والطاغية المنتقم ، فمال على البلنسيين ، وأذلهم ، واشتط فى إرهاقهم بصنوف المظالم والمغارم . وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ ، أن التف حول السيد رهط من الخونة المسلمين ، ومعظمهم من الأشرار والسفلة ، انضووا تحت لوائه ، وأخذوا يعيثون فى المدينة فساداً ، ويعتدون على إخوانهم ، يقتلون الرجال ، ويسبون النساء والأطفال ، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم ، وكان يطلق يومئذ على تلك العصابات المجرمة اسم « الدوائر »[٢] ، وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين ، واحتل النصارى دورهم وأحياءهم ، وغدا السيد ، وهو يزاول سلطانه بالقصر ، كأنه ملك متوج ، وسيد مملكة عظيمة ، وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرق الأندلس كله .

وفى محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجه :

عاثت بساحتك العــدا يا دار	ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد فى جنابك ناظر	طال اعتبار فيك واستعبـــار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمحصت بخرابهـــا الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية فى أيدى النصارى ، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة ، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس ، ورسائل أعيانها ، تصف ما أصاب بلنسية وشرق الأندلس من الدمار ، وتقطيع الأوصال ، والذل على يد النصارى . قال ابن بسام : « وتجرد أمير المسلمين عندما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجفانه وجماع شأنه ، وشغل يده ولسانه » . واعتزم أمير المسلمين أن يسترد المدينة الأندلسية العظيمة ، فسار إلى سبتة وحشد الجند ، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة ، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطى ، وإلى أمراء شرق

---

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتى نسبة إلى بتة من قرى بلنسية . وكان من أكابر الأدباء وعلماء اللغة .

(٢) راجع رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر : Recherches; V. II. App. II

الأندلس ، أصحاب شنتمرية الشرق ، وألبونت ، ولاردة ، وطرطوشة ، أن يجمعوا الجند للسير إلى استنقاذ بلنسية . وعبرت الجند المرابطية إلى الجزيرة فى سبتمبر سنة ١٠٩٤م ، أعنى لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية ، واجتمعت الحشود الأندلسية ، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية ، فوصلت إلى « كوارت » ثم إلى « مسلاته » ، الواقعتين غربى بلنسية جنوبى النهر ، فى شهر أكتوبر (رمضان ٤٨٨ هـ) ، وصلوا صلاة الفطر فى مسلاتة ، ثم بدأ الهجوم على بلنسية .

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية بمقدم الجيش المرابطى . فشاع الذعر بين النصارى ، وأمر السيد بأن يجمع من أهل بلنسية ، سائر السلاح والقطع الحديدية ، وأخرج من المدينة سائر المسلمين الذين يشك فى ولائهم . وتكررت هجمات المرابطين على المدينة بشدة ، ولما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة وصمودها الراسخ ، ضرب حولها الحصار المطبق . ولم تمض أيام قلائل ، حتى خرج السيد فى قواته بالليل ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، وهاجمه بشدة ، فأوقع فيه الاضطراب والذعر ، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والعتاد والمؤن ، وقتل من المسلمين عدد جم ، ثم عاد فامتنع داخل المدينة .

واستمر الحصار طويلا . وبعث السيد إلى پيدرو الأول ملك أراجون يستصرخه للغوث ، وعقدت بينهما محالفة ضد المسلمين ، وكتب أيضاً إلى ألفونسو السادس . وتجددت المعارك بين المرابطين والقشتاليين فى أحواز بلنسية ، واستولى السيد خلالها على مربيطر ، وعلى عدد آخر من الحصون . وفى يناير سنة ١٠٩٧ م وقعت بين قوات السيد وحليفه پيدرو ملك أراجون ، وبين المسلمين ، معركة شديدة عند جبل « مندير » ، هزم فيها المسلمون ، وعاد پيدرو إلى بلاده ، وعاد السيد إلى بلنسية .

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطى قد سار من الجنوب نحو أراضى طليطلة وعاث فيها ، وهزم قوات ألفونسو السادس عند « كونسويجرا » ، وفى تلك الموقعة قتل دون ديجو ابن السيد الوحيد . وفى نفس الوقت سار ابن عائشة حاكم مرسية فى جيش ضخم إلى أحواز قونقة ، وهزم القشتاليين بقيادة ألبارهانيس ثم اخترق أراضى مملكة بلنسية حتى « الجزيرة » ، وهنالك التقى بفرقة من جنود السيد ، فأبادها تقريباً ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا عائدين إلى بلنسية .

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ ، وهدمه الإعياء ، وأدمى قلبه مصرع ولده الوحيد، فتوفى غماً وألماً، وذلك فى يوليه سنة ١٠٩٩ . فتولت مكانه زوجه خمينا الدفاع عن المدينة ، واستطاعت أن تصمد أمام هجمات المرابطين ، زهاء عامين آخرين . وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستصرخ به، وتعرض تسليم المدينة إليه ، فهرع ألفونسو إلى بلنسية فى بعض قواته ، ودخل بلنسية فى مارس سنة ١١٠٢ م . وكانت القوات المرابطية قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر ، تحت إمرة قائدها الأمير أبى محمد المزدلى ، تستعد للوثبة الحاسمة ، فلما قدم ألفونسو بقواته ، اجتنبت لقاءه ، وعسكرت فى كوليرا الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة . وقضى ألفونسو شهراً فى بلنسية ، ثم خرج إلى أحواز كوليرا ، وانتسف زروعها ، وهالته ضخامة الجيش المرابطى ، فارتد إلى المدينة وهو عازم على إخلائها ، ولم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوى فى مواقع نائية . وغادر بلنسية سكانها النصارى ، يحملون أمتعتهم وأموالهم ، وخرجت خمينا زوجة السيد ، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون ، والأموال العظيمة التى انتهبها السيد خلال غزواته ومغامراته ، وقد استولى ألفونسو فيما بعد على معظمها ، ثم خرج ألفونسو وجنده ، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن فى أراضى قشتالة (٤ مايو سنة ١١٠٢ م) . بيد أنه أمر قبل خروجه بإحراق المدينة ، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة .

وفى اليوم التالى ، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م ، الموافق شعبان سنة ٤٩٥ هـ[١] ، دخل المرابطون بلنسية وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ، وعاد السلم يخيم على تلك الربوع ، وانهار باختفاء السيد ، أكبر عامل فى بث الروع والاضطراب إلى شرق الأندلس ، ووقفت مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء مدى حين[٢] .

* * *

(١) يقول صاحب الذخيرة إن استرداد المرابطين لبلنسية كان فى رمضان سنة ٤٩٥ هـ ، ولكنا باحتساب التوافق بين التاريخين الميلادى والهجرى ، نجد أن شهر مايو سنة ١١٠٢ م يوافق شعبان سنة ٤٨٥ هـ . ويأخذ ابن خلدون بنفس التاريخ ، فيضع استرداد بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (ج ٤ ص ١٦٢) .

(٢) يراجع فيما تقدم ، الذخيرة لابن بسام — القسم الثالث المخطوط — لوحة ٢٦ أ و ب وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p.508, 533, 538, 539 & 581

والآن وقد انتهينا من تتبع حوادث مملكة بلنسية منذ قيامها فى ظل الطوائف وفصلنا بهذه المناسبة أخبار السيد إلكمبيادور ، مذ ظهر فى كنف بنى هود أصحاب سرقسطة ، حتى غلب على شرق الأندلس ، ثم افتتح بلنسية ، وحكمها حتى وفاته بضعة أعوام ، نود أن نقول الآن كلمة عن شخصية السيد ، وعن خلاله .

لقد اختلفت الآراء فى تصوير السيد وتقدير بطولته . فالآداب النصرانية ، والآداب القشتالية ، بوجه خاص ، تحاول أن تجعل منه مثلا أعلى للبطولة القومية ، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المغرقة ، وتذهب فى بعض الأحيان إلى اعتباره ، فضلا عن كونه بطلا قومياً لإسبانيا النصرانية ، قديساً يحيط الجلال بسيرته ، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار ، يحجون إلى مزاره ، ويلتمسون البركة من رفاته . وكان قد دفن أولا فى دير سان پيدرو دىكاردينا على مقربة من برغش ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش . ومما يروى فى ذلك أن تابوت السيد فتح فى أيام الإمبراطور شارلكان ، فى سنة ١٥٤١ ، فانتشرت منه رائحة ذكية ، ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ، ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيما فى تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير ، روى جميع أرجاء قشتالة . وأشد ماتبدو هذه الأساطير فى الشعر ، وفى الملاحم والأغانى القشتالية ، التى وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحو قرون . ففيها يصور السيد ، بأنه الفارس الكامل ، الشهم ، الذى لايقهر فى الحرب ، وبأنه مثل الوطنية الحقة ، وزهرة الخلال والفضائل النصرانية . ومن أشهر الملاحم التى وضعت عن السيد ، وأقربها إلى عهده ، قصيدة أو ملحمة ، Mio Cid (سيدى) الشهيرة ، التى كتبت بأراضى مدينة سالم بعد وفاة السيد بنحو أربعين عاماً فقط ، وهى فضلا عما تحتويه من مختلف صور العصر وحوادثه وعاداته ، تقدم لنا صورة كاملة لخلال السيد ، وتشيد بوطنيته وإخلاصه ، بالرغم من جور مليكه ، كما تصف رفقه ولينه ، وهو الظافر ، نحو المسلمين المغلوبين ، وما ينطوى عليه قلبه ، وهو الفارس الأمثل ، من الحب العائلى ، حتى انه كان خلال المعارك ، يتصور أعين زوجته خمينا وبناته ، متطلعات إليه ، إلى غير ذلك من الصور والنعوت[١] .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ بيدال ، R. M. Pidal : ibid; p. 8

بيد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغانى، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته ، فإن الرأى المتزه المجرد من المؤثرات القومية والدينية ، يحملنا فى الحال على الحكم عليه ، وعلى خلاله بأقسى النعوت الأخلاقية والأدبية . لقد كان السيد جنديا عظيما ، وقائداً بارعاً ، ما فى ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله كفارس وقائد مظفر ، فيقول لنا ابن بسام مثلا فى وصفه ما يأتى : « وكان هذا البائقة وقته ، فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته ، آية من آيات ربه ... وكان — لعنه الله — منصور العلم ، مظفراً على طرائق العجم ، لقى زعماءهم ، ففل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير ، كثير عديدهم ، وكانت تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويعجب » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه بلغه أن السيد كان يقول ، وقد طما طمعه ولج به جشعه : « على لذريق فتحت الأندلس ، ولذريق يستنقذها »[1] . ولكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السيد ، كان إلى جانب هذه الجرأة ، والبراعة العسكرية والمغامرات المظفرة ، يتصف بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التى تأباها خلال الفروسة ، فهو حسبما رأينا من وقائع حياته التى استقيناها من أوثق المصادر ، ولاسيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين الأستاذ مننديث پيدال ، يبدو مغامراً لا مبدأ له ولاذمام ، يسعى إلى الكسب أينما كان، وهو يبدأ حياته فى خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه ثم يخرج عليهم ، ويتنكر لهم ، وهو يقطع مختلف العهود ، ثم ينقضها ،متى رآها عقبة فى سبيل أهوائه ، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال ، ويبدو فى معظم حملاته العسكرية ، قاطع طريق ، ورئيس عصابة ناهبة ، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم ، وهو جشع لاقتناء المال ، لايخبو له فى سبيل ذلك ظمأ ، وهو يناوىء مليكه وأمته ، ويخرج عليه غير مرة ، ويعيث فى أراضى بلاده، وينتهك حرماتها ، تحقيقاً لمآربه الشخصية ، وأغراضه المادية . وعلى العموم ، فهو يبدو مغامراً ، يجمع فى شخصه كل رذائل عصره ، وهو بذلك أبعد من أن يبدو بطلا قومياً مثالياً ، وأشد بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً .

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٩ أ و ب .

والتفكير الغربى نفسه يختلف فى تقدير السيد ومنزلته من البطولة، فالعلامة المستشرق دوزى مثلا يخصص لحوادث حياته كتابا[١] ، وينتهى فيه إلى أن السيد ليس إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله. ويجاريه فى هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قدرما فقد السيد » . ولكن العلامة متنديث پيدال ، مؤرخ السيد ، يخالف كل هذه الآراء ، ويبالغ فى تقدير السيد ، ويخصص لتقدير بطولته شذوراً طويلة ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لايوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ »[٢] .

ويخصص ابن بسام ، وهو معاصر لمعظم الأحداث التى خاضها السيد ، لشخصية السيد وأعماله ، شذوراً كثيرة . بيد أنه قد كتبت عن السيد ، وعن مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة ، كتبها مؤرخ بلنسى ، وشاهد عيان للحوادث ، هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة. وقد ولد ابن علقمة ببلنسية فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧م)، وتوفى بها سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) وكان أديباً شاعراً . وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة التى مرت بوطنه بلنسية ، والتى شهدها عن كثب ، فألف تاريخاً لحوادث عصره ، ولاسيما تغلب السيد على بلنسية ، وما اقترن به من المآسى ، أوكما يقول ابن الأبار ، إنه « ألف تاريخاً فى تغلب الروم على بلنسية، سماه « البيان الواضح فى الملم الفادح » ، وذلك قبل سنة ٥٠٠ هـ[٣] . وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا ، الذى ضاع ولم يصلنا ، فضلا عن ابن الأبار ، وهو بلنسى أيضاً ، كثير من المؤرخين اللاحقين ، ومنهم صاحب رواية الطوائف الواردة بذيل البيان المغرب ، حيث يقول : « وقد

---

(١) كتاب دوزى المشار إليه «هو » : Le Cid d'aprés de nouveaux documents (Leyde 1860)

وقد نشر بتمامة فى الطبعة الثالثة من كتاب دوزى : Recherches; V. II. p. 1—233

(٢) R. M. Pidal : La Espana del Cid; V. II. p 593 - 604

(٣) راجع « التكلة » لابن الأبارج ١ رقم ٥١٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥و٣٠٦ ، وابن الخطيب فى «الإحاطة» (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩١ . وراجع أيضاً : Pons Boigues Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles ; (Madrid 1898) p. 175

ألف ابن علقمة كتاباً فى أمرها وحصارها (أى بلنسية) يبكى القارئ ويذهل العاقل » ، ثم ينقل عنه قصة القاضى ابن جحاف(١) . وكذلك ابن الخطيب فإنه يذكره فى مقدمة « الإحاطة » ضمن تواريخ المدن الخاصة(٢) . هذا وقد أثبت البحث الحديث أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة، قد نقلت كثيراً مما ورد فى تاريخ ابن علقمة ، ولاسيا تاريخ ألفونسو العالم Crónica General عن السيد وعن حوادث بلنسية(٣) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .
(٢) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ .
(٣) يراجع فى تاريخ السيد وحوادث بلنسية : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٣ و ٢٠٤ . والذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط، الوحات ١٩أ إلى ٢٦ب . وكذلك : دوزى فى كتابه المشار إليه: "Le Cid" و Recherches sur l'Histoire et Littéiature d'Espagne au moyen Age. (V. II. App. I-XVIII) وكتاب الأستاذ بيدال السابق ذكره ، وهو مؤلف ضخم فى نحو ألف صفحة .
وأخيراً يراجع كتاب A. P. Ibara. : Valencia Arabe; Vol. I. p. 227-332

الفصل الثالث

إمارة شنتمرية الشرق

بنو رزين . نزولهم بأرض السهلة . كبيرهم هذيل بن عبد الملك.قيامه بشنتمرية وتلقبه بالحاجب عز الدولة . الخصومة بين هذيل ومنذر التجيبي . هذيل واتباعه لسياسة الحياد . صفاته وبذخه . جواريه وجلساته الفنية.وفاته وقيام ولده أبي عبد الملك مروان مكانه . تلقبه بالحاجب جبرالدولة.حكمه الطويل وصموده للحوادث . صفاته بين الذم والمديح . تأديته الجزية لألفونسو السادس . نكوله عقب موقعة الزلاقة . السيد يغير على أراضيه ويعيث فيها . اتفاقه مع السيد وعوده إلى دفع الجزية . ابن لبون صاحب مربيطر يلتجيء إلى حماية عبد الملك ويسلمه حصنه . شروط هذا التسليم ونكث عبد الملك بعهوده . مشاريع عبد الملك نحو بلنسية . إغارة السيد على أراضيه . خضوعه وعوده إلى دفع الجزية . صهره يحاول اغتياله . نجاته ثم وفاته . عبد الملك والشعر . يحيى بن عبد الملك الملقب بحسام الدولة . مصانعته لملك قشتالة وهديته إليه . استيلاء المرابطين على بلنسية . زحفهم نحو الثغر الأعلى . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق وخلعهم لأميرها يحيى . انتهاء دولة بنى رزين .

كانت هذه الإمارة الصغيرة — إمارة شنتمرية أوشنتمرية ابن رزين[1] — تقع فى بسيط سهل خصيب من الأرض ، يقع فى جنوبى الثغر الأعلى ، وفى شمال شرق الثغر الأوسط ، عند منابع نهر خالون فرع إبرة ، وتحدها من الشرق سلسلة من الجبال تسمى بنفس الاسم ، أى جبال بنى رزين ، وقد عرف بنو رَزين هؤلاء أصحاب شنتمرية الشرق ، باسم جدهم الأعلى رزين البرنسى ، أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس فى جيش طارق بن زياد ، وهو ينتمى إلى هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى ، وكان منزل بنى رزين بقرطبة ، ولجدهم رزين بها آثار كثيرة[2] ، ثم نزحوا إلى الثغر ، ونزلو بأراضى السهلة ، وهى التى تتوسطها شنتمرية ، واستقروا هنالك سادة وحكاماً .

ولما انتثر عقد الأندلس الكبرى إبان اضطرام الفتنة ، تطلع كبيرهم يومئذ أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رَزين المعروف بابن الأصلع

---

(١) سميت شنتمرية الشرق تمييزاً لها من شنتمرية الغرب ، وهى الواقعة فى جنوب غربى ولاية الغرب الأندلسية على المحيط الأطلنطى ، وتشغل مكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية ، وتعرف شنتمرية الشرق الإسبانية بمدينة Albarracin وهو تحريف لاسم بنى رزين أمرائها أيام الطوائف .

(٢) تاريخ ابن حيان — مخطوط مكتبة القرويين — لوحة ٢٤٥ ب .

إلى الاستقلال بما فى يده من الأراضى ، أسوة بما فعله جاره اسماعيل بن ذى النون ، فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة ، واستبد بحكم شنتمرية وأعمالها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٢ م) ، وتلقب بالحاجب عز الدولة . واعترف فى نفس الوقت بطاعة الخليفة سليمان المستعين الاسمية ، وقنع منه سليمان بذلك ، وأقره على ما بيده من الأعمال ، وحاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبى صاحب الثغر الأعلى ، أن يخضعه لصولته ، أسوة بما تم له نحو بعض أصاغر أمراء الثغر ، فأبى هذيل ووقف فى سبيل أطماعه . واضطرمت بينهما الخصومة ، وامتنع هذيل بعاصمته المنيعة ، وتحالف مع الموالى العامريين أعداء منذر ، واعترف معهم بدعوة هشام المخلوع ، وقطع دعوة سليمان ، واستطاع بيقظته ، وموقع بلده البعيد عن متناول العدوان ، أن يجتنب عوامل الشر ، وأن يسير فى حكم إمارته آمنا مطمئناً .

وكان له فى خصب أراضيه ، وانتظام عمارتها ، موارد طيبة للجباية ، فكثرت أمواله ، وغدا ينافس فى ذلك جاره إسماعيل بن ذى النون ، وكان مثله فى طغيانه وصرامته ، وشدة بخله ، وكان يتبع سياسة الحيدة المطلقة ، ولا يتدخل فى أى نزاع أو حلف ، مما ينساق إليه زملاؤه أمراء الطوائف ، وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يحافظ على سلام مملكته ، واستطاع بالأخص أن ينجو من ضغط قشتالة ومطالبها فى اقتضاء الجزية .

وكما أن الرواية تشيد بطغيان هذيل ، وجبروته ، وجهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه قتل والدته بيده ، فهى كذلك تقدمه إلينا فى صورة أخرى أكثر بهجة وإشراقاً ، فتقول لنا إنه كان فتى بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم ير فى الأمراء أبهى منه منظراً ، ثم تشيد بطلاقة لسانه ، وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة . وقد اشتهر هذيل بالأخص بحياته المترفة الناعمة ، ورفيع ذوقه فى الفنون ، وشغفه باقتناء أجمل وأروع الجوارى والقينات فى عصره ، حتى لقد ذكروا أنه اشترى جارية الطيب أبى عبد الله الكنانى بعد أن أحجمت عنها الملوك لغلاء ثمنها ، ودفع فيها ثلاثة آلاف دينار ، وكانت وحيدة عصرها . وقد وصف لنا ابن حيان فى تاريخه تلك القينة الشهيرة فقال : « لم ير فى زمانها ، أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ؛ ولا ألين عطافاً ،

ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أبدع أدبا ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك،مما يقصر عنه علماء الزمان ، وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجادلة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرهفة ، لم يسمع لها فى ذلك بنظير »[١] ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة فى عصره من الجوارى والقينات البارعات فى الحسن ، وفى الغناء والموسيقى ، وكانت « ستارته » أعنى جلساته الفنية أشهر ستائر ملوك الأندلس . وقيل عنه اجتمعت لديه منهن مائة وخمسون، وكان لديه من الوصفاء الصقالبة ستون وصيفاً ، لم تجتمع عند أحد من نظائره . وكان إلى جانب ذلك ، وافر الجود والكرم ، فسيح الجناب للقصاد ، وعلى الجملة فقد كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه ، وقد استمر فى حكم إمارته الصغيرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، مرت كلها فى أمن وسلام ورخاء ، وتوفى بالسهلة فى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م)[٢] .

فخلفه فى الإمارة ولده أبو مروان عبدالملك بن هذيل بن رزين ، وكان فى حياة أبيه يسمى حسام الدولة ، وتلقب عند ولايته بذى الرياستين الحاجب جبر الدولة . وقد حكم أبومروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً ، وشهد طائفة كبيرة من الأحداث تجتاح هذه المنطقة ، ولاسيما فى الثغر الأعلى وفى مملكة بلنسية ، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث ، وأن يبقى فى رياسته ، بل أن يوسع نطاقها . وقد اختلف الرأى فى تصوير أبى مروان وخلاله ، فنرى معاصره ابن حيان ، يحمل عليه بشدة ، وفى عبارات لاذعة ، ويقول لنا إنه « كان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلا لامتجاهلا ، وخاملا لامتخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه ، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذكرت الخيل فزيدها ، أوالدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث،المخطوط لوحة٢١ أ و ب و٢٢ أ و ب . ونقله البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ .

(٢) راجع فى أخبار هذيل بن رزين : الحلة السيراء (دوزى) ص١٧٩—١٨٢،والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٣ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥ و ٢٠٦ . وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف فى النقل والتلخيص .

فجريرها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فيه فبديع همذان ، أو الخطابة فقس سحبان ، أو النقد فقدامة العلم ، أو العلم فليس منه ولا كرامة ، خلى من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف »[١] . هذا بينما يقدم لنا عنه ابن الأبار صورة أفضل ، مما سمعه من الرواة ، فيقول لنا « إن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ، قرب جنده من نفسه ، وتحبب إليهم ، واختلط بهم ، حتى كان لايمتاز عنهم فى مركب ولاملبس ، ووقائعه فى الثغر مشهورة »[٢] .

ويغرق الفتح بن خاقان كعادته فى مدحه ومديح دولته ، ويقول لنا إنه كان منتهى فخار قومه ، وقطب مدارهم ، وإنه رجل « اتخذته البسالة قلباً ، وضمت عليه شفافاً وخلباً ، لايعرف جبناً ولاخوراً ، ولايتلو غير سور الندى سوراً . وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ترتضع فيه المكارم أخلاف ، وتدار بها للأمانى سلاف » . إلى غير ذلك من العبارات الرنانة[٣] . ويشاطره ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان « كان له طبع يدعوه فيجيب ، ويرمى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة إستجداء لمن عنى بالأخذ عنه من الأئمة » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه كان شاعراً مجيداً[٤] .

ولم نعثر فى مختلف المصادر ، على كثير من التفاصيل ، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله ، خلال حكمه الطويل ، وكل ما وقفنا عليه من ذلك يتلخص فى أنه استمر فى حكم مملكته ، بعيداً عن الأحداث والعواصف التى هزت ممالك الطوائف الأخرى . بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٨ هـ ، أن يؤدى له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو فى الزلاقة ، فى العام التالى ، وهيض جناحه نوعاً ، نكل عبد الملك عن دفع الجزية . وفى تلك الأثناء كانت أعمال السيد إلكمبيادور ومغامراته فى منطقة بلنسية ، تزعج سائر الإمارات الإسلامية

---

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٨٥ .

(٣) قلائد العقيان ص ٥١ .

(٤) الذخيرة ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ .

المجاورة . ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شئونه مع الملك ألفونسو السادس ، وليحصل منه على حق فتح بلنسية ، وأنه خرج من قشتالة فى ربيع سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، عائداً إلى شرق الأندلس ، ومعه سبعة آلاف مقاتل واخترق فى طريقه أراضى السهلة (شنتمرية) ، وعسكر فى « كالاموشا » فى شمالها الشرقى ، ولبث حيناً فى تلك الوديان النضرة ، يجمع محاصيلها ، وأقواتها . ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإمحال ، قصد بنفسه إلى معسكر السيد ، واتفق معه على أن يتركه فى سلام ، على أن يؤدى الجزية للملك ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلاّقة ، وأن يدفع فى الحال إلى السيد بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . وعندئذ رفع السيد معسكره ، وغادر أراضى السهة إلى بلنسية[1] .

ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبوعيسى بن لبّون صاحب مربيطر (ساجنتو) ، أنه لايستطيع الصمود لهذا الإرهاق ، وأنف من مفاوضة السيد ، وآثر أن ينتمى إلى حماية أبى مروان عبد الملك ، وأن يسلمه حصنه ، فقبل عبد الملك هذا العرض ، وتعهد لابن لبون ، بحمايته ورعايته وأن يجرى عليه رزقاً كافياً ، وتسلم منه حصن مربيطر فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ م (أواخر ٤٨٦ هـ) ، ثم سار إلى السيد ، وفاوضه فى عقد المودة والإبقاء على الحصن ، على أن تكون سائر الحصون الواقعة فى أراضيه مفتوحة للبيع والشراء ، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن . وسار ابن لبون بعد ذلك فى أهله وأمواله صحبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل فى كنفه . بيد أنه لم يمض سوى قليل حتى تنكر له عبد الملك ، وأخذ فى مضايقته والتقتير عليه ، وقاسى ابن لبون من ذلك حتى كره البقاء ، ومما نظمه يومئذ فى محنته :

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ... إليك عنى فما فى الحق أغتبن
من كسر بيتى لى روض ومن كتبى ... جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدرى به ماجرى فى الدهر من خبر ... فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابى سوى موتى ويدفننى ... قوم وما لهم علم بمن دفنوا

ولما استولى عبد الملك على مربيطر ، ورأى اضطراب الأحوال فى بلنسية ،

---

[1] R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 357—359

ثابت له فكرة فى محاولة الاستيلاء عليها ، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها إلى السيد ، وفاوض پيدرو (بطره) ملك أراجون فى معاونته على تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ، فلما وقف السيد على هذه التطورات انقض بقواته على أرض السهلة ، وعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وسبى جموعاً كبيرة ، وبعث الجميع إلى « جُبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى ، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م — ٤٨٦ هـ)(١) .

وفى أواخر حكمه ، وقد شاخ يومئذ ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودى بحياته . وذلك أن صهره ، زوج أخته ، عبيد الله حاكم إذكون الواقعة شمال شرقى العاصمة ، كان يضمر له الشر ، ويود إزالته ليحكم مكانه ، فدعاه ذات يوم إلى حفل عقده بحصنه ، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون ، فلما تمكن الشراب من عبد الملك ، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم ، واتفق أن كانت أخته حاضرة ، وهى زوج عبيد الله القاتل ، فصعدت إلى شرفة عالية ، وصاحت واقتيلاه ، فهرع الناس إلى مكان الجريمة ، وألفوا عبد الملك وقد أثخن جراحاً ، وبه رمق ، فأرادوا الفتك بقاتله ، فأمرهم بالقبض فقط على عبيد الله وابنه ، ثم برىء عبد الملك من جراحه ، وخرج دميا مشوها ، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه ، وسملت عيناه ، ثم صلب ، وقطعت رجل ابنه . وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) بعد أن حكم نحو ستين عاماً(٢) .

وكان عبد الملك بن رزين ينظم الشعر ، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً ، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان ، إذ يصف شعره بأنه « أهتف من كل هاتف » . ويقول لنا ابن الأبار « إن ضعيف منظومه أكثر من قويه » . وكان على الرغم من أدبه وشعره ، متعسفاً مع الشعراء مقصراً فى إجازتهم . ومن نظمه فى الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف :

أنا ملك تجمع فىّ خمس ... هى للأنام محيي مميت

هى ذهن وحكمة ومضاء ... وكلام فى وقته وسكوت

---

(١) R. M. Pidl; ibid; p. 453—455

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٥ و ١٨٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥ .

وقوله :

يارب ليل أطال الهجر مدته   فأيأس القلب عن إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى قد تبين لى   عند التأمل أن الدهر من سدفه

وقوله فى الغزل :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى   ويضم مشتاقاً إلى مشـتاق
وتعض تفاح الخدود شفاهنا   ونرى منى الإحداق بالأحداق
وتعود أنفسنا إلى أجسامها   فلطالما شردت على الآفاق[١]

وخلف عبد الملك بن رزين ولده يحيى الملقب بحسام الدولة ، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل ، مدمنا للشراب ، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس ، والتماس مودته ، واجتناب سطوته ، فبعث إليه بهدية حافلة من الحلى والخيل والبغال ، ومختلف التحف النادرة ، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه . فكان يحيى لسخفه وسقم عقله ، يفخر باقتناء هذا القرد ، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة[٢] . والواقع أن مُلك بنى رزين كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة . ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحوا يومئذ شرقى الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى شعبان سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى . وكان عبد الملك بن رزين ، قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٣] ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء على سائر دول الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧هـ (إبريل ١١٠٤ م) دخل المرابطون مدينة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبدالملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً ، ولم يبق من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة ، وقد كانت هى الأخرى تدنو سراعاً من الخاتمة المحتومة .

---

(١) راجع الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ٢١ أ و ب ، والحلة السيراء ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠ ، وقلائد العقيان ص ٥٣ — ٥٦ ، وقد وردبها الكثير من شعر ابن رزين .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١ . وينسب دوزى هذه الواقعة إلى عبدالملك بن هذيل ، ويقول لنا إنه حمل هديته بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف على أخذ طليطلة : Hist. V. III. p. 121

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٢ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٠ .

الفصل الرابع

إمارة ألبـــونت

ألبونت وموقعها . قيام عبد الله بن قاسم بها . انضواؤه تحت لواء الخلافة الأموية . إيواؤه المرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليهما الخلافة . وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه . تلقبه بيمن الدولة . ولده أحمد بن محمد الملقب بعز الدولة . وفاته وولاية ولده الطفل . خلع الأمير الطفل وولاية عمه عبد الله بن محمد . حكمه الطويل . زحف السيد على ألبونت . خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك قشتالة وأداؤه الجزية . استيلاء المرابطين على ألبونت. عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية .

على مقربة من شنتمرية الشرق ، وإلى الجنوب الشرقى منها، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف ، هى إمارة ألبونت أو ألبنت . وتقع مدينة ألبونت[1] هذه ، فى وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة ، على مقربة من نهر طورية فى حمى الجبال . وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو من زعماء البيوت العربية فى تلك المنطقة ، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضى . وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م)[2] . ولم يشترك عبد الله فى شىء من الحوادث ، التى كانت تجرى يومئذ ، فى شرق الأندلس أو جنوبه ، نظراً لبعد إمارته عن مسرح الحوادث . بيد أنه كان من أنصار الخلافة الأموية ، يعترف بطاعتها ويدعو لها ، مع طائفة الفتيان العامريين. وكانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وأخيه هشام ، يعيشان فى كنفه ، وتحت رعايته ، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة ، باسم المرتضى . ولما قتل المرتضى فى المعركة التى نشبت بين أنصاره ، وبين البربر أمام غرناطة ، فى سنة ٤٠٩ هـ ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم ، ولبث فى ألبونت

---

(١) وهى بالإسبانية Alpuenre

(٢) المقرى نقلا عن الحجارى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ .

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله ، ولبث مقيما فى أليونت مدة عامين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له فى قرطبة . ثم سار بعدئذ إلى قرطبة ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، حيث جددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين(١) .

واستمر عبد الله بن قاسم فى حكم إمارته الصغيرة ، حتى توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمن الدولة ، وحكم ألبونت زهاء اثنتى عشرة عاما . ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت فى عهده . ولما توفى فى سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، خلفه فى الحكم ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة ، وحكم حتى وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمداً ، وكان فى نحو السابعة من عمره ، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم ، وهو الذى دبر ولاية الأمير الطفل . ولكن هذا العمل لم يرق فى نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل ، وأخى والده أحمد ، وكان يرى نفسه أحق بالولاية ، وتؤازره فى ذلك جماعة قوية من الأنصار ، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه ، وصرف الأمير الصبى إلى حجر أمه ، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر ، وتسلم عبد الله مقاليد الحكم وتلقب بجناح الدولة ، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى ، وتزوج من والدة الصبى أرملة أخيه اتقاء لأطماعها ودسائسها ، وسار فى حكم الإمارة دون منازع .

واستمر عبد الله بن محمد فى حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً ، ولم تقع فى عهده الطويل حوادث ذات شأن ، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى تاريخ مملكة بلنسية . ففى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) زحف السيد بقواته على إمارة ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة ، وإلى أن يؤدى جزية قدرها عشرة آلاف دينار ، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبى مروان بن زرين صاحب شنتمرية الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، استولوا

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ .

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألبونت . وفى رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا فى حكمها حتى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)[١] . ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن المرابطين استولوا على شنتمرية الشرق فى سنة ٤٩٧ هـ ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل ذلك على ألبونت الواقعة فى جنوبها ، وذلك فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م)[٢] .

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم ، وقد أورد له الحجارى صاحب « المسهب » هذه الأبيات :

خلعت عن الملك لكننى   عن الصبر والمجد لا أخلع
رمانى الزمـــان بأرزائه   وغيرى من خطبه يجزع
فليس فؤادى بالملتظى   ولا مقلتى حسرة تدمع
ولى أمل ليتـــه لم يكن   فكم ذا يغر وكم يخـــدع

ومن قوله من قصيدة :

أما لكل نبيه فى العلا حيل   تفضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأبى محافظة   على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعاً بحادثة   إن الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر   والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض[٣]

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٥ .

(٢) راجع فى أخبار إمارة ألبونت : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٨ . وكذلك : R. M. Pidal; ibid. p.360 & 448

(٣) راجع فى رسائل عبد الله وقصائده : قلائد العقيان ص ١٢٧ – ١٣٢ ؛ والمغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ – ٣٩٨ .

الكتاب الخامس

دول الطوائف
فى الثغر الأعلى

الفصل الأول

مملكة سرقسطة

حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

١ – عهـد بني تجيب

مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى . بنو تجيب وتغلبهم عليه . مؤامرة عبد الرحمن التجيبى ضد المنصور وفشلها . ولده يحيى . المنذر بن يحيى وإمارته للثغر . تأييده للخلافة الأموية . محاربته مع الفتيان العامريين . تدخله فى حوادث بلنسية . مسالمته للملوك النصارى . بذخه وأبهته . مديح ابن دراج له . ولده يحيى . منذر بن يحيى الحاجب . مصرعه على يد سليمان بن حكيم . الفتنة فى سرقسطة . سليمان بن هود . استيلاؤه على سرقسطة وبداية عهد بنى هود . تلقبه بالمستعين . حروبه مع المأمون بن ذى النون. استغاثته بملك قشتالة . استعانة المأمون بملك نافار . تفاقم العدوان بين الفريقين . وفاة المستعين . تقسيمه لمملكته بين أولاده . الحرب الأهلية بينهم . أحمد بن هود المقتدر . الصراع بينه وبين أخيه المظفر . كينه لقوات أخيه وفتكه بها . إستيلاء المقتدر على طرطوشة . طرطوشة تحت حكم الفتيان العامريين. غزوة النورمانيين لبربشتر . أصل هذه الحملة وظروفها. صفتها الصليبية. حصار النورمانيين لبربشتر واقتحامهم لها . فظائع النورمانيين وفتكهم بأهلها. رواية ابن حيان. فداحة الغنائم والسبايا . تأملات ابن حيان عن الحادث . نظراته وتكهناته البعيدة . صدى النكبة فى الأندلس . نهوض المقتدر لاسترداد بربشتر وتقاطر المجاهدين إليها . استيلاء المقتدر على المدينة . الفتك بالنصارى وإبادتهم . إعتداء فرناندو ملك قشتالة على أعمال سرقسطة . خضوع المقتدر لأداء الجزية . المقتدر وعلاقته بالملوك النصارى. استعانته بهم . مشاريعه العسكرية . المقتدر وأخوه يوسف المظفر . السيد إلكمبيادور فى خدمة المقتدر . استيلاء المقتدر على مملكة دانية . وفاة المقتدر . تقسيمه للمملكة بين ولديه . صفات المقتدر بن هود وخلاله . شغفه بالعلوم الرياضية . فخامة بلاطه . إنشاؤه لقصر الجعفرية ومجلس الذهب .

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها ، ليس فقط بضخامة رقعتها ، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر ، بين الدول الإسبانية النصرانية ، بين قطلونية من الشرق ، ونافارا أو نبرّه من الشمال الغربى ، وقشتالة من الجنوب والغرب ، وكانت فى الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، وأرسخها جذوراً فى الاستقلال . ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائى فى شمال شرقى الجزيرة ، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

الأخرى ، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها ، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها .

وكانت مملكة سرقسطة ، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، وقبل أن تنتظم فى سلك ممالك الطوائف ، تعرف بولاية الثغر الأعلى ، وهو يشمل فى الجغرافية الأندلسية ، مدينة سرقسطة وأعمالها ، تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، وطركونة ، وطرطوشة ، ويشغل المنطقة الواسعة الخصبة التى يخترقها نهر إيبرو (إبرُه) من مصبه عند مدينة طرطوشة، حتى مدخله عند مدينة قلهرّة فى ولاية نافار ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة أيوب ودَروقة : ففى هذه المنطقة الشاسعة التى تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع الاستراتيجية ، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة ، مشتملة على سائر نواحيها .

وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مسرحاً لمغامرات بنى قسىّ زعماء الثغر المولدين ، حسبما فصلنا ذلك فى مواضعه من العصر الأول[1] .

وفى أواخر هذا القرن ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوبية ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة ، وذلك على يد زعيمهم أبى يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى المعروف بالأنقر . وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه ، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة فى الثغر ، واستمر بنو تجيب فى سرقسطة ، والمتزون من زعماء المولدين فى باقى قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة ، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة ، وأحياناً يخرجون على طاعتها ، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثوراتهم ، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة ، بيد أنه عفا عن بنى تجيب ، ورد زعيمهم محمد ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكما لسرقسطة ، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية ، ولما كان لبنى تجيب فى الشمال من العصبة والأنصار.

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم فى الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية ، وزعامتها المحلية ، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، صاحب سرقسطة أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله . وقد فصلنا أخبار هذه المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامرية(١) ، وبينا كيف استطاع المنصور أن يقبض على عبد الرحمن التجيبى ، وعلى عبد الله ، ثم قضى بإعدامهما ، بيد أنه مع ذلك ندب لحكم سرقسطة ، يحيى بن عبد الرحمن التجيبى استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه ، وذلك فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩م) .

واستمر يحيى التجيبى فى حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة ، وانهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس، وكان جل عنايته فى تلك الآونة العصيبة أن يحافظ على بلاده من عدوان النصارى ، وأن يوطد سلطانه فى مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث . ولما توفى ، خلفه ولده المنذر بن يحيى التجيبى .

ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبى أول أمير للثغر فى عهد الطوائف. فحكم سرقسطة وأعمالها ، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين ، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور ، ولما تطورت الحوادث فى قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، كان المنذر بن يحيى إلى جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين فى معارضته ومقاومته . ولما رشح هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمرتضى ، وساروا معه هم وأنصارهم فى قواتهم لمقاتلة البربر ، وخلع على بن حمود ، سار معهم المنذر بن يحيى فى بعض قواته ، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة حليفه الكونت رامون أمير برشلونة ، وكان من ضباطه فى تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن فى تطور الحوادث فى الثغر الأعلى هو سليمان بن هود . ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التى اضطرمت يومئذ فى ظاهر غرناطة بين القوات الأندلسية ، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، وكيف

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى (٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م)[١] .

وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة ، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر . ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك فى أواخر سنة ٤٠٨ هـ ، وخلفه فى حكمها الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، عاد أهل بلنسية فسخطوا على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير ، وإفساحه له مجال التدخل فى شئونها بصورة ظاهرة ، وثاروا عليه ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، واستمر مجاهد فى حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية . ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك ، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى ، فسار فى بعض قواته صوب بلنسية ، واستعد مجاهد للقائه، ووقعت بينهما بعض معارك خشى الناس عواقبها ، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع ، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ، وتعيينه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) وعندئذ انسحب مجاهد إلى دانية ، وعاد المنذر إلى سرقسطة[٢] .

واستمر المنذر فى حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام أخر حتى توفى فى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى، ولاسيما رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة ، وكذلك كانت تربطه مثل هذه العلائق بسانشو الكبير (شانجه) ملك ناڤار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة، وألفونسو الخامس ملك ليون . وقد بالغ المنذر فيما يبدو فى صداقته لأولئك الملوك النصارى ، حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة ، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء ، هما سانشو ملك ناڤار ورامون بوريل أمير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين ، فسخط عليه الناس من أجل ذلك ، ورموه بألسنة حداد ، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧ . وراجع Dozy : Hist. V. II. p 315—318

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أولئك الملوك النصارى ، وكف عاديتهم عن بلاده ، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة الموادعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين . ومن ثم فقد تمتعت سرقسطة فى عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء، وغدت باتساع عمرانها وتقدم أحوالها، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة، وأدرك الناس بعد وفاته، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب(١) .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ ، فملأ قصره الفخم بالجوارى والغلمان والحشم ، ونفيس الذخائر والتحف ، وكان يتحف أصدقاءه ملوك النصارى بالهدايا الفاخرة ، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم وكان بين وزرائه بعض أكابر كتاب العصر ، مثل أبى العباس بن مروس من تدمير ، وأبى عامر ابن أزرق ، وابن واجب وغيرهم .

وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن دراج القسطلى فى مديح المنذر حينما وفد عليه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسرى ... صبح بروح السفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حجب الدجى ... فجرا بأنهار الندى متفجرا

ومنهـا :

فلئن تركت الليل فوق داجياً ... فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضاً بُدلت حصباؤها ... ذهباً يرف لناظرىّ وجوهرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى ... من كان بالقِدْح المعلّى أجدرا(٢)

ولما توفى المنذر ، خلفه ولده يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وحكم سرقسطة وأعمالها بضعة أعوام أخرى ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) . والظاهر أنه لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع والحصون .

وخلفه فى الملك ولده المنذر بن يحيى ، وتلقب بالحاجب معز الدولة . ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير فى المدة التى حكمها ، وهى نحو عشرة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع دوزى Recherches, V. I. App. XIV & XVII

(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة . وقد وردت فى ديوان ابن دراج الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٤ — ١٣٠ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول — ص ٥٦ — ٥٨) .

أعوام . بيد أن لدينا تفاصيل مقتله ، وذهاب ملك بنى تجيب على يده . وكان ذلك فى غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (أغسطس ١٠٣٩ م) حينما نفذ إلى قصره فى ذلك اليوم رجل من بنى عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم ، جاء بزعم السلام عليه ، وكان يضمر له السوء منذ بعيد . وكان المنذر يجلس بين نفر قليل من خدمه الصقالبة ، وليس عليه إلا غلالة ، وهو يقرأ فى كتاب فى يده ، فانقض عليه وطعنه فى عنقه بسكين كان قد أعده ، فقطع أوداجه ، وفر الخدم فى الحال ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهم حاول الدفاع عن سيده ، فصرعه عبد الله بخنجره ثم أجهز على منذر ، واحتز رأسه ، وأبرزها من شرفة فى القصر مرفوعة على عصا ، وهو يصيح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً ، يريد بذلك الدّعى الذى نصبه القاضى ابن عباد فى إشبيلية ، وزعم أنه الخليفة هشاماً المؤيد ، وذلك فى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء الطوائف ، ورفض يحيى التجيبى يومئذ الاعتراف به ، وتابعه فى ذلك ولده المنذر . ولما شهد الناس رأس منذر بهتوا وعقد الذعر ألسنتهم ، وأرسل القاتل فى الحال إلى القاضى والأعيان، فحضروا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله ، وجثة منذر مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه ، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل فى سبيل الإصلاح العام ، ودعا بالحكم لسليمان بن هود، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنو عمه للولاية فانصرف الناس ، وقد بيتوا القضاء عليه .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحيى التجيبى قد ذاع فى كل مكان ، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر ، واشتد الهرج فى سرقسطة ، وكادت تعصف بها الفتنة ، وهجم الناس على القصر لانتزاع القاتل ومعاقبته ، فتحصن بالقصبة ، وصمم على الدفاع عن نفسه ، بيد أنه لما أيقن أنه سوف يقع فى أيدى مهاجميه لامحالة ، جمع ما استطاع من ذخائر القصر وتحفه ، وخرج هارباً من باب خلفى فى القصر ، ولحق بقلعة روطة أحد معاقل سرقسطة المنيعة ، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه ، وحمل معه فى نفس الوقت أخوين للمنذر ، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم ، فى الأصفهاد ليكونوا رهائن لديه، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخربوه، وعم الهرج والفوضى .

وفى تلك الآونة ظهر فى الميدان رجل ، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة، وينتزع مقاليد الحكم . ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، وهو كبنى تجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق ، وجدهم الأعلى هو هود وهو الداخل إلى الأندلس وينتسب إلى الأزد . وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من كبار الجند بالثغر الأعلى ، فغلب على مدينة لاردة ، وقتل صاحبها يومئذ ، وهو أبو المطرّف التجيبى ، ثم غلب على تُطيلة من أطراف الثغر ، وكان بها فى جمع من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى ، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة ، هرع إليها فى صحبه ، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة ، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور . ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة ، وأن الملك القتيل لم يكن هو المنذر معز الدولة ، وإنما كان أبوه يحيى المظفر ، وهو الذى كان يحكم يومئذ ، ويضع تاريخ هذا الحادث فى سنة ٤٣١ هـ[١] .

ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل ، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا بيحيى بن المنذر بن يحيى ، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود[٢] . بيد أن هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة ، وهى التى اتبعناها فيما تقدم ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب[٣] .

وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود فى صحبه إلى سرقسطة ، واستولى عليها فى غرة المحرم سنة ٤٣١هـ (٢٣سبتمبر سنة ١٠٣٩ م) وسواء أكان استيلاؤه عليها نتيجة لدعوة أهلها ، واختيارهم إياه لولايتها ، أم كان عملا من أعمال القوة وهو الأرجح ، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع ، وبذلك انتهت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى ، بعد أن لبثت زهاء قرن ونصف ، وبدأت فى سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هى أسرة بنى هود ، التى يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف ، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها[٤]

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠ .

(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة فى البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ — ١٨١ ، وقد عاد صاحب البيان فأورد رواية مماثلة : ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

(٤) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٤ . والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦ .

والتى لعبت فى عصر الطوائف ، ولاسيا فى حوادث الثغر الأعلى وشرقى الأندلس ، أعظم دور .

٢ — عهد بنى هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة فى غرة المحرم سنة ٤٣١ ﻫ وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة ، التى كانت بيد بعض الفتيان العامريين ، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله ، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه ، فاشتهر أمره ، وتوطد ملكه بسرعة ، واستمر فى حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام . وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون . وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين ، من ناحية الجنوب الغربى من مملكة سرقسطة وناحية الشمال الشرقى من مملكة طليطلة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن بنى ذى النون كانوا خؤولة للمنذر بن يحيى آخر أمراء سرقسطة من بنى تجيب ، وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه ، فكان ذلك عاملا آخر فى اشتداد هذه الخصومة . ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة وادى الحجارة ، وقد كانت من أعمال طليطلة ، فبعث إليها سليمان بن هود ولده أحمد فى جيش قوى فنازلها واحتلها ، وذلك فى سنة ٤٣٦ ﻫ (١٠٤٤ م) ، وهرع إليها المأمون بن ذى النون فى قواته ، ونشبت بين الجيشين معارك هزم فيها ابن ذى النون ، فارتد فى قواته إلى طلبيرة ، وابن هود يطارده ، ويشدد الضغط عليه ، ولم ينج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد بتركه وشأنه .

وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع ، وبينا كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة ، فاستغاث به واعترف بطاعته ، وكيف أمده فرناندو بجنده ، فعاثت فى أراضى مملكة سرقسطة وخربتها ، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة ، وبذل له أموالا وتحفاً جليلة ، فبعث فرناندو جنوده فعاثت فى أراضى طليطلة حتى وادى الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس) . ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك نافار واستماله بالأموال الجليلة ، فأغار على أراضى مملكة سرقسطة المجاورة له ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضى طليطلة مرة أخرى . وهكذا تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون « الأميرين المشئومين

على المسلمين » وفقاً لقول ابن حيان ، وضج لها سائر أهل الأندلس . واستمر ملكا قشتالة ، ونافار ، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة ، فيغير الأول على أراضى طليطلة لحساب ابن هود ، ويغير الثانى على أراضى سرقسطة لحساب ابن ذى النون ، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بوفاة ابن هود وذلك فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل[1] .

وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة ، فاختص أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة ، ويوسف بولاية لاردة ، ولب بولاية وشقة ، والمنذر بولاية تُطيلة ، ومحمد بولاية قلعة أيوب[2] ، واستقل كل بحكم مدينته ، وأعمالها . بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملا سليما ، وكان بالعكس نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية . وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطماعاً ، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما فى أيديهم . وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل ، وهم لب صاحب وشقة ، والمنذر صاحب تطيلة ، ومحمد صاحب قلعة أيوب ، وأن يستولى على مدنهم ، ثم سجنهم ، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم . بيد أن أخاه يوسف صاحب لاردة ، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر ، كان له نداً ، وكان بطلا شهما ، وهو الذى استطاع وحده أن يقف فى سبيل أطماعه ، وأن يحبط محاولاته ودسائسه .

وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، وكان أهل الثغر حينما رأوا ما صنعه أحمد بأخوته ، وما لجأ إليه من الوسائل الغاشمة فى اغتصاب ولاياتهم . قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه ، وخرجت معظم القواعد عن طاعته ، وانضمت إلى أخيه ، ولم يتبق له سوى سرقسطة . فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه ، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد . ذلك أن مدينة تطيلة ، وهى من القواعد التى انضمت إلى يوسف المظفر ، دهمتها المجاعة والغلاء ، فاستغاث به أهلها ، فدعا أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن ، فاجتمع منها قدر عظيم ، ورأى يوسف

---

(١) راجع فى أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ – ٢٨٣ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وكذلك Dozy : Histoire V III., p. 74 & 75

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca ، وتطيلة Tudela ، وقلعة أيوب Calatayud

أنه لايستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر أخيه ، ففاوض غرسية ملك ناڤار ، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المؤن عبر أراضيه إلى تطيلة ، فأجابه إلى طلبه . وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية ، يبذل له ضعف الأموال التى بعثها إليه أخوه ، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المؤن حين مرورها داخل أرضه ، فاستجاب الملك النصرانى إلى ذلك الإغراء الدنىء ، وتم ما دبره أحمد . ذلك أن قافلة المؤن ، وكانت تتكون من بضع آلاف من الجند ، وعدد كبير من الخيل والدواب ، ماكادت تجوز أراضى ناڤار ، شمالى شرقى تطيلة ، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التى رتبها بممالأة غرسية ، وفتكت بها ، وأبيد معظم رجالها قتلا وأسراً ، واستولى النصارى على أسلابهم ، وما كان معهم من المؤن ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وكانت واقعة شنيعة تنبىء عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار . وكان من أثرها ، أن ضعف أمر يوسف ، وتوطد سلطان أحمد ، واشتد بأسه ، وهابه الناس ، واسترد القواعد التى كانت تحت يده[1] .

وكانت ضربة المقتدر التالية ، استيلاؤه على ثغر طرطوشة . وكان هذا الثغر الذى يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر ، إذا استثنينا ثغر طركونة الواقع على حدود إمارة برشلونة ، والذى كان من أعمال لاردة ، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين . وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لبيب العامرى ، وكان حازماً قوى البأس ، وحاول المنذر بن يحيى التجيبى أن ينتزعها منه فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمده بجنده ، ورد عنها المنذر ، ولما توفى مبارك فى سنة ٤٠٨ هـ ، خلفه لبيب فى حكم بلنسية بدعوة من أهلها ، ولما اختلف على ذلك مع زميله مجاهد العامرى ، عاد إلى طرطوشة واستمر فى حكمها حتى توفى فى ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، فخلفه فى الحكم فتى آخر من الصقالبة العامريين يدعى مقاتل ، وتلقب بسيف الملك ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) . فخلفه الفتى يعلى من موالى العامريين أيضاً ، ثم حكمها من بعده الفتى نبيل . وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان الصقالبة على طرطوشة بعين السخط ، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

الهام من أعمال مملكته . وأخيراً سنحت هذه الفرصة ، حينما اضطرمت طرطوشة ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر فى قواته فسلمها إليه نبيل فى الحال وخرج عنها ، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقالبة بها (٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م)[١].

* * *

على أن أعظمُ حادث أوبعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر[٢] ، وفتكهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ . وقد دون لنا ابن حيان ، وكان يعيش فى قرطبة وقت وقوع هذه المحنة ، تفاصيلها بإسهاب ، وبعبارات مؤثرة مبكية . ذلك أن حملة كبيرة من النورمانيين (أو الأردمانيين فى الرواية العربية) تقدرها الرواية بعشرة آلاف فارس، بقيادة جيوم دى مونرى ، نزلت بشاطىء قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضى مملكة سرقسطة الشمالية . وقد اختلفت الرواية فى تكييف ظروف هذه الحملة وفى مصدر قدومها ، وفيمن نظمها وقادها . بيد أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها ، أنها حشدت فى ولاية نورمانديا الفرنسية، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا ، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ فى طلب المغامرة والكسب ومعهم جموع كبيرة من الفرسان الفرنسيين . أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى . وكان جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر ، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . أما بواعث قيادته لهذه الحملة ، ولماذا قصدت إلى شاطىء قطلونية ، فما يحيط به الغموض . على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التى تستتر بالصفة الصليبية ، والتى تقصد العيث والنكاية ، والغنم والسبي فى أراضى المسلمين أينما كانت . ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة ، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا اسكندر الثانى[٣]. والرواية الإسلامية صريحة واضحة فى أن هذه الحملة قد قدمت

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وكذلك :
P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 38 & 39

(٢) هى بالإسبانية : Berbastro

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes p. 453

من فرنسا . فهى تقول لنا « إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) إلى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد إلا الله ، وانتشروا على ثغور سرقسطة »[1] . ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه الحملة قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه ، أم جازت إلى قطلونية بطريق البحر . وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان فى قطلونية واجتازوا إلى أراضى مملكة سرقسطة ، إذ كانت تحمى مؤخرتها أرض نصرانية هى مملكة برشلونة . وقصدوا أولا إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية ، فنازلوها أياماً ، ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر ، وهى لا تقل عن وشقة أهمية وحصانة .

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إيره بين مدينتى لاردة ووشقة ، فى الشمال الشرقى لسرقسطة ، وكانت يومئذ من أمتع القواعد الإسلامية الشمالية . فنزل عليها النورمان ، وضربوا حولها الحصار ، وذلك فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) . ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة المحصورة ، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر ، فكان ذلك منه جبناً ونذالة ، أدرك عواقبهما فيما بعد ، ولم يستطع يوسف نفسه إنجادها ، فتركها لمصيرها . واستمر الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة ، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر ، وتخوض مع الأعداء معارك شديدة ، ثم ترتد إلى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة ، وعزت الأقوات ، وقع الهرج والتنازع بين أهلها ، وعلم النورمان بذلك ، فشددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة الخارجية ، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة ، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة ، لولا أن حدث حادث عجل بوقوع الكارثة . ذلك أن القصبة كان يمدها بالماء سرب داخلى تحت الأرض متصل بالنهر ، فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة ، وانقطع

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ . وراجع أيضاً الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠ حيث يقول لنا فى كلامه عن بربشتر : « وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة ، أهل غاليش والروذمانون » . وغاليش هى فرنسا ، والروذمانون هم النورمان .

الماء عن المحصورين ، واشتد بهم الظمأ وبدا لهم شبح الموت جاثماً ، فبعثوا إلى النورمان يعرضون التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق النورمان على ذلك . وفى رواية أخرى أن النورمان أبوا ذلك ، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم ، حتى اقتحموا عليهم المدينة .وعلى أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وسبياً ، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل ، وقاضيها ابن عيسى ، ونفر قليل من الأعيان .

وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع ، وتقدر عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً[1] أو بخمسين ألفاً ، بل بمائة ألف فى رواية أخرى ، وهلك عدد كبير من النساء ، حينما تطارحن على الماء لإرواء ظمئهن، فكبسهم العدو للأذقان موتاً . ولما خرجت الجموع من المدينة فى ظل الأمان المقطوع ، ورأى قائد النصارى كثرتهم ،هاله ذلك ،وخشى أن تأخذ الجموع الحمية ، فيهبوا لاستنقاذ أنفسهم ،فأمر ببذل السيف فيهم ليخفف من أعدادهم ، فقتل منهم عندئذ مايزيد على ستة آلاف . ومات خلال الزحام كثير من الشيوخ والأطفال، وتدلى كثير من الأسوار اتقاء الزحمة،وامتنع نحو سبعمائة رجل بالقصبة ، فمات معظمهم عطشاً . على أن ذلك لم يكن أشنع مانزل بالمسلمين بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى لايخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين وأنذلهم ، ونحن نترك القول هنا لابن حيان ، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من تلك المناظر البشعة المؤسية :

« ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك فى الزحمة ، ظلوا قياماً ذاهلين ، منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره ووطنه بأهله ، وأزعجوا لذلك ،فنالهم من الازدحام ، قريباً مما نالهم فى الخروج عنها . ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم،اقتسمهم المشركون ، فأمر سلطانهم ، فكل من صارت فى حصته دار حازها ، وحازمافيها من أهل وولد ومال . فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم ، يأخذ كل ما أظهره إليه ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ .

ويقرره عليه فيما أخفى ، وبعذبه أشد العذاب ، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح ، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك . فإن عداة الله يومئذ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ، وعلى أعينهم إبلاغاً فى نكايتهم ، يغشون الثيب ، ويفتضون البكر ، وزوج تلك ، وأبو هذه ، موثق بقيد أسره ، ناظر إلى سخنة عينيه ، فعينه تدمع ، ونفسه يتقطع . ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله ، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثته ، فبلغ الكفرة منهم يومئذ مالاتلحقه الصفة على الحقيقة ، والحول والقوة لله العظيم » .

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبي والغنائم ، ولاسيما النساء والأطفال . يقول ابن حيان « زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل» ثم يقول بعد ذلك « ولما عزم ملك الروم (يريد قائد النورمان) على القفول يومئذ من بربشتر إلى بلده ، تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الأيفاع ، والخود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه » . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهن إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف ، ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف « بكر منتخبة »[1] .

وربما كان فى تلك الأرقام — أرقام القتلى والأسرى والسبايا — مبالغة. ولكنها تدل على أى حال ، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التى وصفها لنا المؤرخ المعاصر ، على فداحة الخطب الذى نزل بأهل بربشتر ، وعلى مبلغ تجرد أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية ، وهو خطب كان حسبما يصفه ابن حيان « أعظم من أن يوصف أو يتقصى » . ولما وصلت أنباؤه إلى قرطبة فى أوائل رمضان (٤٥٦ هـ) ، حيث كان يقيم المؤرخ ، وذاعت فى مختلف الأنحاء اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك الفظائع والشناعات التى لم يسمع بمثلها .

وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان ، ونظراته النقدية الصائبة ، وإليك من أقواله تلك الفقرة التى تدلى بالنذير والنبوءة الصادقة ، وتفيض

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠ . وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربشتر .

بالتوجع لأحوال عصره . قال : « قد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ماعهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك مالحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لاقدس — بهيم الشبه ، ما إن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أوماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء ، عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »[1] .

ولما غادر الغزاة النورمان بربشتر بعد اقتحامها ، والفتك بأهلها ، والاحتواء على أموالها ، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة ، وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل ، واستقدموا إليها كثيراً من أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم ، وساروا عائدين إلى بلادهم ، وفى ركبهم ألوف من سبى المسلمين نساء ورجالا ، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة . وكان صدى النكبة قد نفذ

---

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بربشتر ، عن الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب . وراجع فى ذلك أيضاً البيان المغرب ومعظمه أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك Dozy : Histoire V. III. p. 78 & 79 - Recherches; -3eme Ed. V. II. p. 335-353 وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها .

إلى الأعماق ، واهتز لها أمراءالأندلس قاطبة ، وفى مقدمتهم المقتدر بن هود ، وهو الذى شهدها عن كثب ، ولحقه من جرائها أكبر وزر ، واتجه إليه أشد اللوم لتقصيره فى إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها ، وهى من أخص قواعد ثغره . واستنفر الناس للجهاد ، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من المتطوعة والرماة ، ساروا إلى الثغر جهاداً فى سبيل الله ، وبعث المعتمد بن عباد نجدة من خمسمائة فارس ، وسار المقتدر بن هود فى قواته ، وقوات الأمداد المختلفة إلى بربشتر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (ربيع سنة ١٠٦٥ م) وضربوا حولها الحصار ، وامتنع النصارى داخل المدينة ، لما رأوه من كثرة جموع المسلمين ، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية الرماة ، ونجحوا فى إحداث ثغرة كبيرة فيها ، ثم اقتحموا المدينة بشدة، فغادرها النصارى من الناحية الأخرى، وحملوا على محلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة مزق فيها النصارى وهلك معظمهم ، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم وأبنائهم ، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلا وهى مبالغة واضحة ، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة فى أن خسائر النصارى كانت فادحة ، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة ، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف ، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح وأموال كثيرة . وكان استرداد بربشتر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر(١) . وبذلك جبر الصدع ، ورفعت المعرة، وأثلجت صدور المسلمين . وعلى أثر هذا الفتح الجليل اتخذ بطله ابن هود لقب المقتدر بالله(٢) .

* * *

وشغل المقتدر بن هود فى الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التى اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى . وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية النصرانية الثلاث ، أراجون ونافار وقشتالة ، هدفاً مستمراً لأطماع الملوك

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤١ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

النصارى ، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية ، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها . وفى خلال ذلك ، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالجند النصارى ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال . وكان فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ١٠٦٠م (٤٥٢ هـ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية الغربية ، واقتطع منها حصن غرماج ، وبعض حصون أخرى ، فاضطر المقتدر أن يذعن لدفع الجزية . ولما توفى فرناندو فى سنة ١٠٦٥ ، وخلفه ولده سانشو فى ملك قشتالة ، وفى حقوق الجزية على سرقسطة ، حاول أن يتدخل فى شئون سرقسطة وبعث إليها بقواته فى سنة ١٠٦٧ فحاصرتها ، اقتضاء للجزية المطلوبة ، وكان يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردريجو دياث أو السيد إلكمبيادور ، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة فى حوادث شرقى الأندلس ، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والأقمشة الفاخرة ، أداء للجزية المطلوبة ، وأن يبعث برهائنه فى الوقت نفسه ، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة(١) .

وكان المقتدر فى الوقت الذى تصفو فيه علائقه مع جيرانه النصارى ، يستمد العون منهم فى مشاريعه العسكرية ، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر ، كما حدث فى سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضى مملكة سرقسطة ، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة ، فبعث إليه ولده سانشو فى بعض قواته ، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل ، وكان ردريجو دياث — السيد فيما بعد — يومئذ من ضباط الجيش القشتالى .

ولما خلص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو ، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها فى نفس الوقت سانشو راميرز ملك أراجون وناڤار ، بعد أن ورث عرش ناڤار ، وكان المقتدر يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك ناڤار . وكان يستعين فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس (الناڤاريين) والقطلان ، واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره .

وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة ، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٩ ، وكذلك R. M Pidal : ibid; p. 159 & 160

ابن عباد — وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلات ودية وثيقة — يخبره فيها بقصته مع أخيه المظفر ، ويرميه فيها بالظلم والحسد ، ومجانبة العدل والإنصاف ، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم ، فأبى ، واضطر إلى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وألزمه البقاء فى قصبة منتشون . ثم يقول معتذراً عن مسلكه : « وللنفس يعلم الله مما حمانى عليه ارتماض وإشفاق ، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق ، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا ، ولا جعلنى إلى سواه محيلا ، وكان فيما يأتيه أعق ، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق »[1]
والظاهر أن الحوادث التى يشير إليها المقتدر فى رسالته قد وقعت فى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) . وفى بعض الروايات القشتالية ، أن المقتدر بعد أن استولى على أملاك أخيه اعتقله بقلعة روطة ، وهنالك استمر فى اعتقاله حتى توفى بعد ذلك بثلاثة أعوام (٤٧٥ هـ) ، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هو ما يرويه المقتدر نفسه فى رسالته .

ولما أعيت المقتدر الحيل فى إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية ، انتهى رأيه إلى الاستعانة بخدمات ذلك الفارس القشتالى ، الذى عرفه من قبل بين ضباط قشتالة محارباً بارعاً ، وهو ردريجو دياث دى بيبار ، وكان يومئذ قد ساءت علائقه مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه ، فخرج يبحث عن طالعه ، وهكذا عقدت العلائق بين « السيد » وبين المقتدر ، وكان المقتدر أول من أولاه رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين ، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٠ م قبيل وفاة المقتدر بقليل[2] .

ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة ، استيلاءه على مملكة دانية من صهره ، زوج ابنته على إقبال الدولة فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة دانية . وقد غدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد إلى شرقى الأندلس ، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة ، بل ربما أعظمها جميعاً . وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرقى الأندلس ، سبيل التطلع إلى مملكة بلنسية

---

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (لوحة ١١٨ و ١١٩) .

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب . وكذلك : R. M. Pidal : ibid ; p. 282 & 283

والتدخل فى شئونها ، حسبما سبق شرحه فى موضعه فى أخبار مملكة بلنسية ،
وتوفى أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) من كَلَب شديد أصابه من عضة كلب ، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت فى ظل بنى هود ، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية ، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعتها ، تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وكان النصارى يعيشون فى ظل بنى هود ، فى ظروف حسنة ، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية ، وقد شجع هذا التسامح الذى أثر عن بنى هود نحو رعاياهم النصارى ، راهبا فرنسيا ، على أن يكتب إلى المقتدر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية ، وبعث رسالته المذكورة مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتدر تعاليم الدين المسيحى ومزاياه[1] ، فاستقبل المقتدر الرسولين برفق وكياسة ، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من جرأة وتهجم صارخ ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبى الوليد الباجى ، وكان يومئذ يعيش فى سرقسطة فى كنفه وتحت رعايته ، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب ردا ، يفند فيه دعاوى الراهب فى رسالته ، ويبين ما تنطوى عليه هذه الدعاوى من بطلان وتناقض . فكتب الباجى رده المشهور على هذه الرسالة ، وهو رد مسهب ، يفيض منطقاً وبلاغة ، وفيه يفند الباجى مزاعم الدين المسيحى ، وألوهية المسيح وغيرها ، بقوة ، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح ، ويدعو الراهب بالعكس إلى اعتناق الإسلام ، وينوه بمعجزة القرآن وروعته ، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها .

وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف . ويصفه الحجارى فى المسهب بأنه « عميد بنى هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم » . وكان فضلا عن

---

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسى فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى ، عقب رسالة ابن غرسية والرد عليها ، ودونت من بعدها رسالة أبى الوليد الباجى فى الرد على الراهب المذكور ، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة ، وقد نشر الأستاذ دنلوب D. M. Dunlop نص الرسالتين فى مجلة الأندلس Al-Andalus Vol. XVII, 1952 ، وقرنهما بترجمة انجليزية .

مقدرته السياسية والعسكرية التى رأيناها تبدو فى كثير من أعماله ومشاريعه ، وبالرغم مما كانت تنطوى عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة ، يتمتع بكثير من الخلال البديعة ، فقد كان أميراً عظيما يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب فى عصره ، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبوالوليد الباجى ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، ووزيره الكاتب اليهودى المسلم أبوالفضل ابن حسداى السرقسطى ، وكان كلاهما من أعلام عصره فى البلاغة والأدب . بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك ، وقد كتب كتباً فى الفلسفة والرياضة(١) . وكان قصر المقتدر وهو المسمى بقصر « الجعفرية » نسبة إلى كنيته ، وهى « أبو جعفر » ، من أعظم وأفخر القصور الملكية فى تلك العصور ، وقد اشتهر فى تاريخ الفن الإسلامى باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذى زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة ، والذى كان يسمى لذلك بالبهو الذهبى ، أو مجلس الذهب.

وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب   بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافكما   لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة فى يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع ، وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية . ومازالت بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم فى قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية Palacio Aljafería ، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة ، ولم يبق من بنائه الإسلامى سوى بقية مشوهة من مسجده السابق .

وكان المقتدر ، فوق شغفه بالعلوم ، أديباً ينظم الشعر ، وقد نسب إليه الحجارى صاحب المسهب قوله :

لست لدى خالقى وجيهاً   هذا مدى دهرى واعتقادى
لو كنت وجْهاً لما برانى   فى عـــالم الكون والفساد (٢)

---

(١) Dozy : Histoire ; Vol. III. p. 163-R. M. Pidal : ibid, p. 282

(٢) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة) ج ١ ص ٤٣٧ .

الفصل الثانى

مملكة سرقسطة

منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين

الصراع بين المؤتمن والمنذر . معركة قلعة المنار . حاكم روطة وكينه للنصارى . موقف السيد الكمبيادور . تحالف المنذر وسانشو راميرز . السيد ونفوذه لدى المؤتمن . حملة ابن بسام على بنى هود . وفاة المؤتمن . صفاته العلمية . ولده أحمد المستعين . مسير ألفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرته إياها . يرفع الحصار عند مقدم المرابطين . حروب المستعين . تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه . الخطر على مملكة سرقسطة . استيلاء ملك أراجون على منتشون . تهديده لوشقة . اتجاه المستعين إلى الاستنجاد بالمرابطين . سفارته لأمير المسلمين . استعانته بملك قشتالة . محاصرة سانشو راميرز لوشقة . وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار . مسير المستعين وحلفاؤه لإنجادها . موقعة الكرازة . هزيمة المستعين وسقوط وشقة . إستيلاء المرابطين على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية . استيلاؤهم على شرق الأندلس . استنصار المستعين بالسيد . انشغال السيد فى بلنسية . إتجاه المستعين إلى المرابطين . سفارته الثانية لأمير المسلمين . وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه ألفونسو مكانه . مسيره إلى تطيلة . مسير المستعين لإنجادها . سقوط تطيلة ومقتل المستعين . ولده عبد الملك عماد الدولة . دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين لخلع بنى هود . استصراخ عماد الدولة لأمير المسلمين . زحف المرابطين على سرقسطة واستيلاؤهم عليها . انتهاء حكم بنى هود . التجاء عماد الدولة إلى حصن روطة . خضوعه لحماية ملك أراجون . ولده سيف الدولة . نزوله عن روطة لألفونسو ريمونديز . سرقسطة أيام بنى هود . اشتهارها بالدراسات الرياضية والفلسفية . ابن باجة وحياته العلمية . أبو بكر الطرطوشى وكتابه سراج الملوك . نظريته فى عصبية الدولة ورد ابن خلدون عليها . سرقسطة ومساهمتها فى الحركة الأدبية . دورها فى التبادل الحضارى والثقافى . دورها فى التبادل التجارى .

عادت الحرب الأهلية القديمة التى اضطرمت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة ، تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب سرقسطة ، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة .

وقد استعان كلا الأخوين فى تلك الحرب الانتحارية بالنصارى ، فكان المؤتمن يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل « السيد » وجيشه من المرتزقة القشتاليين وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد ، يستعين بسانشو راميرز ملك أراجون ، ورامون برنجير أمير برشلونة .

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة، وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة ، وشحنها بالمقاتلة ، ولما شعر أخوه المنذر بخطرها على أملاكه سار فى قوة مشتركة من حلفائه ، أمير برشلونة وبعض صغار الأمراء الإفرنج فى شمال قطلونية ، وحاصر هذه القلعة ، فسار المؤتمن والسيد فى قواتهما لإنجادها ، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنجير (١٠٨٢ م) .

ووقع فى ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علائقه ببلاط سرقسطة. ذلك أن حاكم قلعة روطة التى كان معتقلا بها المظفر ، اعتزم الخروج والثورة بالتفاهم مع سجينه ، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه ويعده بتسليم القلعة ، فسار ألفونسو إلى روطة فى بعض قواته ، وكان المظفر قد توفى عندئذ فجأة ، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر ، وبعث ألفونسو بعض أكابر ضباطه ، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة ، وما كادوا يجوزون إلى الداخل ، حتى انهال عليهم وابل من الصخور ، فقتلوا جميعاً (١٠٨٢ م) وعاد ألفونسو ، وهو يضطرم أسى وتحرقاً إلى الانتقام .

وكان السيد عندئذ فى تطيلة ، فلما وقف على هذا الحادث المحزن ، هرع فى صحبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه ، ويلتمس العفو ، والإذن بالعود ، فعفا عنه الملك وصحبه معه إلى قشتالة . ولكن مقامه بها لم يطل . ذلك أن ألفونسو عادت إليه هواجسه القديمة نحو السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة ، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة . ويحاول الأستاذ بيدال أن يستدل بتصرف السيد فى هذا الحادث على أنه لم يكن فى خدماته لبلاط سرقسطة جندياً أجيراً ، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية(١) .

وعاد السيد إلى مهمته القديمة فى محاربة أعداء المؤتمن ، وخرج مع المؤتمن فى قواته ، وعاثا فى أراضى أراجون ، ثم عادا إلى حصن مونتشون . ورد سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس. وغيرها من حصون الحدود (ابريل ١٠٨٣ م) . ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p. 290

وسارا فى قواتهما لمحاربة السيد ، والتقى الفريقان فى أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة ؛ فهزم المنذر وحليفه، واستولى السيد على معسكرهما، وعلى كثير من الأسرى . واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أجمل استقبال .

وعلا شأن السيد فى بلاط سرقسطة، وتوطدت مكانته ، واشتد نفوذه على المؤتمن . فكان لايبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته ؛ وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانة الممتازة التى أحرزها السيد فى بلاط سرقسطة ، وإلى الحملة اللاذعة التى شهرها ابن بسام من أجل ذلك على بنى هود[1] ، كما أشرنا إلى ماكان يجيش به المؤتمن من الأطماع نحو مملكة بلنسية، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته فى هذا المشروع وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقته أن يحبط هذا المشروع وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن ، أحمد المستعين .

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه ، فخلفه فى حكم سرقسطة وأعمالها ، ولده أحمد ، وتلقب بالمستعين ، وبقى الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر .

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية ، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً، وفلكياً ممتازاً، وكتب فى العلوم الرياضية ، رسالته المسماة « الإستكمال »[2] ، التى ترجمت إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى، والتى توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطى. بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربى.

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين، ويعرف بالمستعين الأصغر . وما كاد يبدأ حكمه حتى ألفى نفسه أمام حدث خطير . ذلك أن ألفونسو السادس ما كاد ينتهى من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥م)

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ .

حتى اعتزم العمل لانتزاع سرقسطة ، فسار إليها فى قواته ، وضرب حولها الحصار ، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت . وحاول المستعين أن يرده عن عزمه ، وأن يقنعه برفع الحصار ، فعرض عليه أموالا جليلة فرفض ألفونسو ، وأصر على أخذ المدينة(١) ، وأذاع عماله فى سكان الأراضى المجاورة أنه سوف يطبق أحكام القرآن ، ولن يقتضى منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع ، وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمى طليطلة موضع عنايته ورعايته. واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءته الأنباء فى أواخر صيف ١٠٨٦م (أوائل ٤٧٩ هـ) بمقدم المرابطين ، وأنهم عبروا إلى الأندلس ، فحاول عندئذ خديعة المستعين ، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم ، وبعث إليه يقول إنه يقبل الجزية التى عرضها ، فأجاب المستعين ، وكان على علم به ، أنه لن يدفع إليه درهما واحداً (٢) .

وعندئذ اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار ، وأن يهرع فى قواته إلى الجنوب ، بعد أن بعث بصريخه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به فى قواتهم .

ثم كانت واقعة الزلاّقة ، وهزيمة ألفونسو الساحقة ، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦) ، نضعف أمر قشتالة والملوك النصارى ، وانصرف المستعين حينا إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة ودانية طوراً ، ومحاربة ملك أراجون طورا آخر . بيد أنه لم يظفر من وراء هذه المعارك بطائل ، وكانت الهزيمة نصيبه فى معظم الأحيان .

وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية ، منافساً فى ذلك لعمه المنذر . وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته فى هذا السبيل ، ومغامرات حليفه « السيد » ، وكيف تظاهر فى البداية بمعاونته على تحقيق مشروعه ، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره ، وكيف حاول بعد ذلك أن يستعين بمحالفة برنجير كونت برشلونة على محاصرة بلنسية وأخذها ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة ، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو المسيطر على هذا الميدان ، وهو المستأثر بتتبع الحوادث فى بلنسية ، وترقب فرص الاستيلاء عليها ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً .

(١) روض القرطاس ص ٩٣ .

(٢) R. M. Pidal : ibid; p. 331

وماكاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة ، حتى بدا الخطر على مملكة سرقسطة داهماً من ناحيتين : ناحية جيرانها النصارى من الشمال ، وناحية المرابطين من الجنوب . فأما عن الشمال ، فقد بدأ سانشو راميرز ملك أراجون بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة ، وأن يتعهد بأداء الجزية التى أباها من قبل . ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر خطورة . وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة ، وابتنى إزاءها حصناً ، وكان من الواضح أنه يبغى الاستيلاء على هذه المدينة الهامة . والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لايحقق له ما يطمح إليه من السلامة ، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء دينه قد يغدو أنجع ، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة . ومن ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب ومعه هدية جليلة ، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى ، وإنقاذ وشقة ، وهى جناح سرقسطة الدفاعى ، ودرعها من الشمال . والظاهر أن أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين ، ومنعه بذلك من الارتماء فى أحضان النصارى ومحالفتهم فى النهاية ضد المرابطين ، وأدرك فى نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجادها لتبقى بذلك حاجزاً بين المرابطين وبين النصارى ، فاستقبل عبد الملك بترحاب ، وصرفه صرفاً جميلا ، ورد على المستعين بخطاب رقيق ، وبعث إلى ولاته فى شرقى الأندلس بإرسال المدد المنشود ، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين . ولم ير المستعين فى نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة ، فأمده بفرقة من جنده بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاور ولايته مملكة سرقسطة .

وفى تلك الأثناء كان سانشو راميرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها الحصار ، مصمما على ألا يبرحها حتى تسقط فى يده . وكانت وشقة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، فصمدت للحصار بعزم وشدة ، ثم توفى سانشو راميرز فجأة ، وذلك فى شهر يونيه سنة ١٠٩٤م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ، فاستمر فى متابعة الحصار ولده بيدرو الأول . وتوالت الأشهر ، ووشقة صامدة كالصخرة .

وبعث أهل وشقة فى نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود المستعين ، فجهز حشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل الميرة الضخمة ، وأمده حليفه ملك قشتالة بفرقة من الجند النصارى ؛ وسار المستعين فى قواته حتى اقترب من وشقة ، وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده ، وآنس وفرتها وحسن استعدادها ، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها ، ولكن پيدرو عول بالعكس على خوض المعركة ، فترك الحصار ، وسار فى قواته لملاقاة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، فى « الكرازة » الواقعة على مقربة من وشقة ، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ، واشتد فيها الطعان من الجانبين ، وكثر القتل بين المسلمين وحلفائهم ، وهزم المستعين فى النهاية هزيمة شديدة ؛ وقتل من المسلمين عدد جم تقدره الرواية باثنى عشر ألفا أو نحوها ، وكان بين القتلى غرسية أردونس قائد جند قشتالة ؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة فى يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة ، الذى تحدده الرواية الإسلامية . وتقول الرواية الإسلامية : إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين ، يئسوا من النصرة ، والإنقاذ ؛ ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان . وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً ، ودخلها پيدرو فى موكبه الظافر ، وفى الحال صير مسجدها الجامع كنيسة ، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون(١)

هذا عن حوادث الشمال ، وأما عن حوادث الجنوب ، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لييط ، وانتهى بالاستيلاء عليه . ثم عاد فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، وفى تلك المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، غرناطة ، وإشبيلية ، وألمرية ، ثم

---

(١) نقلنا أقوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقه من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس . وراجع فى حوادث سقوط وشقة وما تقدمها : أعمال الأعلام ص ١٧٣ ، والحلل الموشية ص ٥٣ — ٥٥ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان (ص ١٠٤ و ١٠٥) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع أيضاً : P. y Vives و Los Reyes de Taifas p. 49 و R. M. Pidal : ibid, p. 526 & 527

بطليوس ، واستولت الجنود المرابطية كذلك على مرسية ، وأوريولة ، كل ذلك فيما بين سنتى ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ . وفى أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية ، قد توفى فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وخلفه فى الملك ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، تحت وصاية بنى بيطر وهى أسرة قوية ذات نفوذ . وفى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) سار جيش مرابطى بقيادة الأمير ابن عائشة ، واستولى على دانية . وشاطبة وشقورة . والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل .

وهنا شعر المستعين بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، فاتجه إلى حليفه القديم السيد إلكمبيادور ، واستغاث به ، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة يحسب حسابها فى شرقى الأندلس ، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر ؛ أى خطر المرابطين على مركزه فى تلك المنطقة . فاستجاب إلى دعوة المستعين ، وعقد بينهما حلف جديد ، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة ، وعسكر على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد حلفاً آخر مع ملكى أراجون وناڤار . وكان الغرض من عقد هذه المحالفات كلها ، التعاون لدفع خطر المرابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة .

ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب ، واستمر فى مغامراته فى منطقة بلنسية ، حتى تم له الاستيلاء عليها فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه ١٠٩٤ م) ، وأن الجيوش المرابطية لبثت تتحين الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، حتى تم لها تحقيق مشروعها ، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير أبى محمد المزدلى فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) .

وكانت حوادث الشمال قد تطورت فى تلك الأثناء ، وظهرت نيات سانشو راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة ، وبدأ حصاره لمدينة وشقة ، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على محالفة السيد وعونه ، ولاسيما بعد استيلائه على بلنسية ، وانشغاله بالمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، فاتجه إلى المرابطين ؛ وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب يطلب العون من أمير المسلمين ، حسبما فصلنا من قبل . وقد رأينا كيف هزم المستعين وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه .

يقول ابن عذارى ، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة « سما بصر العدو إلى منازلة سرقسطة ، حضرة ابن هود ، فخاطب الطاغية ، أذفونش بن فرذلند

(ألفونسو السادس) فواطأه على منازلتها ، فنزل عليها فى جموع لا ترام، فجعل صاحبها يصعد ويصوب فى إعمال الحيلة ، وتجنيب تلك الجماعة ، ورام تخذيل الأذفونش، فأرغبه فى المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها »[1] . ولكنا لم نجد فى الرواية النصرانية مايؤيد أن ملك قشتالة قام فى هذا التاريخ (سنة ١٠٩٧ م — ٤٩٠ هـ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة : قد أضحى رهناً بخطط المرابطين وغاياتهم ، ولاسيما بعد أن أصبحوا على مقربة من أراضيه ، ومن ثم فقد رأى فى النهاية أن يستبقى مودتهم ، وأن يستمر فى التقرب منهم ، والتماس عونهم وحمايتهم .وفى سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين مرة أخرى (٤٩٦ هـ) ، ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة . وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على بولاية عهده . فقبل الهدية، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية، فرقت فى أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى ، وحضر عبد الملك حفل البيعة ، ثم عاد إلى سرقسطة[2] .

وشعر المستعين بشىء من الطمأنينة ، واعتزم أن يخصص جهوده لمقارعة ملك أراجون ومشاريعه العدوانية ، وكان بيدور ملك أراجون قد توفى يومئذ وخلفه فى الملك أخوه ألفونسو الذى عرف فيما بعد بالمحارب . وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية «بابن ردمير» . وكان أميراً مقداما شديد البأس. ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة ، سوى مدينة تطيلة ، فسار إليها فى قواته، وخف المستعين لإنجادها . ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد تدعى بلتيرة (ڤالتيرا) ، فهزم المسلمون ، وقتل المستعين ، وذلك فى رجب سنة ٥٠٣ هـ (يناير سنة ١١١٠ م)[3] .

---

(١) هذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٥ ، والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٤٠ ؛ وكذلك P. y Vives : Los Reyes de Taifas p. 49 . ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى الجهاد فى سنة ٥٠١ هـ ، وتوغل حتى تطيلة وأرنيط (أرنيدو) وافتتحها ، ثم أدركه النصارى عند العودة وهاجموه بشدة ، فهزم وقتل (أعمال الأعلام ص ١٧٤) .

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى ، وأن يخرجهم من جيشه ، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق ر بتهم ، ولكنه لم ينفذ وعده . وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة ،وحسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً ، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة فى موقعة إقليش فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، وهى الموقعة التى أبيدت فيها القوات القشتالية ؛ وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية . ولما رأى أهل سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لايستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى ، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، وهو فى مراكش ، يناشدونه خلع بنى هود ، وتسلم سرقسطة ، فاستفتى على فقهاءه ،فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة ، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية ، أن يسير إلى سرقسطة. ولما علم عماد الدولة بذلك ، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة ، وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجزاً بينه وبين النصارى، فرق على لملتمسه ، وكتب إلى قائده أن يكف عنه[1] .ولكن الأمر كان قد قضى عندئذ . ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين ، غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، واستقر به ينتظر الحوادث[2] . وفى رواية أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة ، تأهب عبد الملك لمقاومته ، واستنصر بألفونسو ملك أراجون ، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج وقتل ، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك، واستدعوا عامل أمير المسلمين ، فاستولى على سرقسطة وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ[3] . وفى روض القرطاس أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة، ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ ؛وأخرج منها بنى هود وملكها[4] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٢ .

(٢) راجع : Dozy : Histoire, Vol. III. p. 154

(٣) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٥ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٤ .

وهكذا انتهى حكم بنى هود فى سرقسطة ، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل تجيب فى سنة ٤٣٠ هـ . وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى فى الواقع ، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين ، إذا احتسبنا عهد بنى تجيب بها . وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين . وتاريخها فى الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) يرتبط بتاريخ المرابطين.

على أن سقوط سرقسطة ، لم يكن آخر العهد ببنى هود . ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين ، استقر بقاعدة روطة الحصينة[١] ، الواقعة على نهر خالون أحد أفرع إبرُه « الإيبرو » الجنوبية . وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصنوها ، وزودوها بالأبنية الفخمة ، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى ، كلما نزلت بهم نازلة . واستمر عماد الدولة مقيما بروطة ، وهو يشهد الصراع المضطرم بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة . فلما سقطت فى يد النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون (ابن رذمير) واستمر على حاله ، حتى توفى بروطة فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠ م) . فخلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، وكذلك بالمستعين بالله ، واستمر فى حكمه لروطة ، وما حولها من الحصون والأراضى ، حتى حمله ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسليطين ، على التنازل عنها ، وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة ، نزل فيه بأهله وأمواله ، أو ببعض أملاك بجوار طليطلة أقطعه إياها ، وذلك فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)[٢] ، وهى حوادث نستوفيها فيما بعد فى تاريخ المرابطين فى شبه الجزيره .

* * *

---

(١) هى بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء فى الوقائع أو التواريخ . ويضع ابن الأثير تاريخ تسليم المستنصر بالله حصن روطة فى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) (ج ١١ ص ١٣) . راجع كذلك : P. y Vives : ibid; p. 50

وقد كانت سرقسطة فى عهد بنى هود، كما كانت إشبيلية فى عهد بنى عباد ، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة ، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب ، وقد نبغ بعضهم فى ميدان التفكير ، ولاسيما أبو جعفر المقتدر ، وولده يوسف المؤتمن ، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، فى الفلسفة والرياضة والفلك ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل . وقد اشتهرت سرقسطة فى هذا العصر بنوع خاص ، أعنى فى القرن الحادى عشر الميلادى بالدراسات الفلسفية والرياضية . وكان من أعلام أبنائها فى هذا العصر ، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه ، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذى يعرف فى الغرب باسمه اللاتينى Avempace . وقد نشأ ابن باجة فى أواخر القرن الحادى عشر بسرقسطة ودرس بها ، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط فى أيدى الإسبان ونبغ فى الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة، هذا فضلا عن براعته فى الشعر والأدب . ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى حكم سرقسطة من قبل المرابطين ، ندب ابن باجة لوزارته ، واختص به ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، بالرغم مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نزح من الأندلس إلى المغرب ، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ١١٣٨ م . وقد كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل ، وترك لنا عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التى تنم عن روعة خياله ورائق نظمه . وهو يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسيين ، وقد كان لآرائه ونظرياته تأثير كبير فى تفكير الفيلسوف أبى الوليد بن رشد الحفيد[١] .

ونبغ فى سرقسطة أيام بنى هود فى عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف السياسى أبو بكر الطرطوشى ، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة ، وهو صاحب كتاب « سراج الملوك » الذى يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التى وضعت أسس السياسة الملوكية فى التفكير الإسلامى . ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب فى مقدمته ويعتبره من الكتب التى سبقته فى موضوعه[٢] . وقد وضع الطرطوشى كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

---

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ – ٤١٦ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٣٣ .

فى مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحى ، وتأثر فى كتابته بتفكير فيلسوف العصر ، العلامة ابن حزم القرطبى ، وتوفى الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

وقد أوحت ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ ، إلى الطرطوشى بكثير من نظرياته الاجتماعية ، ومنها نظرية عصبية الدولة ، فإن الطرطوشى يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية، إنما تقوم « على الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر. ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول إنها لاتنطبق على الدول فى أولها ، وإنما تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة لأهله ، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش فى ظل المستعين بن هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة ، وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة[1] . والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد بنى هود فى حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد إلكمبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين ، حسبما ذكرنا فى أخبارهم .

وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كباقى عواصم الطوائف الأخرى ، مركزاً لحركة أدبية قوية ، وقد نبغ بها فى ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ ، وابن حسداى ، وأبى عمر بن القلاس ، وغيرهم ، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة ، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم .

---

(١) راجع سراج الملوك للطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩ و ٢٣١ ، ومقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١ . وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 284 & 285

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً فى التبادل الثقافى والحضارى بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة ، والدول الفرنجية الشمالية ، وقد هيأ لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه ، أن تضطلع بهذا الدور الحضارى الخطير . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت فى ذلك العصر ، مهبط الفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطها الباذخ ، ساحة رحبة ، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى ، الذى كان ينتشر يومئذ فى أرجاء قطلونية وأراجون وناڤار ، ومنها كانت تنقل المقطوعات الغنائية الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والأناشيد القومية . وقد انتقلت هذه المؤثرات ، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى جنوبى فرنسا ، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية .

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة ، فى ترويج التبادل التجارى والمهنى بين الشرق والغرب ، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط ، وثغريها الكبيرين طرّكونة ، وطرطوشة ، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية ، وثغور إيطاليا . وكان بنوهود يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية ، وقد كانوا فى الواقع من أغنى ملوك عصرهم ، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف ، وأكثرها روعة وبذخاً ، وإن لم تكن لهم شهرة فى الجود والبذل ، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل ، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزقة النصارى لخدمة سياستهم ، واستطاعوا بدفع الإتاوات الوفيرة للملوك النصارى ، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن ، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلا بمنجاة من تلك الغزوات المخربة ، التى كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى .

الكتاب السادس

موقعة الزلاقة والفتح المرابطى

الفصل الأول

نشـــأة المرابطين

وقيام الدولة المرابطيـــة بالمغرب

أصل المرابطين . قبيلة لمتونة وحياتها فى القفر . دخولها فى الإسلام . أول ملوكها . افتراق كلمتها . الأمير ابن تيفاوت اللمتونى . مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالى مكانه . رحيله إلى المشرق . لقاؤه بالفقيه أبى عمران الفاسى . عبد الله بن ياسين . رحيله مع الأمير إلى الصحراء . بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها . صرامته وانصرافهم عنه . مغادرته لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة . وفود أعيان صنهاجة إليه . قيام جماعة المرابطين . أطماع عبد الله الدفينة . تكاثر تلاميذه . يدعوهم إلى الجهاد . دعوته إلى اتباع أحكام الدين . مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها . سلطانه الروحى على القبائل . يحيى بن ابراهيم الكدالى يتولى السلطة الزمنية . وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتونى مكانه . ورعه وفتوحه فى الصحراء . صدى حركة المرابطين فى المغرب . أحوال المغرب فى ذلك العهد . استدعاء فقهاء درعة وسجلماسة للمرابطين . مسير المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها . استيلاؤهم على سجلماسة . عبد الله بن ياسين يأمر بازالة المنكرات . وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبى بكر مكانه . مسير المرابطين إلى بلاد السوس . يوسف بن تاشفين يقود الجيش . افتتاحه لقواعد السوس . الطائفة البجلية وسحقها . مسير المرابطين إلى الأطلس . افتتاحهم لأغمات . استيلاؤهم على تادلا . قبائل برغواطة ومذهبها الوثنى . مطاردتهم ومحاربتهم على يد بلكين بن زيرى والفتى واضح . مسير المرابطين لقتالهم . إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته . قيام أبى بكر اللمتونى مكانه . بدء الدولة المرابطية . متابعة حرب برغواطة . افتتاح مكناسة ولواتة . أنباء الخلاف فى الصحراء . أبو بكر ينتدب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء . تقسيم القوات المرابطية بين الزعيمين . أبو بكر يصلح شئون الصحراء . يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح باقى المغرب . نجاحه واشتداد بأسه . اختطاطه لمدينة مراكش حاضرة المغرب . تنظيم يوسف للجيش . افتتاحه لمدينة فاس . مسيره إلى بلاد غمارة . فقد فاس واستردادها . عود أبى بكر من الصحراء إلى المغرب . تأثره بعظمة شأن يوسف وضخامة ملكه . لقاء الرجلين . زينب زوجة يوسف ودورها فى ذلك . انصراف أبى بكر إلى الصحراء . يوسف يتم فتح المغرب . افتتاحه لطنجة . افتتاحه للمغرب الأوسط . قيام الدولة المرابطية الكبرى . يوسف بن تاشفين . نشأته وخلاله . يحكم أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب . ألقابه وانضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يوسف وشئون الأندلس . صريخ ملوك الطوائف إليه . ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية فى شأنه . أصل الفكرة ومبعثها . الإعتراض عليها . سقوط طليطلة وأثره فى إذكائها . سفارة الأندلس إلى يوسف . العهود المتبادلة . مطالبة يوسف بثغر الجزيرة . يوسف يلبى نداء الطوائف . مسير الجيوش المرابطية إلى سبتة . جوازها إلى شبه الجزيرة . دعاء يوسف خلال الجواز .

يجدر بنا أن نقف الآن قليلا لنلقى بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين، الذين شملت دولتهم الكبرى، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، سائر أنحاء المغرب من لوبية إلى المحيط غرباً، وإلى السودان جنوباً، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه.

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهى بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى. وينتمى إلى صنهاجة، عدا لمتونة، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة، ومسراتة، ومداسة، وكدالة، ووتريكة، ولمطة وغيرها. وقد لعب الكثير منها فى تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة. وفى بعض الروايات أن صنهاجة، وهى الأم الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمانية، وأنها فخذ من ولد عبدشمس ابن وائل بن حمير، وهى كسائر الروايات المماثلة فى أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة، تقوم على القصص والأسطورة(١).

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام فى قلب الصحراء، ما بين جنوبى المغرب والسودان، فى تلك المنطقة التى كانت تسمى منذ أيام الرومان إقليم «موريتانيا». وكانت تؤثر حياة القفر على أية حياة أخرى «انتباذاً عن العمران، واستئناساً بالانفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر»، وكانوا يعتمدون فى قوتهم على لحم الإبل ولبنها، ولايعرفون حرثاً ولاثماراً، ولا يأكلون الخبز(٢). وكان شعارهم «اللثام» ومن ثم فقد عرفوا «بالملثمين». وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال(٣)، وقيل بل كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى يدعون الانتساب إليها.

وذكر لنا أبوعبيد البكرى، فى معجمه «المسالك والممالك»، فيما يتعلق بأمر اللثام الذى يلتزمه المرابطون، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون، النقاب، وهو

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥.
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، وروض القرطاس ص ٧٦.
(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (١٣٠٦هـ) ج ١ ص ٩٨ و٩٩.

فوق اللثام ، حتى لايبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل ، ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ،وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم(١)

وكانت لمتونة ، كسائر القبائل البربرية ، تدين بالمجوسية ، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس ، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك . وفى أيام عبد الرحمن الداخل ، أعنى فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى اللمتونى ، فبسط سلطانه على سائر نواحى الصحراء ، وحارب القبائل الوثنية ، ونشر الإسلام بين كثير منها ، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين ، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها .ولما توفى فى سنة ٢٢٢ هـ ، خلفه فى الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان(٢) ، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً ، حتى وفاته فى سنة ٢٨٧ هـ ، فخلفه ولده تميم ، واستمر فى الحكم إلى أن ثار عليه فى سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه . وعندئذ افترقت كلمة الجماعة ، وانقسموا شيعاً ، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبوعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى المعروف بتارسنا ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا على رياسته . وكان أميراً فاضلا ورعاً ، شغوفاً بالجهاد ، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام ، إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية . فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة ، وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد ، واستمر على رياسته لصنهاجة ، وقيادتها فى حروبها ضد أعدائها ، حتى سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٥ م)(٣)، ثم استخلف فى الرياسة ولده إبراهيم

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه التسمية فى روض القرطاس ص ٧٦ . ولكن ابن خلدون يسميه يلتان (ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) هذه رواية ابن أبى زرع (ص ٧٧) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء (ج ١ ص ٩٩) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسة يحيى فى سنة ٤٤٠ هـ (ج ٦ ص ١٨٢) .

ابن يحيى ، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه، ليقضى فريضة الحج .

والظاهر أيضاً أن يحيى الكدالى كانت تحدوه فى تلك الرحلة مُثُل أخرى، فهو قد رأى ما كان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله ، فرحل إلى المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة . ولما عاد من المشرق ، عرج فى طريقه على مدينة القيروان ، وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى يومئذ ، وتأثروا بوعظه وعلمه . وشكا إليه يحيى من جهل قومه ، وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية هذه الدعوة ، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى ، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه فى رباط خاص أنشأه لذلك ، فلما مثل لديه يحيى قرأ خطاب الشيخ أبى عمران على تلاميذه ، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علما وورعاً . وكان قد رحل إلى الأندلس ، وأنفق فيها بضع سنين يدرس فى ظل الطوائف ، فزاد علما وتجربة . فسار مع يحيى إلى الصحراء، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم(١) .

— ١ —

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام ، وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك البدو الصحريين ، ويبصرهم بأحكام الإسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . بيد أنه اشتد فى مؤاخذتهم، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع ، وكان من الأمور الشائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد المغرقة ، فأخذوا ينصرفون عنه ، ويعرضون عن تعاليمه ، لما رأوا من صرامته ، وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق . وعندئذ عول عبد الله ، وتلميذه وصديقه الوفى يحيى بن ابراهيم ، على انتباذ أولئك البدو الجهلة ، والانقطاع إلى العبادة والزهد ، فى أحد المواضع النائية ، وانضم إليه فى ذلك سبعة نفر من كدالة

---

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ . وراجع الحلل الموشية ص ٩ .

ويحيي بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة . ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة فى جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر جهاتها ، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا ، لبعد النيل عن صحراء المغرب الجنوبية بمسافات شاسعة ، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن « نهر النيجر » كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم ، يخترق الأقطار السودانية الغربية . ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم ، وبهذا الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة فى أقواله عن رحلته فى مملكة مالى السوداء[1]. وإذاً فإن الموضع الذى انقطع فيه عبدالله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان فيما يرجح جزيرة تقع فى منحنى نهر « النيجر » ، على مقربة من تنبكتو ، وهذا ما يؤيده وصف صاحب روض القرطاس[2] .

وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة فى هذا الموضع ، وابتنوا به رابطة للصلاة والعبادة ، وما لبث أن اشتهر أمره ، ووفد عليه كثير من أشراف صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة ، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم ، وسماهم « بالمرابطين » للزومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة والصلاة والزكاة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويشوقهم إلى الجنة ، ويحذرهم عذاب النار ، ويلهب حماستهم للجهاد فى سبيل الله ، ومقاتلة المخالفين لأحكام كتابه . وكان عبد الله بن ياسين ، حسبما أسلفنا واعظاً موهوباً ، وخطيباً ذلقاً مؤثراً ، وكان هذا الفقيه الورع ، يضطرم فى أعماق نفسه بمشاريع وأطماع دفينة أخرى ، غير تلقين أحكام الدين ، وبث الورع والخشوع فى نفوس أصحابه. ذلك أنه ما كاد يرى كثرة تلاميذه — فقد بلغوا الألف عندئذ — ويوقن بولائهم ، وانقيادهم لأوامره ، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية ، وبعثهم إلى أقوامهم ، لينذروهم ، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات ، واتباع أحكام الدين الصحيح ، ففعلوا ما أمروا به ، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ، ومجانبة التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم ، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه ، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم ، وحذرهم عقاب الله ،

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٧٩ .

ونصحهم باتباع أحكامه ، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين ، وكان صحبه يزداد عديدهم كل يوم ، حتى بلغوا بضعة آلاف .

وخرج عبدالله بن ياسين لقتال كدالة ، فغزاهم فى نحو ثلاثة آلاف، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً (٤٣٤ هـ — ١٠٤٢م). ثم سار لقتال لمتونة، وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة، وبايعوه على الكتاب والسنة . وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا فى الطاعة والبيعة حذو لمتونة. وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى ، حتى خضعوا جميعاً . وكان من تعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ، ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع . وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحى على سائر قبائل تلك الصحارى ، وجعل السلطة الزمنية ليحيي بن ابراهيم الكدالى ، وإن كان هو المستأثر فى الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى ، وجبى عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفىء ، واقتنى الخيل والسلاح ، واشتد بأسه ، واشتهر أمره فى سائر جنبات الصحراء ، وفى المغرب والسودان . ولما توفى الأمير يحيي بن إبراهيم ، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيي بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد(١) .

وكان يحيي بن عمر اللمتونى أميراً ورعاً زاهداً ، وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين . ومما يروى فى ذلك أن عبدالله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده ، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم ، وحياة الأمير هى حياة عسكره وفى موته فناء جيوشه . وقاد الأمير يحيي عدة حملات ، وافتتح جميع جهات الصحراء، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها . وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها فى قواعد المغرب . وكان المغرب يومئذ ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة، وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك

---

(١) روض القرطاس ص ٨٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠١ .

وإمارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ، ولاسيما صنهاجة وزناته ومغراوة ، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده ، وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ، ومعظم أعمال المغرب الشمالى ، حتى أوائل القرن الخامس ، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطىء فى سلا وما يليها ، واستقر بنو خزرون المغراويون بدرعة وسجلماسة وأعمالها ، وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب . واستقرت برغواطة جنوباً بشاطىء المحيط . وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة ، فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين . وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة ، تتطلع إلى أولئك القوم الجدد ، الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح ، والتزام أحكام القرآن والسنة . ففى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله ابن ياسين ، وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين ، يشكون مما يقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف ، والخروج على أحكام الدين ، ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق . وكانت درعة وسجلماسة يومئذ تحت حكم بنى وانودين من زعماء مغراوة ، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين ، فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين . ففى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتونى ، وقصدوا أولا إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها ، واستولوا عليها واستولوا فى أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود ، ونهض مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قتل فيها مسعود ، وأبيد معظم جنده ، واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم . ثم ساروا إلى سجلماسة ، فافتتحوها ، وقتل من كان بها من جند مغراوة . وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين ، وتطبيق أحكام الدين ، وندب لحكم سجلماسة عاملا من اللمتونيين ، وكانت هذه بداية الفتح المرابطى للمغرب[1] .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ . ويضع ابن أبى زرع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٤٧ هـ (روض القرطاس ص ٨١) . وراجع السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكرى ، ان عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة ، سار جنوبا وغزا فى سنة ٤٤٦ ﻫ ، مدينة أودغست ، وهى من أعمال مملكة غانة السوداء ، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوما . وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب ، فدخلها المرابطون واستباحوها ، وجعلوا جميع ماأصابوا فيها فيئاً[١] .

وفى سنة ٤٤٧ ﻫ توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين عبد الله بن ياسين مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر . وكانت الخطوة الثانية فى افتتاح المغرب ، هى غزو بلاد السوس ، ففى ربيع الثانى سنة ٤٤٨ ﻫ ، سار المرابطون نحو جنوب غربى المغرب قاصدين بلاد السوس ، وجعل الأمير أبوبكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وهى أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها ، عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها . وكان بتارودنت طائفة من الرافضة تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها ، على بن عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخر القرن الثالث الهجرى) ، ونشر بها مذهبه ، وهو يتضمن كثيراً من التعاليم المثيرة ، فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقى منهم إلى السنة ، ودوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين ، وأمرهم باتباع العدل والسنة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة .

وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس ، وقصدوا إلى بلاد المصامدة ، وتوغلوا فى جبال درن ، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس ، وسائر بلاد منطقة جدميوه ، وبايعتهم قبائل تلك الناحية . ثم ساروا إلى مدينة أغمات ، وكانت يومئذ لمغراوة ، وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ، ولكنه لما رأى عبث المقاومة ، فر منها فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ إلى حماية بنى يفرن أمراء تادلا . ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات فى سنة ٤٤٩ ﻫ ، وأقام

---

(١) كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج منه كتاب « المسالك والممالك » والمنشور بعناية البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨ .

بها نحو شهرين حتى استراح جنده . ثم قصد إلى بلاد بنى يفرن وهاجم قاعدتهم تادلا واقتحمها ، وقتل من بها من بنى يفرن ، وظفر بلقوط المغراوى فقتله ، وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها، فتزوجها الأمير أبوبكر اللمتونى . وبعد أن نظم عبد الله بن يا سين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة .

وكانت هذه القبائل تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط ، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس ، ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة المطلقة ، فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد ، كان يتلو بعض سوره ، وزعم أنه المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان ، وجعل الصلوات خمساً فى النهار وخمساً فى الليل ، والصوم فى شهر رجب ، وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء إلى غير ذلك . وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق عليها برغواطة . وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة . ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الموطن والجوار ، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف[1] . وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً فى تلك المنطقة ، منطقة تامسنا ، وشاطىء المحيط الممتد من شمالى أزمور جنوباً حتى آسفى ، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده . واشتهر منهم فى أواخر القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح ، واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهوره . وحارب ملوك العدوتين المغرب والأندلس ، من الأدارسة وبنى أمية والشيعة ، قبائل برغواطة، وحاربهم بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة ، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصارى فى قومه ، فهزم وقتل ، وأمعن بلكين فيهم تقتيلا . ثم حاربهم المنصور بن أبى عامر ، وبعث لقتالهم الفتى واضح ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٣ .

فأثخن فيهم . وحاربهم بنو يفرن . وهكذا استمرت قبائل برغواطة ، هدفاً للعداء والنقمة ، حتى كان ظهور المرابطين فى أوائل القرن الخامس .

وكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين . ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين ، وقائده أبو بكر اللمتونى فى جموع المرابطين إلى أرض برغواطه ، وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ابن محمد بن معاذ ، المتقدم الذكر . ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المرابطين ، ومنشىء طائفتهم ، بجراح بالغة توفى منها فى نفس اليوم . وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين وحثهم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة . وكان مصرعه فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ودفن فى مكان يعرف بكريفلة أو كريفلت على مقربة من تامسنا ، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد ، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم . وفى الحال اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبى بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان إمامهم المتوفى ، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١)

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ، ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه ، وقد ألفى فى تلك القبائل الصحرية الساذجة ، مادة طيبة لبث تعاليمه ، واستطاع أن يذكى فى نفوس أولئك المرابطين — أتباعه — تلك الحماسة الدينية البالغة ، التى حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب ، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة . بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه ، مشغوفاً بالنساء ، يتزوج فى كل شهر عدداً منهن ويطلقهن ، ويسعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن . وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة ، وهو إجراء يصفه المؤرخ بالشذوذ (٢) .

وقد ذكر لنا أبو عبيد البكرى فى معجمه « المسالك والممالك » بعض الأحكام الشاذة التى كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٤ . ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين فى سنة ٤٥٠ هـ (ج ٦ ص ٢٠٩) .

(٢) روض القرطاس ص ٨٤ .

تحت إمامته، وفى مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك يطيب باقيها ، وهو مالا تسوغه الشريعة ، من أى مذهب ، ومنها أن الرجل إذا دخل فى دعوتهم ، وأبدى توبته على سالف ذنوبه ، قيل له أنك ارتكبت فى سالف شبابك ذنوبا كثيرة ، ويجب أن يقام عليك حدودها ، وتطهر من إثمها ، فيضرب حد الزانى مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها . وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه ، وأدخلوه قسراً فى رباطهم ، وإن علموا أنه قتل قتلوه ، سواء أتاهم تايبا طائعا ، أو غلبوا عليه مجاهراً عاصيا . ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ، وغير ذلك من الأحكام القاسية التى لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقى(١) .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين ، وقيام أبى بكر اللمتونى مكانه فى الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية . وهو أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياقطين . وكان أول ما عنى به بعد دفن الإمام ، هو متابعة حرب برغواطة ، فحشد سائر قواته ، وجد فى قتالهم ، وأثخن فيهم ، حتى مزق طوائفهم ، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة ، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة . وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم ، وقسمها بين المرابطين ، ثم عاد إلى مدينة أغمات ، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٠ م) . ثم غادرها فى قوات ضخمة من صنهاجة وجزولة ، والمصامدة ، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة ، وسائر أراضى زناتة ، ثم سار إلى مدينة لواتة ، وكانت بيد بنى يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وعاد بعدئذ إلى أغمات .

ولبث أبوبكر فى أغمات بضعة أشهر أخرى ، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، ونبأه باختلاف المرابطين هناك ، ووقوع الخلاف

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المستخرج من كتاب المسالك والممالك ، والمنشور بعناية البارون دى سلان ص ١٦٩ .

بين لمتونة ومسوفة ، فخشى أبوبكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة ، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم ، ومطلع سلطانهم ، فقرر أن يعود إلى قومه ، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة . فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية ، بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحرية ، فتزوجها يوسف فيما بعد ، وأمره بمتابعة قتال مغراوة وبنى يفرن وزناتة ، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما يعلمونه عن يوسف «من دينه وفضله وشجاعته وحزمه و لدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته »[1] .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب ، وتولى أبوبكر إمرة الآخر . وخرج أبوبكر فى جيشه فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ھ (ديسمبر ١٠٦١م) واخترق بلاد تادلا وسجلماسة ، ثم سار جنوباً إلى الصحراء ، وهناك قام بإصلاح شئونها ، والقضاء على أسباب الخلاف بين أقوامها ، وتوحيد كلمتهم : ثم حشد قوات جديدة ، وسار فى جيشه الضخم إلى بلاد السودان ، فغزا الكثير من نواحيه ، وتوغل فى أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر . وفى تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين ، يؤدى مهمته العظيمة فى افتتاح باقى أقطار المغرب ، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش المرابطى ، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل ، إلى أربعة أقسام ، اختارلها أربعة من أقدر قواده ، وهم سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى ، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف ، وجعلهم فى مقدمة قواته ، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المغرب ، وتولى هو قيادة بقية الجيش يسير به فى ا رهم . وأخذت تلك الجيوش المرابطية فى محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن ، ودوختها وغلبت على سائر أراضيها ، وهرعت القبائل يجنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب ، ويجنح البعض الآخر إلى الاستسلام والطاعة . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات فى أواخر سنة ٤٥٤ ھ ، وقد عظم أمره ، واشتد بأسه ، وذاع صيته فى سائر أنحاء المغرب .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

وفكر يوسف عندئذ أن يختط لنفسه محلة ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً لذخائره ، ووقع اختياره فى ذلك على أرض تقع شمال غربى مدينة أغمات ، وكانت لبعض المصامدة ، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل فى بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان ذلك مولد مدينة مَرَّاكُش الشهيرة (سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان ، ومعناه بلغة المصامدة « إمش مسرعاً » . إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق . واختار يوسف أن تكون قاعدته فى قلب بلاد المصامدة ، إذ كانوا أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً ، وكانوا قوام جيوشه ؛ ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة الجديدة تقع فى حمى جبل درن من شعب الأطلس . ونزل يوسف فى محلته بالخيام أولا ودون أن تبنى أسوارها ، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد ، واختط بها الناس وحفرت بها الآبار . على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتتسع رقعتها ، ويقام سورها العظيم ، إلا فى عهد على بن تاشفين ولد يوسف ، وذلك فى سنة ٥٢٦ هـ . وقد كان القسم الذى أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة ، يشمل القسم الذى يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين ، وهو الذى يعرف اليوم بالسجينة . وقد غدت مراكش فى فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية وأجلها ، وغدت من ذلك التاريخ ، قاعدة الدول المغربية العظيمة ، ماعدا دولة بنى مرين ، ولعبت فى تاريخ المغرب أعظم دور . وما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من روعتها وجلالها القديم[1] .

وعمل يوسف فى ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه ، فاقتنى من العبيد نحو ألفين ، وبعث إلى الأندلس فاشترى عدداً كبيراً من العلوج أو الأرقاء النصارى ، وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابته ، اشتهرت فيما بعد ببلائها فى مواقع كثيرة ، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير[2] .

وما كاد يوسف ينتهى من إنشاء حاضرته ، وتنظيم جيشه ، حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة ، وأعظم مدائنه يومئذ . وكانت الجيوش

(١) راجع فى إنشاء مراكش : روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧ . وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة مراكش .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ .

المرابطية ، قد تضخمت فى تلك الأثناء ، وعنى يوسف بتنظيمها ، وتجهيزها بالرماة والعدة ، والبنود والطبول ، ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة ، وجزولة ، وزناتة ، والمصامدة . وفى أواخر سنة ٤٥٤ هـ سار يوسف لافتتاح مدينة فاس ، فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة ومغيلة ومديونة وغيرها ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انهزمت فيها تلك القبائل ، وامتنعت بصدينة ، فاقتحمها يوسف ، وقتل بها عدة آلاف . ثم سار إلى فاس ، ونازل أولا قلعة فازاز وهى من حصونها الأمامية ، ثم زحف على فاس ذاتها ، وبها صاحبها معنصر المغراوى ، وافتتح حصونها تباعاً ، ثم اقتحمها ، وذلك فى سنة ٤٥٥ هـ ، واستعمل عليها عاملا من لمتونة . وسار بعد ذلك إلى بلاد غمارة ، وغلب على كثير من نواحيها ، حتى أشرف على طنجة . وفى خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوى إلى فاس ، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف ، واحتلوها ، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها ، فسار إليها فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار بشدة ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن ، وذلك فى أوائل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) .

— ٣ —

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف ، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم فى حياة يوسف ، وفى مصاير دولة المرابطين . وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتونى بعد أن نظم شئون الصحراء ، وقضى فى غزواته بضعة أعوام ، نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، ومن ضخامة السلطان واستقراره ، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور ، وربما جال بخاطره أن يعزل يوسف ، وأن يسترد هو سلطانه ، باعتباره أمير المرابطين الشرعى . ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبى بكر من الصحراء إلى المغرب كان فى سنة ٤٦٥ هـ ، وإنه نزل بمحلته خارج مدينة أغمات ، فهرع صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة ، لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب ، وأغدق عليهم الهدايا والصلات[1] . وأدرك أبو بكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف من الضخامة والتوطد ، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته ، وأنه لم يبق

(١) الحلل الموشية ص ١٣ و ١٤ .

له أمل فى انتزاع شىء مما فى يده . بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبى زرع وابن خلدون أن مقدم أبى بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل . ذلك أن زينب النفزاوية زوجة يوسف ، لعبت دوراً فى لقاء الرجلين . وقد توفيت زينب فى سنة ٤٦٤ هـ . وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف، وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الأمر ،وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها ، وأبعدهن نظراً ، وكان مذ تزوجها يرجع إليها فى عظائم الأمور، ويعتمد على نصحها ، وذكائها ، وحسن سياستها فأشارت عليه بأن يسقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد،ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبى بكر ، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش . وشعر أبو بكر مما أبداه يوسف ، ومن تعاليه فى السلام عليه وهو راكب فرسه ، أنه حريص على سلطانه ، مستعد للدفاع عنه ، وزهد فى التنافس والقتال ، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق ، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهنالك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل فى بعض غزواته وذلك فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)[(١)] .

وقضى يوسف أعواماً أخرى فى إتمام فتح المغرب ، حتى سيطر على معظم نواحيه ، ودوخ سائر قبائله . وفى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) نراه وقد أشرف على طنجة ، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت (أوسواجات) البراغوطى وهو فى نفس الوقت صاحب سبتة . وكان سكوت من موالى بنى حمود ، وقد ولى حكم سبته فى أواخر أيامهم ، ثم استولى على طنجة ، وقوى أمره فى ذلك الركن المنعزل من المغرب ، وأطاعته قبائل غمارة ، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً . فلما زحفت الجيوش المرابطية إلى تلك الناحية ، اعتزم سكوت الدفاع عن ملكه ، وكان شيخاً فى التسعين من عمره ، ولكنه كان فارساً مقداماً . فالتقى بالمرابطين فى وادى منى على مقربة من طنجة ، وقاتل حتى قتل ومزق جيشه ، وسقطت طنجة فى أيدى المرابطين ، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

---

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦

بسبتة . وفى سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط ، واستولى على مدينة وجدة ، ثم استولى على تلمسان ووهران ، واستمر فى سيره المظفرحتى تونس فافتتحها ، واستولى بذلك على سائر شواطىء المغرب وثغوره الشمالية ، وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور يومئذ ، وشمل سلطانه جميع الأقطار المغربية ، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوباً[1] .

وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد ، وهو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله ابن ياسين ، واستحالت بسرعة على يد أبى بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده ، من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم . وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى ، فهى بذلك تنسبه إلى حمير ، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى . وقد ولد بالصحراء فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) . بيد أننا لانعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى ، وتذكره لنا الرواية لأول مرة فى سنة ٤٤٨ هـ ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتونى ليكون قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب . وكان يوسف يومئذ فى الثامنة والأربعين من عمره . ومن ذلك التاريخ فقط ، تتبع الرواية أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة ، وهى التى فصلناها فيما تقدم . وتنوه الرواية بورع يوسف وزهده ، وبساطته وتواضعه ، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة فى الملك والنعم ، آية فى التقشف ، يرتدى الصوف طول حياته ، ولايرتدى سواه قط ، ولايأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها . وكان بطلا شجاعاً حازماً ، مهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره ، وأحوال رعيته ، مجاهداً لايفتر عن متابعة الجهاد ، منصوراً مظفراً فى معظم الوقائع التى خاضها ، جواداً كريماً ، عادلا رفيقاً ، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة ، ولايفرض منها إلا ما يجيزه الشرع ، من الزكاة والأخماس والأعشار ، وجزية أهل الذمة . وأما عن شخصه ،

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ ، والاستقصاء ج ١ ص ١١٠ .

فقد كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، رقيق الصوت[١] .

وقد حكم يوسف بن تاشفين ، أعظم امبراطورية إسلامية قامت فى الغرب الإسلامى ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، ممتدة فيما بين تونس والمحيط ، وما بين البحر وحدود السودان ، قد انتهى بعد ظفره فى موقعة الزلاّقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما نفصل بعد ، إلى افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة ، وبذا كانت تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتى سرقسطة فى شمال شرقى اسبانيا ، وحتى شنترين وأشبونة فى قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين فى بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وأصدر مرسومه ، بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك فى سنة ٤٦٦ هـ[٢] . وفى أواخر عهده ، بعد أن ملك الأندلس ، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيراً ومعه هدية جليلة ، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك ، وما أولاه من النصر ، وطلب تقليده الولاية ، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية ، والخلع والتشاريف[٣] ومما يؤكد لنا انضواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية ، ذكره فى سكته لاسم الخليفة العباسى[٤] .

— ٤ —

نتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف ، وهى مرحلة تدخله فى حوادث شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مرحلة تتخذ فى البداية طابع الجهاد فى سبيل الله ، ثم تنقلب بعد ذلك ، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطى .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨ ، والحلل الموشية ص ١٢ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وقد أورد لنا نص هذا المرسوم .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس ، ما انتهى إليه ـاء الطوائف . عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومملكة بنى ذى النون فى سنة ٤٧٨ هـ . وتهديده لهم جميعاً بالويل والفناء ، من وجوب الاستنصار بإخوانهم فى عدوة المغرب ، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى يوسف بن تاشفين ، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم . وقد اختلفت الرواية فى تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه .والقول المشهور فى ذلك ، هو أن سقوط طليطلة ، كان هو العامل الجوهرى ، الذى حمل ملوك الطوائف ، على أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين .بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الاتجاه يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة . فقد سقطت طليطلة فى يد ملك قشتالة فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكنا نجد صريخ الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ ، فقد وفد فى ذلك العام على يوسف جماعة من أهل الأندلس. وشكوا إليه ماحل بهم من عدوان النصارى وطلبوا إليه النجدة والعون ، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم[1] . ثم توالى صريخهم بعد ذلك . ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى فى رسالته التى بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية ، فيقول : « ولما بلغنا من استحواز النصارى ، — دمرهم الله — على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والتزام الجزية لرؤسائها ، واستيصال أقالمها ، وإيطائهم البلاد داراً داراً ، لايتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار »[2] . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية ، ويوردها بصورة أخرى ، فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف ، ملتمساً إنجاز وعده فى إنجاد الإسلام فى الأندلس، وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة ، فاهتز أمير المسلمين للجهاد، وبعث ابنه المعز فى عساكر المرابطين إلى سبتة فنازلها براً ، وطافت بها سفن ابن عبــاد بحراً ، ثم اقتحموها عنوة فى ربيع الآخر

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة ، وقد نشرناها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

سنة ٤٧٦هـ ، وأسر صاحبها يحيى بن سكوت ثم قتل . وجاز ابن عباد بعد ذلك ، وقصد إلى أمير المسلمين ، ولقيه بفاس مستنفراً له فى الجهاد، ونزل له عن ثغر الجزيرة ليكون رباطا لجهاده[1] . ويقول لنا ابن أبى زرع ، إن أمير المسلمين لما عاد إلى مركش فى سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس ،ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد ، يعلمه بحال الأندلس ، وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على معظم ثغورها ، ويسأله الإنجاد والعون ، فأجابه يوسف بأنه إذا فتح الله عليه سبتة فإنه سوف يتصل بهم ،ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التى قام بها ألفونسو فى نفس العام ، فى أراضى إشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى وصل إلى طريف ، وخاض الماء بفرسه قائلا ، هذا آخر الأندلس قد وطأته ، وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبراؤها على الاستنصار بيوسف وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث ، وأنهم سوف يكونون معه يداً واحدة فى جهاد العدو . فلما توالت كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح سبتة ، فحاصرها وافتتحها فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ ،فسر بذلك أمير المسلمين ، وسار فى الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس[2] . وفى أقوال ابن أبى زرع شىء من الغموض والتناقض فى التواريخ . ولكنهمع ذلك يؤيد الواقعة الجوهرية ، وهى أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين ، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام ،وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملا جديداً فى تقوية هذا الاتجاه وإذكائه .

وإنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس ، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو فى إرهاقه بطلب الجزية ، وأرسل إليه ابن شاليب اليهودى فى اقتضائها ، وذلك فى سنة ٤٧٥هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش ابن عباد برسل ألفونسو ، وخروج ملك قشتالة فى قواته للانتقام من ابن عباد ، واجتياحه لمملكته ، وتخريبه لمدنها ومروجها ، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه من أخبار مملكة إشبيلية . والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ ، وإن يكن متأخراً ، فداحة الخطأ الذى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد وهم ابن خلدون فى واقعة عبور المعتمد إلى المغرب وزيارته لأمير المسلمين . والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة .

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ .

ارتكبه ، بخضوعه لملك قشتالة ومحالفته ، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر ، واعتزم عندئذ أمره فى استدعاء المرابطين.

وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم ، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطرهم تلك الفكرة ، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطر ، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة ، وتخريبه لأراضيهم ، وجشعه فى استصفاء أموالهم باسم الجزية ، بيد أن ابن عباد ، وقد كان كبير ملوك الطوائف، وكان يواجه فى نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة من عدوان ملك قشتالة ، كان حرياً بأن يتقدمهم فى اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها .

على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة ، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته ، وقد أجابهم ابن عباد بكلمته المأثورة «رعى الجمال خير من رعى الخنازير» ، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله ، من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصرانى(١) .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين ، فكان نذيراً لاشك فى خطورته . وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين ، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملا يداعبهم ، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة ، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت ، ومن ثم فإن الصريخ الذى كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة ، يتخذ عندئذ صورته الرسمية ، وتشاطر الأندلس كلها ، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه ، ويبعث ابن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين ، على يد أبى بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبى إسحق بن مُقانا قاضى بطليوس ، وأبى جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد(٢) . وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب وقصدوا إلى أمير المسلمين فى مراكش ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٨٥ .

(٢) راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٩٩ ، والروض المعطار ص ٨٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٦ . وراجع دوزى : Histoire; Vol. III p. 124

ذلك على يوسف مستعطفة باكية ، ترجوه الغوث والإنجاد ، فيستمع إلى قولهم ، ويعدهم خيراً . والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكى تلتمس العون ، دون قيد ولاشرط . وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة ، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن أمراء الطوائف فى ممالكهم ، وألا تحرض رعيتهم على شىء من الفساد . ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملا بنصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد ، لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين[1] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة ، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده ، وينذره بسوء المصير ، وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الأفطس فى هذا المعنى ، وإلى مارد به كل من الأميرين المسلمين ، على الملك النصرانى ، وذلك فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس .

* * *

وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره ، بعد استشارة قومه وفقهائه ، وقرر أن يلبى صريخ أهل الأندلس ، وأن يبادر إلى غوثهم ، ولم يك ثمة شك فى أن يوسف وقومه المرابطين ، كانت تحدوهم نزعة الجهاد فى سبيل الله ، بيد أن أولئك الجند الصحراويين الذين نشأوا فى غمار القفر والبداوة ، كانت تحدوهم فى نفس الوقت رغبة فى رؤية الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والنعماء ، وأن يبلوا حرب النصارى[2] . ومن الصعب علينا فى هذا الموطن ، أن نستشف نيات يوسف التى كشف عنها فيما بعد ، فى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، بيد أنا نرجح أنه لم يكن يجيش بمثل هذه النية فى البداية ، وأنها خطرت له فيما بعد ، بعد أن درس أحوال الأندلس ، وأحوال أمرائها . واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد ،

---

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة ، فسار إليها ، والجيوش تتلاحق فى أثره من الصحراء ، وبلاد الزاب ، ومختلف نواحى المغرب ، وأصلح مرافئها وحشد السفن لعبور قواته ، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء ، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفى ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) عبر البطل الشيخ فى بقية قواته . وما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق ، حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطى حسبما يحدثنا بنفسه وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ثم يقول لنا ، إنه ما كاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحر هادىء ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام(١)

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه فى خطابه بالفتح إلى المعز بن باديس . (ويراجع الخطاب المذكور فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب) .

الفصل الثانى

موقعة الزلاقة

مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية . المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن . لقاء الملكين . زيارة يوسف لإشبيلية . كتبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة فى الجهاد . مقدم أميرى غرناطة ومالقة ومعز الدولة بن صمادح فى قواتهم . مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس . مسيرها إلى سهل الزلاقة . ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين . استعانته بسائر ملوك النصارى . مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين . مواقع الفريقين . عدد قوات المسلمين والنصارى . الجيش الإسلامى وأقسامه . كتاب يوسف إلى ألفونسو . رد ألفونسو ورد يوسف عليه . بداية المعركة . عنف هجوم النصارى . ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية . مهاجمة ألفونسو للمرابطين . اندفاع المرابطين لإنجاد اخوانهم . تغير وجه المعركة . مهاجمة النصارى لمعسكر المرابطين . تطويق قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى . المعركة الهائلة . تمزق صفوف القشتاليين . اشتداد هجوم المرابطين من الناحيتين . كثرة القتل بين النصارى . نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة . جرح ألفونسو وفراره . تقدير خسائر الفريقين . مسير ألفونسو فى فلوله إلى طليطلة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى . ذيوع أنباء النصر فى الأندلس والمغرب . رسالة يوسف عن الفتح . لقب أمير المسلمين وهل اتخذه يوسف عقب الزلاقة . إحجام يوسف عن مطاردة النصارى وبواعثه . عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها . الثناء على المعتمد بن عباد وثباته . تنويه أمير المسلمين ببطولته . يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده . إسراعه بالعود إلى المغرب . ما يقال فى بواعث هذه الحركة . نصر الزلاقة وطابعه . المعنى الصليبى الذى ينطوى عليه لقاء المسلمين والنصارى . دعوة ألفونسو عقب هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية . شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصبغتها الصليبية . ما قيل حولها من الأساطير . أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة . انتعاش قوى الأندلس . تحرر ملوك الطوائف من نير قشتالة . ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس . الإسلام يغنم فى اسبانيا حياة جديدة .

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، فى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) ، وجيوشه الجرارة تحيط بها من كل صوب . وماكاد يطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ فى تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى ، على طول الطريق إلى

إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيما سر به يوسف . ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه وفرسانه ، وتعانق الملكان ، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم ، وقرت عينه بما رآه من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ؛ وأقام هنالك ثلاثة أيام . وكان يوسف قد كتب فى أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب المرية بضعفه وكبر سنه ، وتوجسه من عدوان النصارى فى حصن لييط (أليدو)، وبعث ابنه معز الدولة فى فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين فى جيوشه الجرارة ، ومعه ابن عباد فى قوات إشبيلية ، وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس ، فلقيهم أميرها عمر المتوكل على مقربة منها ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة ، وأنفق أمير المسلمين أياماً فى بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى(١). ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة . وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمالى بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو قورية ، وتسميه الرواية العربية بالزلاّقة(٢) .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، وذلك فى أواخر يوليه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م (جمادى الأولى سنة ٤٧٩) ، فترك الحصار على عجل ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) راجع الحلل الموشية ص٣٣ و ٣٤، والروض المعطار ص ٨٧ — ٩٠ ، وسهل الزلاقة يعرف بالإسبانية Sagrajas ، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو ، أحد أفرع وادى يانة .

وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو رامبرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار)، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا . واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوق قواته فى العدد والعدة ، والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى(١) .

واستقرت الجيوش النصرانية ، فى مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامى ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادى يانة الممتد شمالا فى اتجاه نهر «التاجُه» والذى يسمى اليوم «جريرو» . وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبار هانيس ، وكانت تتألف فى معظمها من جنود أراجون ، والمتطوعة . وقد اختلفت الرواية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى . وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً . وأما الجيش الإسلامى ، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً ، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد(٢) . وكان الجيش الإسلامى ، ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ،ويشغل أهل شرقى الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية ، فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

ولبث الجيشان الخصيمان ، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 331 & 332

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ ، والمعجب للمراكشى ص ٧١ .

مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة ، عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام ، أو الجزية أوالحرب[1] ، ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة ، « الذى يكون ستراه »[2] .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين فى تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد ، يوم الخميس ، يقول له إن غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده السبت يوم اليهود ، وهم كثير فى محلتنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد فى الليل تنبىء أن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين[3] .

وقد حدث فى الواقع ما توقعه المسلمون ، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالى ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م)[4] ،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المعطار ص ٩٢ . وهذا ما يقرره يوسف نفسه فى خطابه عن الموقعة إلى المغرب (راجع روض القرطاس ص ٩٧) .

(٤) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ المعركة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ، ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) . ويقول المراكشى إنها كانت فى رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) . ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وهذا هو التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح إلى عدوة المغرب ، حيث يقول فى ختامه « وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وربعمائة =

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال ، واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التى يقودها ألبارهانيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتى يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت فى وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ،فقاتلوا النصارى بشدة ، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل فى جند الأندلس ، وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد . وفى الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين ، التى يقودها داود بن عائشة ، وردها أيضاً عن مواقعها . فنى تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبى بكر اللمتونى لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم . واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة ، ترجح بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو ، فى ذلك الوقت قد تقدم فى هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذى يحميها . ولكن حدث فى نفس الوقت ، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة ، إذ تقدم فى قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى المهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين ، وأثخن فيهم من الوراء ، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء ، ثم أضرم النار فى محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها فى الهواء ، فلما علم ألفونسو ما حل بمعسكره ، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة ، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالك استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى (روض القرطاس ص ٩٨) . وهذا التاريخ نفسه أعنى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ ، هو الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة . والظاهر أن أصحاب التواريخ المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح .

وراجع أيضاً : Dozy : Histoire, V. III. p. 129 & notes

الثبات ، ويرغبهم فى الاستشهاد، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان . وينوه الأستاذ پيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها فى اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية ، مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض ، ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم فى القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم فى السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها(١) .

واشتد هجوم المرابطين فى نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبارهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين فى صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره فى فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، إذا استمروا فى موقفهم، وعندئذ بادر ألفونسو فى فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع ، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل، فسار وصحبه تحت جنح الظلام ، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعمائة أوخمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ فى كل ناحية شر تمزيق ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى ، وطورد الفارون فى كل مكان ، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة ، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى ، وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة . ويشير يوسف فى رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ، وراجع أيضاً :
R. M. Pidal : ibid., p. 335 & 339

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد .

وتقول الرواية الإسلامية ، إنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح ، فمات معظمهم فى الطريق . ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة[1] . وهذا هو نفس ما يقرره يوسف فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به إلى المغرب حيث يقول : « وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس »[2] . بيد أنه فى رسالته التى بعث بها إلى المعز بن باديس ، والتى يصف لنا فيها معركة الزلاّقة تفصيلا ولاسيما الدور الذى قام به مع جنده ، يقول لنا ، إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل ، قد أثخن معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا فى المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف[3] ، ويقول لنا يوسف فى رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين ، هذا فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم . وتذهب فى تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف[4] . بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا ، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى ، لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتى ألف راجل ، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش فى مائة فارس ، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هى التى وردت

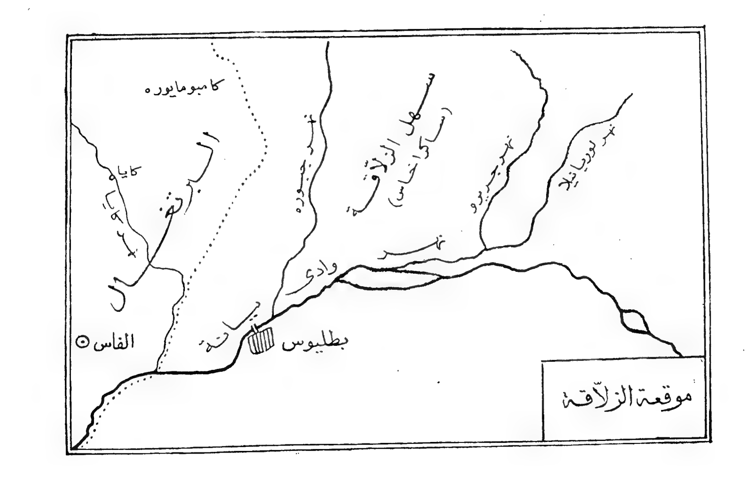
---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٤٣ .


موقعة الزلاقة
بطليوس
الفاس
البرتغال
كامبومايوره
نهر جيبوره
سهل الزلاقة
(ساكراخاس)
وادي
يانة
نهر
نهر جريرو

فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب[١] . وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى ؛ وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه فى معركة ؛ يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ، ما طبعت به موقعة الزلاّقة . لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين ، الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر فى الحال فى سائر جنبات الأندلس ، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية . واستبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدوة، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر فى سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف اتخذ لقبه «أمير المسلمين» عقب نصر الزلاّقة[٢] وأن أمراء الأندلس ، حينما هنأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب ، ولكنا رأينا فيما تقدم ، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، والزحف إلى أراضى قشتالة ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ؛ وهى كانت معقد المحنة التى دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين . ولو بذل المرابطون هذه المحاولة ، فى الوقت الذى حطم فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها ، لكللت بالنجاح بلا ريب .

وقد قيل لنا فى ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله ، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى فى الموقعة ، فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٦ .

الفارين من المسلمين أولا ، حتى لا يهلكهم النصارى . ونسبت فى ذلك إلى كلا الرجلين نيات مريبة[١] .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى ، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده . ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس، وموقف كل منهم خلال المعركة، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد ابن عباد بتقديرها وثنائها . فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى فى بداية المعركة : قوات بطليوس وغرناطة وألمرية ، وارتدت منهزمة صوب بطليوس، ولم تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوالع النصر . ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين حسبما أسلفنا ، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء ، وأثخن جراحاً ولم يغادر ميدان المعركة ، حتى تداركته النجدات المرابطية[٢] . وينوه أمير المسلمين بثبات المعتمد وبطولته فى ذلك اليوم فى خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول : « ولم يثبت فيهم (أى رؤساء الأندلس) غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل »[٣] . وينوه بذلك أيضاً فى رسالته إلى المعز بن باديس ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال ، ويثنى عليه الثناء الجم . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده وولى العهد الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً بسبتة ، فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس أنه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة[٤] . بيد أنه قيل فى ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان يرجع بالأخص إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم[٥] . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين فى قواته إلى إشبيلية فاستراح بظاهرها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ؛ والروض المعطار ص ٩٢ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٧ .

(٤) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧ .

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله : « إنه كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر فى الزلاقة ، قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبى بكر سير ، واضطر أن يعود إلى مراكش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المنهزم ، واجتناء الثمرة التى يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر العظيم، وهى الاستيلاء على طليطلة . وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت فى ذهنه بصورة عملية ، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة . وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة . وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقة ، مع نفر قليل من صحبه، فإن قواته لم تتضعضع ، كما يتصور ، بدليل أنه لم يمض سوى قليل ، حتى غدا فى ظروف تسمح له بالهجوم ، ولكن الحظ كان ضده دائماً »(١) .

* * *

وقد كان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة فى انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها . والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فموقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التى اجتاحت بوادى المغرب ومدنه فى فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول الإسلامية بادىء ذى بدء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك، كانت عنيفة رائعة، توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى فى عهد الناصر لدين الله، والثانية فى عهد الحاجب المنصور ، وفى كلتا المرتين ، ردت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Desparicion de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 243

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبى ، الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة . فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى إفريقية والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألفت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، إذ كانت عمته الملكة كونستانس ، بحشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك الكونت دى سان چيل أمير تولوشة . وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب ، بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم[١] .

واقتصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى ، حيث كان بنوهود أمراء سرقسطة ، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان ، ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تُطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وكانت طوائف المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية ، لتشترك فيها .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاّقة ، وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر ، من المغرب إلى الأندلس ، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[٢] . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين ، توالت عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن فقيهاً مسلماً من أهل طليطلة ، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة ،

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 310

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ .

مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً[١].
ومنه مبالغات الرواية الإسلامية فى فداحة خسائر النصارى ، ومبالغتها فى نفس الوقت فى قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة ، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاّقة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة فى الانتعاش والنهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسى روح الحماسة الدينية ، التى كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى ، وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الخزى الذى لحقهم عصراً بالخضوع لملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كانت يقتضيها منهم برسم الجزية . بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، التى ترتبت على هذا النصر الباهر . ففى سهول الزلاّقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجعلت الأندلس ، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة ، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة الزلاقة : روض القرطاس ص ٩٣ — ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٣٣ — ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ . والروض المعطار ص ٧٦ — ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ — ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢—٥٣ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire, V. III. p. 129—130 ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 331—340

الفصل الثالث

الفتـــح المرابطى

القسم الأول

صريخ أهل شرق الأندلس إلى يوسف . النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان . مسير المعتمد إلى مرسية وفشله فى استردادها . عبور ابن عباد إلى العدوة واستنصاره بيوسف . عبور يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . كتبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرق الأندلس . محاصرة القوات المرابطية والأندلسية لحصن لييط . صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه . الخلاف بين أمراء الطوائف وشكاويهم المتبادلة . القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد . غضب جند مرسية وأثره فى المعسكر المحاصر . مقدم ملك قشتالة لإنجاد الحصن . إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب . مقدم يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة . مشروعه فى الاستيلاء على الأندلس . بواعث هذا المشروع . موقف ملوك الطوائف . محالفة بعضهم لملك قشتالة . فتاوى الفقهاء فى شأنهم . طمع المرابطين فى خصب الأندلس . العامل الدفاعى وأثره . مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها . مسيره إلى غرناطة . عبد الله بن بلقين ومحالفته السرية مع ملك قشتالة . محاصرة المرابطين لغرناطة . سوء الأحوال داخل المدينة . خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين . دخول المرابطين غرناطة . استيلاؤهم على مالقة . القبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالها إلى العدوة . مقدم ابن عباد وابن الأفطس وجفاء يوسف نحوهما . الوحشة بينهما وبين يوسف . تأهب الجيوش المرابطية لافتتاح قواعد الأندلس . خطة يوسف لافتتاح إشبيلية . فتاوى الفقهاء ضد المعتمد . المعتمد وملك قشتالة . أهباته الدفاعية . استيلاء سير ابن أبى بكر على طريف . زحف الجيوش المرابطية على رندة وجيان وقرطبة . سقوط جيان . مهاجمة قرطبة واقتحامها . مقتل حاكمها الفتح بن عباد . قصة زائدة الأندلسية . الأسطورة النصرانية حولها . الزعم بكونها ابنة المعتمد وزواجها من ألفونسو السادس . التفسير الحقيق للأسطورة . حقيقة شخصية زائدة . نصوص تاريخية قاطعة .

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاّقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، حسبما أسلفنا ، ولبث فى حضرته مراكش حتى أوائل العام التالى ، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات ، ويتفقد أحوال البلاد ، وكانت شئون الأندلس خلال ذلك مازالت تلاحقه ، وكان أهل الأندلس ، قد أيقنوا عقب موقعة الزلاّقة ، أنه لاسبيل لنجاتهم ، وخلاصهم من إرهاق النصارى ، سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين ، ومن ثم فقد عادت كتب

أهل الأندلس ووفودهم تترى على يوسف ، وتستجير به من عدوان النصارى. وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية واورقة ، وكانت شئون شرقى الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب ، من جراء تدخل القشتاليين فى شئون بلنسية ، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذى النون ، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور فى تلك المنطقة . بيد أنه كان ثمة مصدر آخر للعدوان المباشر فى منطقة مرسية ولورقة وبسطة ، هو حصن أليدو Aledo (وتسميه الرواية العربية حصن لييط) ؛ وكان ألفونسو السادس قد بعث فى ربيع سنة ١٠٨٥ م ، على أثر استيلائه على طليطلة ، قواته بقيادة غرسيه خمينس إلى الأندلس الشرقية ، لتغير عليها ، وتعيث فى أراضيها ، فاجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة . ثم عمد القشتاليون ، لكى يبسطوا قبضتهم على تلك المنطقة، إلى إنشاء حصن ضخم ، وافر المناعة ، فى مكان يسمى أليدو (لييط) يقع بين مرسية ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسية وألمرية ، وبثوا فيها الرعب والروع ، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم ، حتى ضج أهل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى، وكثر صريخهم واستغاثاتهم ، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فى طلب الإنجاد والغوث[١] .

وكان المعتمد بن عباد ، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين. وكان ألفونسو عقب هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لييط وضاعفها ، وأوعز إلى قائده غرسية خمينس بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضى لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد ، لكونه قد خرج عليه ، وعمل على استدعاء المرابطين[٢] ؛ وبلغت حامية هذا الحصن الضخم يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس ؛ وكان يشاطر المعتمد هذا الاهتمام ، المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، لما كان ينزل بأراضيه من عيث نصارى أليدو (لييط) ؛ وكان المعتمد يتوق فى نفس الوقت إلى استرداد سلطانه الحقيقى فى مرسية ، وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى ، فحشد حملة من جنده ، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف ، وسار أولا إلى لورقة ، فامتنعت

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid., p.319
(٢) روض القرطاس ص٩٨ ، وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 361

عليه ، فغادرها إلى مرسية ، وضرب حولها الحصار . ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين ، وأن يقنعهم بأن يتركوه فى سلام . وهكذا فشلت الحملة وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح(١) .

فاعتزم المعتمد أمره فى استدعاء يوسف ، للمعاونة فى قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته ، فلقى أمير المسلمين بوادى سبو . وأفضى إليه بملتمسه ، وشرح له ما يلقاه المسلمون فى منطقة مرسية ولورقة وغيرهما ، من عسف النصارى وغاراتهم ، وشنيع عيثهم ، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه ، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب ، من فقهاء الأندلس وأعيانها ، يلحفون فى رجاء الإنجاد والغوث ، لقمع بغى القشتاليين ، والاستيلاء على أليدو مركز بغيهم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعد يوسف وتأكيداته ، وأخذ فى إعداد السلاح وآلات الحصار(٢) .

— ١ —

وأوفى يوسف بوعده ، وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨) . فتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفيرة ، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد ، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لييط . وكان يوسف يبغى بعد الاستيلاء على حصن أليدو ، أن يعمل للقضاء على سلطان « السيد » فى منطقة بلنسية ، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقى الأندلس ، ومعه المعتمد فى قواته ، وانضم إليه فى الطريق تميم بن بلقين صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، كل فى قواته . ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو ، وافاه هناك ابن رشيق صاحب مرسية فى قواته ، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها . وضرب المسلمون الحصار حول الحصن ، وكان فضلا عن حاميته الضخمة ، التى تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه المنطقة الذين التجأوا إليه . وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن ،

---

(١) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 134

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٤٨ .

وضربوه بشدة ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح الآلات الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنتهى العنف والشدة ، وامتنعوا داخل حصنهم . وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وشعر أمير المسلمين من جراء ذلك بخيبة أمل مرة ، بيد أنه شعر كذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، فقد كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أولئك الأمراء الطامعين المتنابذين ، فكان تميم صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، يشكو كل منهما الآخر ، ويتهمه باغتصاب حقوقه فى الميراث والسيادة ، وكان ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما فى حق صاحبه لدى أمير المسلمين ، ويتهمه بمختلف التهم . وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتمد وابن رشيق ؛ فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية ، واتهمه بما هو شر من ذلك ، وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً ، وقد دفع إليه جباية مرسية ، وأنه يعاون حامية الحصن فى الخفاء ، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم ، ومال إلى تصديقها ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله ، غادروا المعسكر فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، ولحق به الضيق والغلاء ، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير فى قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين فى معركة غير مجدية . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد بداخله من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل ، ولما رأى أنه لافائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه ، وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ ه) . واحتل ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره النصارى .

ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى ، فاتجه نحو لورقة ،

بعد أن ترك جيشاً مرابطياً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل فى منطقة مرسية وبلنسية ، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده ؛ وسار يوسف إلى ألمرية فالجزيرة ، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس[١] .

— ٢ —

ولم يمض عام آخر ، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته ؛ للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولم يكن جوازه فى تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد ، من أمراء الأندلس ، كما حدث فى المرتين السابقتين ، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة ، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة ، هو الاستيلاء على الأندلس .

وقد اختلفت الروايات فى تصوير البواعث ، التى حملت يوسف على اتخاذ هذا القرار . بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات ، أن يوسف قد تأثر منذ البداية بما شهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف ، وضعف عقيدتهم الدينية ، وانهماكهم فى مجالى الترف والعيش الناعم ، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم بالمغارم الجائرة ، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة ، التى انغمس فيها رؤساء الأندلس وشعوبهم اقتداء بهم ، هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأضعفت هممهم عن متابعة الجهاد ، ومدافعة العدو المتربص بهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، ولم ينقطع بعد الزلاقة ، سوف يقضى عليهم جميعاً ، إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة فى أقرب وقت . ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المترفين[٢] .

ذلك هو التصوير العام ، للبواعث التى حملت يوسف بن تاشفين ، على افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة أخرى ، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم ، توافقوا على

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع :
R. M. Pidal : ibid., p. 364 & 365 وكذلك ، Dozy : Histoire, V. III. p. 139 & 140

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ٨٩ .

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التى تركها بالأندلس ، فساءه ذلك[١] ، ومنها ما وقف عليه يوسف ، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته ، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه ، وإمداده لذلك بالأموال والهدايا ، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة[٢]، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد ، وقد عمد كلاهما فى الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها[٣] .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة ، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء فى أمره، وقد تلقى فى ذلك فتاوى الفقهاء من المغرب والأندلس ، بوجوب خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع الأمر من أيديهم ، بل لقد تلقى مثل هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق ، وفى مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى نزيل مصر يومئذ وغيرهما[٤] . وإذاً فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه ، سند أحكام الشرع ، وتأييد أهل الرأى ، قبل الإقدام عليه .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم ، ذلك الباعث الطبيعى ، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب ، ونعنى شهوة الفتح والتوسع ، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه ، وهم أولئك البدو الصحراويون ، قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها ، وطيب هوائها . ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن « طمع يوسف فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها » وتذكر لنا أنه قال يوماً لبعض ثقاته ؛ «كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد (الأندلس) صغرت فى عينى مملكتى »[٥] .

اجتمعت هذه البواعث كلها ، لتحمل يوسف على فتح الأندلس ، وهى بواعث فوق وضوحها ، تسجلها لنا الرواية جميعاً . بيد أننا نستطيع أن نستشف

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٩ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ . وراجع : R. M. Pidal ibid., p. 394

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ .

(٥) المعجب ص ٧٤ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٣، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣ .

من قرار يوسف باعثاً آخر ، لم تفطن إليه الرواية الإسلامية ، ولعله من البواعث الهامة ، فى مشروع عاهل المرابطين ، وهو العامل الدفاعى والاستراتيجى. ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة ، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، لاتستطيع فى ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها ، وأنه إن تخلى عنها ، فسوف تسقط حتما فى يد ملك قشتالة القوى . ولم تغب عن يوسف ، وهو ذلك الجندى العظيم ، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة ، التى تربط بين ضفتى العدوة والأندلس ، المتقابلتين على طرفى المضيق ، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس ، فى أيدى النصارى ، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال ، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب ، متى اجتمعت قواها ، وتوفرت لديها وسائل العدوان ، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسى ، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم ، وليدعمها ، ويضاعف أهباتها الدفاعية ، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية فى رد عادية العدوان ، لا عن نفسها فقط ، ولكن عن المغرب أيضاً . ولم ينس أمير المسلمين فى ذلك ، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة ، أن يجتاح أراضى الأندلس الوسطى كلها ، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة ، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدوة ، دون أن يقف فى سبيله أحد من ملوك الطوائف ، وكان فى ذلك من بوادر الخطر على أرض العدوة القريبة ما فيه .

— ٣ —

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ ، حسبما قدمنا . وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التى يعقدها المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وعبد الله بن بلقين ، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون فى رد المرابطين . واتسمت حملة يوسف فى البداية بطابع الجهاد ، حيث سار تواً إلى طليطلة ، واجتاح فى طريقه أراضى قشتالة . ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه . وربما كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة ، فيشفى بذلك جرح الأندلس الدامى ، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً . وعاث المرابطون فى أحواز طليطلة وخربوا ضياعها ، وانتسفوا زروعها ، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

وعاصمة قشتالة يومئذ ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها ، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية ، وحصانتها الفائقة ، بعبث المحاولة ، فتركوا الحصار ، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب[١] .

وعرج يوسف بجيشه على فحص غرناطة ، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين ، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً . وكان عبد الله فى الواقع مذ عاد من حصار أليدو ، ولما شعر به من تغير يوسف ، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس ، عن طريق قائده ومبعوثه فى تلك المنطقة ألبار هانيس ، وعقد معه فيما يبدو محالفة سرية لمقاومة المرابطين . ويعترف الأمير عبد الله فى مذكراته بهذه الصلات ، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الجزية لألفونسو ، وتعهد من ألفونسو بألا يعترض له بلداً ولا يغدر به[٢]. ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين ، فنظر فى اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال ، وأعلا الأبراج ، وبنا الأسوار ، ونصب الرعادات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدّ فى ضرب السهام ، ونقل المال والذخيرة ، وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها فى غاية المنعة ، وعلى ضفة البحر ، وعمد إلى مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتحف جليلة ، وأعلاق دقيقه ، فوجه بها إلى أذفونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه ان البلد بلده وأن فيه قايده ، فاهتز لذلك الأذفونش ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ، أن يشد اليد عليه فى ملكه ، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ، ويبذل جهده فى نصره، فقويت نفس حفيد باديس بذلك . وفى ذلك يقول صفيه وأثيره السمسرى :

صانع أذفونش والنصارى	فانظــر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خـــلافا	لطاعة الله والأمـــير
يبنى على نفسه ســفاها	كأنه دودة الحـــرير

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩ . وكذلك R. M. Pidal : ibid,, p. 394 & 395

(٢) كتاب التبيان ص ١٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

دعوه يبنى فسوف يدرى   إذا أتت قدرة القدير[١]

على أن ما استقر فى ذهن يوسف ، وما نهضت عليه الأدلة ، وأكده رسله يومئذ ، هوأن المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء الطوائف، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية ، يتعهدون فيها بالامتناع عن معاونة المرابطين بالمال والمؤن ، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته . وكان بعض حشم عبد الله ولاسيما مؤمل مولى جدّه باديس ، قد اتصلوا بأمير المسلمين ، وأكدوا له مداخلة عبد الله للملك قشتالة ، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة . ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة ، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين ، وأهابوا بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس ، والمغارم الجائرة ، التى يفرضونها على رعيتهم تعسفاً وظلماً .

وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية ، حتى لايأتيها مدد من النصارى ،وطلب المؤن والعلوفات ، فبادر عبد الله بتقديمها . وكانت الأحوال فى غرناطة قد ساءت ، وشاع الخلاف والتمرد بين سائر الطوائف ، وأدرك عبد الله أنه لاسبيل إلى المقاومة ،وأرسل إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال، فعادوا إليه بأمان يوسف « فى النفس والأهل دون المال » ، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته غير غرناطة . فتمهل عبد الله وقتاً . والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم يتحقق . وفى خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه فى الخروج إلى أمير المسلمين ، والانقياد لأمره ، كأفضل حل للموقف . ولما اقترب أمير المسلمين بمحلته من المدينة ، واشتد بها الهياج ، رأى عبد الله أنه لامناص من اتباع هذا النصح ، فسار إلى محلة يوسف ، وقدم إليه نفسه ، فأصدر له أماناً فى نفسه وأهله ، وأمر باعتقاله ؛ حتى يتم ضبط أمواله ، وكانت لدى عبد الله وأمه أموال طائلة ، مكدسة منذ أيام جده باديس، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء والأعيان إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة . ودخل يوسف مع قادته وجنده مدينة غرناطة ونزل بقصرها ، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة ، وأذاع فى

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الناس ، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع ، ويعمل على إقامة الخير بينهم ، والذب عن حوزتهم ، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة ، ولا يفرض عليهم من التكاليف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع . وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس فى اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٠)[١] .

وبعث أمير المسلمين فى الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة ، فقبضت على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله ، وحمل مكبلا إلى العدوة ، ثم أرسل إلى السوس . وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطالبوا بخلعه[٢] .

وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوا إلى سبتة ، فمكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات ، حيث تقرر إقامتهم ، وأنزلوا هنالك دارا حسنة ، وعوملوا برفق ورعاية ، وعاش عبد الله بأغمات حتى توفى . وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب «التبيان» ، وهى التى رجعنا إليها فى غير موضع . وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم ، فسكن مراكش حتى توفى بها فى سنة ٤٨٨ هـ[٣] .

وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف فى أيدى المرابطين ، وكان سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة ، التى قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً . وشعر المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، مايزال يعلل نفسه بمختلف الآمال الغامضة ، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة الخضراء ، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة ، ويقال إن يوسف وعده عندئذ بغرناطة متى استولى عليها[٤] . فلما ظفر يوسف بامتلاكها ، سار المعتمد ومعه زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة ، فقدما التهنئة لأمير المسلمين بهذا الفتح . وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالنزول له عن غرناطة ، مقابل

---

(١) يراجع فى حوادث سقوط غرناطة فى أيدى المرابطين : كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧ — ١٦٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٣٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. III. p. 141—144 ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 — 396

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٣) كتبان التبيان ص ١٧١ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤ .

استيلائه على ثغر الجزيرة ، ولكن يوسف استقبلهما بجفاء ، فانصرفا عنه ، وقد أدركا الحقيقة المروعة ، وشعرا بأن النهاية المحتومة ، قد أضحت على وشك الوقوع . وعاد المعتمد إلى إشبيلية ، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ فى التأهب ، وإقامة التحصينات والأسوار ، وساءت العلائق بينه وبين أمير المسلمين بسرعة ، وكثرت بينهما الوقيعة والسعايات ، ودعا أمير المسلمين المعتمد إل لقائه فرفض ، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع ، وأن يلغى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى ، فلم يجبه إلى شىء[1] .

وغادر أمير المسلمين غرناطة، وجاز إلى العدوة فى شهر رمضان سنة٤٨٣هـ ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبى بكر اللمتونى شئون الأندلس . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إنه لم يأمر قائده فى أمر ابن عباد بشىء ، وقيل من جهة أخرى ، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد فى إشبيلية ، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية ، فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس[2] . وقدم أمير المسلمين قائده ابن الحاج على جيش آخر ، وعهد إليه بمنازلة قرطبة ، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون ، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث ، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وقدم جروراً الحبشى على عسكر رابع وعهد إليه بمنازلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة . وأقام أمير المسلمين بسبتة يجهز الجيوش والأمداد ، ويترقب نتائج أعمال جيوشه فى شبه الجزيرة .

— ٤ —

كان من الواضح ، على ضوء هذه الأهبات الضخمة ، التى اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية فى وقت واحد ، أن يوسف بن تاشفين ، كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس ، وفى أميرها المعتمد بن عباد ، عميد الطوائف ، فإذا سقطت فى يده إشبيلية ، كان له ملك الأندلس .

ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد ، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية . ذلك أنه احتاط للأمر ، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة ، من فقهاء المغرب والأندلس ، بأن مسلك المعتمد فى مصانعة

---

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٠ ، وكتاب التبيان ص١٦٩ .
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، والحلل الموشية ص ٥٢ .

النصارى ، وتسليمهم البلاد ، والاحتماء بهم ، ومسلكه إزاء شعبه فى اقتضاء المكوس الجائرة ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع ، ومجاهرته بالمعاصى ، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين ، ويوجب محاربته وخلعه[١] . أما عن المبررات المادية ، فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة ، يستغيث به ويطلب معونته[٢] وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن فى تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة ، قد أيقن أنه لامعدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .

وبينما كان المعتمد منهمكاً فى أهباته الدفاعية بإشبيلية ، كان قائد المرابطين سير بن أبى بكر ، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية ، وقد بدأ فى ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبة، وذلك فى شوال سنة ٤٨٣ هـ (ديسمبر ١٠٩٠ م) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين[٣] ، ثم اتجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية ، بينما زحفت الجيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة . فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطى بقواته ، وكان يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضى ولد المعتمد . وكانت رندة من أمنع القواعد الجنوبية ، فصمد بها الراضى ، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث . وأما جيان ، فقد زحف عليها جيش مرابطى بقيادة بطى بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم لإنجاد جيان ، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة ، وإنه نشبت بين المرابطين والنصارى موقعة أيد فيها المرابطون[٤] . بيد أن ابن أبى زرع يقول لنا بالعكس إن بطى حاصر جيان حتى دخلها صلحاً ، وكتب سير بالفتح إلى أمير المسلمين ، وأمر بطى بالسير بقواته إلى قرطبة[٥] . وقد ذكرنا من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ .
(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩ .
(٣) المعجب ص ٧٥ - وكذلك : R. M. Pidal : ibid, p: 398
(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣ .
(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ .

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية، أن القوات المرابطية التى سارت لمنازلة قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج . وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد ، الفتح الملقب بالمأمون ، وكان قد اتخذ كل الأهبات الدفاعية الممكنة ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور[١] ، الواقع جنوب غربى قرطبة على ضفة نهر الوادى الكبير ، لكى تبقى بمنجاة من الخطر ، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة ، وقد كان هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته . والواقع أن قرطبة لم تصمد طويلا ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف ، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ، ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة فى اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م)[٢] .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا ، لنتناول مسألة تاريخية هامة ، غمرتها الأسطورة مدى عصور ، ثم ألقى عليها البحث الحديث ضوءه المقنع ، تلك هى قصة زائدة الأندلسية .

لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية ، المعاصرة واللاحقة ، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى « زائدة » أو أنه قد اتخذها خليلة ، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو . وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه ، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى ، وأنه نزل له عن مواضع معينة من أراضى مملكة طليطلة ، كان قد افتتحها ، لتكون مهراً لابنته المذكورة ، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد إلى فرصة سابقة على مقدم المرابطين ، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذى عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار ، وأخيراً أن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة فى الأندلس ، واتهم ابن عباد بالتفريط فى عرضه ودينه[٣] .

---

(١) وهى بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid. p. 405

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة ، وقد نشرت ضمن

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة لاريب فيها ، وتتحدث دائماً عن « زائدة الأندلسية » **Zaida la Mora** أو **Ceida** وعن ذريتها النصرانية . ونقول نحن إنه لاتوجد بين هذه التفاصيل المغرقة ، سوى حقيقة واحدة هى شخصية زائدة المذكورة ، وأنها كانت حقيقة زوجة أو خليلة لألفونسو السادس ، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلا فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ — ١١٠٨ م) . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد ، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، وهذا هو اب الأسطورة كلها. وهذا هو وجه الإغراق والتحريف . ذلك أنه مما لايسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد ، أن يزوج ابنته من أمير نصرانى أو أن يقدمها له جارية وحظية ، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الدينى ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن ، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لايقبله العقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وخصوصاً فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه ، وأن يسحقه ويسحق أسرته . ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه فى الدخل وفى الخارج بألسنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى صف المارقين والخوارج على الدين .

أما التفسير الحقيقى لهذه القصة ، وهو ماكشفت عنه البحوث والنصوص الوثيقة ، فهو أن زائدة هذه كانت حسبما تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة ، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة ، أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل الفتح ، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار ، وأن تلجأ إلى حصن المدور ،

مجموعة **Espana Sagrada** للأب **Flores** (الجزء الرابع عشر) . وذكرها رودريك الطليطلى فى روايته التى وردت فى : **De Rabis Hispaniea** ، وكذلك لوقا التطيلى فى روايته **Cronicon Mundi** على اختلاف فى بعض التفاصيل ، وذكرها الأب فلوريس فى تاريخه **Flores : Reynas Catolicas** ومن المؤرخين المحدثين **Modesto Lafuente** فى تاريخه : **Historia general de Espana** وراجع أيضاً **R: M. Pidal : ibid., p. 760-764** حيث يلخص سائر الروايات المتقدمة .

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر تلك الأنحاء وربما كان ذلك بموافقة المعتمد . ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال ، وكان الملك النصرانى من جهة أخرى مزواجاً ، كلفاً بالنساء ، فقد انتهز فرصة التجائها إليه ، واتخذها خليلة ثم تزوجها . وتقول الروايات القشتالية فى هذا الموطن ، إن زائدة كانت تحب الملك النصرانى « بالسماع » ، وتتوق إلى الزواج منه ، وأن المعتمد (بزعم أن زائدة كانت ابنته) قد نزل لملك قشتالة فى هذه المناسبة عن قونقة ،ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسوبجرا وغيرها من الأماكن ، وهى التى كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون ،وذلك كمهر لزائدة . وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها لملك قشتالة ، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به لملك قشتالة كثمن لحلفه وعونه . ومتى تقرر أن زائدة ، لم تكن ابنته، فإنه لا محل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد بقصة زواج زائدة من الملك النصرانى. ونقول تتمة لقصة زائدة إنها غدت خليلة أو زوجة لملك قشتالة ، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل ، فى أوائل سنة ١٠٩٢م ، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم « إسابيل » ، وفى رواية باسم ماريا ، ونصر أولادها من الفتح ، ومن كان معها من الحشم ، ورزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو ، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها سانشو ، ودفنت بدير سأهاجون وذلك فى سنة ١٠٩٧، أو١٠٩٨ م . ولما اجتاح المرابطون أراضى قشتالة ، فى أوائل عهد الأمير على بن تاشفين،وسار القشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش ، بعث ألفونسو بولده الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند ، فقتل فى الموقعة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته ، وذلك فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غما وحزناً[١] .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة ، ولا شيئاً من قصتها بطريق مباشر ، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها ، ولدينا فى ذلك نصان كلاهما حاسم فى تقرير هذه الحقيقة .

أولهما ما ورد فى تاريخ ابن عذارى « البيان المغرب » فى أخبار سنة ٥٠١ هـ

---

(١) راجع R. M. Pidal : ibid., p.495, 496 & 760-764

وهى الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التى أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش ، وقد جاء فيه : « وفى خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »[١] .

والثانى نص أورده الونشريشى فى كتابه : « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبضاع والفروج ما يلى : « ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج ، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء ، فيغرها فى نفسها ويغرها فى دينها ، ويستولى عليها وتطاوعه ، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد فى الدين ، كما عرض لِكُنَّة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد ، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء »[٢] .

تلك هى الحقيقة حول أسطورة زائدة « ابنة » المعتمد بن عباد ، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس ، اكتساباً لمحالفته وعونه ضد المرابطين ، وهى أسطورة لبثت عصوراً تمثل فى الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها حقيقة لاريب فيها . وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة . والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام لنفوس الكريمة ، فآثروا الإغضاء عنها ، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية .

---

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروفنسال فى أوراق مخطوطة من البيان المغرب لم تنشر ، عثر بها فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشر عنه مقالا عنوانه Zaida la Mora فى مجلة Hispéris XVIII (1934) فكان ضوءاً جديداً قيما على هذه الأسطورة .

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريشى فى كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الغزيرى . وقد نشرت أيضاً بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصرى بمدريد (المجلد الخامس ص ١٨٩) .

الفصل الرابع

الفتـــح المرابطى

القسم الثانى

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلعة رباح . استيلاؤهم على قرمونة . زحف سير بن أبى بكر على إشبيلية . يدعو المعتمد إلى الطاعة . محاصرته لإشبيلية . تأهب المعتمد للدفاع . استغاثته بملك قشتالة . مسير الجند القشتاليين لإنجاده . القتال بين المرابطين والقشتاليين . هزيمة النصارى وارتدادهم . استماتة المعتمد فى الدفاع . خصوم المعتمد فى الداخل وتفاهمهم مع المرابطين . نجاح المرابطين فى ثلم السور . محاولتهم الدخول وردهم . حرق أسطول إشبيلية النهرى . هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها . المعارك داخل المدينة . بسالة المعتمد فى الدفاع . استيلاء المرابطين على المدينة . أسر المعتمد ونهب قصوره . إرغامه على الكتابة إلى ولديه بتسليم رندة وميرتلة . تسليم رندة ومقتل حاكمها الراضى ولد المعتمد . رواية فى تسليم إشبيلية بالأمان . ما ينقض هذه الرواية . أقوال ابن اللبانة والفتح بن خاقان . شعر المعتمد فى ذلك . حياته المعتمد بعد سقوطه . محنة اعتقاله . مسيره إلى المنفى . نزوله بطنجة . مسيره إلى أغمات. حياته المؤلمة فى المعتقل . قسوة أمير المسلمين فى معاملته . وفاة اعتماد زوجة المعتمد. قول فى صفاتها . شعر المعتمد فى محنته . محنته تذكى الشعر بالأندلس . تصفيده بالأغلال . وفاته ودفنه بأغمات . ذكراه فى المغرب والأندلس . قبره يغدو مزاراً . زيارة ابن الخطيب لقبره وشعره فى ذلك . وصف لأطلال قبره . محنة المعتمد وصداها فى الرواية الإسلامية . حملة ابن الأثير على أمير المسلمين . تعليقات دوزى. قسوة أمير المسلمين وما ينتحل لها من الأعذار. المعتمد وما له وما عليه . البواعث التى دفعت يوسف إلى فتح الأندلس . تأملات حول معاملته للأمراء المنزوعين . مسير المرابطين إلى المرية . الروايات المختلفة فى شأن سقوطها . استيلاء المرابطين على بلنسية . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق . استيلاؤهم على سرقسطة. حركاتهم فى غرب الأندلس . إغاراتهم على أراضى بطليوس. ابن الأفطس واستغاثته بألفونسو السادس . مسير المرابطين إلى بطليوس وافتتاحها . مصرع المتوكل ابن الأفطس وولديه . انتهاء مملكة بطليوس . مرثية ابن عبدون لبنى الأفطس . استيلاء المرابطين على أشبونة . جواز أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس . غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى . يوسف يعقد ولاية العهد لولده على فى قرطبة . مرض يوسف ووفاته . وصيته لولده على .

على أثر سقوط قرطبة ، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة ، فى شرقى قرطبة ، وعلى حصن البلاط والمدور فى غربها . وبعث فاتح قرطبة القائد بطى بن اسماعيل إلى قلعة رباح ، وهى قاصية أراضى المسلمين ، حملة من ألف فارس ، فاحتلتها . وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضى الوادى الكبير ،

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية . وفى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ، نجد قائد المرابطين العام، سير بن أبى بكر أمام أبواب قرمونة . وكانت قرمونة أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية ، وهى حصن إشبيلية من الشرق ، فنازلها سير ، ودخلها عنوة فى السابع عشر من ربيع الأول (١٠ مايو سنة ١٠٩١ م) . وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية .

ويقول لنا ابن أبى زرع فى هذا الموطن، إن سير بن أبى بكر ، حينما أشرف على إشبيلية ، وقبل الزحف على قرطبة ، كان يعتقد أن المعتمد ، سوف يخرج إليه ، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات ، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن بشأنه ، فكتب إليه سير ، يطلب إليه تسليم البلاد ، والدخول فى الطاعة ، فرد المعتمد بالرفض، فضرب سير الحصار حول المدينة ، وأخذ فى منازلتها ومقاتلة ابن عباد . ويقدم إلينا ابن خلكان رواية مماثلة ، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن يعرض على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدوة بأهله وماله ، فإن قبل فبها ونعمت ، وإن أبى فينازله ، فلما عرض سير ذلك ، لم يعطه ابن عباد جواباً ، فنازله ، وحاصره أشهراً [1] .

حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة ، ولم يشك المعتمد منذ البداية ، أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين مملكة إشبيلية على هذا النحو الصاعق ، وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية، ولا ملوك الطوائف وحدهم ، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، ومسألة خطر اجتياح المرابطين لها واحتلالهم إياها . وكانت تجمعه فى ذلك مع ابن عباد قضية واحدة ، هى قضية دفع خطر المرابطين عن الوطن المشترك ، ومن ثم فقد بادر من فوره بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم ، لإنجاد ابن عباد . وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل [2] ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

---

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ألفى وخمسمائة فارس . وبعث سير بن أبى بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة آلاف فارس ، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتونى ، وهى حملة تقدرها الرواية النصرانية بخمسة عشر ألفاً . والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن المدور ، وفى رواية أخرى أن اللقاء كان فى بلمة من أحواز إشبيلية(١) ، ونشبت بينهما معركة عنيفة ، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين ، وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليين ، وقد أثخن قائدهم ألبار هانيس جراحاً(٢) ، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين .

واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر ، ودافع المعتمد وجنده عن حاضرتهم أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم ، حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبى بكر أنه قال « لو أنى أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع »(٣) .

وفى خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بنى عباد،أن يضرموا الثورة داخل المدينة ، حتى يضطرب أمر الدفاع ، ويمهد السبيل لدخول المرابطين ؛ ووقف المعتمد على أمرهم ، ولكنه أبى أن يقوم بإعدامهم وفقاً لنصح قادته ؛ واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسعيهم . وأخيراً استطاع المرابطون بمداخلة بعض أولئك الخونة ، أن يحدثوا ثلمة فى السور ، عند باب الفرج على مقربة من النهر (يوم ٥ رجب) . ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوه فى ثلة من فرسانه ، لرد الداخلين من جند العدو ، وهو دون درع أوعدة ، وليس عليه سوى قميص يشف عن بدنه ، وتلقى المعتمد خلال المعركة التى نشبت طعنة تحت إبطه من فارس مرابطى ؛ فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه ، ومزقت تلك الثلة من المرابطين ، وأصلحت الثلمة على الأثر . بيد أنه حدث فى عصر ذلك اليوم ذاته : أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسى فى الوادى الكبير ، وأضرموا النار فيه ، فهلكت معظم سفنه ، وأدرك الناس عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة ، أخذت فى الانهيار ، وسرى بينهم الرعب ، وبادر كثيرون إلى الفرار ، بعضهم عن طريق النهر ، والبعض الآخر بالترامى

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ؛ وكذلك: R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408

(٣) كتاب التبيان ص ١٧٠ .

من شرفات الأسوار ، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر ؛ وسيطرت الفوضى على المدينة ، وبدت طوالع النهاية منذرة مروعة .

وفى خلال ذلك كان سير بن أبى بكر ، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة . ووقعت الضربة الحاسمة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م)[١] ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة. واقتحموها من ناحية الوادى الكبير ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ؛ يمعنون فيها سفكاً وتخريباً . ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة ؛ وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكى ، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره فى ثلة من فرسانه وخاصته، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، أشد دفاع وأروعه ، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ؛ وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة، وعلى القصور الملكية ، وأسروا المعتمد وآله، وقتلوا ابنه مالكا الملقب بفخر الدولة بين يديه ، ونهبوا قصوره — على قول المؤرخ « نهباً قبيحاً » — واحتووا على سائر ذخائره وأمواله ، وساد القتل والعيث والنهب فى المدينة الغنية التالدة . وكانت محنة مروعة .

وأصدر سير بن أبى بكر أماناً للمعتمد « فى النفس والأهل والولد »[٢] ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد ؛ ينصحهما بالخضوع والتسليم ، وكان الأول حسبما تقدم ممتنعاً برندة ، والثانى ممتنعاً بميرتلة (أو مارتلة) فى جنوبى البرتغال. وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال، نظراً لحصانتها الفائقة ، وقد يطول صمودها . وانضمت « السيدة الكبرى » أعنى اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد ، فى حثهما على التسليم واستعطافهما رحمة بوالديهما . فأذعن الأميران للرجاء . فأما يزيد الراضى المدافع عن رندة ، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطى عهده

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠ ، وهى رواية معاصرة حيث يضع هذا التاريخ لسقوط إشبيلية . ويوافقه فى ذلك ابن أبى زرع (روض القرطاس ص ١٠١) . ولكن عبد الواحد المراكشى يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ (المعجب ص ٧٦) . ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية كان فى يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ (أعمال الأعلام ص ١٦٤) . ومن المحقق أن الرواية الأولى هى الراجحة ؛ وتوافقها التواريخ النصرانية ، وهى تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر الموافق للتاريخ الهجرى .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

بالأمان ، بيد أنه ماكادت تفتح أبواب المدينة ، ويدخلها المرابطون ، حتى أمر جرور بالقبض على الراضى وإعدامه ، وانتهاب أمواله ، ناكثاً بذلك بعهده أشنع نكث ، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) . وأما فى ميرتلة ، فقد أبقى المرابطون على حياة المعتد ، وقنعوا بنهب أمواله[١] . وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية .

وكان يزيد الراضى ، ويكنى أبا خالد ، أنبه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر والأدب ، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه ، وقرينه فى نظم القريض الفائق . وكان فوق ذلك عالما أديبا ، حافظاً للشريعة ، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها . ومن شعره قوله :

يحل زمان المرء ما هو عاقد	ويسهر فى إهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم	جناةُ ذنوبٍ وهو للكل حاقد
سينهدُّ مبنىٌّ ويقفر عـــامرٌ	ويصفر مملوء ، ويخمد واقد
ويفترق الألاّف من بعد صحبة	وكم شهدت مما ذكرت الفراقد[٢]

* * *

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل ، وخبا نجمها الذى سطع حيناً فى سماء الأندلس وضاء عالياً ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من الفروسية الرائعة تخلق بالألى شادوها . ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . وقد يبدو من رواية « روض القرطاس » أن المعتمد سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً[٣] . والحقيقة التى تجمع عليها سائر الروايات ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية ، كما تقدم ، وأخذوها عنوة فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى

(١) المراكشى فى المعجب ص ٧٧ ، وكتاب التبيان ص ١٧١ . ونحن نذكر ان اثنين من أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بالمأمون قد قتلا بالتعاقب فى حوادث قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً أبناؤه من حظيته اعتماد الرميكية . وكان له منها أبناء آخرون ، منهم أبو الحسين الملقب بالرشيد الذى عبر معه إلى العدوة (راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٦٢) .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ٧١ و ٧٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ .

اقتحم الأعداء قصره وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان ، هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية »، مناظر سقوط إشبيلية حسبما شهدها بنفسه فى قوله: « إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه، ما لامزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة فى البلد، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى»[(١)] .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ، ومعاصرهم تقريباً ، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى عبارته المسجعة فيما يلى : «ولما انتشر الداخلون فى البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأتهم فرقاً ، ومازال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته ، مانعاً لحوذته ، دافعاً للذل عن عزته ... »[(٢)]

وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب : « وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، وشملت الغارة ، واقتحمت الدور ، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع ، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الخيل ، فدخل القصر ملقيا بيده »[(٣)] .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣ .
(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد . وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .
(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف صراعه مع أعدائه فى ذلك اليوم المشهود :

إن يسلب القـــوم العدا　　ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعـــه　　لم تُســلم القلب الضلوع
قد رُمْت يوم نزالهـــم　　ألاّ تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص　　عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تســيل　　إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخـــر لم يكن　　بهـــواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتـــال　　وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنـــا منهـــم　　والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره ، بعد سقوط حاضرته ، وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين ، فاستسلم إلى هوان الأمر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولده ونسائه (١).

— ٢ —

ويجدر بنا قبل أن نتم الكلام على فتوح المرابطين لممالك الطوائف ، أن نتتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته .

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد ، وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة ، تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة ، التى نظمها المعتمد عن محنته وآلامه فى المنفى . وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها ، من صحف التاريخ والأدب ، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها .

(١) راجع فى سقوط إشبيلية : روض القرطاس ص ١٠٠ و١٠١ ، وقلائد العقيان ص ٢١ و٢٢ ، وكتاب التبيان ص ١٧٠ و١٧١ ، والمعجب ص ٧٦ و٧٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و١٦٤ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و٤١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ . وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 ، وكذلك Dozy : Hist. V. III. p. 144

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته ؛ فى كتبه الرسمية بالفتح ، إلى المبالغة فى خصومته ، والعمل على سحقه ، ومعاملته بأقصى ما يعامل به عدو . ويقال فى ذلك ، إنه فضلا عن البواعث السياسية والعسكرية ؛ فقد لعبت السعاية والوشاية فى علائق الرجلين دوراً لا يحمد، وأثارت فى قلب يوسف أمر ضروب السخط والبغض ضد المعتمد.

لم يكن سقوط إشبيلية ، وسقوط المعتمد وآله أسرى فى أيدى الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة أفظع وأبلغ إيلاماً للنفس ، هى محنة الاعتقال والأغلال والذل والمنفى المروع . وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بنى عباد ، كما قرر مصير عبد الله وأخيه تميم صاحبي غرناطة ومالقة ، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة ؛ هم الفتح المأمون ؛ ويزيد الراضى ، والمعتد بالله ، ومالك ؛ ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته ، وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه ، حسبما رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك ، أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ؛ وأن يمرغ فى التراب ، ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس ، وحليف النصارى الخانع ؛ المذنب فى حق دينه ووطنه ؛ وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه .

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف ، وأخذوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ؛ وسارت السفن من إشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى العُدوة ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس تحيق به وجميع آله ؛ أغلال الاعتقال والذلة ؛ ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر ابن اللبانة ؛ وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة :

نسيت إلاّ غداة النهر كونهم   فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا   من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القنـــاع فلم تستر مخدرة   ومزقت أوجه تمزيق أبـــراد
حان الوداع فضجت كل صارخة   وصارخ من مفـــداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها   كأنها إبل يحدو بها الحـــادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت   تلك القطائع من قطعات أكباد(١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً. وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، وألحق فى طلب الصلة، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وشعراً يعتذر فيه عن ضآلة الهبة ، فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم ، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرهما الأخير(٢) ، وهنالك قضيا بضعة أشهر ، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائى .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلومترا من جنوب شرقى مراكش، على مقربة من جبال الأطلس ، التى تظلل آكامها الثلوج . وقد كانت حسبما نذكر عاصمة المرابطين الأولى . وحل المعتمد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ ﻫ أو أوائل سنة ٤٨٥ ﻫ . وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق ورعاية ، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعة . وهنالك قضى المعتمد بضعة أعوام فى أغلال الأسر ؛ يتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنَّى . ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ؛ بل كان سجناً شنيعا بكل معانى الكلمة ؛ ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق ، ولم يكن يطلق لهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان المعتمد ، وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس بجمالها وخلالها البارعة ، وأبناؤه الأمراء وبناته الأقمار ، يرتدون الثياب الخشنة(٣) . وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن .

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ ، والمعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . ومن أولاده الذين تذكرهم الرواية : الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبوهاشم وعبد الجبار وغيرهم ممن لم تصلنا أسماؤهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة ، فقد ذكرها لنا المقرى بين شاعرات الأندلس (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩) .

وهنالك فى شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً فى قدميه بالأغلال ، على الأقل فى أواخر أيام أسره . ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة ، بلا ريب ، وكانت قسوة لامبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين ، من الفروسية والخلال الحسنة . وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين وكيف تلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت ، فدفنت فى ظاهر أغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ، فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى.

وقد سبق أن أشرنا إلى ماكانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها فى بلاط إشبيلية من منزلة عالية ، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية ، والمشاطرة فى مجالس الشعر والأدب . على أن هذه الصفات الممتازة التى كانت تتمتع بها الرميكية ، وهذه الحياة السافرة اللامعة فى أعظم بلاط لملوك الطوائف ، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها . فمثلا ينقل إلينا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى : «وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين ، فكان من أمره معه ماكان ، وسجن المعتمد بأغمات ، وسجنت الرميكية معه ، فماتت هنالك قبله»[1] .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطوط رقم ٥٦٢ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى «تحفة العروس» لأبى عبدالله التيجانى الأندلسى المالكى (لوحة ٢٠٠) . ويقدم إلينا التيجانى بهذه المناسبة ملخصاً لقصة بثينة ابنة المعتمد والرميكية، فيقول لنا إن بثينة هذه كانت مثل أمها فى الجمال والذكاء ونظم الشعر . ولما سقطت إشبيلية ، ونهبت قصور المعتمد، كانت ابنته ضمن السبايا ، ولم يعثر لها على خبر ، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها ، وهو أنها وقعت فى يد تاجر اشتراها على أنها سرية ، فامتنعت عليه ، وعرفته بحقيقة أمرها ، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجاً شرعياً، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول، ترجو فيه منهما الموافقة على زواجها منه . فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة ، وكتبا إليها ، بالموافقة على رغبتها . (المخطوط السالف الذكر لوحة ٢٠١) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى، فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية ، وكلها تلهف على سابق مجده ، وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنبـاء أسرك قد طبقن آفاقا　　بل قد عممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لاتطوى لها قدم　　حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة　　وأغرق الدمع آماقاً وأحـداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها　　وقيل إن عليك القيد قد ضـاقا

وقوله :

غريب بأرض المغربين أسير　　سيبكى عليـه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا　　وينهـل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به　　وأصبح منه اليـوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد　　متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم　　وذل بنى ماء السماء كبير
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة　　أمامى وخلفى روضـة وغدير
بمنبته الزيتون مورثة العـلا　　يغنى حمام أو تدن طيـور
بزاهرها[1] السامى الذرى جاده الحيـ　　ـا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى[1] وسعد سعوده　　غفورين والصب المحب غيور
تراه عسـيراً أو يسيراً مناله　　ألا كل ماشاء الإله يسـير

وقوله فى أول عيد له بأغمات ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا　　فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة　　يغزلن للناس مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة　　أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية　　كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت فى العيد لاعادت إساءته　　فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا　　فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به　　فإنما بات بالأحلام مغـرورا

---

(١) الزاهر والزاهى من قصور بنى عباد باشبيلية .

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن به … سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة … ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل
فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى … وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وقوله فى لوم أمير المسلمين على ظلمه :

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما … وأن يمحو الذنب الذى كان قدّما
وأن يتلقى وجه عتبى وجهه … بعذر يغشى صفحتيه التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه … إلى كل صعب من مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دونى فتكة … بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم ، والتوجع على أيامهم ، طائفة من القصائد المؤثرة ، التى مازالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها . وكان أغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة ، شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنه بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد ، وأسماه : «كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك»[1] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ، بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن ، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه ، كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق به الغمام[2] . وفى أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالإغلال ، بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ، وكان ممن أفلت عند سقوطها وذلك حسبما نذكر بعد . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م)، توفى المعتمد فى سجنه بقلعة أغمات بعد

---

(١) يراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٧ و ٤٥٨ . وكذلك فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٩ — ٦٧ . هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه ابن الابار (الحلة ج ٢ ص ١٣٦) .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ (الطبعة الثانية) ص ٩٧ .

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام[1]، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بظاهر أغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبل وفاته ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى	حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت	بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا	بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم	بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر	من السماء فوافانى لميعـاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه	إن الجبال تهادى فوق أعـواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم	رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبدالجبار بن المعتمد وهى الثورة التى اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده فى سجنه بأغمات ، وذلك أن عبد الجبار امتنع بحصن أركش ، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرقى شريش ، فى جمع كبير من أصحابه . وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه ؛ وعلم الأمير سير اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك ، فسار إلى أركش ، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر ، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة ، فضخمت الحملة ، وأحدقت بالحصن ، وضيقت على من فيه ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، وابن عباد يخرج فى قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين فى معارك دامية ، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعا . وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل ، فكتم أصحابه موته . وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر ، وفنى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان ، فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً ، وقتل معظم حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها ، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه ، وحملت

---

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتمد كانت فى شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ (الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) . ويقول ابن الابار إنها كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ (الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٥) .

إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت على أسوارها ، ووقعت حوادث هذه الحملة فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م)[١] .

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة ، فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبوبحر بن عبد الصمد ، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله ، مرثيته الغراء فى المعتمد ، ومطلعها هذه الأبيات :

ملك الملوك أسامع فأنادى — أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن — فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً — وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى — نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريته — زادت علىّ حرارة الأكباد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ، وكان منظراً يفتت الأكباد[٢] .

* * *

وقد أسبغت هذه البقعة التى يرقد فيها ملك إشبيلية، وأمير الشعر فى عصره، رقدته الأبدية ، شهرة مؤثرة على مدينة أغمات . ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو خمسين عاماً، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أغمات ، وهو يصفه لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » فى قوله : « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد أمير حمص

---

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة ، عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس ، وسبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ — ١٧٠ حيث يورد القصيدة كلها .

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله . وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد ، قد توقل نشزا غير سام ، وإلى جانبه، قبر الحرة حظيته ، وسكن نفسه ، اعتماد ، إشراكاً لاسمها فى حروف لقبه المنسوب إلى رميك ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص ، وحكايات الأسمار ، إلى أجداث من ولديهما فترحمنا عليه ، وأنشدته »[1] . ويعود ابن الخطيب بعد ذلك فى كتابه « أعمال الأعلام » . فيصف لنا زيارته للقبر فى تلك العبارات المؤثرة : « وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته، مولاة رميك،وعليها وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك ، فلاتملك العين دمعها عند رؤيتها » ، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات
ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... وياضياء الليالى المدلهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه ... فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات
مارىء مثلك فى ماض ومعتقدى ... أن لايرى الدهر فى حال ولا آت[2]

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠ ﻫ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً[3] .

وقد انتهزت فرصة وجودى بمدينة مراكش فى خريف سنة ١٩٥٦ ، فزرت أغمات . وقد غدت مدينة أغمات هذه ، التى اشتهرت فى التاريخ وفى الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد ، اليوم قرية متواضعة ، تقع على مقربة من مراكش ، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية ، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البرى ، ولايعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وأما قبر المعتمد ، فيقع فى ظاهرها فى طلل خرب يحيط به سور قصير ، وفى داخله حظيرتان ، فى إحداهما قبر المعتمد ، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية ، وعليه كومة من الأحجار الصغيرة . وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد الرميكية . وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر ، ما ذكره

---

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى .
(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥ .
(٣) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الخمول والعفاء عليه ، وشعرت بمثل ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.

* * *

كانت مأساة المعتمدبن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ، ومازالت محنة هذا الأمير ، تحتفظ إلى يومنا ، بالرغم من كر العصور ، بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، وفى كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات . فمثلا يقول لنا ابن الأثير فى التعليق على أسر بنى عباد ومعاملتهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد من قبله ، ولايفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »[1] .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك : « ومهما كانت فضائل يوسف ، فإن الشهامة إزاء المغلوبين لم تكن منها ، فقد كان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً » . ثم يقول، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيما ، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته ، التى تنعكس عليها أقل الحوادث فى حياته ، بل إنا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه ، من قصائده ، ثم يقول : « ثم إنه ، أى المعتمد كان لحسن طالعه آخر ملك أندلسى ، يمثل بجدارة وروعة ، قومية وحضارة عقلية سقطتا تحت نير البربر الذين فتحوا البلاد . ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء ، الذين حكموا الأندلس . وإنا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر ، بل ودون أى شخص آخر ، كما تثير آخر زهرة فى الموسم ، وآخر أيام الخريف الحلوة ، وآخر أشعة الشمس الغاربة ، فى نفوسنا أيما أسى »[2] .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص . على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

(٢) Dozy : Hist. V. III. p. 178—179

وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، ومحالفته للنصارى على اخوته فى الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام للخطر ، تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . وقد أدرك المعتمد ، عقب سقوط طليطلة ، فداحة أخطائه ، وأبدى صريح ندمه لما أثم[١] . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة ، وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لاريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، لم تكن دينية فقط ، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليذو ، مجرد جهاد فى سبيل الله ، بل كانت دنيوية قبل كل شىء ، ولم يك ثمة شك فى أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها . وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل ، أى ضرورة بل أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيباً ، على النحو الذى اتبعوه ، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم[٢] وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين ، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لاحول لهم ولاقوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات أعماله وأخطائه كأمير ، وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، وأسره واعتقاله ، للتكفير عما أثم بسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

---

(١) راجع ما ورد فى رسالة ابن عباد لألفونسو السادس (ص ٧٦ من هذا الكتاب) .

(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد ، هم المأمون والراضى ومالك ، وقتلوا المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء ، فى مناظر من القسوة المثيرة .

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد. ولاريب أن هذه الخاتمة المؤسية التى قدر للمعتمد أن يعانى آلامها المروعة المادية والمعنوية، لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبى زكريا بن واسنو (وقيل بل محمد بن عائشة) لمحاصرتها وافتتاحها . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن المرابطين أشرفوا على ألمرية ، وحاصروها ، وأميرها المعتصم بن صمادح عليل يعانى مرض موته ؛ وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته المأثورة « نغص علينا كل شىء حتى الموت » ، ثم توفى أثناء الحصار فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[١] . وفى رواية أخرى أن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة قبيل وفاته ، بأن يترقب مصير إشبيلية ، فمتى سقطت فى أيدى المرابطين ، وخلع أميرها المعتمد بن عباد ، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً ، ويعبر البحر فى أهله وأمواله ، إلى العدوة ، ويلتجىء إلى حماية بنى حماد أمراء القلعة . وقد نفذ معز الدولة وصية أبيه ، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله ، وأن يغادر ألمرية فى آخر لحظة ، قبل أن يطوقها المرابطون ، وأن يعبر البحر إلى العدوة (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة ألمرية[٢]. ودخل المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها ، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية ، ثالثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين .

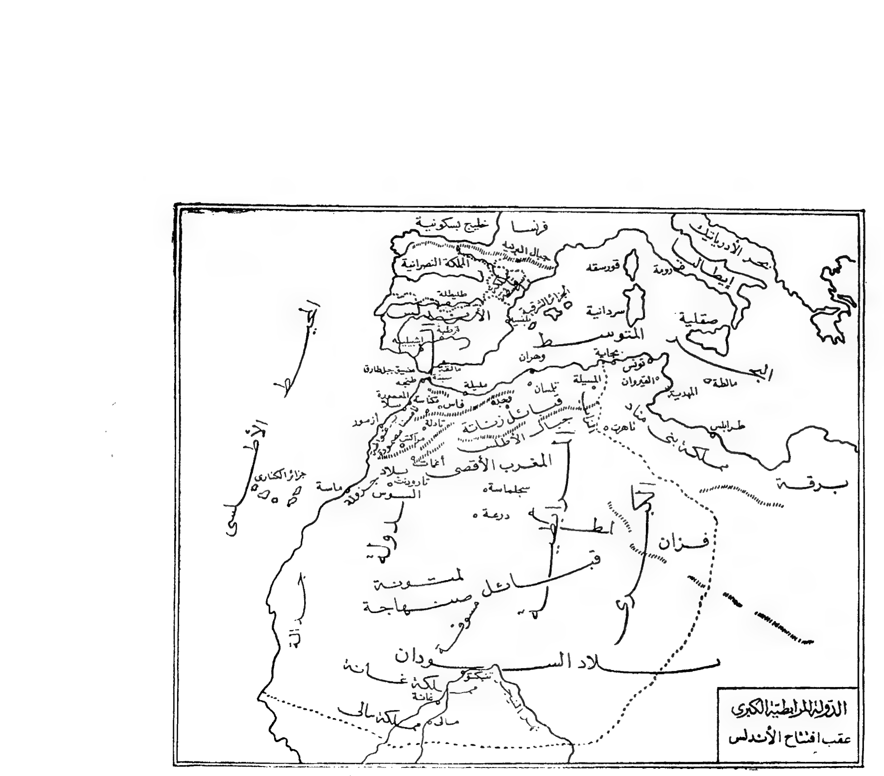
وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك فى شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٠٩١ م) ، ثم استولوا فى العام التالى (٤٨٥ هـ) على شاطبة وشقورة ودانية .

ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية، أن المرابطين بدأوا يتدخلون فى حوادث بلنسية ، ويبذلون جهودهم لتحطيم مغامرات « السيد » فى هذه المنطقة ، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد قام الجيش الذى يقوده

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ . والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ ، وروض القرطاس ص ١٠١ .



الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس
فرنسا
خليج بسكونية
المملكة النصرانية
قورسقة
سردانية
صقلية
مالطة
المتوسط
تونس
القيروان
المهدية
طرابلس
برقة
وهران
بجاية
تلمسان
المسيلة
فاس
قبائل زناتة
المغرب الأقصى
سجلماسة
درعة
فزان
قبائل صنهاجة
لمتونة
بلاد السودان
غانة
الأطلسي

ابن عائشة بدوره فى ذلك . ثم قدم إلى شرق الأندلس جيش مرابطى آخر ، أوفر عدة وعدداً ، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف ، وحاصر بلنسية ، وفى داخلها السيد ، وذلك فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ . ولكن مقاومة السيد ، ومن بعد وفاته مقاومة القشتاليين ، استطالت بضعة أعوام ، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا فى شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً فى أخبار مملكة بلنسية .

واستمرت الجيوش المرابطية فى تقدمها شمالى بلنسية ، نحو أراضى الثغر الأعلى ، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق فى رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤ م) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة . وفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ، وعقب انتصار المرابطين فى موقعة إقليش ، سار جيش مرابطى بقيادة أبى عبد الله بن الحاج والى بلنسية ، شمالا صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تم للمرابطين فتح شرقى الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها فى تلك الأنحاء .

وأما فى غربى الأندلس ، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية ، أن الدائرة سوف تدور عليه ، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وبعث اليه برسالته المؤثرة التى أوردناها من قبل ، يدعوه فيها لنصرة الأندلس . ولما استولى المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين ، فاستقبلهما بجفاء ، وانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته . على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبى بكر فاتح إشبيلية وحاكمها . واستمرت هذه العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام . ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضى مملكة بطليوس ، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته ، ولم يجد أمامه إزاء هذا الخطر الداهم ، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذى سلكه ابن عباد من قبل ، وهو الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة . وبذل ابن الأفطس لملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته ، ثلاث مدن هامة من أملاكه ، هى أشبونة ، وشنترة ، وشنترين . وقد كان لهذا التصرف وقع سيء ، إذ ، انحرف

أهل بطليوس عن المتوكل ، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . وفى أوائل سنة ٤٨٨ هـ (أوائل ١٠٩٥ م) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سير بن أبى بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها ، فاخترق أراضى بطليوس بسرعة ، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معاونة لحليفة المسلم ، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة . ولكن المرابطين اقتحموها بعنف ، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس ، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة ، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها . واحتل المرابطون بطليوس ، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم فى الطريق[1] . وكان للمتوكل ولد آخر هو المنصور ، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن منتانجش على مقربة من حدود قشتالة ، يمتنع فيه ، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته ، سار فى أهله وأمواله إلى ملك قشتالة ، والتجأ إلى حمايته ، وأقام بأرضه ، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات[2] . وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت فى ظل بنى الأفطس خمسة وسبعين عاماً ، وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله ، كما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقى الأندلس .

وقد أذكت محنة بنى الأفطس ، كما أذكت محنة بنى عباد من قبل ، فجيعة الشعر الأندلسى ، ونظم فى رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم ، وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع ، أبومحمد عبد المجيد بن عبدون ، مرثيته الشهيرة ، التى تعتبر من أجل المراثى الأندلسية وأروعها ، وهذا مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنهـــا :

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنـــا ... من الليـــالى وخانتها يد العبر
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر

---

(١) المعجب ص ٤٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٦ ، وراجع : Dozy : Hist. V. III. p. 152 وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 504

(٢) هذه رواية ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها بخزانة القرويين . وراجع أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦ .

تسر بالشىء لكن كى تغر به ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

ومنها فى رثاء بنى الأفطس :

بنى المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثلـه ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للبراعة أو من لليراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته ... قلوبنـا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذين أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفـر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحـد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا ... عنهـا استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ... هذه الخليقة يا ألله فى سدر[١]

هذا وقد أجمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبوالحسن جعفر بن ابراهيم المعروف بابن الحاج اللورقى فى تلك الأبيات الثلاثة :

كم بالمغارب من أشلاء مخترم ... وعاثر الجد مصبور على الهون
أبناء معن ، وعباد ، ومسلمة ... والحميريين باديس وذى النون
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية ... وأصبحوا بين مقهور ومسجون[٢]

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة ، وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى صهر ألفونسو السادس ، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها ، وقتلوا وأسروا معظم حاميتها النصرانية : وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة الإسلامية (نوفمبر سنة ١٠٩٤ م)[٣] .

---

(١) تراجع القصيدة بأكملها فى المعجب ص ٤٢ — ٤٦ ، ونشرت ناقصة فى أعمال الأعلام ص ١٨٦ — ١٨٩ .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠١ و١٠٢ .

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٥٥ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 502

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضى الأندلس . فنى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة ، وسار نحو قرطبة ، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته ، تحول عنها وسار إلى قرمونة وهى حصن إشبيلية الشرقى ، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة ، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعاً عظيمة ، ثم اتجه صوب إشبيلية ، وعاث فى بسائطها ، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع ، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين ، سارا فى قواته وغنائمه صوب بطليوس ثم جاز إلى أراضى قشتالة عائداً إلى قواعده[1] .

— ٤ —

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً فى سبتة ، يعنى بإمداد جيوشه الغازية فى شبه الجزيرة ، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس ، ثم غادرها إلى مراكش ، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة ، وعهد بشئون الأندلس ، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) حيث جاز إليها جوازه الرابع . وفى رواية أخرى أن هذا الجواز الرابع وقع فى سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ)[2] وفى رواية ثالثة ، وهى رواية ابن عذارى أنه وقع فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكانت ممالك الطوائف كلها قد سقطت يومئذ فى أيدى المرابطين ، ماعدا سرقسطة ، التى استولى عليها المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل، وآلت اسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى سلطان البربر وغدت ولاية مغربية ، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين ، وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة ، لكى تظهر فيما بعد ، وتضطلع ضد المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية .

واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد ، فجهز جيشاً قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج . وسار هذا الجيش صوب

---

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 535

طليطلة مخترقاً أراضى قشتالة ، والتقى بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على مقربة من كونسويجرا ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وفر ألفونسو فى فلوله نحو كونسويجرا والتجأ إليها ، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا (أغسطس سنة ١٠٩٧ م).

وقصد يوسف إلى قرطبة ، لينجز المهمة التى قدم فى الواقع من أجلها إلى الأندلس ، وهى أخذ البيعة لولده أبى الحسن على . وكان قد استقدمه معه هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم[١] . وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده ، لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر له عهده بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ . وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وكان من شروط تقديم على لولاية العهد ، أن ينشىء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس : منها سبعة آلاف بإشبيلية ، وألف بكل من قرطبة وغرناطة ، وأربعة آلاف فى شرق الأندلس ، ويوزع الباقى على الثغور[٢] . وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده ، يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة ، وزعامتها الأدبية السالفة لقواعد الأندلس .

وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره بحضره مراكش ، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين ، حتى توفى فى مستهل شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م)[٣] . وقيل بل توفى فى ربيع الآخر سنة خمسمائة . وكانت وفاته بقصره بمراكش ، ومن حوله ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم ، وأكابر لمتونة ، ودفن بالقصر ، وأوصى ولده عليا قبيل وفاته بثلاثة أمور : الأول ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[٤] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ . ويقول ابن أبى زرع إن علياً كان عندئذ بسبتة حيث نشأ (روض القرطاس ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفى فى الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ (ج ٢ ص ٤٤٨) .

(٤) الحلل الموشية ٦٠ .

وهكذا اختتمت حياة البطل المغربى العظيم ، بعد أن عاش زهاء مائة عام ، وقضى فى الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن ، مذ ندبه ابن عمه الأمير أبوبكر اللمتونى لقيادة الجيش المرابطى ؛ وقضى فى حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب مذ دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ هـ ، نحو أربعين عاماً ، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً ، واضطلع فى المغرب بحروب ومعارك لاحصر لها ، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً من أجل الجهاد فى سبيل الله، وأحرز أعظم انتصاراته فى معركة الزلاّقة الحاسمة ، وهى بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها .

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته ، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة ، ولم يثر سحباً حول خلاله العظيمة ، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة فى معاملة أمراء الأندلس ، وهو ما سبق أن عرضنا إليه .



الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال القرن الحادي عشر الميلادي

الفصل الأول

المملكة الإسبانية الكبرى

فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

الممالك الإسبانية فى أواخر القرن العاشر . ناڤاروليون وقشتالة . سانشو الكبير يحتل قشتالة . ولده فرناندو أول ملوكها . ألفونسو الخامس ملك ليون . ولده برمودو الثالث . استيلاء سانشو الكبير على ليون . مصرع برمودو الثالث . استيلاء فرناندو على ليون . تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة سانشو. الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسية ملك ناڤار . غرسية يحاول اغتيال فرناندو ملك قشتالة . إنتقام فرناندو. الحرب بين الأخوين . هزيمة غرسية ومقتله . تعيين ولده سانشو مكانه . إنهيار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف. تحول ميزان القوى فى شبه الجزيرة . ضعف دول الطوائف . تنافسها فى استعداء الملوك النصارى. تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد . غزو فرناندو الأول لولاية البرتغال . حصار بازو وسقوطها . سقوط لاميجو. تهديد شنترين . غزو فرناندو لمنطقة وادى الحجارة . المأمون بن ذى النون يسترضيه بالمال والخضوع . غزو فرناندو لمملكة إشبيلية . خضوع ابن عباد وتعهده بالجزية . موافقته على نقل رفات القديسين النصارى . مسير فرناندو لغزو قلمرية . حصارها وسقوطها . الكونت سسندو يتولى حكمها . مسير فرناندو إلى بلنسية وموقعة بطرنة . مرض فرناندو ووفاته . تلقبه بالإمبراطور . أعماله الإنشائية . مجلس جويانسا . قوانينه الكنسية والدستورية . تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته .

مضينا فيما تقدم ، فى تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، أعنى حتى نهاية عهد المنصور بن أبى عامر ، ونحاول الآن أن نتتبع تاريخ هذه الممالك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ؛ أعنى خلال الحقبة التى شهدت سقوط الخلافة الأندلسية ، وانهيار الأندلس الكبرى ، وانتثارها إلى دول الطوائف ، ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وانهيار هذه الدول الإسلامية الصغيرة .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية فى أواخر القرن العاشر الميلادى ثلاثاً ؛ وهى ناڤار (نبرّة) ، ويحكمها غرسية سانشيز ، ولد سانشو غرسية الثانى . وكانت ناڤار يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة ، إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى ناڤار ، ولايات كنتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا . ولما توفى

غرسية سانشيز، فى سنة ١٠٠٠ م ، بعد حكم دام خمسة أعوام ، خلفه فى الحكم ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.

ومملكة ليون ، وكان يحكمها برمودو الثانى منذ سنة ٩٨٢ م ، واستمر فى حكمها بالرغم من مناوأة أخيه رامبرو ، ومحاربته له ، حتى توفى فى سنة ٩٩٩م، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو طفلا ، وتولى الوصاية عليه الكونت مننديث كونثالث ، أحد أشراف المملكة .

ومملكة قشتالة . وكانت ماتزال فى مرتبة « الكونتية » أو الإمارة ، وكان على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثالث[1] . ولما توفى فى سنة ٩٩٥ م ، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م ، ثم خلفه ولده غرسية . وحدث أن قصد غرسية إلى ليون ليتم عقد زواجه بأخت ملكها برمودو الثالث ، فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨م) وقتله أبناء الكونت ڤيلا ، وهو أحد أشراف قشتالة الذى نزعهم غرسية أملاكهم . وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته ، وترتب على ذلك تغييرات عظيمة فى مصاير الممالك الإسبانية .

ذلك أن سانشو الكبير ملك ناڤار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية ، ابنة سانشو غرسية أمير (أوكونت) قشتالة ، فلما لقى الكونت غرسية مصرعه فى ليون ، بادر سانشو إلى قشتالة ، فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق زوجته ، وندب لحكمها ولده فرناندو ، وأسبغ عليه لقب الملك ، فكان أول ملوك قشتالة . وتلقب هو بملك اسبانيا ، وانتقم من آل ڤيلا قتلة غرسية ، فأحرقهم أحياء ، بالرغم من كونه قد جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة .

وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته فى سنة ١٠٢٧ م ، وغزا أراضى المسلمين المجاورة فى شمالى البرتغال ، وافتتح بعض نواحيها ،وحاصر مدينة بازو ، وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين ، فتوفى متأثراً بجراحه . وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستورى فى سنة ١٠٢٥ م ، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية ، وأصبح العرش وراثياً . ولما توفى خلفه ولده برمودو الثالث . وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد تزوج من ابنة ألفونسو

(١) ويسميه ابن الخطيب فى الفصل الذى يخصصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية ، دون شانجه قمز قشتالة (أعمال الأعلام ص ٣٢٩) .

أخت برمودو ، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين. وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو ، كانا يريان في تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون . على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا الاحتمال ، بل سار فى قواته إلى ليون وافتتحها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه .

ولما توفى سانشو الكبير ملك نافار ، أوملك اسبانيا ، فى سنة ١٠٣٥ م ، استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه ، وثارت بينه وبين صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين ، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما فى موقعة تامارون فى سنة ١٠٣٧ م وفيها لقى برمودو مصرعه . ونظراً لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة . وانتهى بمقتل برمودو الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية ، منذ أيام القوط ، ومنذ قامت مملكة أشتوريش وجليقية وليون فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة .

— ١ —

وكان سانشو الكبير ، قد قسم المملكة قبيل وفاته ، بين أبنائه الأربعة ، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية ، وغرسية أكبر أولاده بالوطن الأصلى نافار ، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو ، وخص ولده غير الشرعى ، راميرو ، برقعة ضيقة تمتد بحذاء نافار من باب شيزروا جنوباً ، وتسمى بمملكة أراجون ، وولده كونزالو ، بمنطقة صغيرة أخرى فى أواسط البرنيه ، وهى ولاية سوبرابى ورباجرسا . وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية ، بهذا التقسيم أربعاً ، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة فى شمال شرقى إسبانيا ، وقد كان يحكمها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير.

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة ، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابى الصغيرة . ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد (١٠٣٨ م) ، فاختار

أهل سوبرابى أخاه راميرو أمير أراجوان ، ليخلفه فى حكم الولاية ، وبذا اتحدت الإمارتان فى مملكة واحدة ، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته ، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولا بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها ، وكان غرسية ملك ناڤار ، غائباً يحج إلى رومة ، وفضلا عن ذلك فقد كان شعب سوبرابى هو الذى اختار راميرو وآثره .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة ، متأصلا فى أسرنا الملوكية ، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم الشقاق والموت »(١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابى ، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة ناڤار نفسها . ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق مشروعه الكبير ، فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة ، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته ، ثم زحف راميرو فى قواته المتحدة من النصارى والمسلمين إلى ناڤار ، واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تاڤالا اعترضت سيره المظفر . ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجتراء ، فحشد قواته على عجل ، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة ، وسار إلى تاڤالا ، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام ، وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون ، فساد بينهم الاضطراب ، ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه ، وأبيد معظم جيشه قتلا وأسراً ، وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين ، ووقعت هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م .

ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة فى سوبرابى خشية المطاردة ، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضاء على جيش أخيه ، ولم يحاول مطاردته داخل بلاده ، وأنفق راميرو بضعة أعوام فى تنظيم شئونه ، والنهوض من عثرته ، وأنشأ جيشاً جديداً ، وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى .

ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى ، وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين ناڤار وقشتالة . وكان غرسية ملك ناڤار ، وهو أكبر

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid 1861) V. II. p. 433

إخوته ، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة العظيمة الشاسعة ، مملكة قشتالة وليون ، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر ، وكان يعول فى تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة ، ولم يكن فرناندو فى البداية يشك فى ولاء أخيه أوصدق نياته ، لاسيما وقد حارب إلى جانبه فى معركة تامارون ضد برمودو ملك ليون ، ومن ثم فقد وضع غرسية ، مشروعه لاغتيال أخيه ، وذلك بأن تظاهر بالمرض ، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش الموت . وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة ، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة ، بيد أنه قد نمى إليه خلال سيره ، حقيقة الكمين الذى دبر لاغتياله ، فارتد مسرعاً إلى برغش ، وقد أضمر لأخيه الغادر أسوأ النيات . ولم يفطن غرسية إلى أن أخاه قد وقف على حقيقة أمره . ثم جاء دور فرناندو فى تدبير الانتقام من أخيه ، فدعاه إلى زيارته فى برغش بعد ذلك بأعوام قلائل ، فسار إليه غرسية دون أية ريبة ، ولكنه ما كاد يصل إلى أراضى قشتالة ، حتى قبض عليه وزج إلى إحدى القلاع ، بيد أنه لم يفقد شجاعته ، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله ، فعاد إلى نافار ، معولا على الانتقام .

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين ، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضى قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه . ثم اعتزم أن يحاول الضربة الحاسمة . فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم رامبرو وحشد كل ما استطاع من الجند والعدة ، وأمده حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده . ونفذ بجيشه القوى إلى أراضى قشتالة ، واثقاً فى شجاعة جيشه . وكان أخوه فرناندو فى تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون . واستمر غرسية فى سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا ، الواقع على مقربة من شرقى برغش ، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه ، فبعث إليه اثنين من كبار الأحبار ، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء ، فصرفهما غرسية بخشونة . وفى فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م ، اشتبك الجيشان فى معركة عنيفة ، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة ، بيد أن الخلل ما لبث أن دب إلى جيشه ، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر الآخر ، وشن فرسان ليون فى نفس الوقت على النافاريين هجوماً عنيفاً ، وأصابت غرسية ،

وهو يقاتل فى قلب المعمعة طعنة قاتلة ، فسقط من جواده وأسلم الروح فى الحال بين يدى كاهنه ، فانتثر شمل الناڤاريين ، وركنوا إلى الفرار ، وأغضى فرناندو عن مطاردتهم ، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين ، فمزقوا قتلا وأسرا. وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم ، وأن يدفن فى ناجرة فى الكنيسة التى أنشأها هناك ، وأعلن فى الحال اختيار ولده الصبى سانشو مكانه ملكاً على ناڤار ، وأعلن الملك الجديد من جانبه طاعته لعمه الظافر ، الذى شاء أن يبقى له على تراث أبيه ، ولم يقتطع فرناندو شيئاً من أراضى ناڤار سوى بعض النواحى الواقعة على ضفة الإيبرو اليمنى[١] .

— ٢ —

فى الوقت الذى كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا النحو بنار الحرب الأهلية، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم وأطماعهم، كانت اسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة ، وقامت بها أكثر من عشرين دولة من دول الطوائف . وبينما كانت الخلافة تحتضر فى قرطبة وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بنى أمية ، وبين المتوثبين من بنى حمود ، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان ، يضطرمون بأطماعهم الوضيعة ، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة ، من الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا تخبو أوارها ولا يستقر قرارها . والواقع أن المصير الذى تردت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم الانتحارية ، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه اسبانيا النصرانية من حروب أهلية محدودة النطاق والمدى ، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية ، ووحدتها ونهوضها . ولقد كان من رحمة القدر فقط ، أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة أن تحتفظ بحياتها ، وأن شغلت عدوتها الخالدة اسبانيا النصرانية عن مطاردتها والقضاء عليها ، بخلافاتها وحروبها الداخلية فى تلك الفترة ، أعنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

منذ بداية هذا القرن ، حدث فى شبه الجزيرة انقلاب حاسم فى ميزان

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 382—383
وكذلك R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 122—123

القوى السياسية والعسكرية ، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة ، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور ، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية ، وتكاد تخضعها لصولتها ، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية ، ويؤدون لها الجزية فى معظم الأحيان ، إذا بها بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف الهزيلة المتنابذة ، تفقدكل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع ، ويتسابق ملوكها إلى خطب ود الملوك النصارى ، والالتجاء إليهم ، واستعدائهم على محاربة بعضهم البعض . وقد كان الملوك النصارى ، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص ، حتى فى فترات ضعفهم وتفرقهم ، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى ، والغنم المادى . وقد بدأت سياسة الاستعداء هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها ، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتناء سلطان الخلافة ، تستمد عون النصارى ، على نحو مافعل الفتى واضح ومحمدبن هشام المهدى فى الاستنصار بأمير برشلونة ، وسليمان بن الحكم والبربر ، فى استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة . على أن هذا التنافس فى استعداء الملوك النصارى ، والاستعانة بهم ، يتسع نطاقه تباعاً ، ويغدو على يد ملوك الطوائف ، حسبما رأينا فى أخبارهم ، ضرورة سياسية وعسكرية يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة . وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة أعظم استغلال ، حتى غدا ملوك الطوائف ، فى الواقع آلات مسخرة فى أيديهم ، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته ، حسبما رأينا ، على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة .

على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية ، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية ، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، منذ أواسط القرن الحادى عشر ، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة ، التى تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية **La Reconquista** ، وغدت ظاهرة قوية وعاملا حاسماً ، فى ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية .

وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفرذلند ، فإنه ماكاد ينتهى من الصراع الداخلى الذى نشب بينه وبين إخوته ، حتى تأهب لغزو أراضى المسلمين . وفى سنة ١٠٥٧ م ، عبر فى قواته نهرى دويرة وتورمس ، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

(شمالى البرتغال) ، وهى قاصية أراضى المسلمين من الشمال الغربى ، وكانت هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس ، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بشئونها ، وتعتمد فى الدفاع على نفسها ، فاجتاحها فرناندو وعاث فيها ، واستولى على بعض الحصون ، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu ، وضرب حولها الحصار . فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه ، وأبدى الرماة المسلمون ، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس ، براعة عظيمة فى إصابة العدو ، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثلثة ، واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع ، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة بمنتهى العنف ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً . وكان من بين الأسرى ، ذلك الرامى الماهر ، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عاماً ، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ، وعذب حتى أسلم الروح . ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو (مليقة) الواقعة شمال بازو ، وكانت حصينة عالية الأسوار ، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقتل معظم أهلها وأسرهم ، واسترق الأسرى من أهل المدينتين ، وأسكن بهما النصارى . ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو صاحب السيادة على تلك الأنحاء ، ليقينه باستحالة الدفاع عنها ، وذلك حسبما أشرنا إليه من قبل فى أخبار مملكة بطليوس .

وقد سبق أن أشرنا كذلك فيما تقدم إلى الحملة التى بعث بها فرناندو ضد مدينة شنترين الواقعة فى شمالى أشبونة على نهر التاجه ، وكيف اضطر ابن الأفطس عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار .

وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً ، ولاسيما ابن عباد ، وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأناً . ومن ثم فقد خرج فى جيشه فى سنة ١٠٦٢ م ، إلى انحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية ، وأغار على مدينة سالم ، وأوسيدا ، وطلمنكة ، ووادى الحجارة ، وقلعة النهر (ألكالادى هنارس) وعاث فى بسائطها تخريباً وسبياً . فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى ، وقدم إليه الهدايا ،

وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهده بأداء الجزية ، فقبل فرناندو المال والعهد ، وعاد مثقلا بالغنائم والتحف.

وفى العام التالى ، خرج فرناندو فأغار على أراضى مملكة إشبيلية ، وخرب بسائطها ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف ، يناشده المودة والسلم ، على أن يؤدى له الجزية ، فأجابه فرناندو إلى رغبته ، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات القديسة خوستا ، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت فى إشبيلية ، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته ، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة ، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة ، وعندئذ زعم أحد أعضائها ، وهو الأسقف ألفيتو ، أنه قد ظهر له القديس إسيدورو ، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط ، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى فى مكانها لحماية إشبيلية ، وعرض أن تحمل رفاته هو ، وكشف من مكان وجودها ، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس فى المكان المحدد ، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم ، فى الكنيسة التى سميت من ذلك التاريخ باسمه ، أعنى بكنيسة سان إسيدورو ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م[١].

وكان فرناندو على أثر إخضاعه للملوك بطليوس وطليطلة وإشبيلية لصولته ، وإرغامهم على دفع الجزية، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قُلُمرية ، وهى أعظم القواعد الإسلامية ، فى شمال غربى الأندلس ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة ، من القديس ياقب ، فقصد إلى مزاره بشنت ياقب ، وقضى به ثلاثة أيام فى صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار (يناير سنة ١٠٦٤ م). وقد سبق أن عرضنا إلى حصار قلمرية ، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية، من أن راندة ، قائد الحامية الإسلامية ، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو ، وأن ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيانته ، وترك ابن الأفطس قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو. بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 388&389
وكذلك R. M. Pdal : ibid; p. 135

أشد دفاع . واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار . ولكن رهبان دير لورفان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة فى الجبال . وأخيراً نجح القشتاليون فى إحداث عدة ثغرات فى أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفاتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا فى الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية فى اليوم الحادى عشر من يوليه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين[1] . وعهد بحكم المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن فى صوغ السياسة القشتالية نحو الطوائف ، هو الكونت المستعرب سسنندو داڤيدس، الذى تعرفه الرواية الإسلامية بششنند . وكان حسبما أسلفنا فى أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة ، وأسر فى حداثته فى غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس ، وربى فى البلاط العبادى وأعجب المعتضد فيما بعد بمواهبه ، وقربه واستخدمه فى السفارة بينه وبين فرناندو ، ثم غادر إشبيلية بعد ذلك ، والتحق بخدمة البلاط القشتالى[2] ، وقربه فرناندو وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية ، والدين الإسلامى ، وأحوال المسلمين وعاداتهم . فحكم سسنندو قلمرية بكفاية ، ونال احترام النصارى ، والمسلمين على السواء ، وكان يلقب عندئذ « بالوزير » على النمط الإسلامى ، وفى عهده نمت قلمرية ، وأنشئت بها عدة صروح فخمة . وفى بعض الروايات أن سسنندو لم يعين حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها ، حسبما تقدم ذكره فى موضعه ، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م[3] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) متفقة فى ذلك مع الرواية النصرانية ، بيد أنها تختلف معها فى بعض التفاصيل . وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس ، إلى أقوال الرواية

---

(١) راجع فى حوادث فتح قلمرية M. Lafuente : ibid; V. II. p. 384 & 385
وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 145&149

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ .

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes, p. 461

الإسلامية[١] وأشرنا إلى ماعمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضى الواقعة فى شمالى البرتغال بين نهرى منهو ودويرة .

ونحن نعرف مما تقدم فى أخبار مملكة بلنسية ، أن فرناندو ، خرج فى قواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر ، قاصداً إلى بلنسية ، يبغى افتتاحها ، وأنه اخترق فى طريقه أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وعاث فيها معاقبة لأميرها المقتدر بن هود لتخلفه عن دفع الجزية ، ثم ضرب الحصار حول بلنسية . ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً لمناعة أسوارها ، وأهبة أهلها ، تظاهر بمغادرتها ، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها . وعندئذ خرج البلنسيون دون تحوط ، وفاجأهم القشتاليون فى بطرنة وهزموهم هزيمة شنيعة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض ، فآثر العودة إلى ليون ، وهنالك احتفل بدفن رفات القديس إسيدورو فى أوائل ديسمبر . وكان فى الواقع مرض موته ، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى توفى فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٥ ، ودفن فى نفس الكنيسة التى دفن فيها القديس ، والتى غدت من ذلك الحين مدفناً لملوك قشتالة .

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وفى عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة ، ومهد حكمه الملىء بالوقائع المظفرة لمجد الملوك اللاحقين ، وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير **El Magno** ، وكان يسمى نفسه بالإمبراطور ، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكى نافار وأراجون . وفى عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيماً ، ودفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية ، واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون . وقد كانت غزواته ، بالرغم مما ينسب إليه من التقى والورع ، تتسم بنزعة دموية مروعة ، تبدو واضحة فى قسوته وفظاعته فى معاملته المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة ، وسفك دمائهم دون تمييز ولاحرج ، واسترقاقهم جملة . وقد اشتهر فضلا عن غزواته وفتوحه المظفرة ، بأعماله الإنشائية والدستورية ، فقد جدد مدينتى ليون وسمورة ،

---

(١) راجع سقوط قلمرية فى البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ .

وكانتا قد خربتا منذ غزوات المنصور بن أبى عامر ؛ وأنشأ فى ليون عدة صروح وكنائس فخمة ، مازالت تزدان بها حتى اليوم . وفى سنة ١٠٥٠ م ، دعا إلى عقد اجتماع كنسى تأسيسى فى « جويانسا » اعتبر فى نفس الوقت مجلساً نيابياً « كورتيس » ؛ وشهدته الملكة والأشرف والأساقفة . وصدرت عنه عدة أصول كنسية ودستورية ، كان لها أكبر الأثر فى صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة فيما بعد . ومنها أن يُعمل فى جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج ، أو شهود مآدب الزواج . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة ؛ منها أنه لايمكن الاستيلاء على أملاكها بالتقادم ، وأن المتهم بجريمة ما ، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أضحى تحت حماية القضاء الكنسى ، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة ، وأن القوامس (الكونتات) يجب عليهم هم ونوابهم فى القضاء الجنائى، أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق ، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق فى مملكة ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة Buenos Fueros (القوانين الطيبة) وفى مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة Benefactorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفى من الكنسية ، وصدرت كذلك عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون فى المملكة[1] .

وتنوه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو ،وعظمة عهده ، ومقدرته كسياسى ومحارب ، وتنوه بالأخص بتقواه وورعه . وفائق رعايته للكنيسة ، وشغفه بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها ، والإغداق عليها ، واهتمامه بنقل رفات القديسين من أراضى المسلمين إلى الأراضى النصرانية ، وهى ترى على العموم أن مملكة قشتالة وليون المتحدة ، قد وصلت فى عهده إلى درجة من الاستقرار والأهمية والتفوق ، لم تصل إليها من قبل قط[2] .

---

(١) راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (ترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤ .

(٢) M. Lafuente : ibid, Vol. II. p. 485—488

الفصل الثانى

إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول

ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد

تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده . غزو سانشو ملك قشتالة لناڤار وهزيمته . غزوه لمملكة ليون . الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو . هزيمة ألفونسو وأسره . فراره والتجاؤه إلى المأمون ملك طليطلة . المأمون يرحب به ويكرم وفادته . أقوال الرواية النصرانية فى ذلك . ألفونسو يدرس خطط الاستيلاء على المدينة . تطور الحوادث . غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته . استيلاء سانشو على جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية . استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إلبيرة . محاولته انتزاع سمورة من أخته أوراكا . مصرعه تحت أسوارها . استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو . مغادرة ألفونسو لطليطلة . عهده للمأمون بمسالمته وولده . تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه . مسير ألفونسو إلى برغش . حلفه ببراءته من مقتل أخيه . يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية . يدبر كيداً لأخيه غرسية . مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد . وفاة المأمون وولاية حفيده القادر . ألفونسو يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة . إغارته على أراضيها وتخريبها . القادر يلتجىء لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية . قيام الثورة فى طليطلة . فرار القادر . وعوده بمعاونة ألفونسو. المعتمد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو . مضى ألفونسو فى إرهاق طليطلة وافتتاحها . الطابع الصليبى لهذا الفتح . طليطلة حاضرة اسبانيا النصرانية . الأسقف برنار عميد الكنيسة الإسبانية . مؤامرته لإزالة المسجد الجامع . تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . سقوط طليطلة وأثره فى ميزان القوى . أثره فى تحول ملوك الطوائف . موقعة الزلاقة وما بعدها . عود الطوائف إلى تفرق الكلمة . عدوان السيد والقشتاليين . عبور أمير المسلمين للمرة الثانية . حصار حصن لييط وما اقترن به من حوادث . إنسحاب المرابطين . محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله . انتصارات المرابطين فى منطقة بلنسية . وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية . إستيلاء ألفونسو على شنترين . موقعة إقليش . هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو. البابوية وتدخلها فى اسبانيا. سعيها إلى فرض سيادتها الروحية . الأسقف برنار ودوره فى ذلك . إسبانيا والحروب الصليبية . صفة الملك الوراثية . نظام الإقطاع وخواصه . تنظيم ألفونسو لأسس التشريع . ألفونسو ووراثة عرشه . مجلس ليون وقراراته فى ذلك . مملكة أراجون . مملكة ناڤار. سانشو ملك ناڤار ومصرعه . سانشو راميرز ملك أراجون . استيلاؤه على منتشون وحصاره لوشقة . وفاته وقيام ولده بيدرو مكانه . سقوط وشقة .بيدرو الأول وصفاته . وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه . إمارة برشلونة . الكونتات الفرنج . آل بوريل أمراء برشلونة . خلفاؤهم آل برنجير . رامون برنجير الكبير وأعماله . الصلات بين بنى هود وآل برنجير .المستعين بن هود والكونت برنجير . رامون برنجير الثالث .

— ١ —

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة ، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف (١٠٦٤ م) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتى غير معتبر فى ذلك بما حدث من قبل حينما قسمت المملكة على يد أبيه سانشو الكبير.

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة ، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وخص ألفونسو بليون وأشترويش، وحقوق الجزية على مملكة طليطلة ، وخص أصغرهم غرسية ، بجليقية والبرتغال ، وقد ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على مملكتى إشبيلية ، وبطليوس ، وأعطى حق الإشراف على الأديار فى سائر المملكة لابنتيه دونيا أورّاكا ، ودونيا إلبيرة ، وخصت أوراكا بمدينة سمورة الحصينة ، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة.

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو ، بعد اتحادها فى عهد فرناندو ، كان عملا خاطئاً ، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية . وقد استمر الوئام المكبوت بين الإخوة فى ظل الملكة سانشا عامين آخرين ، فلما توفيت فى سنة ١٠٦٧ م ، بدت نذر الصراع الجديد واضحة فى الأفق.

وكان سانشو ، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته ؛ قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر . وكان يحكم ناڤار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية ، ويحكم أراجون سانشو ابن عمه راميرو ، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة ناڤار ، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا . ولكن ملكا ناڤار وأراجون شعوراً منهما بنياته العدوانية ، عقداً حلفاً لمقاومته . فلما سار لمحاربتهما ، رداه بنجاح وهزماه فى موقعة ڤيانا (سنة ١٠٦٧ م) . وكان من جراء ذلك أن فقد سانشو أراضى ناڤار التى كان قد أحرزها أبوه فى موقعة أتابوركا . وفى العام التالى عقب وفاة الملكة سانشا ، سار سانشو فى قواته وهاجم أراضى مملكة ليون ، فسار أخوه ألفونسو لرده، والتقى الاثنان فى بلادنتادا على نهر بسيرجا (يوليه سنة ١٠٦٨ م) فهزم ألفونسو، وارتد مسرعاً إلى ليون، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضى المجاورة لقشتالة.

ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون واخترقها حتى الغرب ، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة فى جولنجار أوجلبياريس الواقعة على نهر كريون ، فهزم

القشتاليون . وفروا تاركين خيامهم . وأغفى ألفونسو عن مطاردتهم حقنا للدماء . وكاد سانشو يرتد أدراجه ، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه . ونصح له بأن يجمع جنده ، ويعيد الكرة ، فى الفجر تحت جنح الظلام ، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم ، وخبت همتهم ، وكان صاحب هذا النصح هو الفارس ردريجو دياث . الذى عرف فيما بعد بالسيد ، وهى أول مناسبة يردد التاريخ فيها اسمه . واستجاب سانشو لهذا النصح ، فاستجمع جنده ، ودهم فى الفجر على الليونيين وهم نيام . فدب إليهم الاضطراب والذعر ، وقتل الكثير منهم أثناء النوم . وفر ألفونسو ، والتجأ إلى كنيسة بلدة كريون ، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش . ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون (يوليه سنة ١٠٧١م)

وهنا تدخلت دونيا أوراكا ، وكانت تحب أخاها ألفونسو ، وسعت إلى إنقاذه من الأسر . فاستجاب سانشو إلى رجائها ، وقبل الإفراج عن ألفونسو ، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان ، وأن يقيم فى دير ساهاجون ، فاضطر ألفونسو إلى القبول . ولجأ إلى الدير ، وهنا دبرت أخته أوراكا فراره من الدير ، فسار إلى طليطلة والتجأ إلى ملكها ، المأمون بن ذى النون[١] . فاستبقله المأمون بمنتهى الترحاب والإكرام ، وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية ، وأنزله داراً بجوار قصره ، وأعد كل ما يلزم لراحته ، وخصص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزه فيها ، والاجتماع بصحبه النصارى ، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز ، وكان يعيش معهم فى أحسن الظروف وأكرمها[٢] .

وإليك كيف يصف الأستاذ پيدال استقبال المأمون لضيفه : « استقبل المأمون الملك المغلوب بإكرام ، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته ، وأنزله داراً لحقة بالقصر الملكى ذاته ، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة « القنطرة » . وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة ، وكان بوسعه أن يتريض فى حدائق الملك الشاسعة الواقعة فى الناحية الأخرى من القنطرة داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجُه » .

---

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث ، وهى تسمى دير ساهاجون « بسفقند » . راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .

(٢) M. Lafuente; ibid; Vol. II. p, 396

ويشير الأستاذ پيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر المأمون ، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء ، وروعة الحفلات التى تقام به ، ومجالس العلماء الأعلام التى كانت تعقد به ، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، ثم يقول : « إن النفى الذى كان يعانيه ألفونسو بين هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية ، حسبما يقول لنا مؤلف « تاريخ سيلوس ». كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ، ويتريض فى جنبات المدينة الحصينة ، ويفكر من أى الأماكن ، وبأى نوع من أدوات الحرب تمكن اقتحامها »(١)

حرصنا على إيراد هذه الأقوال ، لنستطيع أن نتأمل على ضوئها فيما بعد ، تصرف ألفونسو السادس ، نحو ولد حاميه والمحسن إليه ، ونحو مملكة طليطلة .

ومما له مغزى عميق ، ما يقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة الذكر من أن ألفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه فى كيفية الدفاع عن طليطلة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها ، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، فى تخريب أحوازها وانتساف مؤنها ، ويضيف صاحب هذه الرواية ، أن ألفونسو انتفع بوقته فى دراسة خطط المدينة والاحتمالات التى تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم فى الاستيلاء عليها(٢) .

وقضى ألفونسو فى منفاه ، ببلاط الملك المسلم ، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢ م ، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته ، إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث فى قشتالة ، وأن يتألق نجمه مرة أخرى .

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينزع أخاه الصغير غرسية مُلْك جليقية ، وكان سير الحوادث فى جليقية ، مما يعاون على تحقيق غايته . ذلك أن غرسية أساء السيرة ، وبالغ فى إرهاق الشعب بالضرائب ، وانصاع فى ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا ، وفوض إليه كل شىء فى الدولة . فسخط الأشراف لذلك ، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته ، فاستشاط غرسية غضباً ، واشتد عسفه وكثرت

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p.176&177

(٢) M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 397

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً ، فلماسار سانشو فى قواته إلى جليقية ، ألفى غرسية نفسه فى مأزق حرج ، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة ، وأبى جيرانه المسلمون معاونته . والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين ، فهزم هزيمة شديدة ، وقتل معظم أصحابه ، ووقع أسيراً فى يد أخيه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة ، وعندئذ سار فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، والتجأ إلى أميرها (أواخر سنة ١٠٧١ م) .

ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو ، سوى مدينتى سمورة ، وتورو اللتين تحكمهما أختاه أوراكا وإلبيرة . وكان سانشو يحقد على أختيه لعطفهما على أخيه ألفونسو ، ويخشى دسائسهما ومساعيهما الخفية ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وحاول فى البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة ، فعرض على أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى ، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده . وعندئذ سار فى قواته ، واستولى أولا على قلعة تورو ، ولم تبد صاحبتها إلبيرة كبير مقاومة ، ولكن أوراكا صممت على الدفاع عن سمورة ، معتمدة فى ذلك على مناعة المدينة ، وعلى معاونة طائفة قليلة من الجند المخلصين ، وعلى رأسهم الفارس الباسل آرياس كونثالث . وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولا ، ولكنها امتنعت عليه ، فضرب حولها الحصار ، واستمر حينا ،وهو يهاجمها من آن لآخر . وفى ذات يوم نفد إلى معسكره فارس،وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال المدينة المحصورة . وماكاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وأرداه مضرجاً بدمائه ، وفر إلى المدينة هارباً . ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أوراكا، وكان ذلك فى ٦ أكتوبر سنة ١٠٧٢ م .

وفى الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالى ، وانفض عنه الجند الليونيون والجلالقة ، إذكانوا يقاتلون رغماً عنهم، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم القتيل ، ودفنوه فى دير « أونيا » ، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه ، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط ، وقد سمى بالقوى **El Fuerte** لجرأته وشجاعته .

واجتمع الأشراف فى برغش ، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه ، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتل أخيه سانشو ، وبعثوا إليه رسلهم فى طليطلة . وبعثت إليه كذلك أخته

أورآكا ، رسلها على عجل ، بالخبر سراً ، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى النون. وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبأ أخفاه عن المأمون، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة ، خشية أن يرغمه المأمون على أن يقطع عهوداً ضارة ، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله ، ولكنه نجح فى الفرار ، وهذه رواية ضعيفة . والحقيقة ، وهى ماتؤيده الروايات الوثيقة ، هو أن ألفونسو أبلغ النبأ فى الحال إلى المأمون ، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته ، وأبدى له استعداده لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها ، ولم يطلب إليه سوى صداقته ، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته ، وأن يعاونه ضد خصومه المسلمين ، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر ، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود ، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الجليلة ، وصحبه مع أكابر مملكته فى موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده[1] .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشمله هذا العهد ، لسبب لانعرفه » . ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه بقوله : « إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته ، يباين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه ، فهذا يسجن أخاه فى حصن أو دير . وهذا الأمير المسلم ، يتلقاه فى قصره ، ويعامله كوالده ، ويخصص بستانه لرياضته . ولما خلا عرش قشتالة بممالكه الثلاث ، عاون ألفونسو بكل سخاء وإكرام ، ليسير إلى تلقى العروش التى كانت فى انتظاره ، ولم يطلب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته . إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن العواطف الكريمة التى يجيش بها هذا الجنس العربى »[2] .

— ٢ —

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أورآكا ، وبمن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية ، وبحث الوسائل التى تكفل له اعتلاء عرش قشتالة دون صعوبة . ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب ، كانت تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أورآكا ، ناصحة ألفونسو ، وملهمته . ومن ثم فإنه

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 398—400
وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p. 189 & 190

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 438

لما وصل ألفونسو إلى برغش ، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها ، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة فى تدبير مقتل أخيه سانشو . فنزل ألفونسو عند رغبتهم . بيد أنه لما انتظم الجمع فى الكنيسة التى تقرر أداء القسم فيها ، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تحليف الملك ؛ وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجو دياث (السيد فيما بعد) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره ، وتولى تحليفه اليمين بنفسه ، فلما أداها ، عقب ردريجو بقوله ، إنه يطلب إلى الله ، إن كان ألفونسو كاذباً ، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذى اغتال أخيه سانشو . وقد خلفت جرأة « السيد » هذه فى نفس ألفونسو أثراً لايمحى ، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد قط ، حسبما بينا من قبل فى حياة السيد ، وعلائقه مع مليكه ألفونسو[1] .

وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة ، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية (ديسمبر سنة ١٠٧٢م)، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها كما كانت فى عهد أبيه فرناندو . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عاد أخوه غرسية ملك جليقية السابق من منفاه فى إشبيلية معللا النفس ، بعوده إلى العرش ، فدعاه ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أوراكا ، إلى مقابلته للتفهم ، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه ، وزج إلى حصن « لونا » (فبراير سنة ١٠٧٣م) وهناك أنفق بقية حياته ، سبعة عشر عاماً ، حتى توفى سنة ١٠٩٠ م .

وتحدثنا الرواية النصرانية ، بأن ألفونسو ماكاد يعتلى العرش ، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن أعانه فى حربه ضد ابن عباد ، وأمده ببعض قواته ، وسار معه إلى قرطبة وعاث فى أحوازها ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة . وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون ببعض قواته فى غاراته على قرطبة ، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة (١٠٧٥ م) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، ولم يشترك القشتاليون فى شىء من تلك الحوادث .

ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفى ، فخلفه فى حكم طليطلة ، حسبما تقول الرواية النصرانية ، ولده هشام القادر ، والظاهر أن هشاماً هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفى ، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى ، بيد أن

---

(1) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404 و R. M. Pidal ; p. 193 & 198

الرواية العربية ، وهى أرجح فى نظرنا ، تقول إن الذى خلف المأمون ، هو حفيده الملقب بالقادر[١]، وهو ما يدل على أن هشاماً توفى قبيل وفاة أبيه المأمون : وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية ، تحاول أن تلتمس من ذلك عذراً يقيل ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه ، بأن يصون مملكته وألا يعتدى عليها ، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر . أما القادر فهو حفيده ، وهو لم يدخل فى ذلك العهد[٢] .

والواقع أن ألفونسو السادس ، لم يعد له شغل شاغل ، مذ توفى المأمون ، سوى غزو طليطلة ، والاستيلاء عليها ، بل إن هذا المشروع ، يرجع حسبما تؤكده لنا ذلك رواية رهبان سياوس ، التى سبق ذكرها ، إلى وقت إقامته بطليطلة ، وانتهازه تلك الفرصة لدراسة خطط المدينة ، ومواقع الضعف فى تحصيناتها ، وطرق مهاجمتها ، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية .

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته ، فى غزو مملكة طليطلة وإرهاقها ، فنراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ، وينتسف خضراءها وزروعها ، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة فى الأعوام التالية ، واستولى خلال ذلك على مدينة طلبيرة ، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طلبيرة ومجريط .

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى فى حكم مملكته صعاباً ، ويسود الاضطراب فى مدينة طليطلة ، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى أخبار مملكة طليطلة . ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات المخربة ، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود . كل ذلك وملك قشتالة مستمر فى إرهاقه بطلب المال والأراضى ، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه ، فأجابه ألفونسو إلى ما طلب تمكيناً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404

لقبضته منه ، وأمده بقوة من جنده ، وأخضعت المدينة الثائرة ، وجاس القادر على عرشها مرة أخرى ، تحت ظلال الحراب النصرانية ، وذلك فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م).

وهنا نضجت خطة ألفونسو فى الاستيلاء على طليطلة ، وأخذ يعد معداته الأخيرة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ؛ لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو وغزواته الكاسحة نحو الجنوب ، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار المخرب ، وأن ينزعه ألفونسو ، ما استولى عليه من أراضى طليطلة الجنوبية ، قد عقد معه حلفه المشهور الذى يتعهد فيه بأداء الجزية ، وبأن يترك ألفونسو حراً فى مشروعه ضد طليطلة ، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه المسلمين ، وهو الحلف الذى زعمت التواريخ النصرانية ، بأن المعتمد قد رأى أن يدعمه بتقديم ابنته « زائدة » زوجاً لألفونسو . وهى قصة أثبتنا بطلانها وسخفها فيما تقدم من أخبار المعتمد.

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته ، ولم يبق عليه الا أن يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها ، وقد استمر على تنفيذ هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام ، مذ عاد القادر إلى عرشه فى سنة ١٠٨١ م ، كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هوأمير بطليوس الشهم ، يشهدون اقتراب النكبة جامدين ، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام والتخاذل ، حتى حم القضاء ، وسقطت المدينة الأندلسية التالدة فى يد ألفونسو السادس فى فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو ١٠٨٥ م) . وقد سبق أن تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه ، مفصلة فى أخبار مملكة بنى ذى النون ، فلا حاجة بنا إلى التكرار ، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبى لحصار طليطلة وافتتاحها ، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون ، جند من أراجون ، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها ، قدموا للاشتراك فى مشروع يهم النصرانية كلها.

وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية ، كما كانت أيام القوط ، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسى للكنسية الإسبانية ، وهى ماتزال تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة ، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسى ، عميد دير

ساهاجون ، وذلك بنفوذ الملكة كونستانس ، وهى فرنسية بورجونية الأصل . وكان لتعين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية ، تأثير شديد فى تطور طقوسها وتقاليدها .

وكان من أول الأعمال التى دلت على بغيه وتعصبه ، اعتداؤه على مسجد طليطلة الجامع . وكان من عهود التسليم التى قطعها ألفونسو على نفسه ، أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع لأداء شعائرهم إلى الأبد . بيد أنه ما كاد يمضى شهران على التسليم ، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامرته لإزالة الجامع . وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته ، هذا بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة . وعبثاً حاول الكونت ششندو حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه ، وأن يبين له سوء العاقبة فى مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو . وانتهز برنار فرصة غياب الملك فى ليون ، واقتحم الجامع فى جمع من الفرسان وحطم المحراب ، وأمر بإقامة الهياكل . وفى اليوم التالى عقد بالجامع قداساً حافلا ، فهاج المسلمون وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة . وعلم الملك بذلك الحادث ، فارتد من ليون على عجل ، وهو يضطرم غيظاً وسخطاً ، إذ كان من سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين ، تفادياً من سخط المسلمين ، واضطرام القلاقل . وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق ، وعندئذ تدخل المسلمون والتمسوا إليه العفو عنهما ، ولعلهم كانوا يأملون بذلك أن يستردوا جامعهم . ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق ، واستمر العمل فى تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥ (١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشنت الكنيسة الجديدة فى حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتخب فيه برنار مطراناً[١] .

---

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فى أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، عثر بها الأستاذ ليڤى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال فى كتابه La Espana del Cid (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة فى عبارته المسجعة (الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ و ١٣٢ ، ولكنه وهم فى تاريخ الحادث فجعله فى ربيع الأول سنة ٤٩٨ — ١١٠٤ م ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة «ثمان وتسعين وأربعمائة» وهى فى الحقيقة «ثمان وسبعين» .

— ٣ —

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مراء أعظم أعمال ألفونسو السادس ، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصرانى ، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية فى شبه الجزيرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كان لسقوط طليطلة أعمق الآثار فى ميزان القوى فى شبه الجزيرة ، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى ، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور ، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista فى طور جديد يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجُه . بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت اسبانيا المسلمة من سباتها ، وأدرك ملوك الطوائف ، حقيقة موقفهم ، وعاقبة بغيهم واستهتارهم ، وخطورة تنابذهم وتفرقهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً ، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، وكان أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم ، وعبر إلى شبه الجزيرة فى جيوشه المرابطية . وفى ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو ، عقب استيلائه على طليطلة ، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها ، ليرغم أميرها المستعين بن هود على دفع الجزية ، فلما سمع بمقدم المرابطين ، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقى أعداءه الجدد . ثم كانت موقعة الزلاّقة (رجب ٤٧٩ هـ — أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة ، وسحق قوات ألفونسو السادس ، وانسحابه فى فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه بإفاضة .

بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير . وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً ، وأخذ يجمع أشتات جيشه من جديد ، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان والفرنسيين وغيرهم ، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه ، وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه فى الميدان من جديد ، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر الزلاقة ، وأغار المعتمد بقواته على أراضى طليطلة ، وانتزع منها عدة أماكن . بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم ، يتربص كل بأخيه ،

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى . ومن ثم فقد استمر السيد إلكمبيادور فى عيثه ومغامراته فى منطقة بلنسية . واستمر القشتاليون من قاعدتهم المنيعة فى حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وهو الذى ابتنوه قبل ذلك ببضعة أعوام، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية . وعلى ذلك فقد استصرخ أمراء الطوائف ، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنجادهم مرة أخرى . وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم صاحب ألمرية ، وتميم بن بلقين ، صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، وابن رشيق صاحب مرسية ، كل فى قواته ، وهم الذى تقع أملاكهم جميعاً فى شرق الأندلس[1] وتعرض لعدوان القشتاليين فى تلك المنطقة . وضرب المسلمون الحصار حول حصن لييط ، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنا عشر ألف راجل من النصارى ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وفى أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ، ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه ، وأنه تفاهم سراً مع ألفونسو ، ودفع جبايتها إليه . واقتنع أمير المسلمين بوجاهة هذه الشكوى ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ، ومعظمهم من قرابة ابن رشيق وصحبه ، غادروا المحلة فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، وعمه الضيق والغلاء . وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة ، يسير فى قوة كبيرة لإنجاد حصن لييط ، فآثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع ، ولما رأى

---

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ افتتحها ابن عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده .

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، أخلاه وقوض أسواره وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩م (٤٨٢ هـ) . وترك أمير المسلمين فى شرق الأندلس قوة كبيرة ، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة ، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية ، والقضاء على سلطان « السيد » فى تلك المنطقة ، وعاد إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس ، لما رآه من اختلال أحوالهم ، وسوء تصرفاتهم ، ووضيع أهوائهم وأطماعهم[1] .

وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى ، ففكر فى الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم « السيد » من الاستيلاء عليها ، وسار إليها بالفعل وحاصرها فى سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) ، معتمداً فى ذلك على معاونة سفن جنوة وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض ، ولكنه فشل فى مشروعه ، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد فى أراضى قشتالة . ثم استولى السيد بعد ذلك على بلنسية (١٠٩٤م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا حولها الحصار ، وسار جيش مرابطى آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم القشتاليين ، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التى يقودها ألبارهانيس . ففى خلال هذه الوقائع التى رجحت فيها كفة المرابطين على قوات ألفونسو السادس ، توفى « السيد » خلال حصار بلنسية ، واستغاثت زوجه خمينا بألفونسو ، فسار إلى بلنسية ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢ ، ولم يعترض المرابطون سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة . ولكنه لما رأى ضخامة الجيوش المرابطية ، خشى العاقبة ، وغادر بلنسية مع خمينا وسائر القوات النصرانية ، ودخلها المرابطون فى شهر مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

وسار ألفونسو فى قواته إلى مدينة شنترين من أعمال ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) . وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، التى كانت شنترين من أعمالها ، ونحن نعرف أن بطليوس سقطت فى أيدى المرابطين فى صفر سنة ٤٨٧ هـ (مارس ١٠٩٤ م) .

---

(١) راجع فى حصار حصن لييط ، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ – ١١٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire; V. III. p. 139 &140 ، وكذلك R.M. Pidal : ibid; p. 364, 365 &409

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هى موقعة إقليش ، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفى يومئذ (سنة ٥٠٠ هـ) وخلفه ولده على . وقد عبر على عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) معتزماً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر ، فسار الأمير تميم فى جيش ضخم ، واخترق أراضى قشتالة ، ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة ، فضرب حولها الحصار فى الحال ، فبعث ألفونسو ، وقد عاقته الشيخوخة عن أن يقود جيشه بنفسه ، قواته لإنجادها ، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أو زوجه المسلمة المتنصرة ، لكى يثير حماسة الجند ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره . ووقعت بين المرابطين وبين القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة ، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعمعة ، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة ، وقتل معه مؤدبه الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه ، فدب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار ، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة ، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين ألفاً (٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م)[1] . وكان نصراً عظيماً أعاد ذكريات الزلاّقة ، وكان أشد ما فيها وقعاً فى نفس الملك النصرانى ، فقده لولده الوحيد وولى عهده وانقطاع نسله بذلك . والواقع أن ألفونسو لم يعش طويلا بعد هذه الصدمة المؤلمة ، فتوفى فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة سبعة وثلاثين عاماً ، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين ، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز ، استكمالا لسياق الحوادث .

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على عهد ألفونسو السادس ، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية ، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة فى بناء المملكة النصرانية والمجتمع الإسبانى ، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ففى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى عهد ألفونسو السادس بالذات ، توضع الأسس الأولى ، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية ، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن ، ومازال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٤ . وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١١٧ و ١١٨ .

وقوته . وقد توالت بعثات الكرسى الرسولى إلى الملوك الإسبان فى هذا العهد ، تسعى إلى فرض سيادته الروحية ، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيدورو واستبدالها بالطقوس الرومانية . وبذل دير ساهاجون البندكتى ، ورئيسه الراهب برنار الفرنسى عندئذ ، أعظم الجهود لتحقيق أغراض البابوية . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، وهى فرنسية من بيت برجونية ، فى تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية ، عقب افتتاح طليطلة . وحصل برنار بعد ذلك على مرسوم بابوى بتعيينه فى ذلك المنصب الخطير ، ووضع فى معظم الأسقفيات رجالا من مواطنيه ، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين ، وذلك رغم مناوأة الأحبار الإسبان وسخطهم . وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على اسبانيا ، وبالرغم من أن الفونسو ، كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية ، فإنه كان يجل الكرسى الرسولى ويوليه أعظم مقام .

وفى عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالمشرق ، ولكن البابا أوربان الثانى أصدر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، لأن أعداء النصرانية ، أعنى المسلمين ، يهددونهم داخل أرضهم ، ولأن لديهم فى شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة ، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين ، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن ينزلوا هذا الميدان ، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات يسيرون فى معظم الأحيان مع الملك ، ويقاتلون فى الصفوف ، بل ويقودون الحملات أحياناً .

وقد كان الملك وراثياً فى قشتالة فقط . أما فى باقى الممالك النصرانية ، فكان المفروض أن يختار الأشراف مليكهم ، وكان الملك فى سائر الممالك الإسبانية ، يجمع بين سلطات الحرب والسلم ، وقيادة الجيوش ، ورياسة القضاء ، يعاونه فى ذلك رهط من رجال الخاص Palatini ، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية .

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلا فى تكوين المجتمع الإسبانى ، ويقوم على مراتب متعددة ، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى ، وهو الذى يُقطع

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية . وتليها مرتبة الكونت أو القومس ، وهو الذى يُقطع منطقة معينة، ثم أصحاب المنح الصغيرة، وهم البارونات أتباع القومس. وكان هذا النظام عسكرياً ، فى جوهره ، تقترن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية ، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية ، ويقود القومس فرقته، وتتكون من البارونات فرق الفرسان ، والفارس هو أدنى مراتب النبل ، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش ، وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات ، ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين ، وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم ، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش .

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج ، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار ، أجزاء من الأرض يزرعونها . على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أوثلثه على الأقل ، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين ، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض ، ثم تؤول من بعد وفاته إلى أولاده يزرعونها بنفس الطريقة ، بيد أنه كان ملزماً بالإقامة فيها ، فاذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق فى استغلالها .

وكان عدد الأرقاء فى ذلك العصر ، الذى كثرت فيه الحروب ، وكثر فيه السبى والأسر كبيراً ، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى الغارات أو الحروب المختلفة التى تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية ، يقضى عليهم دائماً بالرق، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها ، ولا يمنحون الحرية إلا باعتناق النصرانية .

وأما عن التشريع ، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة ، وألغى حق « القوة » وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له وفرض على الدوقات والقوامس ، أن يعاقبوا مرتكبى الجرائم ، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهبين ، وعيث القتلة واللصوص فى سائر أنحاء المملكة .

وكان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف، وتعقد اجتماعاتهم عندئذ فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان « كورتيس » Cortes ،

تحت رياسة الملك ، وكان القانون العام المطبق فى ذلك العصر هو القانون القوطى (قانون ألاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف « بالقوانين الطيبة » Buenos Fueros . وكان من المقرر أن كل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو . وأخيراً فقد كان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى ، وهو يسوى فى الحقوق بين البنين والبنات .

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته ، فهو لم ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو ، ولد زوجته أوحظيته زائدة المسلمة التى تنصرت باسم ماريا أو اليزابيث ، والتى أتينا على قصتها فيما تقدم من أخبار بنى عباد ، وقد قتل هذا الإبن حسبما أسلفنا فى موقعة إقليش ، فعندئذ اعترم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أوراكا ، التى كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية ، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . ثم توفى وترك لها ولداً ، هو ألفونسو ريمونديس . ولكنه رأى أن يقوى جانب العرش ، ووحدة المملكة ، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار ، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع فى ليون ، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان ، وأصدر قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش قشتالة وليون وأشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديس مملكة جليقية ، مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فاذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس . وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف ڤيين ، والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية ، تحت وصايتهما ، على أن تكون له دون نقض أو رجوع .

---

(١) رجعنا فى تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى « تاريخ المرابطين والموحدين » لأشباخ (ص ١٢٠ — ١٣٥).

ناڤار وأراجـــون

رأينا فى بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك ناڤار فى موقعة أتابوركا التى نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م) ؛ وكيف اختار فرناندو مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القتيل ليخلفه على عرش ناڤار ؛ على أن يكون تحت طاعته .

وكان يحكم أراجون فى ذلك الوقت ، الملك راميرو بن سانشو الكبير ، وكان فى بداية حكمه قد حاول غزو مملكة ناڤار وانتزاعها من يد أخيه غرسيه ، ولكنه هزم كما رأينا ، ومزق جيشه ، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى بتنظيم شئونه والنهوض من عثاره . ولما قتل أخوه غرسية ، وتولى ولده سانشو الحكم مكانه ، لبث محافظاً على حياده وسكينته نحو جارته ناڤار ، ولكنه وجه عدوانه نحو مملكة سرقسطة ، وحاول غزوها ، فاستنصر أميرها المقتدر بن هود ، بفرناندو ملك قشتالة ، فأمده ببعض قواته ، ونشبت بين الفريقين فى جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .

فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو ، المعروف بسانشو راميرز . ولما توفى فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة ناڤار ، وكان سانشو ملك ناڤار ، شعوراً منه بأطماع ملك قشتالة ، قد عقد حلفاً مع جاره سانشو راميرز ، فلما سار سانشو لمحاربتهما ، استطاعا أن يقفا فى وجهه ، وأن يهزماه فى موقعة ڤيانا (١٠٦٧ م) .

واستمر سانشو ملكاً على ناڤار اثنين وعشرين عاماً ، وفى عهده توطد مركز ناڤار بين جيرانها ، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية فى سنة ١٠٦٩ م ؛ وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته فى حربه ضد خصومه سواء من المسلمين أو النصارى . وجدد هذا التحالف فى سنة ١٠٧٣ م . ولم يمض قليل على ذلك حتى قتل سانشو فى كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمزندة ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، فسخط الشعب الناڤارى لتلك الجريمة أيما سخط ، واستدعى سانشو راميرز ليعتلى عرش ناڤار . ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة ، فسار إلى ناڤار من ناحيتها الغربية ، وسار إليها سانشو را ميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها ، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين .

فاستولى سانشو على الجزء الواقع فى منطقة البرنيه ، وفيه العاصمة بنبلونة ، واستولى ألفونسو على القسم المحاذى لنهر إيبرو ، وبذلك اختفت مملكة نافار المستقلة إلى حين ، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة ، ونمت مملكة أراجون ، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً ، وبدأت تلعب دورها العظيم فى شمال شرقى الجزيرة الإسبانية .

واتجهت أطماع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية ، أعنى مملكة سرقسطة ، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها فى سنة ١٠٨٩ م ، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها ، ولكنه توفى بعد قليل تحت أسوارها ، فتابع ولده وخلفه پيدرو الأول الحصار ، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمده ببعض قواته ، وسار لإنجاد المدينة المحصورة ، ووقعت بينه وبين پيدرو معركة شديدة فى الكرازة ، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة ، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل فى نوفمبر سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى موضعه من أخبار مملكة سرقسطة .

وفى العام التالى سار پيدرو فى قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين ، ووقعت الهزيمة على المرابطين فى « منديز » قرب بلنسية .

واستمر پيدرو الأول على عرش أرجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً ، وهو الذى مهد بافتتاحه لوشقة وبربشتر إلى القضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد فى يد أخيه وخلفه ألفونسو ، وكان ورعاً متعصباً ، لايكاد يفتح مدينة إسلامية ، حتى يحول فى الحال مساجدها إلى كنائس ، ويغدق الصلات الوفيرة على الكنائس والأديار . ولما كان ولده الوحيد قد توفى قبل وفاته ، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأرجونى المعروف بالمحارب ، وهو الذى قدر له ، فيما بعد بزواجه من أورّاكا أبنة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية ، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا .

إمارة برشــــلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية ، التى تقوم فى النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كانت تقوم فى الركن الشمالى الشرقى مما يلى جبال البرنيه ،

إمارة نصرانية أخرى ، هى إمارة أوكونتية برشاونة . ونحن نعرف أن برشلونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون فى شمالى شبه الجزيرة ، وقد افتتحها شارلمان (كارل الأكبر) فى سنة ١٩٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام ، وجعلها قاعدة الثغر القوطى أو الثغر الإسبانى ، الذى أنشأه فيما وراء البرنيه ، حماية لحدود فرنسا الجنوبية . وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر فى البداية من الأشراف أو الكونتات الذى ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولما ضعفت مملكة الفرنج وتخلت عن حماية الثغر وإمداده ، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم ، ونأيهم عن الحكومة المركزية ، أعلنوا استقلالهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات صغيرة كان أهمها إمارة برشلونة. وكان يحكمها فى أواخر القرن العاشر آل بوريل، وفى عهدهم غزاها المنصور بن أبى عامر ،واقتحمها وخربها ، وذلك فى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م)،ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها . ولما سقطت الدولة العامرية واضطرمت الفتنة فى قرطبة ، سعى واضح الصقلبى فى الاستعانة بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل ، وزميله كونت أرقلة، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة، واشترك إلى جانب المهدى محمد بن هشام فى المعارك التى وقعت يومئذ (٤٠٠هـ — ١٠١٠م . ومنذ أوائل القرن الحادى عشر نرى برشلونة تحت حكم آل برنجير ، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦ م ، وفى عهده اتسعت رقعة الإمارة ، وضمت إليها أرقلة وشرطانية(١) ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية ، فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث . وكان لضم هذا الجزء من أراضى لانجدوك إلى إمارة برشلونة نتيجة هامة ، هى إعادة الصلة بين الثغر القوطى القديم ، وجنوبى فرنسا ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين ، الذين تحدوهم روح صليبية ، ويحدوهم البحث وراء طالعهم ، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التى تقاتل المسلمين فى شبه الجزيرة .

وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول ، هى إصلاحاته القضائية ، فقد استدعى فى سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء فى برشلونة ، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطى القديم .

---

(١) أرقلة هى بالإسبانية Urgel ، وشرطانية هى : Cerdana

ولما توفى رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون فى حكم الإماره معاً وفقاً لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر : وفى سنة ١٠٨٢ م ، قتل رامون غيلة ، واتجهت الشبهة فى ذلك إلى أخيه . وقام برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصياً على ولد أخيه القاصر رامون الثالث .

وكان بنو هود أمراء سرقسطة ، وهم جيران إمارة برشلونة ، يعتقدون فى مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية ، ويحصلون على معاونة آل برنجير من آن لآخر . وقد لعب أمراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم الملوك النصارى ، فى معاونة الأمراء المسلمين ، سواء ضد أبناء دينهم المسلمين أوضد النصارى أنفسهم . وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك فى كثير من المواطن فى أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية. وكان أبرز دور قام به آل برنجير فى ذلك هو استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير فى مشروعه لافتتاح بلنسية. وكان الكونت يضطرم بغضاً نحو « السيد » ومشاريعه . فسار فى قواته لمحاصرة بلنسية ، ولبث على حصارها وقتاً ، حتى اقترب « السيد » بقواته من المدينة ، وتبادل السيد والكونت بعض رسائل التحدى المهينة ، وأخيراً وقعت الحرب بينهما ، فهزم الكونت وأسر ، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم وقع التفاهم بينهما ، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته (١٠٩٠ م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير ، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس ، فى موقعة الزلاّقة (١٠٨٦ م) إلى جانب باقى الملوك النصارى ، إيماناً منهم جميعاً ، بأنهم يقاتلون فى معركة صليبية عامة .

واستمر الكونت برنجير فى حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى رامون برنجير الثالث ، وسافر حاجاً إلى المشرق ، فحكم رامون الإمارة بكفاية ، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح .

الفصل الثالث

النصارى المعاهـــدون

النصارى المعاهدون . مركزهم وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . أحوالهم فى ظل الطوائف . مصانعة أمراء الطوائف لهم . تمتعهم بالتسامح فى شرق الأندلس . أحوالهم فى مملكة سرقسطة . عدم ولائهم للحكومات المسلمة . مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين . صدى هذا الموقف فى دول الطوائف . استدعاؤهم ألفونسو الأرجونى لغزو الأندلس . قيامه بالغزوة المنشودة . فتوى الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريبهم . ظهور مجتمع المدجنين فى القواعد الإسلامية المفتوحة .

يجدر بنا بعد أن تحدثنا من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، أن نعرض فى شىء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم فى عصر الطوائف، وهو العصر الذى سرى فيه الانحلال السياسى والعسكرى إلى اسبانيا المسلمة ، ومزقتها الحروب الأهلية، وتتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية . ونحن نعرف أن النصارى المعاهدين، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقليات ذات شأن فى القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة . وكانت هذه الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة ، فى ظل الحكومة الإسلامية ، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية ، ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم وتقديرهم ، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة فى الإدارة وفى القصر . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين . وكانوا إلى جانب اللغة العربية التى يتقنها الكثير منهم ، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية Romance ، وهى اللغة التى كانت سائدة يومئذ فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة فى البلاط الأندلسى ، وبعض أكابر المسلمين من الوزراء والكتاب . وكانت هذه اللغة هى لغة النصارى المعاهدين المكتوبة ، التى يستعملونها فى مخاطباتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع الإسلامى ، الذى يعيشون فيه . وكان المسلمون يستعملون أحياناً بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، وهى التى يسمونها « اللطينية » ولاسيما فى بعض المسائل العلمية(١) .

---

(١) R. M. Pidal : Origines del Espanol, p. 418 & 421

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية ، وقامت دول الطوائف ، طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين . وبالرغم من أن هذا التغير لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصايرهم وأحوالهم أضحت فى كل دولة من دول الطوائف ، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة حكومتها المحلية . ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم فى مختلف دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التى كانوا يلقونها فى ظل حكومة الخلفاء ، بل لقد كان فى ظروف بعض هذه الدول ، ما يحملها على اتباع سياسة خاصة ، تتسم باللين والمصانعة نحو رعاياها النصارى ، ولما عصفت ريح الحرب الأهلية بقرطبة ، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها ، وقد كانوا يعطفون على الجبهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر سلطانهم على عاصمة الخلافة ، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة فى أثر الفتيان العامريين إلى شرقى الأندلس . ولما قامت دولة بنى جهور فى قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وندب أبو الوليد ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، « للنظر فى شئون أهل الذمة فى بعض الأمور المعترضة »[1] .

ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة ، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى ، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وكسب مودتهم . وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة ، فى الظروف التى كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ . فقد كانت مملكة قشتالة النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى ، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس ، يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية ، ومطالبه المالية المغرقة ، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته ، واتقاء شره ، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين . وكانت الأقليات النصرانية فى القواعد الأندلسية ، فى مثل هذه الظروف تعتبر مكامن للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون بذلك على مصانعتها ومداراتها . وكان بنو عباد فى مقدمة أولئك الملوك الذين عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم ، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

(١) فى « إعتاب الكتاب » لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) اللوحة — ٦١ .

إلى محالفة ملك قشتالة ، واتقاء عاديته ، وكان للنصارى المعاهدين فى بلاطهم مكانة وظهور . ومنهم شعراء مثل ابن المرجرى الإشبيلى ، وابن مرتين . وكان قائد ابن عباد فى فتح قرطبة ، وهو محمد بن مرتين ، من أصل نصرانى ، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسندو فى حداثته ، وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته فى بلاطهم ، وأولوه ثقتهم ، واستخدموه فى أخص مهامهم السياسة(١) . وكان بنومناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود فى البداية ، فلما اشتدت وطأتهم على صنهاجة ، وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ — ١٠٦٦ م) . جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، إلى اصطناع النصارى ، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الجزية له ، وتمتع المعاهدون فى غرناطة بالحماية والرعاية ، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدهم ، واتخذ الأمير عبد الله فى بطانته ، عدة من أكابر النصارى القشتاليين ، يعاونونه فى شئون الحرب والإدارة ومنهم عدة من أكابر الفرسان(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون فى شرق الأندلس ولاسيما فى مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح . وقد كان الفتيان الصقالبة الذين سيطروا على شرق الأندلس من أشد الرؤساء تسامحا نحو المعاهدين . وكان مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر ، ثم ولده على إقبال الدولة من بعده ، كلاهما يبدى نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن « أصل مجاهد النصرانى » وإلى أن زوجته كانت نصرانية ، وكذلك ولده على ، فقد نشأ فى حداثته بين نصارى سردانية ، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم ، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده من الأسر ، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أن هذا التسامح نحو النصارى كان حسبما بينا فى موضعه ، سياسة مقررة لحكومة مجاهد وولده على ، وأنهما استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة ، أن يجتنبا عدوان الملوك النصارى ، وأن تتمع مملكة دانية فى ظلهما بفترات طويلة من السلام والرخاء .

وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف ، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

---

(١) Isidro de las Cagigas : Los Mozarbes (Madrid 1947) T. II. p. 427

(٢) Is. de las Cagihas : ibid; T. II. p. 493

التسامح نحو رعاياها النصارى : تلك هى مملكة سرقسطة ، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع ، قشتالة وناڤار ، وأراجون وبرشلونة ، وكونها تعتبر بهذا الموقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة ، والممالك النصرانية من ناحية الشمال الشرقى ، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة ، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى ، وقد كانت هذه المنطقة فى الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى منذ أيام بنى قسىّ وبنى الطويل وغيرهم من زعماء المولدين ، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة ، وكانت بذلك مهدا لظهور المعاهدين ، ومشاركتهم بقسط بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية . وكان بنو تجيب حكام الثغر الأعلى، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة يبسطون رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين . وكان بنو هود بالأخص يشعرون بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل فى شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الجزية ، أو لاقتطاع بعض مدنهم وحصونهم ، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى ، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وأن يغنموا حياد الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة . وكان المقتدر بن هود . وهو أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب **Gundisalvo** ، وكان أديباً شاعراً . أجل وقعت فى سرقسطة فى سنة ١٠٦٥ م فى عهد المقتدر مذبحة للنصارى ، وذلك على أثر عدوان النورمان الشنيع على مسلمى بربشتر ، وكان فيه من الروع والاستثارة ما فيه . بيد أنه كان حادثاً مستقلا ، ولم يلبث أن استدركت عواقبه . وقد رأينا من جهة أخرى كيف كان بنو هود ، يعتمدون على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، ويحشدون المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة ، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكمبيادور ، واعتمدوا على محالفته زمنا[١] .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها ، وهو أن النصارى المعاهدين ، بالرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح، التى كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف،

---

(١) Is. de las Cagigas : ibid., T. II. p. 448, 451, 452, 454, 462 & 463

سواء لبواعث كانت ترغمهم على اتباعها، أو لسياسة مستتنيرة كانوا يؤثرونها، لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، التى كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم ، بل لبثوا دائماً على ضغنهم وخصومتهم لها وتربصهم بها . ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها ، وممالأة الملوك النصارى ، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها، وتسهيل مهمتهم فى غزوها والتنكيل بها . ولدينا فى تاريخ الطوائف من ذلك أمثلة لاحصر لها . ففى حصار قلمرية وافتتاحها (٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) لعب النصارى المعاهدون — وقد كانوا كثرة هذه المنطقة — دوراً بارزاً فى معاونة الجيش القشتالى المحاصر ، وعاونه رهبان دير لورفان القريب من قلمرية بمؤنهم المختزنة ، وسهلوا له بذلك الصمود ، حتى اضطرت المدينة المحصورة إلى التسليم[1] . ودأب النصارى المعاهدون فى طليطلة أيام القادر بن ذى النون على تدبير الدسائس ، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة ، والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه ، ومؤازرة الناقمين من المسلمين ضد الحكومة القائمة ، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية، وانتهى الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة . ولعب النصارى المعاهدون فى بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية ، لمعاونة السيد فى مغامراته المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها . وهكذا كان النصارى المعاهدون ، فى كل موطن وكل فرصة ، يعملون ماوسعوا لتحطيم تلك الممالك الإسلامية التى تقوم بحمايتهم ورعايتهم ، والتمهيد بذلك للقضاء عليها وسقوطها فى أيدى الملوك النصارى . وهذا ما يعبر عنه الأستاذ پيدال بقوله : « إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة ، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصرانى[2] .

ومن ثم فإنا نجد ، عقب سقوط طليطلة ، واشتداد روح العدوان من جانب إسبانيا النصرانية ، شعور التقاطع والريب ، ينمو ويشتد ضد جماعات النصارى المعاهدين فى مختلف القواعد الأندلسية ، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد فى معاملتهم ، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح ، التى كانوا يتمتعون بها من قبل . ومن ذلك مثلا ما دعا إليه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة وهى

---

(١) راجع : Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 455

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 424

التى وضعت فى بداية العهد المرابطى: من أنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس » وأنه نظرا لفساد أخلاق القساوسة ، يجب أن يؤمروا بالزواج كما فى ديار المشرق ، ويجب ألا يترك فى دار القسيس امرأة ولاعجوز ولاغيرها ، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا فى يوم فضل أو عيد، ويجب ألا يباع من اليهود أوالنصارى كتاب علم إلا ماكان من شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب العلوم ، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم ، وهى من تواليف المسلمين ؛ كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين[1] . فهذه الدعوات وأمثالها ، إلى التشدد فى معاملة المعاهدين ، لم تكن إلا صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة . وكانت تلقى فى ظل الحكم المرابطى ، المتسم بروح التزمت الدينى قبولا . وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها ، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون ، لغزو الأندلس ، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس . وقام ألفونسو بالفعـل بالغزوة المنشودة ، فخرج من سرقسطة فى سبتمبر سنة ١١٢٥ م(٥١٩ هـ) ، فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف ، واخترق الأندلس ، من الجانب الشرقى ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية ، وهو يعيث فى بسائطها، والمعاهدون يحشدون فى جيشه من كل صوب ، واستمر فى سيره حتى وادى آش ، ووصل إلى ظاهر غرناطة فى شهر يناير من العام التالى (١١٢٦ م) ، ولكنه أدرك أنه لايستطيع أن ينال منها مأرباً . وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم فى معاونته ، فردوا عليه بأنه هو الذى أضاع الوقت فى زحفه الطويل سدى ، ثم أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار ، وهو يتجول بقواته فى شمال غرناطة ، ووقعت بينه وبين المرابطين فى مارس (١١٢٦ م) فى فحص الرنيسول موقعة هزم فيها المرابطون . بيد أنه لم يستطع الاستفادة من نصره ، فاستمر فى زحفه جنوباً ، واخترق هضاب البشرات حتى شاطىء البحر المتوسط ، ثم عاد إلى الشمال ، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب الإعياء والوباء .

وكان من أثر هذا العدوان الجسيم ، أن قرر أمير المسلمين ، وفقاً لفتاوى

---

(١) رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ٥٥ و ٥٧ .

الفقهاء ، تغريب النصارى المعاهدين ؛ لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة . وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة ، فرقت فى مختلف أنحاء إفريقية[١] .

وثمة ظاهرة أخرى برزت فى أواخر عهد الطوائف ، وترتبت على سقوط طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة فى يد القشتاليين ، ثم سقوط سرقسطة وأعمالها بعد ذلك بقليل فى يد ملك أراجون (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) . فإلى ذلك الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية تنحصر فى جانب واحد ، وهو أقليات النصارى المعاهدين التى تعيش فى القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامى . ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة ، هى مشكلة الأقليات المسلمة التى بقيت فى القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصرانى ، وأولئك هم المدجنون ؛ (وبالإسبانية **Mudéjares**) الذين يبدأ ذكرهم فى التواريخ الأندلسية ، منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ؛ والذين تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة فى أيدى النصارى[٢] .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . كذلك **R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 425** و **F. Codera : Decadencia y Disparicòn de los Almoravides, p. 15 & 16**

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة فى كتابنا «نهاية الأندلس» وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٥٥ — ٦٧ .



خاتمة

خواص عصر الطوائف

السياسية والاجتماعية والحضارية

— ١ —

الخـــــواص السـيـاسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف ، واستعراض الأحداث التى مرت بها ، منذ إنشائها حتى سقوطها ، وتقديم زعمائها وملوكها ، فى صورهم السياسية والأدبية ، ووصف قصورهم وخططهم، نرى لزاماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة ، وهى حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة ، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف ، وأحواله المادية والأدبية والاجتماعية .

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل ، بالرغم مما كان يبدو فى بعض نواحيه من جوانب براقة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة ، التى قامت على أنقاض الأندلس الكبرى، والتى كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم لنفسها الاستقلال بشئونها ، كانت تنقصها من الناحية النظامية ، عناصر الدولة المستقرة ، ولم تكن — إذا استثنينا القليل منها — سواء برقاعها الإقليمة، ومواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها ، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية ، وإنما كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع ، وإلى عصبة الأسرة القوية ذات العصبية ؛ أو الجماعة القبلية فى حالة الإمارات البربرية ، ومن ثم فإنه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح،تكون مهمتها الأساسية ، أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، وإنما كانت بها أسر أو زعامات ، تعمل قبل كل شىء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكان الشعب فى ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية ، لاحساب له ، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض ، التى يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولا ، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

وسلطانه ، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية ، وهى لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه ، وانتزاع ما فى يده ، وقلما تتجه إلى القضية الكبرى ، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد ، الدائب لمقارعتها وتحطيمها ، ونعنى اسبانيا النصرانية .

ولقد كان ملوك الطوائف فى ذلك أسوأ قدوة . كانوا ملوكاً ضعافاً فى وطنيتهم ، ضعافاً فى دينهم ، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ، ونسوا فى غمارها وطنهم ، ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يترامو على أعتاب الملوك النصارى ، وأن يستعدوهم بعضهم على بعض ، لا فى سبيل قضية محترمة ، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى ذلك إلى درك ، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت ، ويكفى أن نستعرض فى ذلك ، موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً — إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم — ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة ، جامدين لا يطمعون إلا فى رضاء ملك قشتالة ، وفى سلامة أنفسهم . وقد كان ملك قشتالة يعاملهم حسبما رأينا فى غير موطن ، معاملة الأتباع ، ويبتز منهم الأموال الطائلة ، باسم الجزية ، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفى أن نتلو فى ذلك ما سطره ابن بسام فى الذخيرة ، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة ، وقت نزوله أمام طليطلة ، وهى على وشك التسليم إليه ، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع ، وفقد كل كرامة قومية(١) .

ولم يكن ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية ، وإزاء شعوبهم ، أفضل موقفاً ، ولا أكرم تصرفاً . فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم ، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع ، لا من الدين ، ولا من الأخلاق . وقد كانت سياستهم الداخلية هذه ، مثل سياستهم الخارجية ، موضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين . وقد صدرت

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنة الطوائف، ودولها، وأمرائها المستهترين، ومجتمعها المنحل، وحكوماتها الباغية، طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته المعنونة « التلخيص لوجوه التخليص »[1]. وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شئون دينية وفقهية، وجهت إليه من بعض أصدقائه، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة، وآخر عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة، والأحكام القاطعة، ما يدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة، وهى مع سلامة منطقها، وعدالتها، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم، فهو يصف لنا فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى:

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع فى الأرض بفساد. والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية، والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم »[1].

وقد كان الفقهاء فى الواقع، فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية، أكبر عضد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم،

---

(١) نشر الأستاذ ميجيل آسين بلاثيوس M. Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة فى مجلة الأندلس Al-Andalus (ano 1934), p. 35-37. ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » (القاهرة سنة ١٩٦٠) ، ص ١٣٩ — ١٨٥

وتزكية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون فى خدمات كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص فى ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . ولم يفت مؤرخ العصر أبومروان ابن حيان، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء : فى تأييد الظلم والفساد ، والخروج على أحكام الدين ، وإليك مايقوله لنا فى ذلك :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لاكفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، وخابط فى أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم »[1] .

وقد قاسى الشعب الأندلسى فى ظل طغيان الطوائف ، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التى كان يعيش فى غمارها ، وانقلاب الأوضاع فى سائر مناحى الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى فى نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة ، يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ، إرضاء لشهواتهم فى إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمنافقين ، هذا فضلا عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأى الوسائل . وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

---

(١) الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ٣٤ ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤ .

والأخلاقية ، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف ، فى إرهاق شعوبهم بالمغارم الفادحة ، وإليك ما يقوله فى ذلك :

« وأما الباب الثانى : فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جديد لايؤثم صاحبه ، ولايؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم ، إذ كان الأغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا وبلادنا هذه ، فإنما هو باب أغلق عينيك ، واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه إما تمرة وإما جمرة . وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغارات فى أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هى اليوم ، والمغارم التى كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، فكانت تقرب مما فرض عُمر على الأرض . وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين ، يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الإسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

ويحمل ابن حزم بعنف ، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة ، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا فى اعتناق النصرانية ، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم ، لما ترددوا فى اعتناقها ، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسية معاً :

« والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه »[1] .

---

(١) راجع أقوال ابن حزم التى نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس فى مجلة «الأندلس» : Al-Andalus, (ano 1934) p. 37 وفى الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ — ١٧٧ .

ونحن لانستطيع أن نتهم ابن حزم، وهو فيلسوف عصره المتزن، البعيد النظر، النافذ الملاحظة ، بالمبالغة والتحامل ، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر ، وفضائح ملوك الطوائف ، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية ، التى نراها ماثلة فى غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره[1] . وقد توفى ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ، وممالك الطوائف فى إبان قوتها وعنفوانها ، وقبل أن تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الإنحلال المعنوى الشامل ، وقبل أن يتهالك أمراؤها فى الترامى على أعتاب ملك قشتالة ، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك من الذلة والمهانة . ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك الطوائف ، لكان بلا ريب فى تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً .

— ٢ —

الخواص العلمية والأدبية

على أنه لما يلفت النظر حقاً ، أن ممالك الطوائف ، كانت خلال هذا الانحلال الشامل، تبدو فى أثواب لامعة زاهية . وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً، فقد كانت فى الفترات القليلة التى تجانب فيها الحرب الأهلية ، تتمتع بقسط لابأس به من الرخاء ، وتغمرها الحركة والنشاط . وكان ملوك الطوائف ، بالرغم من طغيانهم المطبق ، ومن الصفات المثيرة التى كان يتصف بها الكثير منهم ، من حماة العلوم والآداب . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى ، والفكر الإسلامى بصفة عامة .

ولنبدأ الحديث فى ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه . فلقد كانت هذه القصور المنتثرة فى رقعة الوطن الأندلسى الكبرى ، وكل منها يدعى السيادة على مدن ورقاع محدودة ، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعتها وبذخها ، ولكن كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها ، الأدباء والشعراء . وقد ازدهر الشعر الأندلسى

---

(١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره فى « نقط العروس » ص ٨٣ و ٨٤ و ٨٩ .

بالأخص فى عصر الطوائف ، وبلغ فى ذلك مدى لم يبلغه فى أى آخر عصر. ويعلل الأستاذ نيكل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ماكان يتسم به هذا العصر من حريات ، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية ، ولاسيما ماتعلق منها بتحريم الخمر ، وحجب المرأة ، وإلى ذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين(١) كان ملوك الطوائف حسبما تقدم ، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة ، والاستهتار بأحكام الدين ، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصى ، وارتكاب الأمور المحرمة ، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله . وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة ، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب ، تحفل فى الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب ، والنساء والغلمان والخمر ، وهى أمور تشغل حيزاً كبيراً فى آداب العصر وشعره . وكانت مجتمعات الطوائف المرهقة المنحلة ، تتأثر بهذه الروح الإباحية ، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها ، وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسى .

على أن النهضة الأدبية والفكرية التى امتاز بها عصر الطوائف ، ترتفع مع ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة . ولقد كانت هذه القصور المترفة المرحة نفسها ، أكبر مبعث لهذه النهضة، وكان أولئك الملوك المستهترون أنفسهم دعاتها وحماتها ، وكانت قصور الطوائف تتنافس فى هذا الميدان وتتسابق، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ؛ وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكر . وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت بنوع خاص ، بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية، هى بلاط بنى عباد بإشبيلية، وبلاط بنى الأفطس ببطليوس ، وبلاط بنى صمادح بألمرية .

كان بنو عباد ، وهم كما رأينا ، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكاً ، من أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التى سادت هذا العصر ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ فى ميدان الشعر والأدب ، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد ، وولده المعتمد ، وترك لنا كلاهما طائفة كبيرة من روائع نظمه . ويمتاز شعر المعتضد بنزعة إلى الفخر والمجد وشهرة

(١) الشعر الأندلسى : A. R. Nykl : Hispano-Arabic Poetry : (Baltimore 1946, p. 72

الجود . أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً . ويرى الأستاذ نكل أنه « أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين العرب فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر» وأنه « يتزعم هذا العصر بشخصيته المتسمة بالفروسية ، ويعتبر أسطع نجم فى باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين »[١] . وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع القصائد التى نظمها أيام مجده ، ثم بعد ذلك خلال محنته ، فى التلهف على ماضيه والبكاء على مصيره ، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره ، فى مختلف المناسبات والأحداث .

وكان بنو عباد فضلا عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة ، يجمعون فى بلاطهم ، وهو أزهى قصور الطوائف فى هذا المضمار ، جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير ومستشاريه ، أو لمجرد الرعاية والحماية . وكان من هؤلاء حسبما أسلفنا شعراء عظام مثل أبى بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع ، وقد أتينا على أحداث حياته فيما تقدم ، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه « شاعر عظيم للحب »، ويعتبره مثلا « لأبدع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى ؛ وفى وسعنا أن نقارنه بالمتنبى والبحترى » .

وقد قارن العلامة دوزى ، ابن زيدون فى حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى تيبولوس فى حبه « لدِليا » ، ولكن الأستاذ نكل لايقر هذه المقارنة إلا من حيث الناحية الغرامية ، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى واللاتينى ، « كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً »[٢] . والواقع أن حب ابن زيدون لولادة بنت الخليفة المستكفى[٣] ، كان أعظم حدث فى حياته ، وكان أعظم وحى لروائع شعره . وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة المحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام بقوله : « وكانت فى

---

(١) A. R. Nykl : Ibid., p. 72 & 130

(٢) A. R. Nykl : ibid · p. 109

(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله . تولى الخلافة فى ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ باسم المستكفى بالله ، ثم خلع وفر من قرطبة فى ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . على أنها ، سمح الله لها وتغمد زللها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها »[1] . وهام ابن زيدون فى شبابه بولادة أيام خدمته لبنى جهور ، وتوثقت علائقه بها مدة من الزمن ، ونظم فى حبها طائفة من أروع قصائده ، ثم ساءت العلائق بينهما ، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة . وكان ينافسه فى ودها رجل من سراة قرطبة يدعى أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد ؛ وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون إلى السجن إما لريبة علقت بولائه لابن جهور ، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه ومنافسه ابن عبدوس . وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس هذا ، رسالة ، لوم وتقريع ، تفيض بألوان مؤلمة من التهكم والتشبيهات والمقارنات ، وينعته فى أولها « بالمصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره » . ثم يفيض فى وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع ، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه ، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة[2] . ثم فر ابن زيدون من سجنه ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك فى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق ببلاط المعتضد بن عباد ، وخدمه وعلت مكانته لديه . ولما توفى المعتضد استمر فى خدمة ولده المعتمد ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق ، ومنها قصائد تعتبر من أروع ما يحتويه الشعر الأندلسى[3] ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الإبداع الروحى والحسى ،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦

(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباته المصرى عنوانه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » يحفظ بالمتحف البريطانى برقم Or. 8578 وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة .

(٣) راجع فى حياة ابن زيدون وشعره : الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٨٩ — ٣٧٦ ، وقلائد العقيان ص ٧٠ — ٨٣ .

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير فى نفسه وروحه ، وهو تأثير يشيد به النقد الحديث . يقول الأستاذ نكل « وبغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبقى ناقصاً بعضاً من أثمن جواهره »(١) .

وإلى جانب هذين الشاعرين العظيمين ، ابن عمار وابن زيدون ، كان بلاط إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر ، منهم أبوبكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية ، كما يدل على ذلك اسمه؛ وبرع فى الشعر منذ صباه، واتخذه وسيلة للتكسب والعيش، وتجول بين قصور الطوائف يمتدح ملوكهم . ثم اتصل ببلاط إشبيلية، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم فى مديحه كثيراً من قصائده . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ؛ زاره أبو بكر بأغمات ، وله فى دولة المعتمد وأيامه ؛ وفى محنته وأسره ، قصائد كثيرة ، وله كتاب فى تاريخ بنى عباد سبقت الإشارة إليه . ولحق فى أواخر أيامه بجزيرة ميورقة ،ومدح صاحبها مبشر العامرى وحظى لديه. ومنهم عبد الجليل بن وهبون ، وهو صديق ابن عمار ومرثيه ؛ وأبو الحسن الحصرى ؛ وأصله من القيروان ، وقد خدم المعتضد ثم المعتمد ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس ، هو عبد الجبار ابن أبى بكر بن محمد الأزدى الصقلى المعروف بابن حمديس؛ وقد ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، ولما غزا النورمان صقلية فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد ، ونظم فى مديحه كثيراً من القصائد ؛ وظهر بروعة افتنانه ولاسيما فى شعره الوصفى . ولما أسر المعتمد زاره فى أغمات وأقام لديه مدة، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدية وخدم ملكها وتوفى سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) .

وأما عن الكتاب الذين خدموا فى بلاط إشبيلية، وازدهروا فى ظل بنى عباد، فقد أشرنا إلى الكثير منهم ، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية ، وإنما أردنا أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبنى عباد فى هذا الميدان من رياسة ومواهب عالية ، ولما كان لدولة الشعر فى ظلهم من رعاية خاصة ، وقد كان بنو عباد

---

(١) A. R. Nykl : ibid; p. 119

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير[1] . ولم يكن يجاريهم فى ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف.

وكان بنو الأفطس ، ملوك بطليوس ، كذلك من حماة الشعر والأدب ، وكان بلاطهم ولاسيا فى عهد عميدهم المظفر ، وولده عمر المتوكل ، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر ، وفى مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبومحمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ (١١٢٦ م) ، وبنو القبطرنة الثلاثة أبوبكر وأبومحمد وأبوالحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى ، وقد كانوا أيضاً من وزراء بنى الأفطس، ومن شعرائهم المجيدين . وقد ذكرهم ابن بسام فى الذخيرة ووصفهم بأنهم من « أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولا عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة كهقعة الجوزاء ، وان أربوا عن الشهر فى السنا والسناء » ووصفهم ابن الخطيب بأنهم «كانوا عيونا من عيون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة » . وقد برع ثلاثتهم فى النظم والكتابة ، وكتبوا بعد بنى الأفطس لعاهل لمتونة ، يوسف بن تاشفين . ومن نظم أبى محمد قوله :

هلم إلى روضنا يا زهـــير ولح فى سماء المنى يا قمــر
وفوّق إلى الأنس سهم الأخـا ء فقد عطلت قوسه والوتر
إذا لم تكن عنـدنا حاضرا فـما بغصـون الأمانى ثمـر
وقعتَ من القلب وقــع المنى وُحزت من العين حسن الحَوَر

ومن شعر أبى بكر قوله :

يا أخى قم تر النسيم عليـــلا باكر الروض والمـدام شمولا
فى رياض تعانق الزهر فيهـا مثل ما عانق الخليل خليـلا
لا تنم واغتـنم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا [2]

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم ؛ وهى قصيدته المعروفة «بالعبدونية » ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم . ويصفها الأستاذ نكل بأنها « مزيج مدهش من الشعور العميق ، والمتانة

(١) نفح الطيب (عن رسالة الشقندى) ج ٢ ص ١٤٠ .
(٢) راجع كتاب « الإحاطة فى اخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ — ٥٣٠ .

التاريخية » . وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبي والتاريخي الكبير المسمى « بالمظفرى » والذى قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالإخبار والفنون الأدبية[١] . وكذا كان ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً .

وكان يجتمع فى بلاط ألمرية حول بنى صمادح ، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب ، فى مقدمتهم أبوعبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وابن الحداد الوادى آشى وغيرهم ، ممن سبق أن ذكرناهم فى أخبار مملكة ألمرية . وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان أبرع الوشاحين فى عصر الطوائف. ووصفه ابن بسام « بأنه من مشاهير الأدباء والشعراء ، وأكثر ماذكرا اسمه وحفظ نظمه فى أوزان الموشحات » . وقيل فى حقه « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز» . ومن أشهر موشحاته :

بــدر تم   شمــس ضحــا   غصــن نقا   مســك شم
ما أتم   مــا أوضـــحا   مــا أورقــا   مــا أتــم
لا جرم   مــن لمحـــا   قد عشــقا   قد حرم[٢]

وأما ابن شرف ، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجذامى القيروانى ، أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ . ولما اضطرمت فتنة العرب فى إفريقية غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة . وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف ، وكان فوق ذلك أديبا موهوبا وله مؤلفات فى الأمثال والأخبار والآداب . وتوفى سنة ٥٣٤هـ[٣] . وأما ابن الحداد ، فهو أبوعبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى . وكان من أكابر الشعراء ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط ألمرية حسبما تقدم ذكره . وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب .وكان بنو صمادح ، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة ، وكان المعتصم من أكبر شعراء عصره، وكذلك كان ولداه يحيى الملقب برفيع الدولة ،وأبوجعفر الملقب برشيد الدولة ، وإبنته أم الكرام ، من الشعراء الموهوبين . واشتهر منهم

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٥١٩ ، والذخيرة القسم الثانى من المجلد الأول ص ٢٩٩ .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٢٩٨ .

بالأخص رفيع الدولة ، وكان أشعرهم جميعاً[١] . ويجب ألا ننسى أن العلامة اللغوى والجغرافى الكبير ، أبوعبيد البكرى قد عاش حيناً فى ألمرية ، تحت كنف المعتصم ورعايته ، ووضع فى ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة وبعض كتبه الأخرى . وهو أبوعبيد عبدالله بن أبى مصعب عبدالعزيز بن أبى زيد محمد ابن أيوب بن عمرو البكرى . وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة ، وجزيرة شلطيش حيناً ، واستمرت رياسة أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ ، حينما أجلاه عنها المعتضد بن عباد . ودرس أبو عبيد على ابن حيان ، والحافظ ابن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهم من أقطاب العصر . وله عدة مؤلفات قيمة فى مقدمتها موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك، وكتاب معجم ما استعجم، وهو قاموس لغوى جغرافى ، وكتاب اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد . وكان البكرى من أقطاب الأدب فى عصره، وكان آية فى التبحر واللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار ، وأهل الضبط . وتوفى البكرى فى سنة ٤٨٧ هـ[٢]

وقال ابن الأبار : « وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام »[٣]

بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب ، لم تبلغ فى القصور البربرية مبلغاً كبيراً ، فلم تزدهر النهضة الأدبية فى ظل بنى ذى النون بطليطلة ولم تجتمع فى بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء ، وإن كان قد نبغ فى ظلهم بعض العلماء البارزين فى الفلك والزراعة . وكذلك لم تشهد غرناطة فى ظل بنى مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن .

أما قصور الطوائف فى شرق الأندلس ، وفى سرقسطة ، فكان لها شأن خاص فى رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام . وكان بلاط سرقسطة ، شأنه شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب ، وكان فى مقدمة هؤلاء ، أبو عمر أحمد بن محمد درّاج القسطلى ، وهو من أبرز شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف . ولد بقسطلة الغرب سنة ٣٤٧ هـ من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ، وكان فى شبابه من كتاب المنصور بن أبى عامر

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٦ . والقاهرة ج ٢ ص ٩٢ .
(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٣٢ .
(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٥ .

وشعرائه ، وذاع اسمه بين ألمع شعراء الطوائف ، ومدح عدداً من أمرائهم ، ولا سيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران ، ثم التحق ببلاط سرقسطة ، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيى . وقد وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر ، بأنه كان بين شعراء الأندلس ، كالمتنبى بين شعراء المشرق ، وقد ترك لنا ابن درّاج ديوان شعر ضخم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد فى مختلف الأغراض(١) . وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته فى الترسل ، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه . وقد أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه . وكان من بين أمراء سرقسطة فى الوقت نفسه ، بعض الأدباء والعلماء البارزين ، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا فيما يلى عن النهضة الفكرية العامة فى عصر الطوائف.

— ٣ —

إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة ، فى تفكيرهم ومستواهم العلمى الرفيع ، وفى مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبومحمد على بن حزم ، وقد كان آية عصره فى نضوج الذهن ودقة البحث ، وعمق التفكير. ولد بقرطبة فى سنة ٣٨٣ هـ (٩٨٤ م) فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك . وقضى ابن حزم حداثته أيام الفتنة بقرطبة ، ثم تجول حيناً فى ألمرية وبلنسية فى كنف الفتيان العامريين ، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية ، ولما هدأت الأحوال نوعاً عاد إلى قرطبة ، وتابع دراسته فى المسجد الجامع . وبرع ابن حزم بالأخص فى الفقه والعلوم الدينية والشرعية ، وأصول المذاهب والنحل، وفى المنطق والفلسفة واللغة، والمعرفة بالسير والأخبار. وتولى الوزارة فى شبابه للخليفة المستظهر الأموى، ثم نزح إلى شاطبة ، وهنالك كتب كتابه «طوق الحمامة» ، وهو دراسة نفسية تحليلية بديعة للحب وبواعثه وأشكاله، ومنه نعرف فضلا عن ذلك ، الكثير عن حياة الفيلسوف،

---

(١) نشر هذا الديوان بدمشق سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود على مكى . وتراجع ترجمة ابن دراج فى ابن خلكان ج ١ ص ٥١ ، وفى بغية الملتمس . الترجمة رقم ٣٤٢ . وأورد له الدكتور مكى فى صدر الديوان ترجمة طويلة (ص ٢١ — ٨٠) .

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة . وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية منها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » ، وكتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب فى مراتب العلوم ، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، ومنها كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه ، ومن روى عنه، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول ،و « جمهرة أنساب العرب » وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها ، ومن نزل منها بالأندلس ، « ونقط العروس » وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث ، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة . وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه « علم الأخبار » ، ويعتبر علم النسب جزءا من علم الخبر ، فإنه يحق لنا بعد الذى تقدم من ذكر كتبه ، أن نعتبره مؤرخا بكل معانى الكلمة. على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخا عاديا، بل كان بالعكس مؤرخا من طراز خاص، بل ومن طراز نادر ، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم ، عن حوادث عصرهم وشخصياته ، أحكاماً لاتقبل الجدل . وقد عاش ابن حزم فى عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيهم ، واستهتارهم، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق ، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التى أصدرها فى حق الطوائف ، والتى نقلناها فيما تقدم . بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء فى الشرق أو فى الغرب ، بكتابه الجامع « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .
ويشيد البحث الحديث بابن حزم ، وروعة علمه وتفكيره ، ويخصص له العلامة الإسبانى آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه « الفصل » ويعتبره « مفكراً وعالماً لاهوتياً ، ومؤرخا ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية »[١] .
ويعتبره الأستاذ نكل « أديباً وشاعراً وفقيهاً، ومؤرخاً سياسياً وعالماً أخلاقياً »[٢].

---

(١) A. Asin Palacios : Abenhàzm de Córdoba y su Historia de las Ideas religiosas.

(٢) A. R. Nykl : ibid., p. 73

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية ، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه فى عصره . وكان يتشدد كل التشدد فى تطبيقه على العقائد ، والأحكام ، وهو لايأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد « بالحزمية » نسبة إليه . وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة . وأثار فى الوقت نفسه ، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة ، واتهمه البعض بالمروق والزندقة ، وأحرقت كتبه فى إشبيلية بأمر المعتضد ابن عباد[1]. ونزح فى أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة ، وهنالك توفى فى شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)[2] .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرقوا مثل ميدانه فى التفكير الدينى والشرعى ، العلامة أبو الوليد الباجى ، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبى الباجى الحافظ . ولد بمدينة بطليوس غربى الأندلس سنة ٤٠٣ هـ ودرس فى قرطبة ، ثم سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم فى بغداد ، ولما عاد إلى الأندلس عاش حيناً فى بلاط ميورقة ، وحيناً آخر فى كنف المقتدر بن هود ، واشتهر بردوده على ابن حزم ، وكان قرينه فى غزارة العلم وسعة المعرفة . وقد وصف بأنه من أئمة المسلمين . وتوفى فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . ومن شعره :

إذا كنت أعلم علما يقينا　　بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها　　وأجعلها فى صلاح وطاعة[3]

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر ، هو العلامة اللغوى الأعمى أبو الحسن على بن سيده ، المتوفى فى سنة ٤٥٨ (١٠٦٦ م) . وكان آية فى الحفظ

---

(١) ترجمته فى جذوة المقتبس ص ٢٩٠ — ٢٩٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ — ٤٣١ .

(٢) فى شهر مايو (من ١٢ — ١٨ منه سنة ١٩٦٣) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم « القرطبى » وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لابن حزم بالإسبانية ، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان الجامع الذى كان يتوسط بلاط مغيث وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الفخمة . وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٤٥٣ .

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدانية فى كنف أميرها العالم مجاهد العامرى ، وانقطع إليه ، ولما توفى مجاهد ، توجس من ولده على إقبال الدولة ، فغادر دانية إلى بعض الأنحاء المجاورة . واشتهر ابن سيده بكتابه « المحكم » وهو قاموس لغوى ضخم ، وكتاب « السماء » .

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى الذى سبق ذكره . وقد اشتهر بمعجمه اللغوى الجغرافى المسمى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم فى تاريخه العـــام Crónica General

ويخص العلامة الأستاذ مننديث پيدال كتابى « الفصل » لابن حزم و « المحكم » لابن سيده بالذكر ، وينوه بنفاستهما ، ويقول : « إن النضوج العقلى اللازم لإخراج كتاب فى تاريخ الأديان ، أو قاموس للفكر المتشابهة ، على مثل النمط الذى كتبت به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية ، لم تصل إليه أوربا حتى القرن التاسع عشر »(١)

ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر ، وهو أبو عمر يوسف ابن عبد الله النمرى القرطبى ، ولد سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وقضى شطراً من حياته فى دانية وبلنسية وشاطبة ، ثم لحق أخيراً ببلاط بنى الأفطس ببطليوس وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة ، ثم شنترين ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « بهجة المجالس وأنس المُجالس » ويمتاز شعره بالرصانة والأناقة . وقد خدم ولده أبو محمد عبد الله بن عبد البر فى بلاط بنى عباد ، حسبما تقدم ذكره فى موضعه(٢)

ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثبت من العلماء الأعلام ، أميرين من أمراء الطوائف ، هما مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية . وكان مجاهد من أكابر علماء عصره فى اللغة وعلوم القرآن ، وكان بلاطه مجمعاً لطائفة من أشهر علماء العصر ، وفى مقدمتهم ابن عبد البر ، وابن سيده وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر

---

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 81

(٢) نفح الطيب (عن رسالة ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس) ج ٢ ص ١٣١ .

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف ، ويشيد معاصره ابن بسام حسبما تقدم بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة، وينوه بجمال رسائله وروعتها . وقد وقفنا على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام رياسته لها يقول فيه : « قلدت فلانا وفقه الله النظر فى أحكام فلانة ، وتخيرته لها بعد ما خبرته ، واستخلفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصنه ، لأنه احتاط فعلم ، وإن أضاع فأثم ، فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل ، وليسر بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، فعف فى الحكم عند اشتباهه ، وبعده عند اتجاهه ، ولا تقبل غير المرضى فى شهادته ، ولاتعرف سوى الاشتغال من علاته ، ولتعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسلام يوم علاماته »(١)

هذا وقد كان عصر الطوائف ، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية الشاملة ، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . وقد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين ، الذين كانت بحوثهم فيما بعدمستقى خصباً لاقتباس الغرب . وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن اهيم بن يحيى الزرقالى القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة ، ويعرف فى الغرب باسم Azarquiel وقد ذاعت جداوله الفلكية ، ذيوعا عظيما ، وكانت فى كثير من المواطن أصح من غيرها من الجداول القديمة ، وتوفى الزرقالى سنة ٤٨٠ ﻫ (١٠٨٧ م) . وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ ﻫ (١٠٣٨ م) ، وكان بارعاً فى الهندسة والفلك ، وله كتب قيمة فى الهندسة وزيج فلكى . وأبو الوليد هشام الوقشى ، وكان أبرع علماء عصره فى الهندسة والفلسفة والنحو واللغة ؛ وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب « طبقات الأمم » وهو تاريخ للعلوم . وقد كانت الجداول الفلكية التى وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد ، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة فى اقتباس جداوله . وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية ، ولاسيما فى عصر الطوائف، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين فى هذا العصر، الذى سبقه بنحو قرنين . وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقرطبة ، من أعظم مراكز

---

(١) أورده ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

الدراسات الفلسفية والرياضية فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان المقتدر بن هود وولده المؤتمن ، من العلماء المبرزين فى الفلسفة والرياضيات والفلك . وكتب المؤتمن رسالته « الإستكمال » فى الرياضية . وأثارت بحوث هذين الأميرين العالمين إعجاب الدوائر العلمية فى العصور الوسطى[1] .

كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء ، التى حفل بها عصر الطوائف تملأ قصور الطوائف ، وتعيش فى كنف أمرائها ، سواء بطريق الخدمة فى الوزارة أو الكتابة أو القضاء أوغيرها ، أو فى ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك الأمراء . وكان أولئك العلماء والأدباء ، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، وفقاً للأحوال والظروف ، إذ كانت هذه القصور جميعاً تتنافس فى اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها ، وفى رعايتهم والإغداق عليهم ، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته ، ويعيش فى كنفه وتحت رعايته ، وكان بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة ، ويسيرها وفق رأيه ، أو يخوض غمار الدسائس والفتن فيذهب ضحية تدخله . وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى ، وأبو عبد الله البزليانى وزير المعتضد بن عباد ، وابن عمار وزير ولده المعتمد ، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء المغامرين ، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته .

وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية فى عصر الطوائف ، ذيوع المكتبات العامة والخاصة ذيوعاً يلفت النظر . ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة لمملكة كبيرة أوصغيرة . وكان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد لبثت قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية ، مركز العلوم والدراسات الممتازة ، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من التبديد المؤلم ، مثوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة . وكانت إشبيلية ، حاضرة بنى عباد ، هى الثانية بعد قرطبة ، فى تقدم العلوم والثقافة ، وكانت تحتوى ، فضلا عن مكتبة بنى عباد الملوكية العظيمة ، على عدد كبير من المكتبات الخاصة . وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التى اشتهرت بمكتباتها القيمة . وكان

---

(١) يراجع فى تفاصيل النهضة الفكرية فى عصر الطوائف رسالة ابن حزم عن الحركة العلمية بالأندلس ، وقد نشرت فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة الشقندى وقد نشرت أيضاً فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها . ويراجع أيضاً . R. M. Pidal : ibid', p. 79-84

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامرى ، فضلا عن علمه الغزير ، من أعظم هواة الكتب. ، ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد . واشتهرت بطليوس فى ظل بنى الأفطس بتقدمها العلمى والثقافى . وكذا كانت طليطلة فى ظل بنى ذى النون مركزاً عظيما للبحوث العلمية . واشتهربنو ذى النون كذلك بجمع الكتب ، وكانت لديهم مكتبة عظيمة . وكانت توجد غير المكتبات الملكية ، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة ، فى سائر القواعد الأندلسية . وكان لهذه الثروات المكتبية، تأثيرها بلا ريب ، فى تقدم الحركة الفكرية والثقافية ، فى عهد الطوائف(١) .

وقد امتدت هذة النهضة الفكرية والأدبية التى ازدهرت فى عصر الطوائف إلى عهد المرابطين . وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة. والبداوة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، فركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب ، وانفرط عقد الحلقات الأدبية الزاهرة ، التى كانت تحفل بها قصور الطوائف ، ومع ذلك فقد بزغت فى عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف، وظهرت فيه عدة من الشخصيات اللامعة، مثل أبى القاسم خلف بن عباس القرطبى الطبيب الأشهر المتوفى سنة٥٦٦هـ (١١٢٢ م)، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٢٩ م) . وأبو بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، والفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧ م) . بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام فى هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية فى عصر الطوائف.

* * *

وقد حظى عصر الطوائف ، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه ، وتاريخ أعلامه . وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف ابن حزم . وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخا بالمعنى الصحيح لعصر

---

(١) راجع فى ذلك فصلا للأستاذ خوليان ريبرا عنوانه : Bibliofilos y Bibliotecas فى كتابه Disertaciônes y Opûsculos en la Espana Musulmana . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧ .

الطوائف ، إلا أنه يقدم لنا فى رسالته المسماة « نقط العروس » ، وفى بعض رسائله الأخرى، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصر الطوائف وشخصياته، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم . ثم المؤرخ الكبير أبومروان حيان بن خلف ابن حيان، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) وتوفى بها سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبى عامر . وبرع ابن حيان فى الأدب والرواية حتى غدا من إعلامها وخاصة محققيها، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان فى شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها ، وقيام دول الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى ، وتولى هو الوزارة لبنى جهور ، وشهد سقوط دولتهم ، وخصص لها كتابا من كتبه . ولاريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان ، وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة فى معظم ماكتبه عن حوادث عصره . وأعظم آثار ابن حيان كتابه « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » . وهو تاريخ ضخم للأندلس حتى عصره أى عصر الطوائف . وقد انتهت الينا منه عدة قطع مخطوطة[1] . وقد ضمنه ابن حيان ، عن عصر الطوائف وأحداثه التى شهد الكثير منها بنفسه ، أقيم الروايات وأنفسها، وأحفلها بالتعليقات النقدية . وكتب ابن حيان غير المقتبس، كتابه « المتين » وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية فى ضخامته ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه ، وكتاب المآثر العامرية ، وهو أيضاً كتاب ضخم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبى عامر وغزواته، ولكنه لم يصل كذلك الينا. وأسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز . ويشيد ابن بسام بمجهوده التاريخى ، وينقل عنه شذوراً ضافية ، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

---

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط ، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد . وهذا عدا الجزء الذى نشره المستشرق الإسبانى الأب ملشيور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧) . (راجع فى ذلك كتابى دولة الاسلام فى الأندلس — الطبعة الرابعة ص ٧ — ٩) .

بين المديح والذم ، والتقدير والانتقاص ، وذلك حسبما أشرنا إليه فى موضعه فى أخبار دولة بنى جهور[١] . وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ؛ وقد عنى فى معجم تراجمه[٢] ، بترجمة كثير من العلماء والأدباء ، والفقهاء والمحدثين ، فى عصر الطوائف . وكتب المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترينى معجمه التاريخى والأدبى الضخم بقرطبة ، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل ، فى سنتى ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ . وقد عاصر ابن بسام ، قبل أن يغادر موطنه مدينة شنترين البرتغالية نحو سنة ٤٨٠ هـ ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل[٣] ، أواخر عهد الطوائف ، وأوائل عهد المرابطين ، وعاش وقتاً فى إشبيلية ، ثم غادرها إلى قرطبة ، حيث كتب مؤلفه . ويعتبر كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهو مؤلف ضخم يحتوى على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة ، من أقيم وأنفس مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحى التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية . وبالرغم من أن الصفة الأدبية تغلب عليه ، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب والشعراء ، ومن منثورهم ومنظومهم ، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الفصول والشذور التاريخية ، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين المعاصرين ، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنه ، من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن الإحسان ليس مقصورا على أهل المشرق. ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب

---

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ .

(٢) وهو المسمى «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس» . وقد صدرت منه طبعة جديدة بالقاهرة فى سنة ١٣٧٢ هـ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨ . وقد سقطت شنترين فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

« يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره .

ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر ، هو الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) صاحب كتابى « القلائد » و« المطمح ». وقد أورد لنا فى « القلائد »[١] تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة ، يقدمهم إلينا فى أسلوب مسجع ، يغلب عليه التكلف ، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة ، وكذا فى المطمح أو« مطمح الأنفس ومسرح التأنس » فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم فى القلائد ، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع . ونجد أخيراً شاعراً وكاتباً كبيراً ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وزير بنى الأفطس والرائى لدولتهم ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذى سبق ذكره ، يقدم لنا فى رسالته عن« القضاء والحسبة » صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة ، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع فى عهد الطوائف ، تبدو فيها روح النقد والتشاؤم ، وهو ينوه فى رسالته بما كان يجرى فى إشبيلية ، حيث كان يقيم ، من ضروب الفساد ، ويدعو إلى الكف عن أمور كانت تجرى فى عهده ، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة ، وألا تقرع النواقيس فى بلاد المسلمين ، إذ هى لاتضرب إلا ببلاد النصارى ، وألا يبيع النصارى واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم ، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين . إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا إليه . ومما جاء فى ختام رسالته قوله : « وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره . وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج ، وداعية الفساد ، وانقضاء العالم . ولا يصلح ذلك إلا نبى بإذن الله . فإن لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله ، ومن كان فى عون المسلمين ، كان الله فى عونه ، فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

---

(١) هو كتاب « قلائد العقيان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

والتخلص ، وينظر لنفسه ، فعسى يتخلص ، والله بعزته يسدده ، ويوفقه للخير ... »[١] .

— ٣ —

الخواص الفنيــة

وكما ازدهرت العلوم والآداب فى عصر الطوائف، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات ، وكانت قصور الطوائف مثوى للفنون الجميلة ، ومظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة ، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى ، وما يتبعها من الغناء . وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون فى اقتناء القينات الحسان البارعات فى العزف والغناء، ويبذلون فى ذلك الأموال الطائلة ، حتى لقد بذل أحدهم ، وهو هذيل بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات ، وكان فى قصورهم منهن أسراب وأسراب ، ولاسيما فى قصور بنى عباد بإشبيلية ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وكان المعتمد بن عباد يعشق الموسيقى ، ويصحب الموسيقيين معه أثناء حملاته الحربية .

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس فى عصر الطوائف . ونحن نعرف ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة فى الفنون الزراعية ، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة ، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً . وقد كان أهل الأندلس فى الواقع من أنبغ الشعوب فى فلاحة الأرض وتربية الماشية ، وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى والصرف، ومعرفة أحوال الجو، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم، مضرب الأمثال فى الجودة والتنسيق والنماء . ويرجع ازدهار الزراعة فى عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين اليانعة، وتربية الغراس والزهور النادرة . وقد ظهر فى عصر الطوائف، عدة من علماء النبات

---

(١) نشرت رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل فى الحسبة ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة .

والزراعة ، ولاسيا فى طليطلة وإشبيلية ، حيث كانت حدائق بنى ذى النون فى الأولى ، وحدائق بنى عباد فى الثانية ، تشغل مساحات واسعة ، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين . وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين فى طليطلة ابن وافد الطبيب المشهور ، وكان يشرف على حدائق بنى ذى النون . وأبو عبد الله بن بصّال العالم الزراعى ، الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اشتهر ابن بصال بتجاربه العلمية الناجحة فى توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه « الفلاحة » الذى انتهى إلينا ، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية ، يشهد ببراعته وتفوقه فى هذا الميدان . ولما سقطت طليطلة فى أيدى النصارى ، غادر ابن بصال طليطلة إلى إشبيلية ، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بنى عباد . وكان من هؤلاء العلماء أيضاً أبوعمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد عاش فى إشبيلية ، وألف كتاباً فى الزراعة اسمه « المقنع » لم يصل إلينا . وأبو عبد الله محمد ابن مالك الطغنرى ، وهو غرناطى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتتلمذ على ابن بصال ، ووضع كتاباً فى الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » . وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الزاهرة . وقد توفى فى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤)[1] .

وأما عن الصناعات ، فقد كانت كذلك فى عصر الطوائف رائجة زاهرة ، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنحاس والزجاج والنسيج . وكانت صناعة النسيج بالأخص ، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف ، وكان بمدينة ألمرية وحدها ، خمسة آلاف منسج ، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة . وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق ، ومن الثغور الإيطالية ، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية محملة بالسلع من كل ضرب ، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية . وكانت دول الطوائف ذات الثغور ، مثل إشبيلية وألمرية ، وبلنسية ودانية وسرقسطة ، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة .

---

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال المنشور بعناية المستشرق الإسبانى Millas Vallicrosa الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء السياسى والعسكرى ، وقوة التراث المادى والحضارى ، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل ، والتقدم الفكرى اللامع . وقد كان أبرز ما فى ذلك المزيج المتناقض ، ضعف الروح الدينية والوطنية ، بصورة لم تعرفها الأمة الأندلسية فى تاريخها من قبل قط ، بل ولم تعرفها فيما بعد ، حتى فى أسوأ عصور الفتنة ، والتفكك السياسى والعسكرى ، التى كان يقابلها من الناحية الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية . ولكن الأندلس لم تبد قط فى أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية ، مثل ما أبدته أيام الطوائف من التخاذل والاستسلام ، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية ، ومن إهدار لمقتضيات الكرامة القومية ، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم إلينا تلك الخواص المؤلمة ، التى تتناقض فى مجموعها وفى تفاصيلها ، مع طبيعة الأمة الأندلسية ، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها ، من الشجاعة والشهامة والإباء ، والتفانى فى الذود عن الدين والوطن .

وفى وسعنا أن نلمح فى تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية فى عصر الإحياء ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كثيراً من آثار تلك الخواص التى غلبت على عصر الطوائف بالأندلس . فهنالك الأمراء الطغاة ، والحروب الأهلية الطاحنة ، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها . وهنالك استعداء العدو الخارجى كل منها على الأخرى ، ثم التخاذل فى الدفاع عن الوطن . وهنالك الانحلال الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل . ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية وأدبية وفنية زاهرة ، من أروع ما عرفته إيطاليا فى تاريخها ، يرعاها الأمراء الطغاة ، ويمدونها بالبذل الوفير . وهنالك أخيراً تجارة وصناعات رائجة ، ورخاء شامل ، وحياة كلها متعة واستهتار . ولاريب أن هذا التماثل فى الخواص بين العصرين ، يرجع إلى حد كبير ، إلى التماثل بين ما كان يجوزه كل منهما من الظروف السياسية والاجتماعية .



الوثائق والملحقات

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية . يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال (Fol. 49R. –53V.) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له) .

« الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبّب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدّين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين . ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ، على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، أحسن الله فى كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب فى سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهى المهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزءرون إليها زءر الأسود ، فشحنا بهم القوارب ،

وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا فى مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماح ، ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء فى الفضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارى تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين ، لا بسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ

العباد . فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخوله فى ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا فى كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث فى الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلايع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ؛ وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا فى سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن فى أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لايقدرون عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده فى طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل إلا البعض ، ولجأ فى الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته فى المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ،

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخبيته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلوا من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، ونحن فى ذلك كله غافلون ؛ حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ؛ فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذى لا بد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا ، فلنموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولى النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه ؛ وأضعف الرعب أيديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاربهم لايرى غير شىء إلا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربى المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وبيدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا فى الأرض مجدلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا ، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب فى المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون فى أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين ، إلى أن جن الليل وأرخى

سدوله، ولواهاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة،وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد . وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون فى الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التى قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميهم للشهادة ؛ قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ،وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته فى المغرب ، وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ؛ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجح إلى أحدهم نفس ، يذكرون ما لقوا ، ويتذاكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم أنسى . والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله مناً منه علينا لا مناً عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته » .

بعض « فصول » الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة .

(منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس – طبعة أو بسالة ص ٩٦ – ٩٨) .

« أما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله ، وأكرم خلقه وأسره ، فإن العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه ، بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه ، على الملاقات فى يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ، وقال الجمعة عيد المسلمين ، والسبت عيد اليهود ، وفى عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ، ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ، ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء فى سحر يوم الجمعة الثانى عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرا أنه قد اغتنم فرصته فى ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين ، فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين فى جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة فى سائر المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهدة المنتشرة ، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأضلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك القياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء فى هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى ألفنش مطعوناً فى إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه فى خمس مائة فارس من ثمانين

ألف فارس ومائتى ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظروا النهب والنيران فى محلته من كل جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ، ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة فى ظلام الليل ، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت فى وسط مواكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد ، مرفوع الأعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأى العين دمارها ونهبها ، وألفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار ، فتراجعوا حذاراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المؤمنين ، وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل ، والصنع الجميل ، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الجسيمة ، يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ، موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى » .

رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة.

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال Fot. 118V-119R)

« سيدى ، وأعلى عددى ، وأقوى عمدى ، وأزكى ذخرى لأبدى ، ونعمة الله المستطيلة بيدى ، المناهضة بعضدى ، ومن أطال الله بقاه فى عز رفيع المراتب ، وحرز منيع الجوانب ، إذ أحكام الفتن ، وحوادث الزمن ، لاتزال تحل على كل ما لايقع بإيثار ، ولا يجرى على حكم واختيار ، فرب كريهة لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا ، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلا ، وقديماً جدّ الجفاء العقوق ، وأبطل التجنى الحقوق ، وقد يحرج الحليم ، ويتغيس الحميم ، وتقطع الرحم ، وتنبذ الذمم ، لا سيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد ، باتراً أواصر الإخاء والإجمال ، وتحاسد القرابة داء قديم ، وخلق فى الناس معلوم ، وإنى أيدك الله ، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف ، ومتحمل لاتستنزله ألطاف ، وحاسد لايرجى استرضاؤه ، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاؤه ، إذا سألته نصفة أبدا منه أنفه ، وإن سمته عدلا مال إلى الجور ميلا ، وإن خفضت له جناح الذل ، أوطأنى جهر الجفا ، وإن أقبلت عليه بناظر الود ، أول من صفحة الإبداء ، وإن استدنيته شحط ، وإن استرضيته سخط ، وإن حكمته تشطط ، وإن أغضيت له تسلط ، وأنا فى أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه ، وألبسه على أخلاقه ، وأستمع منه بغير مستمع ، وأرفع منه بغير مرفع ، وعقارب مضرته تدب ، وعواصف معرته تهب ، وأذاه قاصد إلى فى خاصتى ، ومفسد على بطانتى ، لايألو فى مساعى سعياه اجتهاداً ، ولا آلو إلى مسرته تأنياً وانقياداً ، آخذاً بالحجة عليه ، وتقدماً بالجميل إليه ، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه ، وتعرفه جور حكمه ، ولا يزداد إلا اغتراراً ، ولايبدى إلا استكباراً إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام ، وحاول أحوالا تمامها هادية ... ورام معاجلتى بالتى ليس فيها استبقاء ، ولا بعدها بقاء ، وسألنى مع هذا الاجتماع بى ليسوسنى ... الإذعان إلى مطالبه ، والموافقة فى مذاهبه ، فأجبته

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه فأبى إلا ..... وانبساطاً .
فلما رأيته عن سوء معتقده غير . . . . . وعن فساد رأيه غير راجع ، وغرنى جماحه ، وأعوزنى استصلاحه ، ونقلنى عن سجيتى بكره ، وكدر صفوى من كل وجه، راجحت فى أمره بين أن أرضى الله عز وجل فى قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده ، فما أطمع . . . . وطأ نواحيها ، وأمنع ممن رامه ، وأدفع عنه من أراد اهتضامه ، وأن أبتهل . . . . برحم عن نفسى ، فرفع الله عن ذلك منزلتها ، وبسط عليه مقدرتها ، فرأيت النظر فى قطع مضرته أولى ، والسعى فى حسم علته ومعرته أحمى ، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه ، وألزمته البقاء بقصبة منتشون ، وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه ارتماض وشفاق ، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق ، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا ، ولا جعلنى إلى سواه مخيلا ، وكان فيما يأتيه أعق ، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق ، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً ، ويركب حد السيف إذا لم يجد سواه مركباً ، والله يشهد لقد طوى جوانحى مما ساقنى إليه على لواعج مزعجة ، وخرق منضجة ، وكتابى هذا من لاردة ، وقد استقرت بحمد الله على الدعة أسباب قريرها ، واتصل بجميل عونه تدبيرها ، وتقضى أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال ، وتعرفك المبدى منها والمآل ، فإنك الشريك فى الحلو والمر ، والقيم فى النفع والضر ، وفى خلال هذا أعزك الله ما وردنى أبن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم ، المشتمل على أجفل البر ، والمقتضى لأجزل الشكر ، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أملى ، وأكد جذلى ، وعظمت نعم الله ...... وقد صدر أبقاه الله متحملا من صحة ودى ، وثبات عهدى ، وارتباط عقدى ، . . . . الأحوال عندى مايطلعك من ذلك كله على الجملة الكافية والحلية الشافية » .

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية
أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب
وكتب بها من لاره

(منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى لوحة ٢٦ — ٢٩)

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة ، أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان الامن غسّان ، أو من آل ذى حسان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ، فما هذا الإعمال للكور ، وترك الوكور . وقل ما تأخذ الشعرة F .26B فى الرحيل إلا عن الربع المحيل ، ولو أن القوم خلطوك بالآل ، لما أحوجك إلى الخبط فى الآل . مه مه ، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف ، وودك لانقف ، على من اضطرك إلى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ، وعوضك من الأندية ، بجوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحصّان ، ومحالفة الحِصان ، ووكلك بمسح الأرض، ذات الطول والعرض ، فإذا يممت تبالة ، تدباله ، وصرت ضغثا على إبالة ، تتعلل باليمين ، ضنا بالعلق الثمين . أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ، ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد نُجد بُهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم، شغلوا بالماذى والمرّان عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطّبة بالخرصان .

ما ضرهم أن شهدوا مجادا أو كافحوا يوم الوغى الأنداد
أن لايكون لونهم سوادا

أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية .

نمتهم ذوو الأحساب والمجد والعلى   من الصهب لاراعو غضاً وأفان

من القوم الملس الأدم ، لم تُعرق فيهم الأقباط ، ولا الأنباط ، حسب حريّ ، ونسب سريّ ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهايل ، فى التكايل ، فماسسنا قط قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولا لكنا عرودا ، فلا تَهاجر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ؛ منّنّا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ؛ فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعا ، يشارك سفعا ، اضطركم إلى سكنى F. 27A الحجاز ، والجأكم إلى ذات المجاز ، رُزُن ، رُصُن .

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم   بعد الممات جَمال الكُتْب والسير

إذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت فى اتساق ؛ وقرعت الظنابيب ؛ وأشرعت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الهدان فاه ؛ وولى قفاه ؛ ألفيتهم ذمرة الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ؛ أحلى عندهم من العسل .

مستسلمين إلى الحتوف كأنما   بين الحتوف وبينهم أرحام

من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمةاليدان ؛ على التنائى والتدان .

مين الألى غير زجر الخيل ما عرفوا   إذ تعرف العُرب زجر الشّاء والعكر

بُصُرٌ صُبُر ، تزدان بهم المحافل والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ، ضراغمة الأجم ، بتوغاب ، منتفون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال ، ربة الآيات ، شُمُخ ، بُذُخ ، بررة أقيال ، جررة أذيال . بخ بخ ، أحلتهم سيوفهم سِطة الأرضين ، فما قنعوا بذلك ولا رضين ، حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته   وطعن كتشهاق العفا همّ بالنهق

شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج ؛ عن

الكلب والفرّوج ، وبالنفير عن النقير ، وبالحنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الحب ، وبالسليل عن الشليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان ، طياتّهم خطياتّهم ، وغلاتّهم آلاتّهم وحصونهم ، حصنهم أقيال ، آباؤهم من F. 27B بين الأنام أقتال :

أولئك قومى إن بنوا شيّدوا البنى   وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا سدّوا

وُضُحٌ رُجح ، لا حفزة عكر ، ولا قفزة أكر ، ملوك جلة ، لا محرِقوا جلة ، ندس ، غنوا بالإستبرق والسندس ، عن البيت المقيظ المشّى ، المجموع من النعيجات الست . بسل لا حراس مسل ، ولا غراس فسل ، مُلَّك لقاح ، ليس منهم فى ورد ولا صدر شرّاب دَرّ اللقاح ، بل شرابهم النبيذ ، وطعامهم الحنيذ ، لا زهيد الهبيد فى البيد ، ولا مكون الوكون ، ولا منهم من احتشا ، بمذموم الكُشا ، ولا فى سائر الاحفاش ، من وليد وناش ، من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعقع لهم بالشّنان ، ولا يوعوع لهم بالشنآن ، فكف أيها الشان ، فلهم عظيم الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان ، صنيع منيع ، ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفرة ، لاشكرة ؛ إيهاً إذ تأبطتم تيهاً ، معشر البداة العداة . اعتقدتم غِلاً ، فاستثرتم صلا . أما علمتم ان الدولة النوشروانية ، والمملكة الأزدشيرية ، بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد عظيم الخبرة ، قالا ذللا ، تتخيرون البنات عند البيات مبهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم ، وكان برمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذيول ، مدوساً بأخفاف الفيول ؛ والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأظهر ، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعمومة الإسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان ، من سيل العرم ما كان ، يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الجماجم .

هذى المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعــد أبوالا

F. 28A مهلا بنى الأماء ، عن الغمز والإيماء ، فنحن عُرق غُرّق ، فى الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ،

وقد رسخت فى المجد أصولنا وفروعنا ؛ ومن يطولنا ، وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا :

شرفٌ ينطح النجوم بروقيـــــه وعـــزٌّ يقلقل الأجبالا

حُلُم ، عُلُم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى ، والعَلَمة ، بالارتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لاعلى وصف الناقة الفدنيّة ، فعلهم ليس بالسفساف ، كفعل نائله وإساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزق خمر ، باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستيصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنتَ أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالقديم ، المفرّى للأديم ، لاكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمّنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ، الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، فنى الرغام يلنى تبره ، والمسك بعض دم الغزال .

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوه الصفوة من بينهم محمد النــور أبو القاسم

بهذا النبى الأمى أفاخر من تفخّر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف F. 28B السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتّى بالرسالة ، والمنتّى للأداء والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أُصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعارب ما علينا باس لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا :

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن حدَوت بحيث يُستمع الحداء

ثم أجج بشاعر غسّان ، لاساسان فى هذا العيد بالوعيد ، وأحر فى فى هذا الفصل بعدم الوصل . لقد غمّ آخرك ، لكن بالرغم أخرّك إذ أضربت عن مديح ، علقنا الربيح ، معز الدولة ، شهمنا الرئيس ومهمنا النفيس قَيل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة الساسانية ، والنفاسة النفسانية ، فاذهب ياغثّ المذهب ، وابتغ فى الأرض نفقا ، أو فى السماء مرتقى ، فهده أليّة ، جلبت عليك بليّة ، أو حكّك من البسيط المديد ، ما تستجيريه من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمتنا موالى ، وحذار حذار ان تقرع سن الندم ، ولات حين مندم ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، وكُربك فى كرّبك ، فمن أبصر أقصر ، وما حرّف ، من صديقه خرّف .

فلا تتبشع ممضّ العتـــا ب يلقاك يوما بلقياه لاق
فإن الدواء حميد انفعال وإن كان مُرًّا كريه المذاق

يامعتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحييت منك فلا تكلنى إلى شىء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ما حقّ عليه قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يوم إذا أنفقت إنفاق البخيل
وكيف وأنت علوىّ السجايا وليس إلى اقتصادك من سبيل
وقد يُقوى الفصيح فلا تقابل ضعيف البر إلا بالقبول
وإن الوزن وهو أصح وزن يقام صَغَاه بالحرف العليل
فإن يك ما بعثت به قليلا فلى حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفَلَك وسبّح المَلَك ، ورحمة الله وبركاته .

دول الطـــــوائف

جدول تاريخى مفصل

دولة بنى جهور فى قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ ـ ٤٣٥ هـ : ١٠٣١ ـ ١٠٤٤ م
ابو الوليد محمد جهور ٤٣٥ ـ ٤٥٧ هـ : ١٠٤٤ ـ ١٠٦٤ م
عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ ـ ٤٦٣ هـ : ١٠٦٤ ـ ١٠٧٠ م

المعتمد بن عباد يستولى على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

دولة بنى عباد فى إشبيلية

القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ : ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م
عباد بن محمد المعتضد ٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩ م
محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ ١٠٦٩ ـ ١٠٩١ م

إشبيلية تسقط فى أيدى المرابطين

دولة بنى الأفطس فى بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ ـ ٤٣٧ هـ : ١٠٢٢ ـ ١٠٤٥ م
محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ : ١٠٤٥ ـ ١٠٦٨ م
يحيى بن محمد المنصور ٤٦١ ـ ٤٦٤ هـ : ١٠٦٨ ـ ١٠٧٢ م
عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ ـ ٤٨٨ هـ : ١٠٧٢ ـ ١٠٩٤ م

بطليوس تسقط فى أيدى المرابطين

دولة بنى يحيى فى لبلة

أبو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ ـ ٤٣٤ هـ : ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م
محمد بن يحيى عز الدولة ٤٣٤ ـ ٤٤٣ هـ : ١٠٤٢ ـ ١٠٥١ م
فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ ـ ٤٤٥ هـ : ١٠٥١ ـ ١٠٥٣ م

لبلة تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى مُزين فى باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد ٠٠٠ ـ ٤٣٢ هـ : ٠٠٠ ـ ١٠٤١ م
محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ ـ ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ ـ ١٠٤٨ م

عيسى بن مُزين المظفر ٤٤٠ — ٤٤٥ ﻫ : ١٠٤٨ — ١٠٥٣ م
محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ — ٤٥٠ ﻫ : ١٠٥٣ — ١٠٥٨ م
عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ — ٤٥٥ ﻫ : ١٠٥٨ — ١٠٦٣ م

شلب تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى البكرى فى ولبه وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكرى عز الدولة ٤٠٣ — ٤٤٣ ﻫ : ١٠١٢ — ١٠٥١ م

ولبة وشلطيش تسقطان فى يد المعتضد

دولة بنى هارون فى شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ — ٤٣٣ ﻫ : ١٠٢٦ — ١٠٤١ م
محمد بن سعيد المعتصم ٤٣٣ — ٤٤٣ ﻫ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م

شنتمرية الغرب تسقط فى يد المعتضد

دولة بنى ذى النون فى طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ — ٤٣٥ ﻫ : ١٠٣٦ — ١٠٤٣ م
يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ — ٤٦٧ ﻫ : ١٠٤٣ — ١٠٧٥ م
يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ — ٤٧٨ ﻫ : ١٠٧٥ — ١٠٨٥ م

طليطلة تسقط فى يد ألفونسو السادس

دولة بنى مناد فى غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ — ٤١٠ ﻫ : ١٠١٣ — ١٠١٩ م
حبوس بن ماكسن ٤١١ — ٤٢٨ ﻫ : ١٠٢٠ — ١٠٣٧ م
باديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ — ٤٦٥ ﻫ : ١٠٣٧ — ١٠٧٣ م
عبد الله بن بلقين ٤٦٥ — ٤٨٣ ﻫ : ١٠٧٣ — ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بنى برزال فى قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ — ٤٣٤ ﻫ : ١٠١٣ — ١٠٤٢ م
عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ — ٤٥٩ ﻫ : ١٠٤٢ — ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى دمّر فى مورور

نوح بن أبى تزيرى الدمرى ٤٠٣ — ٤٣٣ ﻫ : ١٠١٣ — ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥٣ م
مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ — ٤٥٨ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٦ م

مورور تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى خزرون فى أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ — ٤٢٠ هـ : ١٠١١ — ١٠٢٩ م
عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٥٣ م
محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ — ٤٦١ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٨ م

أركش تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى يفرن فى رندة

هلال بن أبى قرة اليفرنى ٤٠٦ — ٤٤٥ هـ : ١٠١٥ — ١٠٥٣ م
باديس بن هلال ٤٤٥ — ٤٤٩ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٧ م
أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ — ٤٥٧ هـ : ١٠٥٧ — ١٠٦٥ م

رندة تسقط فى يد ابن عباد

مملكة ألمـــرية

١ — خيران العامرى ٤٠٥ — ٤١٩ هـ : ١٠١٤ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
عبد العزيز المنصور ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٤١ م
٢ — معن بن صمادح ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م
محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٥١ — ١٠٩١ م
أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على ألمرية

مملكة مرســية

١ — خيران العامرى ٤٠٣ — ٤١٩ هـ : ١٠١٢ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ — ٤٥٥ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٦٣ م
أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ : ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)
المعتمد بن عباد يستولى على مرسية

٢ — ابن عمار ٤٧١ — ٤٧٣ هـ : ١٠٧٨ — ١٠٨١ م
ابن رشيق ٤٧٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ هـ .

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

١ — مجاهد العامرى الموفق ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٤٤ م
على بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ — ٤٦٨ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٧٦ م
٢ — المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ٤٦٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٧٦ — ١٠٨١
المنذر بن هود ٤٧٤ — ٤٨٣ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانيــة

مملكة بلنســية

الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ — ٤٠٨ هـ : ١٠٠٩ — ١٠١٧ م
لبيب العامرى ٤٠٨ — ٤١١ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢١ م
عبد العزيز المنصور ٤١١ — ٤٥٢ هـ : ١٠٢١ — ١٠٦١ م
عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ — ٤٥٧ هـ : ١٠٦١ — ١٠٦٥ م

المأمون بن ذى النون يستولى على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م
عثمان بن أبى بكر ٤٧٨ — ٠٠٠ هـ : ١٠٨٥ — ٠٠٠ م
القادر بن ذى النون ٤٧٨ — ٤٨٥ هـ : ١٠٨٥ — ١٠٩٢ م
القاضى ابن جحّاف ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ : ١٠٩٢ — ١٠٩٤ م
السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٣ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية

إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رزين ٤٠٣ — ٤٣٦ هـ : ١٠١٢ — ١٠٤٥ م
عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ : ١٠٤٦ — ١١٠٣ م
يحيى حسام الدولة ٤٩٦ — ٤٩٧ هـ : ١١٠٣ — ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق

إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم ٤٠٠ — ٤٣١ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة ٤٣١ — ٤٣٤ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ — ٤٤٠ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ — ٤٩٥ هـ : ١٠٤٨ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على ألبونت

مملكة سرقسطة

١ — المنذر بن يحيى التجيبى ٤٠٨ — ٤١٤ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢٣ م
يحيى بن المنذر المظفر ٤١٤ — ٤٢٠ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م
المنذر بن يحيى معز الدولة ٤٢٠ — ٤٣٠ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م
٢ — سليمان بن هود المستعين ٤٣١ — ٤٣٨ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٤٦ — ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤتمن ٤٧٤ — ٤٧٨ هـ : ١٠٨١ — ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ : ١٠٨٥ — ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ — ٠٠٠ هـ : ١١١٠ — ٠٠٠ م

المرابطون يستولون على سرقسطة

ثبت المراجــــع

– ١ –

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق) .
تاريخ ابن الأثير (الطبعه الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
نهاية الأرب للنويرى . (القسم التاريخى ، ومعظمه لا يزال مخطوطا) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (الطبعة الأهلية ١٣٠٢هـ)
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الثانى المنشور بعناية العلامة دوزى (١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال (باريس ١٩٣٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه فى موسوعة دوزى عن بنى عباد Hist. Abbad. ، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة١٩٥٥)
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعى (ضمن المكتبة الأندلسية) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى (ضمن المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٥) .
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المنشور بعناية العلامة دوزى ليدن ١٨٤٧) . والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
(وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤) فى مجلدين
جذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (القاهرة) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة١٣٣٢هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبسالة١٨٤٣) .
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥) .
كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .
نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبدالله عنان (الطبعة الثانية ١٩٥٨) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .
طوق الحمامة لابن حزم (طبع دمشق ١٣٤٩ هـ) .
رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشورة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى عدد ديسمبر ١٩٥١) .
الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى ، والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) .
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) .
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٩٠٦) .
كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى (طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ) .
رسالة ابن عبدون فى الحسبة (المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال طبع معهد الآثار الفرنسى بالقاهرة) .
كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق مياس بييكروسا والأستاذ محمد عزيمان (تطوان سنة ١٩٥٥) .

مصادر مخطوطة

ابن حيان : السفر الثانى من كتاب « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » . قطعة مخطوطة ، محفوظة فى خزانة جامع القرويين بفاس .

أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القروين بفاس .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، الجزء الكبير المخطوط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الحلة السيراء لابن الأبار ، النسخة الكاملة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٤ الغزيرى .

إعتاب الكتاب لابن الأبار ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٣١ الغزيرى .

المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ الغزيرى ، وبها عدة رسائل مرابطية هامة .

المجموعة المخطوطة المسماة « رسائل تاريخية وأدبية » المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٥٣٨ الغزيرى .

تحفة العروس لأبى عبد الله التيجانى الأندلسى المالكى ، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال رقم ٥٩٩ الغزيرى .

— ٢ —

R. Dozy : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum) (Leiden 1848—1852, 3 vol.).

„ „ : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 3 ème Ed.).

„ „ : Le Cid d'après de nouveaux documents.

„ „ : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquète des Almoravides (Leiden 1932).

R.A. Nykl : Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provençal Troubadours (Baltimore 1946).

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid, 1955).

Padre Enrique Florez : Espana Sagrada (Madrid, 1797-1886).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid, 1861).

Estudios de Erudición Oriental. Homenaje a F. Codera.
F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza, 1899).
Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid, 1926).
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid, 1947).
" " " : Origenes del Espanol.
M. Caspar Rimero : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza, 1905).
A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901).
Is. de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid, 1949).
J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos (Madrid, 1928).
A. Asin Palacios : Abenhazm de Córdoba y su historia de las ideas religiosas.
A. Campaner y Fuentes : Bosequejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares (Palma, 1868).
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana (Cuarta Ed).
" " " Influencia de la Civilizacion Arabe (Madrid 1931).
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868).
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
J. Aschbach : Geschichte Spaniens zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden (Frankfurt am Main 1833).
(وترجمته العربية لمحمد عبد الله عنان)
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

فهرست الشعر والشعراء

فهرست الموضوعات

صفحة

صفحة

الكتاب الرابع

دول الطوائف فى منطقة بلنسية

الكتاب الخامس

دول الطوائف فى الثغر الأعلى

الكتاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطى

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال القرن الحادى عشر الميلادى

صفحة

فهرست الخرائط

فهرست الكتب والرسائل

فهرست القبائل والطوائف والدول

أ — ب

ج — ز

س — ك

فهرست البلدان والأماكن

ـ أ ـ

ب — ث

ج — ز

س — غ

ف — ق — ك

فهرست الأعـــلام

— أ —

ب — ث

ج — ز

س — ط

ع — غ

ف — ق — ك

ل — م

المقرى شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

ن — ى

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٩/٥٢٩٤